

شرح
سيرة أبي عبد الله محمد بن عبد الله
التي هي حياة

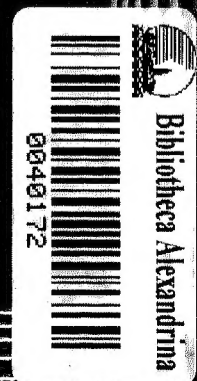
للإمام العلامة الشيخ إبراهيم الباجوري

نقشه وفتح أساديكه

عبد الكريم ستان
بازني للنشر والتوزيع دوار

مكتبة دار الكتب والوثائق
والمخطوطات في القاهرة

رئيسه وفتحهم
نقشه الأبي عبد الله محمد بن عبد الله



شرح جوهرة التوحيد

للامام العلامة الشيخ ابراهيم الباجوري

نسخه وخرج احاديثه

عبد الكريم تان
بجازني اللغة العربية وادوارها

محمد اريب الكيلاني
وعلوم في العربية والفلسفة

راجعته وقدم له
فضيلة الأستاذ عبد الكريم الرفاعي

مَقْرُونٌ بِطَبْعِ مَحْفُوظَةٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد : فإني لما أطلعت على كتاب (شرح جوهر التوحيد) الذي اختصر من حاشية الباجوري على جوهر التوحيد رأيت فيه اختصاراً ووضوحاً كما رأيت فيه حسن تصنيفه وقربه للأفهام . ونرجو الله سبحانه أن يحفه بتمام الاخلاص وأن ينفع قارئه ومقرئه والناظر فيه وأن يكون حفظاً منيعاً للعقيدة في نفوس الناشئة يفهمون فيه مبادئ العقيدة الاسلامية . ويصلون به إلى أصولها ويتلمسون السلوك الفكري الذي يطابق الكتاب والسنة .. جعله الله مقبولاً ومنتفعاً به

والحمد لله رب العالمين

دمشق في ١٦ شعبان سنة ١٣٩١ هـ

عبد الكريم الرفاعي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، حمداً يوصلنا إلى حقيقة توحيده ، والشكر على إنعامه وإفضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النور المبين ، الداعي إلى توحيد الملك الخلاق والذي جاءنا بأتم مسكاهم الأخلاق وأزال الله بدموعه ظلمات الشرك وظلم الإنسان لأخيه ، وجمع الله عليه - بما منحه من التواضع وحسن السيرة - قلوب أصحابه وتابعيه ، ودعانا للإيمان بالله والرغبة فيه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، لتكون من الفائزين برضوانه وقربه في الدنيا والآخرة وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وبأخوانه المرسلين ، وجاهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمته ، رغبة في الآخرة بدخول جنته ، وسلم تسليماً .

أما بعد :

فإن رسوخ العقيدة الإسلامية في قلب المؤمن هي السعادة العظمى في الدنيا والآخرة ، لأنها مبنية على توحيد الخالق والإيمان به وبرسوله الذين جاءوا منقذين للبشر من أهوائهم وضلالاتهم .

هذا وإن من أجل فوائد علم التوحيد نفيه الشكوك والشبه وما

ذهب إليه علماء الطبيعة والفلاسفة ، وبذلك يعطي النفس راحة واطمئناناً
 في الحياة ولدينا من الأدلة والبراهين على ما جاء به الاسلام من صحة العقيدة
 بوحداية الله في ذاته وصفاته وأفعاله بما نراه من الاثار الكونية ونظامها
 البديع المتناسق ، الذي يدل على عظمة الخالق وقدرته ، فإن المتحقق
 بحقيقة التوحيد يدفعه تحقيقه إلى طاعة ربه وتقواه لأن التقوى هي سبب
 محبة الله لعبده فلا شك أن الله إذا أحبه يتولاه ويكأثره بعنايته كما جاء
 في الحديث « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته
 كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به إلى آخر الحديث ،
 وقال تعالى « ومن يتق الله يجعل له فرقاناً » يستبين به العبد طرق الهداية
 وسبل الرشاد وقال تعالى « ومن يتق الله يجعل له نوراً يشي به في الناس »
 ومن ثمرة نور التقوى التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود
 والايقان بما عند الله من الكرامة للموقنين ، وهل رأيت موقناً فاقداً لهذا
 النور؟ وقال ابن عطاء الله « إذا أشرق عليك نور اليقين رأيت الآخرة
 أقرب إليك من أن ترحل إليها ، ولا يحصل الإيقان الا باطلاق عنان
 العقل في هذا الملك والملوك وصحبة أهل التقوى واليقين ، فان البيئة
 ليست ألا مبهمة ومطهرة للقلب من الأرباء والشهوات وتحت ظلال التمجيس
 والتطهير يتربى الإيمان ويتبرع ويثمر اليقين الذي لا يمكن أن يحل في
 هذا القلب مع وجود الشكوك والشهوات ، ولا شيء أحرق للشهوات
 من الشوق والحزن إلى الله تعالى والحرف منه كما جاء في الحكم العطائية
 « لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق ، ولا خوف
 ولا شوق ولا حزن إلا بالمعرفة الصحيحة التي تنفتح بها البصيرة على الله

ويسقط كل حجاب ويغدو الكون مظهراً لتجلي أسماء الله تعالى وصفاته .
 المعرفة التي تشهد معنى قوله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه » ، وتُشهد
 أيضاً أن « الله نور السموات والأرض » ، وأنه « الحي القيوم » .
 المعرفة التي عناها ابن عطاء الله حيث قال « الكون كله ظلمة وإنما أناره
 ظهور الحق فيه » ، فمن رأى الكون ولم يشهده عنده أو قبله أو
 بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شمس المعارف بسحب
 الآثار ، المعرفة التي استنارت بالعزوف عن الذات وإسهار الليل وإظهار
 النهار وسقتها دموع الندامة على ما فات ، ودموع الشوق لما هو آت ،
 ورعتها بيثة هدر لسانها لذيد التسييع ، وأبين التوبة في محراب السحر
 حتى تُلألت أنوار التوبة على التائبين والعطاء للسائلين والإجابة للداعين مع
 ثمرات القبول .

ولهلك تقول وهل في الوجود مثل هذه البيثة التي ذكرتها ؟ نعم
 فإن طائفة الحق ظاهرة حتى الساعة ، فإن لم تعثر عليها فكن أنت أول
 وافد على الله ، مقبل عليه لائئد بجانبه وسيفقو إثرك ثان وثالث . . .
 حتى يجمع الله القلوب على توحيده وما ذلك على الله بعزيز .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا بحث العقيدة بحثاً فكرياً وأثبتها إثباتاً
 اعتمد على النقل والعقل ، وقد بذل ما في الوسع لإخراجه كتاباً مبسطاً
 سهلاً يستطيع المسلم به تعلم أمور العقيدة فيخرج من التقليد في الإيمان
 ويستطيع أن يرد ما يعترضه من شبهات تلقى من شياطين الأنس والجن .
 وقد بسطنا البحث في بعض مسائل الكتاب لشدة خطرها وعظيم
 شأنها وذكرنا الأحاديث مسندة إلى مخرجها والآيات مرفقة ، واعتمدنا في

شرحنا على شرح شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم الباجوري رحمه الله تعالى
فعدفنا ما فيه من لغة ونحو وبلاغة ، وأضفنا إليه ما وجدناه مناسباً
للبحث من كتب أخرى أشرنا إليها في أماكنها .

وقد تكرم فضيلة الشيخ عبد الكريم الرفاعي حفظه الله تعالى - على
قلة فراغه وكثرة أعماله بمراجعة الكتاب والتقديم له مما يجعلنا مطمئنين
ألى أنه بات خالياً من الأوساب والأخطاء ، ولئن ظهر - بعد كل
هذا - خطأ غير متعمد فقد أبى الله أن يعصم منه إلا كتابه الكريم .
وختاماً نسأله سبحانه وتعالى أن يكملنا بحفظه ورعايته ويرعانا من
مضلات الفتن ومدلهماتنا . وأن ينفعنا بما علمنا إنه سميع قريب مجيب .
والحمد لله رب العالمين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

● وأبتدأ المؤلف بالبسملة اقتداءً بالكتاب العزيز ، ولقوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَتَمُّ» (١)

أي ناقصٌ وقليلُ البركة ، فهو وإن تم حساً فلا يتم معنى ، والأمر ذو البال هو ما يهتَم به شرعاً شريطة ألا يكون من سفاسف الأمور (كلبس النعل والبصاق وهلم جرا) وألا يكون محرماً لذاته (كالسرقة والزنا) ولا مكروهاً لذاته ، ولا ذكراً محضاً (كالليلة والحمد لله والحققة) ولا بما جعل له الشارعُ مبدأً غيرَ البسملة (كالصلاة فإن مفتاحها التكبير) فتحرم التسمية في المَعْرُوم لذاته وتكرره في المكروه ، ولا تسنُّ في السفاسف ولا في الذكر المحض أما غيرُ المحض (كتلاوة القرآن الكريم) فتسنُّ ، لاشتمال القرآن على التشريع الناطم لشؤون الحياة في كافة ميادينها ، وغيره ، وأما غيرُ المحرَّم لذاته (كالوضوء بماهٍ مغضوب) فلا تحرم ، وغيرُ المكروه لذاته (كأكل البصل) فلا تكره .

«١» في فيض القدير ج ٥ ص ١٣ برقم ٦٢٨٤ وفي عجزه روايات «أبتر أو أقطع أو أجزم وكلها بمعنى واحد دال على النقصان وقلة البركة ، رواه أبو هريرة .

● واعلم أنَّ الابتداء على ضربين : حقيقي : وهو الابتداء بالشيء أمام المقصود بحيث لا يتقدم على ذلك الشيء شيء ما ، وإضافي : وهو الابتداء بالشيء أمام المقصود سواء تقدم على ذلك الشيء شيء آخر غير المقصود أم لم يتقدم ، وحُملتِ البسملةُ على الابتداء الحقيقي كما حُملت الحمدلةُ في حديثه ﷺ

« كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهَوَ أَبْتَرُ » (١)

على الإضافي ، لذا قال الناظم بعد أنْ منتهى : « الحمد لله على صلواته ، واستند في حمله هذا على القرآن الكريم ، لأنه ابتداء حقيقياً بالبسملة وإضافياً بالحمدلة .

● ولما كانت الباء (٢) من حروف المعاني اختلف العلماء في تحديد معناها ، فقليل هي المصاحبة على وجه التبرك ، ولا يسوغُ جعلها للاستعانة ، لأن الاستعانة إنما تكون بذات الله سبحانه وليس بأسمائه ، ولأن باء الاستعانة إنما تدخل على الآلة كما في « كتبتُ بالقلم » فيكون اسمُ الله مقصوداً لغيره ، وفيه سوء أدب ● وقيل : هي للاستعانة على وجه التبرك ، ورد القائلون بهذا على ماورد : بأنه لامانع من

« ١ » في فيض القدير ج ٥ ص ١٣ برقم ٦٢٨٣ وهو حديث حسن ، قاله النووي بعد سوجه هذا الحديث والذي قبله :
« ٢ » أصبح ما قبل في متعلق الباء أنه بقدر فعلاً لا إسماً ، لأن الأصل في العمل للأفعال ، ويقدر متأخراً لكي لا يتقدم على اسم الله تعالى شيء لا في اللفظ ولا في التقدير ، والتقدير هنا « بسم الله أولُ » أي أولُ مصاحباً أو مستعيناً باسم الله .

الاستعانة بالأسماء كما يستعان بالذات ، كيف وقد ورد في الحديث الشريف
(وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ) (١)

وأن معنى الاستعانة باسمه تعالى أن الأمر المشروع فيه لا يتم على وجهه
الأكمل ، إلا باسمه تعالى • والاسم هو مادل على مسمى ، فإن أريد
به مدلوله كان عين مسماه ، وهو مشتق إما من السمر ، لعلوه على
مسماه ، أو من السمة لكونه علامة على مسماه • والله^(٢) : علم على الذات
الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد ، وهو علم لا بالغلبة^(٣) ، واختار
الجمهور أنه اسم الله الأعظم ، وإنما تخلفت الإجابة عند الدعاء به من
بعض الناس لتخلف شروط الإجابة التي من أجلها أكل الحلال ، واختار
الذوي^(٤) أنه الحلي القيوم^(٥) .

«١» وهو قطعة من حديث رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس ، وقال :
عنه حديث حسن - صحيح .

«٢» ذكر ابن عابدين في حاشيته الشهيرة أنه لا ذكر عند العلماء لصاحب مقام
فوق الذكر بالاسم المفرد «الله» ، وذكر العلامة الحادمي نحوه ثم قال « وقال تعالى
لنبيه صلى الله عليه وسلم « قل الله ثم ذرم » .

«٣» العلم بالغلبة هو الاسم الغالب لبعض ما هو له في الأصل ، كغلبة انبئت للكعبة
والمدينة لطيفة .

«٤» عن أبي أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسم الله الأعظم الذي إذا دعي
به أجاب في ثلاث سور في القرآن ، في البقرة ، وآل عمران ، وطه . كنز العمال
ص ٥١ : ج ١ .

● الرحمن الرحيم : صفتان مشبهتان اشتُقتا من الرحمة ، لابعناها الأصلي الذي هو : رِقَّةٌ في القلب تقتضي التفضل والإحسان ، لاستعالة ذلك في حقه سبحانه ، وإنما بمعنى الإحسان أو إرادته^(١) ، فهي بمعنى المحسن أو مريد الإحسان ، لكن « الرحمن » ، بمعنى المحسن بجلال النعم « والرحيم » ، بمعنى المحسن بدقائقها ، وإنما جمع بينهما إشارة إلى أنه لا ينبغي أن تُطلب النعم إلا منه تعالى ، سواء كانت بسيطة أو عظيمة ، فكلاهما منه وحده . ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون الله كل شيء حتى شرك النمل .

«١» الإحسان صفة الفعل ، وهي عبارة عن تعلق القدرة التنجيزي الحادث وإرادته صفة ذات .

١- الحمد لله على صلاته ثمّ سلام الله مع صلاته

● الحمد لله : الحمد لغة : وهو الثناء بالكلام على الجليل الاختياري على جهة التعظيم والتبجيل ، سواء كان في مقابلة نعمة أم لا ● والمدح لغة : هو الوصف بالجميل على الجليل مطلقاً ، لا فرق في كونه اختياريّاً أو اضطراريّاً ، ولا فرق في كون المدوح من ذوي العلم أو لا ، كما في مدح الجوهرة لصفاء لونها ، ولا فرق في كونه في مقابلة نعمة أو لا ● والشكر لغة : هو فعلٌ يُنبئ عن تعظيم المُنعِم من حيث كونه مُنعِماً على الشاكر أو غيره سواء كان ذلك قولاً أو اعتقاداً أو عملاً بالجوارح ، فهو أعم من سابقه لكونها لا يتعديان الكلام ، وهو قولٌ وفعل واعتقاد ، وأخص من سابقه بأنه لا يكون إلا مقابلة نعمة من المشكور ، سواء أعادت على الشاكر أو على غيره ، وهما يكونان في نعمة وغيرها .

● والثناء لغة : هو فعلٌ ما يشعر بتعظيم المُثنى عليه ، ولم يشترط فيه كونه في مقابلة نعمة ، فهو أعمّ الجَميع .

● وقد استُمرّر أن الحمد عرفاً : هو نفسُ الشكر لغةً ، والشكر عرفاً هو : د صرفُ العبدِ جميعَ ما أنعمَ الله عليه به فيما خُلِق من أجله ، ● والحمد إما أن يكون قديماً ، كحمده تعالى نفسه أو حمده تعالى رسله وعباده الصالحين ، أو يكون حادثاً ، كحمدنا لله سبحانه أو حمد بعضنا لبعض ● وأل في الحمد إما للاستغراق ^(١) ، أو للجنس أو

«١» أل الجنسية إما لاستغراق الأفراد جنساً أو لاستغراقهم من جهة الخصائص ولو في واحدة ، وإما لتعريف الماهية . فالأول كقوله تعالى « وخلق الإنسان ضعيفاً » -

العهد . واللام في الله إما للاستحقاق ^(١) أو للاختصاص ، ويجوز للملك .
إن لم نجعل آل عهذية ، لئلا يتوَّجَّه تملك الحمد القديم ، وهو لا يملك ،
فإن جعلنا المعهود حمد من يعتد بحمده ساغ .

● على صلّاته : الصلّات جمع صلة ، وهي العطية ، والحمد على
الصلّات إما بمعنى العطايا فيكون حمداً على الصفة بواسطة ، أو بمعنى
الاعطاء ، وهو أدنى ، لأنه حمد على الصفة بلا واسطة .

ثم سلام الله : أي تحيته اللائقة به ﷺ بحسب ما عنده تعالى كما تشعر به
إضافته له تعالى ، فالمطلوب تحية عظمى بلغت الدرجة القصوى وتكون
أعظم التحيات لأنه ﷺ أعظم المخلوقات ● والمراد بالتحية أن يسمعه كلامه
القديم الدال على رفعة مقامه العظيم . ولم يرتض بعضهم تفسير السلام بالأمان ،
لأنه ربما أشعر بظنة الخوف مع أن أتباعه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .
نعم يخاف ﷺ لكنه خوف مهابة وإجلال لذلك قال :

— والثاني كقوله تعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه » فقد نزل غيره منزلة العدم ، والثالث
كقوله تعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . وأل العهدية إما أن يكون مصحوباً
بمعهوداً ذكرياً كقوله تعالى « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة »
أو معهوداً ذهنياً كقوله تعالى « إذ هما في الغار » فلفظ الغار لم يذكر من قبل .

« ١ » لام الاستحقاق هي الواقعة بين معنى وذات كقوله تعالى « والله العزة » أو
« والأمر يومئذ لله » ولام الاختصاص هي الواقعة بين ذاتين لا تلك إحداها الأخرى :
نحو « السرج للدابة » أو الحصير للمسجد ، ولام الملك هي الواقعة بين ذاتين تقبل إحداها
التعليك ، كقوله تعالى « له ما في السموات وما في الأرض » .

« إني لأخوفكم من الله ، »^(١) .

• مع صلاته^(٢) أي رحمته المبرورة بالتعظيم ، وهذا هو اللائق بالمقام ، وقيل : هي مطلق الرحمة سواء قوتت بالتعظيم أم لم تقوت ، وهذا بيان للصلاة مع قطع النظر عن المقام .

• وفسر الجمهور الصلاة « بأنها من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن غيرهم - ولو حجراً أو مدراً أو شجراً - التضرع والدعاء ، فقد ورد أنها صلت عليه ﷺ مع أن المشهور سلامها فقط ، وإن شئت قلت : هي من الله الرحمة ومن غيره الدعاء .

• واختلاف العلماء في انتفاعه ﷺ بصلاتنا عليه ، فقيل : ينتفع كباقي الأنبياء ، لكن لا ينبغي التصريح بذلك إلا في مقام التعليم ، وقيل : المنفعة تعود للمصلي ، لأنه ﷺ أفوتت عليه جميع الكلمات ، ورد بأنه ما من كمال إلا وعند الله أكل منه .

« ١ » وفي البخاري عن عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرم أمرم من الأعمال بما يطيقون ، قالوا : إننا لنأكل كميأكلك يا رسول الله إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول : إن أنفاسكم وأعلىكم بالله أنا . وعن أبي « أنا أعرفكم بالله . كشف الخفاء ص ٦٠٧ ج ١ وعن أنس « أنا والله إني لأخشاكم لله وأنفاسكم له ، لكنني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فن رغب عن سني فليس مني » هداية الباري ص ١٢٧ ح ١ .

« ٢ » إنما قدم السلام على الصلاة خلافاً لعرف الاستعمال لضرورة النظم . وقد أشار إلى مقام الصلاة بإدخال « مع » عليها ، وهي تدخل على المتبوع دون التابع ، تقول حضر الوزير مع السلطان .

والكمال يقبل الزيادة في الكمال • وغايه الأمر أنه لا ينبغي للمصلي أن يلاحظ انتفاعه بالتلوة بل نلاحظ أنه يتقرب بالصلاة إلى الله تعالى .
• ملاحظة : قال النووي : يستحب الحمد في ابتداء الكتب المصنفة ودرس المدرسين وقراءة الطالبين بين يدي معلمهم ، وأحسن العبارات « الحمد لله رب العالمين »

• فائدة : إن إثبات الصلاة والسلام في صدر الكتب والرسائل حدث في ولاية بني هاشم ، ثم مضى العمل على استحبابه ، ومن العلماء من يختم بها كتابه .

٣- على نبي جاء بالتوحيد وقد خلا الدين عن التوحيد

● على نبي : (١)

النبي مشتق من النبا أي الخبر ، فهو بمعنى مخبر عن الله إن كان مع نبوته رسولا ، أو مخبر عن حال نفسه إن لم يكن رسولا ليحتمه الناس وفي كلا الحالين ينزل عليه ملك الوحي يخبره عن الله تعالى ، فعلى هذا هو مخبر أما لو قلنا : إنه مشتق من النبوة أي الارتفاع ، فبمعنى رافع ومرفوع ، لأنه رافع لشأن من اتبعه على غيره من لم يتبعه ، قال تعالى :

«وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا» (٢)

ولأنه مرفوع المنزلة .

● وقد عبر المصنف بلفظ النبي ولم يعبر بالرسول الآية الكريمة :

«إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» (٣)

وإشارة إلى أنه ﷺ يستحق الصلاة والسلام بعنوان النبوة التي هي أعم من الرسالة ، فيكون مستحقا لها بعنوان الرسالة من باب أولى ، فإن الرسالة حيث وجدت وجدت النبوة ، ولا عكس ● وعرفوا النبي بأنه : إنسان ذكر ، حر ، سليم عن منفر طبعاً ، أوحى إليه بشرع يعمل به ، وإن لم يؤمر بتبليغه ، والرسول يعرف بهذا إلا أننا نقول : وأوحى إليه بشرع يعمل به وأمر بتبليغه .

● وبناء على التعريف السالف يخرج الجن والملائكة وبقية الحيوانات

والإناث ، وكفر من قال : إن معنى قوله تعالى :

«١» الجار والمجرور متعلقان بخبر محذوف المبتدأ في البيت السابق والتقدير الصلاة

والسلام كائنات علي نبي .

«٢» آل عمران ٥٥ .

«٣» الأحزاب ٥٦ .

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »^(١)

أث في كل جماعة من الحيوانات رسولا • والقول بنبوة موسى وآسية وحواء وأم موسى وهاجر وسارة مرجوح ، قال صاحب « بدء الأمالي » وما كانت نبيا قط أنى • ولقمان لم يكن نبيا بل تلميذ الأنبياء • ومن كان فيه منفر كعمى وبرص وجذام فلا يكون نبيا ولا رسولا ، وأما بله أيوب وعمى يعقوب فهما أمران ظاهران ، أو أنها حصلت بعد تقرر النبوة ، والكلام فيما قارنها • وأما قوله تعالى :

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ »^(٢)

فمعناه ألم يأتكم رسل من بعضكم أي الإنس ، وأما قوله تعالى :

« اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا »^(٣)

فمعناه يصطفي سفراء بينه وبين أنبيائه ليلغوم عنه سبحانه شرائعه وأحكامه • وقد اختلف في عدد الأنبياء والرسل فقل : مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ، وثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا ، لكن الأسلم أن يحسب عن ذلك ، لقوله تعالى لنبيه ﷺ :

« مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ »^(٤)

• جاء بالتوحيد : المراد بالجميء الإرسال ، والمراد بالنبي المرسل نبينا ﷺ ، والجملة المخصصة بأن نبينا هو المراد قوله : « وقد خلا الدين عن التوحيد » لأنه لم يأت نبي بالتوحيد في حال خلو الدين عنه إلا هو

«١» فاطر ٣٤ .

«٢» الأنعام ١٣٠ .

«٣» الحج ٧٥ .

«٤» غافر ٧٨ .

ﷺ • وقد أرسله الله تعالى على رأس الأربعين سنة إلى جميع المكلفين من الانس والجن ، أما الملائكة فقد أرسل إليهم لإرسال تشریف ، لأن طاعتهم جبليّة لا يكلفون بها ، هذا ما اعتمده الرمي في شرح المنهاج • وكونه ﷺ مرسلًا لكافة الانس والجن مجمع عليه ، ومعلوم من الدين بالضرورة ، فيكفر منكروه • والتعبير برأس الأربعين يفيد أنه بعث عند استكمالها من غير زيادة ولا نقصان ، وهو الصحيح الذي عليه الجمهور . والصحيح أن نبوته ورسالته ﷺ مقترنتان • وإنما كان الارسال على رأس الأربعين لأنه العادة المستمرة في معظم الأنبياء ، أو جميعهم ، كما جزم به كثيرون ، منهم شيخ الاسلام في حواشي البيضاوي . وإنما استدلوا بالعادة المستمرة ، ولم يستدلوا بحديث :

« ما نُبِئَ نَبِيٌّ إِلَّا عَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً »^(١) .

لعد ابن الجوزي له في الموضوعات . وذكر العلامة الشيخ الأمير والعلامة الشيخ الشنواني : أن الحق هو أن هذا السن غالب فقط في النبوة ، وإلا فقد نبى عيسى ورفع إلى السماء وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة ، ونبي يحيى صبياً ، بناء على أن الحكم الذي أوتيّه صبياً هو النبوة . لكن ذكر في حواشي التفسير نقلاً عن المواهب : أن هذا خلاف التحقيق ،

«١» جزم ابن الجوزي بوضعه ، وقال القاري وبعارضه قوله تعالى في يحيى : « وآتيناه الحكم صبياً » وفي يوسف وأوحينا إليه . لتبينهم بأمرم هذا « ولو ثبت . يحمل على الغالب . انظر كشف الخفاء ص ٢٧١ ج ٢ رقم ٢٢٤٨ .

وقالوا : الصحيح أن عيسى ما رفع إلا بعد مضي ثمانين سنة من النبوة ، وبعد نزوله من السماء يعيش أربعين سنة ^(١) .

• أما قوله تعالى عن يحيى :

« وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » ^(٢) .

فالمراد بالحكم العلم والمعرفة لا النبوة ، وأما قوله عن عيسى :

« آتَانِي الْكِتَابَ وَجْعَلْنِي نَبِيًّا » ^(٣) .

فمعنى جعلني : سيجعلني ، ومعنى آتاني : سيؤتيني ، كما في قوله تعالى :
« أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » ^(٤) .

بمعنى سيأتي • وقد أرسل النبي ﷺ بطلب التوحيد . والتوحيد لغة هو العلم بأن الشيء واحد وشرعاً هو لإفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتاً وصفات وأفعالاً فليس ثمة ذات تشبه ذاته تعالى ، إذ لا تقبل ذاته الانقسام لا فعلاً ولا وهماً ولا فرضاً مطابقاً للواقع ، ولا تشبه صفاته الصفات ، ولا تعدد فيها من جنس واحد بأن يكون له تعالى قدرتان أو علمان مثلاً .

« ٢ » روى أبو نعيم عن زيد بن أرقم « ما بعث الله نبياً إلا عاش نصف ما عاش النبي قبله ، قال العجلوني : وسنده حسن لا اعتضاده . وأخرج الطبراني في الكبير بسند رجاله ثقات عن فاطمة بنت الحسين بن علي أن عائشة كانت تقول إن رسول الله قال في مرضه الذي قبض فيه لفاطمة : إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل عام مرة ، وأنه عارضني بالقرآن العام مرتين إلى أن قال : وأخبرني أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة ولا أراي إلا ذاهباً على رأس الستين . فبكيت » انظر كشف الخفاء ص ٢٥٥ ج ١ برقم ٢١٩٢ .

« ٢ » مريم ١٢ • « ٣ » مريم ٣٠ • « ٤ » نحل ١ .

ولا يدخل في أفعاله الاشتراك ، إذ لا فعل لغيره سبحانه خلاقاً
أو إيجاداً ، وإن نسب إلى غيره كسباً واكتساباً • وقيل : التوحيد
هو إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات • وخص
الناظم التوحيد بالذكر - مع أنه ﷺ أتى بنظام شامل للحياة
كلها - لأنه أشرف العبادات ويليه الصلاة • وله تعريف شرعي بأنه
علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية من أدلتها اليقينية • وموضوعه
ذات الله تعالى من حيث ما يجب له وما يستحيل عليه وما يجوز في حقه
وذات الرسل كذلك ، والممكنات من حيث إنه يتوصل بها إلى وجود
صانعها ، والسمعيات من حيث اعتقادها • وثمرته معرفة الله تعالى بالبراهين
القطعية والفوز بالسعادة الأبدية • وفضله أنه أشرف العلوم لكونه متعلقاً
بذات الله تعالى وذوات رسله فهو أصل لما سواه ، والذي حرر أدلته
وألف كتبه ورد الشبه عنه أبو الحسن الأشعري ومن تبعه وأبو منصور
المازني ومن تبعه . وقد أتى بالتوحيد كل نبي من لدن آدم عليه الصلاة
والسلام • وسمي علم التوحيد لأن مبحث الوحدانية أشهر مباحثه ، ويسمى
علم الكلام أيضاً • واستمد من الأدلة العقلية والنقلية • وأما حكم الشارع
فيه فالوجوب العيني على كل مكلف من ذكر أو أنثى • وأما مسائله فهي
قضاياها الباحثة عن الواجبات والجائزات والمستحيلات .

• وعبارته « قد خلا الدين عن التوحيد » : تقتضي أن ما عليه عبدة الأصنام
يسمى ديناً ، وهو كذلك ، لأن الدين ما يتدين به ، ولو باطلا . كما
يدل له قوله تعالى :

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ،^(١)

● وبطلق الدين لغة على عادة معان منها : الطاعة ، والعبادة ، والجزاء
والحساب ، واصطلاحاً : هو ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه من
الأحكام ● وسمي ديناً : لأننا ندين له وننقاد ، وملة : من حيث إن الملك
عليه على الرسول وهو عليه علينا ، وشرعاً وشرعة : من حيث إن الله قد
شرعه لنا أي بينه على لسان نبيه ، فالفه تعالى هو الشاوع حقيقة في كل
ما ياتينا به النبي ، ولما كان القرآن الكريم منزلاً على النبي ﷺ كان
النبي طريقاً في البيان فأُسند إليه الشرع بمعنى تبين الأحكام »^(٢) .

● والأحكام الفقهية الاجتماعية : من الدين قطعاً ، وهي موضوع
لهي غاية الأمر أنه يخفى علينا ، والمجتهدون يعانون إظهارها والاستدلال
عليها بقواعد الشرع ، ولا دخل لهم في وضعها ألبتة .

(١) آل عمران ٨٥ .

(٢) من قرارات الأجهوري بتصرف ص ١٠ .

٣- فَأَرشَدَ الْخَلْقَ لِدِينِ الْحَقِّ بِسَيْفِهِ وَهَدِيَهُ لِلْحَقِّ

● فأرشد الخلق : أي جاء. بالتوحيد فأرشد الخلق بسيفه ، ويقضي أنه أرشد بالسيف عقب الإرسال ، لأن الفاء تقتضي التعقيب مع أنه لم يشرع الجهاد إلا في صفر من السنة الثانية للهجرة ، كما نبه عليه في السيرة الحلبية . وأجيب بأن التعقيب في كل شيء بحسبه ، تقول : جاء فسلم ، وتزوج فولد له ولد ، أو يجاب بأن الفاء بمعنى ثم أي تقيده الترتيب والتراخي كقوله تعالى :

« وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ » (١)

● ومضى الإرشاد إما تصييرهم راشدين ، فيكون خاصاً بمن آمن ، أو بمعنى الدلالة لهم على الهداية ، فيكون عاماً بمن آمن ومن لم يؤمن . والخلق : جميع الثقلين الانس والجن إجماعاً ، وكذا الملائكة بناء على أنه موصول إليهم إرسال تكليف خلافاً للراجع من أنه إرسال تشريف . ● وإنما استقام العموم في الخلق مع أنه ﷺ لم يرشد من لم يجتمع به لكون الإرشاد أم من أن يكون بنفسه أو بواسطة ، كمن جاء بعده أو كان في زمنه ولم يجتمع به ، وقد قال ﷺ

« لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ قَرُبًا مُبْلَغًا أَوْ نَحْيًا مِنْ سَامِعٍ » (٢)

(١) سورة الأعلى ٤ - ٥ .

(٢) رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود ج ٧ برقم ٣٦٥٩ وج ٣ .
برقم ٨٠٩ .

● **الدين الحق** : الخلق هنا : هو اسم الله تعالى ، ومعناه المتحقق وجوده دائماً وأبداً بحيث لا يشبهه عدم ولا يلحقه عدم .

● **بسيفه** ^(١) : السيف هو آلة الجهاد التي يباح قتال الحربيين بها حتى الحجارة ، فقد رمى ﷺ بالحجر يوم أحد . وقد كان له سيوف متعددة ، منها الماثورة ، وهو أول سيف ملكه إذ ورثه عن أبيه ، ومنها القضيبي ، وذو الفقار ، وقد دفع لعكاشة جزل حطب حين انكسر سيفه يوم بدر ، وقال : اضرب به ، فعاد في يده سيفاً صارماً طويلاً أبيض شديد المتن فقاتل به ^(٢) ● والمراد بالسيف هنا السيف الذي جاء بشروعية مقاتلة أعداء الله ، سواء كان بيده ، أو بيد من تبعه ، ولو إلى يوم القيامة . وقد أرشد النبي الخلق لدين الله حال كونه متلبساً بسيفه ، لأن الارشاد والدلالة ليسا بالسيف قطعاً بل باللسان .

● **وهديه للحق** : حمل بعضهم الهدي على القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فقد كان ﷺ يرسل الناس أولاً بالقرآن والدعوة للإسلام ،

(١) الجار والمجرور متعلقان بحال محذوفة من فاعل أرشد ، والتقدير أرشد الخلق حال كونه متلبساً بسيفه .

(٢) قال ابن إسحق وقاتل عكاشة بن محصن الأسدي يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده فأثنى رسول الله فأعطاه جزلاً من حطب فقال له قاتل به ، ففزه فعاد في يده سيفاً طويلاً القامة شديد المتن أبيض الحديد فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين ، وكان يسمى ذلك السيف العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قتل « عن الأنوار الحمديّة »

فإن أجابوا للإسلام فظاهر ، وإلا أعلمهم بالنبؤ للجهاد . وهكذا خلفاؤه وأصحابه من بعده • وقد قدم الناظم للسير على الهدي مع أن الهدي سابق على الجهاد - بل لم يتوان الرسول ﷺ لحظة واحدة عن أن يبلغ منذ ابتعثه الله سبحانه - لأن للجهاد أهمية عظمى ، ولأن ما جاء به لا يظهر إلا بالجهاد خصوصاً في مبدأ دعوته (١) .

(١) عن ابن عمر قال صلى الله عليه وسلم : « بني الإسلام على خصال ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله ، والجهاد ما مضى منه بعث رسله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين يقاتلون الدجال لا يلقضهم جور من جبار ولا عدل من عدل وأهل لا إله إلا الله فلا تكفروهم بذنب ، ولا تشهدوا عليهم بشرك والقدر خير من شره من الله تعالى » كنز العمال ص ٢٩ جزء أول الحديث رقم ٣٠ .

٤- محمد العاقب للرسل ربه وآله وصحبه وحزبه

● محمد : علم منقول من اسم مفعول المضعف ، (حمد) فهو أبليغ من محمود ^(١) ، والرسول ﷺ أجل من حمد وأعظم من حمد . وهذا الاسم أشرف أسمائه ، وهي توقيفية باتفاق ، أما أسماءه تعالى ففيها خلاف ، والراجح أنها توقيفية ، والحكمة في ذلك أنه ﷺ بشر فرجاً تسوّل في شأنه فأطلق عليه مالا يليق ، فسدت الذريعة باتفاق ، وأما مقام الألوّهية فلا يتجاسر عليه أحد ، فلذلك قيل بعدم التوقيف ● والمسمى له ﷺ بذلك الاسم جده على الصحيح ، وقيل : أمه ، وجمع بأنها أشارت عليه بالتسمية بسبب ماراته من أن شخصاً يقول لها : فاذا ولدته فسميه محمداً ^(٢) فلما أخبرته بذلك سماه محمداً رجاء أن يحمد في السماء والأرض ، وقد حقق الله تعالى رجاءه كما سبق في علمه تعالى ● والمسمى له به حقيقة هو الله تعالى لأنه أظهر اسمه قبل ولادته في الكتب السماوية ، فهو بتوقيف شرعي . قال تعالى على لسان السيد المسيح :

« وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » ^(٣)

(١) محمود مشتق من حمد ، ولا يخفى ما في صيغة حمد من المبالغة . وأحد يفيد المبالغة في الحامدية ومحمد يفيدها في الحمدوية .
(٢) لم يسم بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة طمع أباًؤم حين سمعوا بذكر رسول قرب زمانه أن يكون ولدأهم . وفي السيرة الحلبية ص ٨٧ ج ١ بحث مستفيض حول تسميته ، وفي تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦ ج ١ ذكر الهوائف التي سمعها أمه وهي به حامل « إنا قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فعولي أعينّه ولو اسعد من شر كل حاسد ! ثم سبه محمداً » .

(٣) سورة الصف ٦

● العاقب (١) : انما كان عليه السلام العاقب لرسول ربه ليكون شرعه فاسخاً لشرائع التي قبله ، ولأنه الثمرة العظمى ، إذ هو المقصود من هذا العالم ، والثمرة في الأشياء لاتأتي إلا آخرها ، ولا ينافي نزول السيد المسيح في آخر الزمن ، لانه سيحكم بالاسلام (٢) .

● وكما أنه خاتم للرسول هو خاتم للأنبياء ، وقد اقتصر المصنف على ذكر الرسل دون الأنبياء وهو يريد العاقب لرسول ربه وأنبيائه على حد قوله تعالى :

« سَرَايِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ » (٣)

(١) قال صلى الله وسلم : إن لي أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي محاه الله بي الكفر وأنا الحائر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب . في الشرائع ص ١٩٦ والترمذي برقم ٢٨٤٢ .

(٢) عن أبي هريرة أن النبي قال : ليس بيني وبينه في (يعني عيسى) ، وأنه فازل فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، بين خصرين ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الاسلام ، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويهلك في الله في زمانه الممل إلا الاسلام ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصل على المسلمون « رواه أبو داود وابن أبي شيبة وأحمد وابن حبان وابن جرير ، وفي لفظ ابن جرير : (ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال) وفي آخره (فيصل على المسلمون ويدفنونه) وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري .

(٣) النحل ٨١ .

أي والبرد ، واقتصر على ذكر الرسل - مع أنه لا يلزم من ختم الأخص .
الذين هم الرسل ختم الأعم الذين هم الأنبياء - حملاً على قول السعد من
تساوي الرسول والنبي • وإنما اختار التعبير بالرسل لأنه أمدح : فإن
الرسالة أشرف من النبوة لجمعها بين الحق والخلق خلافاً للعز بن عبد السلام
في قوله : إن النبوة أفضل لأن فيها انصرافاً من الخلق إلى حضرة الحق ،
والرسالة فيها انصراف من حضرة الحق إلى الخلق ، ورد هذا التفضيل :
بأن الرسالة فيها الجمع بينهما .

• ربه : أي خالقه أو مالكه أو نحو ذلك من معاني الرب ^(١) .
• وآله : أي وسلام الله مع صلاته على آله . والآل له معان
باعتبار المقامات ، ففي الدعاء - كما هنا - كل مؤمن ولو عاصياً ، وفي
المدح كل مؤمن تقي أخذاً بما ورد :

(آل محمد كل تقي) ^(٢)

وإن كان ضعيفاً ، وأما : « أنا جدُّ كل تقي » . فلم يرد .
• وفي مقام الزكاة بنو هاشم وبنو المطلب عندنا معاشر الشافعية ،
وبنو هاشم فقط عند السادة المالكية والحنابلة ، ونخص الحنفية فوقاً خمساً

(١) في الصحاح « والرب اسم من أسماء الله تعالى ، ولا يقال في غيره » - إلا إن
أضيف أو جمع - خاصة إن عرف . وقال القرطبي معنى الرب : المالك
والسيد والمصلح والمدير والجابر والقائم والمعبود ، فعلى أنه مدير الخلق ومربيهم
يكون صفة فعل وعلى أنه مالكم وسيدم يكون صفة ذات . وقال الهروي :
يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه . وقال بعض العلماء إن هذا الاسم هو اسم
الله الأعظم لما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب .

(٢) في فيض القدير ص ٥٥ ج ١ عن أنس ، قال السخاوي : أسانيد كهاضعية .

«آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وآل الحارث» • والصلاة على غير الأنبياء والملائكة تبعاً جائزة اتفاقاً ، بل مطلوبة للنهي عن الصلاة البتراء ، وهي التي لم يذكر فيها الآل • أما الصلاة استقلالاً فقليل بمنعها ، وقيل بكراهتها ، وقيل بأنها خلاف الأولى والأصح الكراهة .

• وصحبه : خصهم مع دخولهم في الآل بالمعنى الأعم لمزيد الإهتمام .
والصاحب لغة : من طالت عشرتك به ، والمراد هنا الصحابي وهو : من اجتمع بيننا ﷺ مؤمناً به ، بعد البعثة ، في محل التعارف ، بأن يكون على وجه الأرض ، وإن لم يره ، أو لم يَرَوْهُ عنه شيئاً ، أو لم يميز علي الصحيح . وأما قولهم : « ومات على الاسلام » فهو شرط لدوام الصحبة ، لا لأصلها . فإن ارتد (والعياذ بالله) ومات مرتدّاً ، فليس بصحابي ، كعبد الله بن خطّاب ، وأما من عاد إلى الايمان كعبد الله بن أبي مرثد فتهود له الصحبة ، لكن مجردة من الثواب عندنا معاشر الشافعية ، واشتهر أنها لا تعود عند المالكية ، لكن المصرح به في كتبهم التردد . وفائدة عودها التسمية والكفاءة ، فيسمى صحابياً ، ويكون كفوّاً لبنت الصحابي • ويدخل في الصحابي عبد الله بن أم مكتوم أحد المؤذنين لرسول الله ﷺ ، ونحو ابن أم مكتوم من العميان ، وتدخل الملائكة الذين اجتمعوا به ﷺ في الأرض . وعيسى عليه الصلاة والسلام آخر الصحابة من البشر الظاهرين (١) ، وأما الملائكة فباقون إلى النفخة .

(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال ويمكث أربعين عاماً يعمل فيهم بكتاب الله وسنتي ، ويموت فيستخلفون بأمر عيسى رجلاً من بني تميم يقال له : المقعد فإذا مات المقعد لم يأت على الناس ثلاث سنين حتى يرفع القرآن من صدور الرجال ومصحفهم أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الفتن (انظر كتاب التهريج بما قوَّاه في نزول المسيح ص ٢٣٢) .

• وحزبه : أي جماعته . والحزب الجماعة الذين أمورهم واحد في خير

أو في شر ، ومنه قوله تعالى :

« كل حزب بما لديهم فرحون » ، (١)

والظاهر أن المراد به هنا من غلبت ملازمته له عليه السلام لأنهم أخص من
الصحب الذين هم أخص من الآل ، ويحتمل أن يراد به أتباعه مطلقاً ، سواء
كانوا في عصره أم لا ، وهو الأولى ، لما فيه من التعميم ، ولا يغني عنه
الآل لتخصيص بعضهم له بالأقبياء .

(١) الروم ٣٢ .

٥ - وبعدُ فالعلمُ بأصل الدين محتتمٌ يحتاجُ للتبيينِ

● وبعدُ فالعلمُ : أي وبعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام فأقول :
 إن العلم بأصل الدين محتتم ● والعلم هو إدراك الشيء بحقيقته ، كما قاله
 الراغب ، وهو كقول شيخ الإسلام : إدراك الشيء على ما هو به ،
 ويطلق حقيقة عرفية : أولاً - على القواعد المدونة . وثانياً - على الملكة
 التي يقتدر بها على إدراكات جزئية ، والمواد هنا الأول بدليل الحكم عليه
 بالاحتتم ، فتكون حقيقة علم التوحيد على هذا : هي قواعده المدونة التي
 تشمل الإلهيات والنبويات والسمعيات ● ويقابله الجهل ، وهو بسيط
 ومركب ، أما البسيط فعدم العلم بالشيء عما من شأنه العلم ، والمركب :
 هو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع ، وسمي مركباً
 لاستزامه جهلين ، جهلاً بالشيء وجهلاً بجهله ● والتعبير بالعلم بأصل
 الدين يشعر بمدح هذا الفن لا بثناء الدين عليه ، إذ كل أعمال الإسلام
 بمثابة الثمرة للتوحيد وقد حتم الشارع الحكيم هذا العلم وأوجبه ، ولم
 يرخص بتركه فقال تعالى :

« فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » (١)

فيجب على كل مكلف من ذكر أو أنثى وجوباً عينياً معرفة كل عقيدة

(١) سورة محمد ١٩ .

بدليل ، ولو إجمالياً ، وأما معرفتها بالدليل التفصيلي ففرض كفاية ،
 فيجب على أهل كل قطر يشق الوصول منه إلى غيره أن يكون فيهم
 من يعرفها بالدليل التفصيلي ، لأنه ربما طرأت الشبهة فيدفعها • وبعضهم
 أوجب الدليل التفصيلي وجوباً عينياً ، وفيه تضيق لرحمة الله الواسعة ،
 وجعل اللجنة مختصة بطائفة يسيرة ، فالحنى أن الواجب وجوباً عينياً إنما
 هو الدليل الإجمالي ، وهو المعجوز عن تقريره وحل شبهه ، أما الدليل
 التفصيلي فهو المقدور على تقريره وحل شبهه • فإذا قيل لك (ما الدليل
 على وجود الله تعالى) فقلت : هذا العالم ، ولم تعرف جهة الدلالة فيه
 معرفة مصحوبة بذكرها على الوجه المعتبر عند المناطقة فهو دليل جملي ،
 وكذلك إذا عرفت جهة الدلالة فيه ، ولم تقدر على حل الشبه الواردة
 عليها ، أما إذا عرفت جهة الدلالة معرفة مصحوبة بتقريرها على الوجه
 المعتبر وقدرت على حل الشبه فهو دليل تفصيلي • فإذا قيل لك ما الدليل
 على وجوده تعالى ؟ فقلت : هذا العالم ، وعرفت جهة الدلالة ، وهي
 الحدوث أو الإمكان ، وقدرت على حل الشبه فيها فهو دليل تفصيلي ،
 فنقول في تقريره : إما إن العالم حادث ، وكل حادث لابد له من
 محدث . أو إن العالم ممكن وجوده ، وعدمه ، وكل ممكن لابد له
 من مرجح يخرج به من العدم إلى الوجود ، أو بالعكس ، والمرجح هو
 الصانع ، إذ فالعالم له صانع • لأن العالم قد سبقه العدم ، وكل ما سبقه
 عدم فهو حادث ، منها تقادم عليه العهد ، وخروجه من العدم إلى الوجود

لا يكون إلا بمخرج ، لأن العدم لا ينتج شيئاً . وقد قال الله تعالى :
[هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً] .
 وقال أيضاً : **[أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً]** .
 وجاء في صحيح البخاري أنه عليه السلام قال :

[كان الله ولم يكن شيء غيره] .

ففي كل هذا لفت رائع إلى أن الأكوان كانت في ثنايا العدم ، غارقة في لجهه ،
 ولم يكن إلا الله الواجب الوجود ، فباعجباً كيف يسوغ في العقول
 أن الكون لا يحتاج لمحدث ، مع أن كل شيء فيه يشهد عليه ، ويرفض
 إلا الإشارة إليه ؟ ! بل كيف يسوغ في بعضها أن الله تعالى الذي
 لا بداية لوجوده يحتاج لموجد ؟ ! فترى بعضهم يتهاوتون على السؤال : من
 خلق الله ؟ ! ويلجئون فيه دون أن يسمحو لأنفسهم بالسؤال من خلق
 الكون ، مع أن افتقار الكون للخالق إنما هو بديهي . ألا إنها وسوسة
 الشيطان نهنا إليها الرسول عليه السلام حيث قال :

« إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ : مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ ؟ فَيَقُولُ :
 اللهُ . فَيَقُولُ : مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ؟ فَيَقُولُ : اللهُ . فَيَقُولُ :
 مَنْ خَلَقَ اللهُ ؟ ! فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ »
 ورَسُولُهُ (١)

وهذا السؤال وإن كان خطأ من أساسه ، لأن الله تعالى واجب

(١) رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ ، فِي كِتَابِ الْعَمَالِ ١/ص ٢٤٧ .

الوجود ، بمعنى أنه لم يسبق وجوده عدم ، كما أنه لا يعتور وجوده عدم ،
ومن كان كذلك فكيف يسأل فيه هذا السؤال ؟ إلا أنه لما كان
يحتلج بعض النفوس مثل هذا الخاطر أردنا أن نوضح الجواب بمثال يريح
الضمير إن شاء الله تعالى فنقول :

إذا وضعت كتاباً على مكتبك ، ثم خرجت من الحجرة ، وعدت
إليها بعد قليل فرأيت الكتاب الذي تركته على المكتب موضوعاً في
الدرج ، فإنك تعتقد تماماً أن أحداً لا بد قد وضعه في الدرج ، لأنك
تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه (إحفظ هذه النقطة
وانتقل معي إلى نقطة أخرى) • لو كان معك في حجرة مكتبك
شخص جالس على الكرسي ، ثم خرجت وعدت إلى الحجرة فرأيت جالساً
على البساط - مثلاً - فإنك لا تسأل عن كيفية انتقاله ، ولا يخطر لك
أن أحداً نقله من موضعه ، لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه
ينتقل بنفسه ولا يحتاج إلى من ينقله (إحفظ هذه النقطة الثانية أيضاً ثم
اسمع ما أقوله) نه لما كانت هذه المخلوقات محدثة ، ونحن نعلم من
طبيعتها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها ، بل لابد لها من موجد ، كما سبق
وبيناه ، عرفنا أن موجدنا هو الله تبارك وتعالى • ولما كان كمال
الالوهية يقتضي عدم احتياج الإله إلى غيره ، بل إن من صفاته قيامه
بنفسه ، ومعناه عدم احتياجه لموجد ، عرفنا أن الله تعالى موجود بذاته
أزلاً ، وأنه غير محتاج إلى من يوجده • وإذا وضعت النقطتين السابقتين
إلى جانب هذا الكلام ، اتضح لك هذا المقام • ونعود إلى دلائل

الإمكان بعد أن شرحنا دليل الحدوث ، فنقول : الممكن هو كل أمر قابل في حد ذاته للانتفاء والشبوت . أفرايت كفتي الميزان ، وقبول كل منها للارتفاع والانخفاض ؟ فهل يتصور رجعات إحداها إلا بنقل ؟ والأكوان إنما هي ممكنة الوجود في ذاتها ، لأنه لو وجب وجودها لما سبقه العدم ، ولو استحال وجودها لما وجدت . فعليه لا يمكن أن يرجع وجودها على عديمها إلا بمرجع ، وهذا المرجع إما أن يكون ممكناً ، أو مستحيلًا ، أو واجب الوجود . إذ أن أقسام الحكم العقلي ثلاثة ، الواجب والجائز والمستحيل . والممكن عاجز عن إظهار نفسه فكيف يظهر غيره ؟ والمستحيل لا يقبل الوجود أصلاً ، فكيف يمنحه غيره ، فلم يبق من الأقسام الثلاثة إلا واجب الوجود • كذلك كل ممكن تعتوره حالات شتى من الإمكانيات ، في الكم (أي المقادير) والكيف (أي الأحوال) والزمان والمكان ، والجهة والصفات . فتخصيص كل ممكن على حالة مادون سائر ما يجوز عليه منها - مع قبوله لها قبولاً ذاتياً ، ودون أي تفاوت - لا يتحصل إلا بمخصص ، يختص هذه الحالة دون غيرها . وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى دلالة اختلاف الأحوال في الممكنات ، وأنها تدل على خالقها الذي خصصها ببعض ما يجوز عليها فقال سبحانه :

« يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ،

وقال أيضاً :

« وَهُوَ الَّذِي يُصَوِّرْكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ،

وقال أيضاً :

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافُ السِّنِّيَّكُمْ

وَالْوَايِكُمْ ،

وقال :

«وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ،

وقال :

«أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا

من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا

فيها من كل زوج بهيج ، تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب ،

وأنزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جبالاً وحباً

الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ،

ألا من مستبصر حكيم ، كبح جماح هواه ، وانعتق من أمر الاستكبار

وشهوة العلو في الأرض ، فيتدبر هذا • ويقوم مقام معرفة كل عقيدة

بدليل لو عرف العقائد بالكشف . أما من عرفها بالتقليد فقد اختلف فيه ،

والصحيح أنه مؤمن عاص ، إن قدر على النظر ، وغير عاص إن لم
يقدر على النظر . وقيل : إنه كافر ، وجوزى على هذا السنوي في شرح
الكبرى وشنع على القول بكفاية التقليد ، لكن حكى عنه أنه رجع إلى
القول بكفايته .

● يحتاج للتبيين : إنما احتاج هذا الفن للتبيين لأنه لما حدثت المبتدعة وكثر
جدالهم مع علماء الإسلام أوردوا شبهاً على مآقوره الأوائل ، وخطأوا
ذلك الشبه بكثير من القواعد الفلسفية ، فقصد المتأخرون إلى دفعها ،
واحتاجوا إلى إدراجها في كلامهم ليتمكنوا من ردها ● وقد افترقت
الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة منهم فرقة ناجية ، وهي التي على ما كان عليه
النبي ﷺ وأصحابه ، واثنتان وسبعون في النار كما في حديث عبد الله بن
عمر حيث قال :

« قال رسول الله ﷺ : لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ حَذَوِ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّةً
عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَإِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ
عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفَرَّقَ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ،
كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً . قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ »

قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي ، (١)

وَمِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :

اِفْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَتَفَرَّقَتِ
النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفَرَّقَتِ أُمِّي عَلَى ثَلَاثِ
وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً ، (٢) .

(١) رواه الترمذي ٧ / ٢٦٤٣ .

(٢) رواه أبو داود والترمذي واللساني وابن ماجه واحد .

٦- لكن من التطويل كَلَّتِ الْهَمَمُ فَصَارَ فِيهِ الْاِخْتِصَارُ مُلْتَزَمٌ

● لكن من التطويل كَلَّتِ الْهَمَمُ : كأنه قال : هذا الفن وإن احتاج للتوضيح إلا أنه لا ينبغي المبالغة معه في تطويل العبارة لأنها تؤدي إلى الملل والسآمة ، إذ أن الكلال لحق أصحاب الهمم .

والهمة - لغه - هي القوة والعزم ، وعرفاً : هي حالة للنفس يتبعها غلبة انبعاث إلى نيل مقصود ما ، ثم إن تعلقت بمعالى الأمور فعلية ، وإلا فدنية ، وإن لم تتعلق بواحد منها فلا علية ولا دنية .

● فصار فيه الاختصار ملتزم : لكل مامر كان الاختصار في هذا الفن ملتزماً .

وقد كانت الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني يقول : جميع ما قاله المتكلمون في التوحيد قد جمعه أهل الحقيقة في كلمتين ، الأولى : اعتقاد أن كل ما تصور في الأوهام فإنه تعالى بخلافه ، والثانية : اعتقاد أن ذاته تعالى ليست مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات .

٧- وَهَذِهِ أَرْجُوزَةٌ لَقَبْتُهَا جَوْهَرَةُ التَّوْحِيدِ قَدْ هَدَيْتُهَا

٨- وَاللَّهُ أَرْجُو فِي الْقَبُولِ نَافِعًا بِهَا مُرِيدًا لِلشَّوَابِ طَائِعًا

● وهذه أرجوزة : (١) إن هذه الأبيات المنظومة على بحر الرجز ملقبة بجوهرة التوحيد وقد صفيها ونقحتها من الشبه والعفائد القاسدة ، ومن الحشو والتطويل .

● ومدح الإنسان كتابه يخرج التحدث بالنعمة والنصح لمن يتعاطاه حتى يكون بمنجاة من خطر التقليد ، مع أن مدح الإنسان نفسه جائز في عدة مواضع .

تلييه : ينبغي اجتناب تسمية الكتب المصنفة بما يضاها القرآن والوحي ، كقول بعضهم (كتاب الامراءات والمعاريج) أو (مفاتيح الغيب) أو (الآيات البينات) لأنها مزاحمة للنبي ﷺ في الامراء والمعارج ، ومشاركة للحق سبحانه في علم الغيب ، نقله بعضهم عن الممن لسيدى عبد الوهاب الشعراني ، لكن الراجع الجواز .

● والله أرجو : أي لا أرجو إلا الله .

والرجاء لغة : الأمل ، وعرفاً : تعلق القلب بمغروب فيه مع الأخذ بالأسباب وإلا فهو طمع ، وهو مذموم (٢) ، فالممدوح كرجاء الجنة

(١) اسم الإشارة يعود على الألفاظ المستحضرة في الذهن .

(٢) قال سيدي ابن عطاء الله (الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمئيه ، وما يسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع) .

مع ترك المعاصي وفعل الطاعات ^(١) وقد ذكر الشيخ الخطيب في التفسير حديثاً قدسياً ، وهو أن الله تعالى قال :

(مَا أَقَلَّ حَيَاةَ مَنْ يَطْمَعُ فِي جَنَّتِي مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ ، كَيْفَ أَجُودُ بِرَحْمَتِي عَلَى مَنْ يَخْلُ بِطَائِعَتِي ١) .

● في القبول نافعاً : ^(٢) معنى القبول الإثابة على العمل الصحيح ، والثواب مقدار من الجزاء يعلمه الله تعالى أعده لمن شاء من عباده في نظير أعمالهم الحسنة بمحض اختياره ، لا بالإيجاب - كما قال الفلاسفة ، وهو عندهم نشوء الثواب عن ذات الله سبحانه وتعالى قهراً كنشوء حركة الحاتم بتحريك الإصبع - ولا بالوجوب كما قال المعتزلة .

وإنما قال الفلاسفة بالثواب - مع أنهم ينكرون حشر الأجساد - لإثباتهم حشر الأرواح وأنها تثاب بالذات المعنوية .

بها مريداً للثواب طامعاً : ^(٣) في كلامه هنا إشارة إلى أن العمل لله سبحانه وتعالى مع إرادة الثواب جائز ، وإن كان غيره أكمل ، فإن درجات الإخلاص ثلاث ، عليا : وهي أن يعمل العبد لله وحده امتثالاً للأمر وقياماً بحق العبودية ، ووسطى : وهي أن يعمل طالباً للثواب وهارباً

(١) قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء الله فليعمل عملاً صالحاً) كهف ١١١ .

(٢) نافعاً حال من الاسم الكريم (الله) . ومريداً مفعول لنافعاً أي يتبع بها مريداً .

(٣) طامعاً حال من فاعل أرجو أي أرجو الله حال كوني طامعاً في ثوابه .

من العقاب ، ودنيا : وهي أن يعمل لإكرام الله له في الدنيا والسلامة من آفاتهما ، وما عدا هذه الثلاثة رياء ، وإن تفاوتت أفرادها ، ذكره شيخ الإسلام^(١) في شرح الرسالة القشيرية ❁ والمعنى لا أرجو في حصول القبول مني الأرجوزة إلا الله تعالى حال كونه سبحانه نافعاً بها للمريد ، وإني أرجو الله في القبول حال كوني طامعاً في الثواب في الآخرة .

(١) هو شيخ الإسلام زكريا الانصاري . ويتكرر ذكره في الرسالة بلقبه فقط .

٩- فَكُلُّ مَنْ كُتِفَ شَرْعًا وَجِبًا عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مَا قَدْ وَجِبَ
١٠- لِلَّهِ وَالْجَانِزَ وَالْمُتَمَتِّعَا وَمِثْلُ ذَا إِلِرُسْلِهِ ، فَايْتَمِعَا

● فكل (١) من كلف شرعاً : أي وجوب معرفة الله تعالى إنما هو بلسان الشرع ، وليس بلسان العقل كما ذهب المعتزلة . فكل من كفر من المكلفين من الإنس والجن يجب عليه أن يعرف ما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل ، وكذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ذكراً كان المكلف أو أنثى ولو عامياً أو من العبيد والنساء ، أو الخدم ، حتى بأجور وما جوج ، دون الملائكة - على القول بتكليفهم - لأن الخلاف في تكليفهم إنما هو في غير معرفة الله تعالى أما هي فجبليّة لهم ، فليس فيهم من يجمل صفاته سبحانه كما في الجن ، قال تعالى :

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ » (٢) .

● والتكليف إما الزام ما فيه كلفه ، وهو الراجع ، فيقتصر على الوجوب والحرمه ، أو هو طلب ما فيه كلفه ، فيشمل النذب والكراهة مع الوجوب والحرمه .

● وشروط التكليف ، البلوغ ، والعقل ، وبلوغ الدعوة ، وسلامة الحواس ، هذا في الإنس ، أما الجن فهم مكلفون من أصل الحلقة ، فلا يتوقف تكليفهم على البلوغ .

(١) كل: مبتدأ خبره جملة وجب الأولى أي كل مكلف واجب عليه المعرفة .

(٢) آل عمران ١٨ .

● والصبي ليس بمكلف ، فمن مات قبل البلوغ فهو ناجح ، ولو من أولاد الكفار ، ولا يعاقب على كفر غيره ، خلافاً للحنفية حيث قالوا بتكليف الصبي العاقل بالإيمان لوجود العقل وهو كاف عندهم ، فإن اعتقد الإيمان أو الكفر فأمره ظاهر ، وإن لم يعتقد واحداً منها كان من أهل النار لوجوب الإيمان عليه بوجود العقل .

● والمجنون ليس بمكلف ، لكن محل ذلك إن بلغ مجنوناً واستمر على ذلك حتى مات ، بخلاف ما لو بلغ عاقلاً ثم جن وكان غير مؤمن ، ومات كذلك . فهو غير ناجح .

● والذي لم تبلغه الدعوة ليس بمكلف ، وذلك بأن نشأ في شاطئ جبل ، على الأصح خلافاً لمن قال (بأنه مكلف) لوجود العقل الكافي لوجوب المعرفة عندهم ، وإن لم تبلغه الدعوة ● وعلى اشتراط بلوغ الدعوة فهل يكفي بلوغ دعوة أي نبي - ولو سيدنا آدم ؟ لأن التوحيد ليس أمراً خاصاً بهذه الأمة - أو لابد من بلوغ دعوة الرسول الذي أرسل إليه ؟ والتحقيق كما نقله العلامة الملوحي عن الأبي في شرح مسلم خلافاً للنووي أنه لابد من دعوة الرسول الذي أرسل إليه .

● فالذهب الحق أن أهل الفترة (وهم من كان في أئمنة الرسل ، أو في زمن الرسول الذي لم يرسل إليهم) ناجون ، وإن بدلوا وغيروا أو عبدوا الأصنام .

● فإن قيل : كيف هذا مع أن النبي ﷺ أخبر بأن جماعة من أهل الفترة في النار ، كما روي القيس وحاتم الطائي ، وبعض آباء الصحابة ؟ فإن بعض الصحابة سألوه ﷺ وهو يخاطب فقال :

«أَيْنَ أَبِي؟» فقال : في النار ، (١) .

أجيب : بأن أحاديثهم أحاديث آحاد ، وهي لا تعارض القطعية ، وهو قوله تعالى :

«وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (٢)

وبأنه يجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبه منهم لأمر يختص به ، يعلمه الله تعالى ورسوله .

● وغير سليم الحواس ليس بمكلف ، ولهذا قال بعض أئمة الشافعية :
«لو خلق الله إنساناً أعمى لسقط عنه وجوب النظر والتكليف ، وهو صحيح كما في شرح المصنف .

● فائدة : إذا علمت أن أهل الفترة ناجون على الراجح علمت أن أبويه ﷺ ناجيان لكونهما من أهل الفترة ، بل جميع آبائه ﷺ وأمهاته ناجون ومحكومو بإيمانهم ، لم يدخلهم كفر ، ولا رجس ولا عيب ، ولا شيء مما كان عليه الجاهلية ، بأدلة نقلية كقوله تعالى :

«وَتَقَاتِلْكَ فِي السَّاجِدِينَ» (٣)

وقوله ﷺ :

(١) رواه مسلم ، وذكره باختلاف رواياته صاحب السيرة الحلبية في مبحث وفاة والده صلى الله عليه وسلم ص ٥٦ الجزء الأول .

(٢) الإسراء ١٥ .

(٣) شعراء ٢١٩ . روى البزار وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : يعني قلبه من صلب أبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبياً . ذكره ابن كثير في تفسيره .

«لَمْ أَزَلْ أَنْتَقِلْ مِنْ الْأَصْلَابِ الطَّاهِرَاتِ إِلَى الْأَرْحَامِ الزَّائِكِيَّاتِ»^(١)
 وغير ذلك من الأحاديث البالغة مبلغ التواتر ، وأما ما نقل عن أبي حنيفة
 في الفقه الأكبر من أن والذي المصطفى ماتا على الكفر فمدسوس عليه ،
 وحاشاه أن يقول ذلك . وغلط ملا علي القاري - غفر الله له - في كلمة
 شنيعة قالها .

فالحنفي الذي تلقى الله عليه أن أبويه عليهما السلام ناجيان . على أنه قيل : إن
 الله تعالى أحياهما حتى آمنا به ثم أماتهما لحديث ورد في ذلك ، وهو ما روي
 عن عروة عن عائشة : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يحيي له أبويه
 فأحياهما ، فأما به ، ثم أماتهما)^(٢) قال ، السهيلي : والله قادر على كل شيء ،
 وله أن يخص نبيه بما شاء من فضله ، وينعم عليه بما شاء من كرامته .
 وقد أنشد بعضهم فقال :

(١) عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يلق أبراي قط
 على سفاح ولم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى
 مهذباً لا تشعب شعبتان إلا كنت في خيرها » ص ١٥ الأنوار الجمعية .

(٢) أوردته الخطيب عن عائشة ، وفي المواهب « أحيا الله له أبويه حتى آمنا
 به » قال السهيلي : وفي إسناده مجاهيل ، وقال الحافظ ابن كثير : إسناده
 حديث منكر جداً وسنده مجهول وقال ابن دحية : هو حديث موضوع ،
 ويرده القرآن والإجماع وعلى ثبوته يكون معارضاً لقوله صلى الله عليه وسلم
 وقد سأله رجل : أين أنا ؟ فقال في النار ، فلما دعا دعاه وقال له : إن أبي وأباك
 في النار ، وهذا رواه مسلم . قال صاحب السيرة الحلبية - بعد أن أورد ما =

فأحيا أمه وكذا أباه لا يسلن به فضلاً منيفاً
فسلم فالقديم بهذا قدير وإن كان الحديث به ضعيفاً

• شرعاً ، وجب عليه أن يعرف : (١) المقصود أن المعرفة وجبت بالشرع ، لا بالعقل ، وهذا مذهب الأشاعرة وجمع من غيرهم ، فمعرفة الله وجبت عندهم بالشرع ، وكذلك سائر الأحكام إذ لا حكم قبل الشرع لا أصلياً ولا فرعياً .

تقدم - لم تتفق الرواة في حديث مسلم على قوله فيه (إن أبي وأباك في النار) ففي رواية أنه قال صلى الله عليه وسلم بدل ذلك « إذا مرت بقبور كافر فبشره بالنار » ونصوا على أن ناقل هذه الرواية أثبت من ناقل الأولى ، كذلك أخرجه البزار والطبراني والبيهقي من حديث سعد بن أبي وقاص أن أعرابياً قال لرسول الله « أين أبي ؟ فقال : في النار ؛ قال فأين أبوك ؟ قال حينما مرت بقبور كافر فبشره بالنار » وهذا الإسناد على شرط الشيخين والذي ينبغي أن يقال : يجوز أن يكون ما في الصحيح حاصل قبل سؤال الله تعالى أن يحييها له ، أو أنه قال ذلك لمصلحة إيمان ذلك السائل بدليل أنه لم يتدارك صلى الله عليه وسلم إلا بعد ما نفا ، فأتى له بما هو شبيه بالمشكلة ، مريداً بأبيه صم إذا طالب لا عبد الله . وفي القرطبي قد أحيا الله سبحانه وتعالى على يديه صلى الله عليه وسلم جماعة من الموتى وإذا ثبت ذلك فما يمنع إيمان أبويه بعد إحيائهما ؟ ويكون ذلك زيادة في كرامته وفضيلته ، ولو لم يكن إيمانها بعد الموت نافعاً لهما لما أحيا وروى الطبراني عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل المجنون (جبل بككة وهي مقبرة) كتيباً حزيناً ، فأقام به ما شاء الله عز وجل ، ثم رجع مروراً فقال : سألت ربي عز وجل فأجبا لي أمي فأمنت لي ثم ردها .

(١) شرعاً منصوب على التمييز . ووجه أن يعرف : في محل رفع فاعل لوجب والتقدير : كل مكلف واجب عليه معرفة الواجب والجائز والمستحيل بالنسبة لله تعالى ورسوله الكرام .

● وذهبت المعتزلة إلى أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل ، ولذلك قال في جمع الجوامع : وحكمت المعتزلة العقل ، وإن لم يرد الشرع . ويقولون : إن الشرع جاء مقويًا ومؤكداً للعقل ، فلا ينفون الشرع أصلاً ، وإلا كفروا قطعاً ويبنون كلامهم على التحسين والتقبيح العقليين ، فالحسن عندهم ما حسنه العقل ، والتقبيح ما قبحه العقل ، فاذا أدرك أن هذا الفعل حسن بحيث يذم على تركه ويمدح على فعله حكم بوجوبه ، وهكذا .

وأما عند أهل السنة فالحسن ما حسنه الشرع ، والتقبيح ما قبحه الشرع . ● ومذهب الماتريدية أن وجوب المعرفة بالعقل ، بمعنى أنه لو لم يرد به الشرع لأدركه العقل استقلالاً لوضوحه لا بناء على التحسين العقلي كما قالت المعتزلة .

● والحق أن العقل لا يستقل بشيء أصلاً . فتلخص أن المذاهب ثلاثة أولاً : مذهب الأشاعرة وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالشرع ، لكن بشرط العقل ، ثانياً : مذهب الماتريدية وهو أن وجوب المعرفة ثبت بالعقل دون سائر الأحكام ، ثالثاً : مذهب المعتزلة وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل .

● والمعرفة والعلم متوادفان على معنى واحد على التحقيق ، وهذا المعنى الواحد هو الجزم للقاطع المطابق للواقع عن دليل ولو جلياً ● فالظن والشك والوهم ليسوا بمعرفة وكذلك الجزم غير المطابق للواقع كجزم النصارى بالتثليث ، وكذلك التقليد ● فيحصل أن الظان والشاك والمتوهم والجازم جزماً غير مطابق للواقع كل منهم كافر اتفاقاً ، وأما المتصف بالتقليد فسيأتي ذكر الخلاف فيه .

● ماقد وجبا لله : (١) أي يجب على المكلف وجوباً شرعياً أن يعرف جميع ما وجب لله ، لكن ما قامت الأدلة العقلية أو النقلية عليه تفصيلاً ، - وهو العشرون صفة الآتية - يجب على المكلف أن يعرفه تفصيلاً ، وما قامت عليه الأدلة إجمالاً - وهو سائر الكمالات - يجب على المكلف أن يعرفه إجمالاً ، وكذا يقال في المستحيل ● ودليل ما يجب لله عقلي غالباً ، لأن الصفات على ثلاثة أقسام ، الأول : ما لا يصح الاستدلال عليه إلا بالدليل العقلي ، وهو ما توقفت عليه المعجزة من الصفات ، كوجوده تعالى وقدمه وبقائه وقيامه بنفسه ومخالفته للحوادث وقدرته وإرادته وعلمه وحياته ، بمعنى أن المعجزة - وهي الأكوان - لا توجد إلا بمن اتصف بتلك الصفات ، (٢) والثاني : ما لا يصح الاستدلال عليه إلا بالدليل السمعي ، وهو كل ما لا تتوقف المعجزة عليه من الصفات ، كالسمع والبصر والكلام .

والثالث : اختلف فيه ، وهو الوحدانية ، والأصح أن دليلها عقلي .
واعلم أن الأحكام المطلقة : إما شرعية أو عقلية أو عادية . والحكم الشرعي : هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالطلب أو الإباحة أو الوضع لهما . والطاب أربعة أقسام : طلب فعل أو طاب ترك ، وكل منها إما جازم أو غير جازم . والوضع : هو جعل الشيء شرطاً (كالطهارة للصلاة) أو سبباً (كدخول الوقت) أو مانعاً (كالحيض) أو صحيحاً (ككونه

(١) ما : اسم موصول يقع مفعولاً به ليعرف أي يعرف الذي قد وجب لله . والله

جار ومجرور متعلقان بالفعل وجب .

(٢) من تقريرات الأجهوري على الحاشية .

موافقاً للشرع باستيفاء الشروط وانتفاء الموانع (أو فاسداً) ككونه غير موافق للشرع)

وأما الحكم العادي فهو : إثبات الربط بين أمر وأمر وجوداً أو عدماً بواسطة تكرور القوان بينها على الحس ^(١) وعدم تأخير أحدهما في الآخر ألته ^(٢) . مثال ذلك : الحكم على النار بأنها محروقة ، فهذا حكم غادي ، إذ معناه أن الإحراق يقتضي ناس النار في كثير من الأجسام لمشاهدة تكرور ذلك على الحس . وليس معنى هذا الحكم أن النار هي التي أثرت في الإحراق ، أو في تسخين ما مسته - مثلاً - إذ هذا المعنى لا دلالة للعادة عليه أصلاً ، وإنما غاية مادات عليه العادة الاقتتان فقط بين الأمرين . أما تعيين فاعل ذلك فليس للعادة فيه مدخل ، ولا منها يتلقى علم ذلك . وقس على هذا سائر الأحكام العادية ككون الطعام مشبعاً ، والشمس مضيئة ، والسكين قاطعة ، ونحو ذلك مما لا ينحصر . وإنما يتلقى العلم بفاعله هذه الآثار المقارنة لهذه الأشياء من دليلي العقل والنقل • وقد أطبق العقل والشرع على انفراد المولى جل وعز باختراع جميع الكائنات هوماً ^(٣) فأهل السنة يقولون : ثبوت الإحراق للنار من حيث إنها سبب عادي يخلق الله عنده الإحراق . وغيرهم يقولون : ثبوت الإحراق للنار من حيث إنها مؤثرة بقوة مودعة فيها .

• والحق أن قدرة الله تعالى غامة التعلق بجميع امکانات إيجاداً

(١) انظر أم البراهين ص ٣٨ .

(٢) انظر مفتاح الجنة ص ٥٩ .

(٣) انظر أم البراهين ص ٣٩ - ٤٠ .

وإعداداً وإمداداً ، فقصرها على بعضها دون الآخر مع استوائها في الاقتدار .
لا يبرهان عليه إلا اتباع الهوى وظلمة الحجاب ^(١) وقد قال الله تعالى :
(كَلَّا نُمَدِّدْهُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ) .

وقال أيضاً :

«وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا» .

وقال :

«أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ
إِلَّا الرَّحْمَنُ»

وقال :

«أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ؟»

وقال ﷺ :

«اللَّهُمَّ بِكَ أَصُولُ وَبِكَ أُجُولُ» .

وقال :

«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ كَثُرُ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ» .

وقد قال سيدنا العارف بن عطاء الله مستمداً من أنوار ما تقدم : ونعمتان
ما خرج عنها موجود نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، وإنا سمي الحكيم
العادي عادياً لأن العادة هي المرتكز في إطلاقه .

(١) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي رحمه الله .

والتكوار يتحقق بموتين ، كما إذا قيل : لحم الضأن يذكي الفهم ، وتكرر هذا مرتين ، فإنه حكم عادي • أما إن حكم به العقل فإنه يدعى حكماً عقلياً ، وهو : إثبات أمر لأمر (كإثبات القدم لله تعالى) أو نفيه عنه (كنفي القدم عن الخلق) من غير توقف على تكرار أو وضع واضع . وينقسم الحكم العقلي إلى ثلاثة أقسام : واجب ، وجائز ، ومستحيل أي إن كل ما حكم به العقل من إثبات أو نفي . لا يخرج عن اتصافه بواحد من هذه الثلاثة .

• فالواجب : هو كل أمر - من ذات أو صفة أو نسبة^(١) - ثابت لا يقبل الانتفاء في ذاته ، وهو قسمان ضروري ، كالتحيز للجرم ، فإنه ما دام الجرم موجوداً يجب أن يأخذ قسطاً من الفواغ ، فهو واجب مقيد بدوام الجرم ، ونظري كصفاته تعالى . والمستحيل : هو كل أمر - من ذات أو صفة أو نسبة - لا يقبل الثبوت في ذاته . وهو قسمان : ضروري كخلو الجرم عن الحركة والسكون معاً ، ونظري كالشريك له تعالى .

• والجائز : هو كل أمر قابل في حد ذاته للانتفاء والثبوت ، وهما قسمان : ضروري كحركة الجرم أو سكونه ، ونظري كتعذيب المطيع - ولو معصوماً - لكن لا ينبغي التشدد به في حق الأنبياء بل بقدر ضرورة التعليم ، وكإثابة العاصي - ولو كافراً - لأن الكلام في الإمكان العقلي ، فلا ينافي أن ذلك ممنوع شرعاً .

(١) من شرح الخريدة بتصرف يسير ص ٤٠ .

● الضروري هو البديهي ، وهو ما يدركه العقل بلا تأمل (كاستحالة
صنعة بلا صانع .

والنظري هو ما يدركه العقل بعد التأمل (كحدوث الكون)^(١) .

● ملاحظة : ينبغي الاعتناء بهذه الأحكام : لأن إمام الحرمين قال :
إن معرفتها هي العقل ، بناء على أنه العلم بوجود الواجبات وجواز
الجائزات واستحالة المستحيلات ، أي تصور مفهوماتها ، بأن يتصور أن الواجب
ما لا يقبل العدم ، والمستحيل ما لا يقبل الوجود ، والجائز ما يصح
وجوده وعدمه .

● ومثل ذا الرسله : أشار المصنف بلفظ (مثل) إلى أن الواجب
والجائز والمستحيل في حقهم - عليهم الصلاة والسلام - ليس هو عين الواجب
والجائز والمستحيل في حقه تعالى فالمراد المثليه في مطلق واجب وجائز
ومستحيل . وإنما خص الرسل لأن بعض ما يأتي - كالتبليغ - خاص
بهم ، دون الأنبياء .

(١) انظر مفتاح الجنة ٦٦ - ٦٩

١١- إِذْ كُلُّ مَنْ قَلَّدَ بِالتَّوْحِيدِ إِيْمَانُهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ تَرْدِيدِ

● إِذْ كُلُّ مَنْ قَلَّدَ : هذا تعليل لوجوب المعرفة السابقة (باعتبار أن وجوبها يتضمن وجوب أمور ثلاثة هي : الجزم ، وكوفه مطابقاً للواقع ، وكونه ناشئاً عن الدليل .

● والتقليد : هو أن يأخذ المكلف بقول غيره من غير أن يعرف دليله ، والمراد بالأخذ اعتقاد مضمون المأخوذ ، ويشمل القول والفعل . التقرير وكل ذلك من غير أن يعرف دليله . فخرج التلامذة بعد أن يرشدهم الأشياخ للأدلة ، فهم عارفون لا مقلدون . وضرب لهم الشيخ السنوسي مثلاً للفرق بينهم وبين المقلدين (بجهاة نظروا للهِلال ، فسبق أحدهم لرؤيته فأخبرهم به ، فإن صدقوه من غير معاينة كانوا مقلدين وإن أرسدهم بالعلامة حتى عاينوه لم يكونوا مقلدين) .

● بالتوحيد : أي في علم العقائد ، ولو تعلقت بالرسول . فليس المراد بالتوحيد إثبات الوحدة بخصوصه .

● إِيْمَانُهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ تَرْدِيدِ : المراد بإيمانه جزمه بأحكام التوحيد من غير دليل ، وليس المراد به المعرفة ، إذ لا معرفة عند المقلد والأولى أن المراد بإيمان المقلد تصديقه التابع للجزم ، لا نفس الجزم ، والمراد من الترديد ، التردد والتحير .

● واستشكل بأن العبارة تقتضي أن الجزم يجامع التردد مع أنه متى كان جازماً لا يكون متردداً أصلاً ، فكيف يقول : إِيْمَانُهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ تَرْدِيدِ ؟ وأجيب بأن المراد أن إِيْمَانُهُ لَمْ يَخْلُ عَنْ قَبُولِ التَرْدِيدِ ، لا أن الترديد يترج بإيمانه ، ولا يرد أن العارف لا يخلو أيضاً عن قبول الترديد لجواز أن تطمس عين معرفته (والعياذ بالله تعالى) لأن المراد بالقبول : القبول القريب من الفعل عادة ، ولا يضر غيره .

١٣- فَفِيهِ بَعْضُ الْقَوْمِ يَحْكِي الْخُلُفَا وَبَعْضُهُمْ حَقَّقَ فِيهِ الْكُشْفَا

● ففيه بعض القوم : أي فبسبب تحبسه وتردده اختلف العلماء في إيمانه صحة وفساداً ، وحاصل الخلاف فيه أقوال منها :

- ١ - عدم صحة إيمان المقلد ، فيكون المقلد كافراً ، وعليه السنوسي .
- ٢ - الاكتفاء بالتقليد مع العصيان - إن كان فيه أهلية للنظر - وإلا فلا عصيان .

- ٣ - إن من قلد القرآن والسنة القطعية صح إيمانه لإتباعه القطعي ، ومن قلد غير ذلك لم يصح إيمانه لعدم أمن الخطأ على غير المعصوم .
- ٤ - الاكتفاء به من غير عصيان مطلقاً ، لأن النظر شرط كمال ، فمن كان فيه أهلية النظر ولم ينظر ، فقد ترك الأولى .

● والقول الحق الذي عليه المعول من هذه الأقوال هو الثاني .
والصواب أن هذا الخلاف جاز في النظر الموصل لمعرفة الله تعالى دون غيره كالنظر الموصل لمعرفة الرسل .

● وحكى الآمدي اتفاق الأصحاب على انتفاء كفر المقلد ، وأنه لا يعرف القول بعدم صحة إيمانه إلا لأبي هاشم الجبائي من المعتزلة .
وذكر ابن حجر عن بعضهم : أنه أنكر وجوب المعرفة أصلاً ، وقال بأنها حاصلة بأصل الفطرة ، واستدل على ذلك بقوله تعالى :

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (١)

وبقوله ﷺ :

(١) الروم ٣٠ .

كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، (١)

ولذلك قال أبو منصور الماتريدي : أجمع أصحابنا على أن العوام مؤمنون عارفون برهم وأنهم حشوا الجنة كما جاءت به الاخبار ، وانعقد به الإجماع فإن فطرهم جبلت على توحيد الصانع وقدمه ، وحدوث ما سواه وإن عجزوا عن التعبير عنه باصطلاح المتكلمين ، والله أعلم .

● وبعضهم حقق فيه : وبعض القوم - كالتاج السبكي - حقق في إيمان المقلد البيان عن حاله بما يصير به الخلاف في الاكتفاء بالتقليد وعدم الاكتفاء به لفظياً ، وحقق : أي ذكر الفصل في المسألة على الوجه الحق والكشف هو البيان .

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ، وقال حديث حسن صحيح ٢١٣٩ جزء

٦ وأخرجه البخاري في القدر بأطول مما هنا وكذلك مسلم .

١٣- فَقَالَ إِنْ يُجْزَمُ بِقَوْلِ الْغَيْرِ كَفَى وَإِلَّا لَمْ يَزَلْ فِي الضَّيْرِ

● فقال إن يجزم : أي فقال من حقق الكشف في الخلاف : إن يجزم المقلد بصفة قول المقلد جزءاً قوياً ، بحيث لو رجس المتبوع لم يرجع التابع ، كفاه في الايمان .

● وعلى هذا يحمل القول بكفاية التقليد ، فكيفيه ذلك في الأحكام الدنيوية فيناكح ويؤم وتؤكل ذبيحته ويرثه المسلمون ويرثهم ، ويسهم له ، ويدفن في مقابر المسلمين . وفي الأحكام الآخروية أيضاً فلا يتخذ في النار ، إن دخلها ، ومآله الى النجاة والجنة ، فهو مؤمن لكنه عاص بترك النظر ، إن كان فيه أهلية النظر ، أما إن لم يجزم المقلد بصدق قول المقلد جزءاً قوياً قاطعاً ، بأن كان جازماً ، لكن لو رجس مقلده لرجع هو ، فإنه لم يزل واقعاً في الضير ، لانه قابل للشك والتردد ، وعلى هذا يحمل القول بعدم كفاية التقليد ● والخلاف إنما هو في المقلد الجازم ، أما الشاك والظان فمتفق على عدم صفة ايمانها ، وإن كان كلام المصنف يوم خلاف المراد . والخلاف في إيمان المقلد إنما هو بالنظر لأحكام الآخرة ، وفيما عند الله ، وأما بالنظر الى احكام الدنيا فيكفي فيها الإقرار فقط ، فمن أقر جرت عليه الاحكام الاسلامية ولم يحكم عليه بالكفر إلا إن افتون بشيء يقتضي الكفر كالسجود لصنم أو ما يدل على اعتقاده فكرة منكفرة ، أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة . كأن ينكر صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، أو ينكر شمول أحكام الإسلام لكافة مجالات الحياة .

١٤- واجزم بأن أولاً بما يجب معرفة وفيه خلف مُنتصب

● واجزم : أي أعتقد اعتقاداً جازماً ، والمخاطب بذلك كل مكلف ، من ذكر أو أنثى حر أو عبد ، جني أو أنسي . قال المصنف في شرحه : والكلام السابق من قوله (فكل من كلف) (١) إنما أفاد أن المعرفة واجبة على المكلف ، وهذا أفاد أنها أول واجب . ثم إن هذه المسألة ليست من أركان الدين المعتقده ، كيف والأصح كفاية التقليد !

● بأن أولاً بما يجب معرفة : أي الأصل أن أول شيء بما يجب معرفته معرفة الله ، والمراد معرفة صفاته وسائر أحكام الألوهية لا معرفة ذاته وكنهه حقيقته ، إذ لا يعرف ذاته وكنهه حقيقته إلا هو ، وفي الحديث :

« تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ فَإِنَّهُ لَا تُحِيطُ

بِهِ الْفِكْرَةُ » ، (٢)

وفي الحديث أيضاً :

« أَنَّ اللَّهَ احْتَجَبَ عَنِ الْبَصَائِرِ كَمَا احْتَجَبَ عَنِ الْأَبْصَارِ » .

وبالجملة لا يعرف الله إلا الله ، والعجز عن درك الإدراك إدراك ، والبحث في ذات الله أمر أك .

(١) انظر شرح البيهقي ١٠٤٩ .

(٢) « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله » رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس كشف الخفاء الجزء الأول ص ٣٨١ الحديث رقم ١٠٠٥ .

● وفيه خلف منتصب : أي في أول ما يجب معرفته خلاف قائم بين الأئمة ، سنين وغيرهم . وجعل الناظم الخلاف في الأولية لا في الوجوب . لأنه لم يقع خلاف بين المسلمين في وجوب المعرفة ، ووجوب النظر الموصل اليها ، كذا قال الشارح .

● وأهم الأقوال في أول الواجبات :

أولاً : ما قاله الأشعري إمام هذا الفن أنه : المعرفة .

ثانياً - ما قاله الأستاذ أبو إسحاق الاسفراييني أنه : النظر الموصل للمعرفة ، ويعزى للأشعري أيضاً .

ثالثاً - ما قاله القاضي الباقلاني أنه : أول النظر ، أي المقدمة الأولى منه ، فهو قولك : العالم حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، فمجموع المقدمتين هو النظر ، والمقدمة الأولى هي أول النظر .

رابعاً - ما قاله إمام الحرمين أنه : التسد إلى النظر أي تفويغ القلب عن الشواغل ، وعزى للقاضي أيضاً .

خامساً - ما قاله بعضهم أنه : التقليد .

سادساً - أنه : النطق بالشهادتين .

● والأصح أن أول واجب - غاية - المعرفة . وأول واجب - وسيلة - قربية - النظر ، وأول واجب - وسيلة بعيدة - القصد إلى النظر . وهذا يجمع بين الأقوال الثلاثة .

١٥- فَاَنْظُرْ إِلَى نَفْسِكَ ثُمَّ أَنْتَقِلِ لِلْعَالَمِ الْعُلُويِّ ثُمَّ السُّفْلِيِّ

● فانظر : أي إذا أردت المعرفة فانظر إلى نفسك ، لأن النظر وسيلة لها ، والمأمور به كل مكلف ، وأمره بالنظر إلى نفسه - ابتداءً - لأنها أقرب الأشياء إليه . ثم أمره بالنظر إلى العالم العلوي لكونه أعظم وأبدع ، ثم إلى العالم السفلي . غلى أن صحة النظر لا تتوقف على هذا الترتيب .

● والنظر - لغةً - هو إدراك الشيء بحاسة البصر أو الفكر ، أما هنا فالمراد به الإدراك بالفكر . وأما عرفاً فهو ترتيب أمرين معلومين (مقدمة صغرى - ومقدمة كبرى) ليتوصل بتوحيدهما إلى علم مجهول (نتيجة) ، كالترتيب بقولنا : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، فإنه موصل إلى العلم بحدوث العالم . والعلم بحدوث العالم مجهول قبل هذا الترتيب .

● إلى نفسك : أي فانظر في أحوالها ، وعلى -بيل المثال : أنت تأكل الطعام ، وهو يتركب من عدة عناصر نباتية أو حيوانية ، يقسمها العلماء إلى مواد زلالية ، أو نشوية ، أو دهنية - مثلاً - فنرى أن اللعاب يهضم بعض المواد النشوية ، ويذيب المواد السكرية ، ونحوهما . يقبل الذوبان . ونرى أن عصارة المعدة تهضم المواد الزلالية كاللحم وغيره . والصفراء تساعد على هضم الدهون وتجزئها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها . ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك ، فيفرز أربع عصارات ، تتولى كل واحدة منها إتمام المهضم في عنصر من العناصر الثلاثة النشوية ، أو

الزلالية ، أو الدهنية ، والرابعة تحول اللب إلى جبن . فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم ، وقف خاضعاً أمام أنوار قوله تعالى
« أَفَلَا يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ »

● فالمراد إذاً بأحوال النفس ما اشتملت عليه من سمع وبصر ونطق وطول وعرض وعمق ، وما يعتورها من رضا وغضب ، ولذة وألم وغير ذلك ، لا يحصى ● وكل هذه الأحوال متغيرة من عدم إلى وجود ، ومن وجود إلى عدم ، فهي إذاً حادثة ، وهي قائمة بالذات ملازمة لها . وملازم الحادث حادث مثله . وذلك دليل الافتقار إلى صانع قدير مرید علم حي واجب الوجود . فتستدل بهذا النظر في أحوال النفس على وجوب وجود صانعك وصفاته ● قال الله تعالى

« وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » (١)

أي فيها آيات ودلائل لا ينبغي ترك النظر فيها . وقد ورد « من عرف نفسه عرف ربه » (٢) أي من عرف نفسه بالحدوث والفقر عرف ربه بالقدم والغنى ، وهذا هو الأظهر في معنى الحديث ، وقيل هو إشارة إلى التعجيز ، أي أنت لاتعرف نفسك على حقيقتها فلا تطمع في معرفة كنهه ربك ، ذكره الشريف المقدمي في مفاتيح الكنوز وحل الرموز .

(١) الذاريات ١٢ .

(٢) قال النووي ليس بثابت ، وقال أبو المظفر : يحكى عن يحيى بن معاذ الرّازي . وقال النجم : وقع في أدب الدين والدنيا للماوردي عن عائشة « سئل النبي صلى الله عليه وسلم من أعرف الناس بربه ؟ قال : أعرفهم بنفسه » انظر كشف الخفاء ج ١/٣٦١ .

• ثم انتقل للعالم العلوي : أي بعد ما نظرت في أحوال نفسك انتقل للنظر في أحوال العالم المنسوب إلى جهة العلو ، والمراد به ما ارتفع من الفلكيات من سموات ، وكواكب وغيرها . وقد قال الله تعالى «اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ، لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . » (١)

• ثم السفلي : أي ثم انتقل للنظر إلى العالم السفلي ، والمراد به كل ما نزل من الفلكيات كالهواء والسحاب والأرض وما فيها ، كالمعادن والجار والنبات وغير ذلك ، فتستدل بذلك على وجوب وجود الصانع وصفاته • وتخذ مثلاً زهرة وتأملها ، ترى أن لها أوراقاً جميلة جذابة ، ملونة بألوان بهيجة . فان سألت علماء النبات عن الحكمة في هذه الألوان أجابوك : بأن هذا إغراء للنحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار ، إغراء لها لتسقط على الزهرة ، حتى إذا مالامت مآبرها علق حبوب اللقاح بأرجلها ، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى ، فيتم التلقيح ، فتكون هذه الأوراق الجميلة حلقة اتصال بين النبات والحيوان ، وهذا مبلغهم من العلم ، وما يدرينا أن في خلقه أمراراً وأمراراً لم تبد لنا بعد) • ثم إنظر إلى الهواء ، وهو - على ما تعلم - مركب من عدة عناصر . ومن هذه العناصر جزوان هامان ،

(١) الرعد ٤ .

جزء صالح لتنفس الإنسان وهو الأوكسجين ، وجزء ضار به ، وهو غاز الفحم . وفي الوقت الذي يطرح فيه الإنسان الجزء الضار ويستنشق الجزء النافع يكون النبات آخذاً لهذا الجزء الضار ، وطارحاً لذلك الجزء النافع . فأي ترتيب هذا بين الإنسان والنبات والهواء ، هذا الترتيب الذي يكون يفقده فقدان الحياة على الأرض • ثم انظر بعد هذا إلى قوله سبحانه وتعالى :

« وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ، وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ، وذرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ^(١) ،

فإنك تجد كلاً منها مشمولاً بجهات مخصوصة ، وأمكنة معينة ، وتجد بعضه متحركاً وبعضه ساكناً وبعضه نورانياً وبعضه ظلمانياً ، وذلك دليل على الحدوث ، والحدوث دليل على الافتقار لصانع حكيم متصف بالصفات . وحاصلة أن نقول : العالم حادث ، وكل حادث لابد له من صانع حكيم متصف بالصفات . فالعالم لابد له من صانع .
والعالم اسم لما سوى الله تعالى وصفاته من الموجودات .

● بيد أن النظرة في الأكوان تختلف باختلاف صفاء البصيرة وحدتها، وقد قال سيدي ابن عطاء الله مشيراً إلى هذا الاختلاف : « الفكرة فكرتان ، فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان ، فالأولى لأرباب الإعتبار . والثانية لأرباب الشهود والاستبصار » ، وأنعم بالإسلام داعياً إلى الفكرة المبصرة التي تقدر في القلوب ضياء المعرفة الواعية ، فهو لا يريد للمسلمين أن يغرقوا في لجج التقليد الأعمى ، وكل شيء حولهم ينطق بالوحدانية ويدل على الله تعالى ، ولقد قال ابن عطاء الله مبيناً قيمة الفكرة وأهميتها : الفكرة مرآة القلوب ، فإذا انطفت فلا إضاءة له .

١٦- تَجِدُ بِهِ صُنْعاً بِدِيْعِ الْحَكْمِ . لَكِنْ بِهِ قَامَ دَلِيلُ الْعَدَمِ

تجد به صنعا : ^(١) أي إن تنظر في أحوال ما ذكر تعلم فيه صنعة باهرة ، وهي كناية عن الأعراض المخلوقة ، من نقوش متقنة ، والأوان مستحسنة ، إلى مالا يحصى من الصفات ، ولا يحيط به إلا خالق الأرض والسموات ، وكل هذا دال على علم صانعه وقدرته وإرادته وحياته لأن ذلك لا يكون إلا بمن اتصف بما ذكر .

● بديع الحكم : البديع هو المخترع لأعلى مثال سبق والحكم بمعنى الأحكام والأتقان .

● لكن به قام دليل العدم : لكن هنا لجورد التأكيد ، والمواد بدليل العدم دليل جواز العدم ، الذي هو عبارة عن ملازمة الأعراض الحادثة للعالم بمعنى الأجرام .

(١) فعل تجد مجزوم بجواب الطلب في البيت السالف وهو قوله : فانظر ، والتقدير فانظر إن تنظر تجد .

١٧- وكل ما جاز عليه العدم عليه قطعاً يستحيل القدم

● وكل ما جاز عليه العدم : وكل شيء جاز عليه الفناء عليه قطعاً يستحيل القدم ، هذا قياس مطوي ، وفي نشره تقول : هكذا : العالم من عرشه إلى فرشه جائز عليه العدم . وكل ما جاز عليه العدم إستحال عليه القدم ، فينتج أن العالم من عرشه إلى فرشه إستحال عليه القدم ، فيثبت حدوثه ، وإذا ثبت حدوثه فلا بد له من محدث وهو المطلوب . لأن أصل الكلام في النظر الموصل لمعرفة الله تعالى . وقد طوى المصنف بعض المقدمات وذكر بعضها ، وحاصلها أن تقول : الأعراض شهود تغيرها من وجود إلى عدم ومن عدم إلى وجود ، وكل ما كان كذلك فهو حادث ، ينتج أن الأعراض حادثة .

● ثم يقال : العالم بمعنى الاجرام ملازم للأعراض الحادثة وكل ما كان كذلك فهو جائز العدم ، ينتج العالم يجوز عليه العدم .
● ثم يقال هكذا : العالم يجوز عليه العدم وكل ما كان كذلك استحال قدمه ، وثبت حدوثه ينتج أن العالم استحال قدمه وثبت حدوثه .
● ثم يقال هكذا : العالم استحال قدمه وثبت حدوثه ، وكل ما كان كذلك فلا بد له من محدث ينتج أن العالم لا بد له من محدث ، وهذا هو المقصود بالنظر . والمصنف بين أن دليل العدم قام بالعوالم مع أن الحدوث هو الذي قام بالأعراض ، وللازمة الأعراض للجواهر حكمنا على الجواهر بالحدوث أيضاً .

● لقد أضحى الأعراض من الدلالة وجهان ، الأول باعتبار حدوثها فانها دالة على حدوث الاجرام ، والثاني باعتبار اتقانها اتقاناً بديعاً فانها دالة على كمال الصانع وعموم علمه وإرادته وقدرته .^(١)

(١) قال الحكيم العارف (دل بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه ، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته ، إذ حال أن يقوم الوصف بنفسه) .

١٨ - وَفَسَّرَ الْإِيمَانَ بِالتَّصَدِيقِ وَالنُّطْقِ فِيهِ الْخَلْفُ بِالتَّحْقِيقِ

● وفسر الإيمان : أي وفسر جمهور الأشاعرة والماتريدية وغيرهم من المعتزلة الإيمان بالتصديق المعمود شرعاً وهو ، تصديق النبي ﷺ في كل ما جاء به وعلم من الدين بالضرورة ، أي علم من أدلة الدين بشبه الضرورة ، فهو نظري في الأصل إلا أنه لما اشتهر صار ملحقاً بالضروري ● والمراد بتصديق النبي ﷺ في ذلك: الإذعان لما جاء به ، والقبول له ، وليس المراد وقوع نسبة الصديق اليه في القلب من غير إذعان ولا قبول ، حتى يلزم الحكم بإيمان كثير من الكفار الذين كانوا يعرفون أحقية نبوته ورسالته ﷺ ، ومصدق ذلك قوله تعالى :

﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (١)

قال عبد الله بن سلام : لقد عرفت حين رأيته كما أعرف ابني ، ومعرفتي لمحمد أشد (٢) . ويكفي الإجمال فيما يعتبر التكليف به إجمالاً ، كالإيمان بغالب الأنبياء والملائكة ، ولا بد من التفصيل فيما يعتبر التكليف به تفصيلاً ، كالإيمان بجمع من الأنبياء والملائكة فالجمع الذين يجب معرفتهم تفصيلاً من الأنبياء خمسة وعشرون ، فهؤلاء المذكورون في القرآن المتفق على نبوتهم ، وأما المختلف في نبوتهم فتلاثة : ذو القرنين ، والعزير

(١) البقرة ١٤٧ .

(٢) قال ابن كثير : قال القرطبي : ويرى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال نعم ، وأستمر ، نزل الأميين من السماء على الأميين في الأرض بنعته فعرفته . تفسير ابن كثير ص ٣٤٢ ج ١ وفي القرطبي بعد ما قال : نعم وأستمر ، قال : بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته ، وابني لا أدري ما كان من أمه . تفسير القرطبي ١٦٣ ج ٢ ..

ولقمان ، وأما الحضر فلم يصرح باسمه في القرآن وإن كان هو المواد في آية

« فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا » .^(١)

وكذا يوشع بن نون فني موسى لم يصرح باسمه في القرآن .

ومعنى كون الايمان واجبا بهم تفصيلا أنه لو عوض عليه واحد منهم لم ينكرو نبوته ولا رسالته ، فمن أنكر نبوة واحد منهم أو رسالته كفر . لكن العامي لا يحكم عليه بالكفر إلا إن أنكر بعد تعليمه . وليس المراد أنه يجب حفظ أسمائهم ، خلافاً لمن زعم ذلك .

● والجمع الذي يجب معرفته تفصيلاً من الملائكة : جبريل ، ميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ، ورضوان خازن الجنة ، وأما منكر ونكير فلا يكفر منكرهما ، لأنه اختلف في أصل السؤال . ويجب الايمان بحمة العرش ، والشافين به إجمالاً كسائر الملائكة ● والتفصيلي أكمل من الإجمالي من حيث التفصيل وإلا فهو مشبه من حيث الخروج من عهدة التكليف بكل منها .

● وبالجملة فالإيمان شرعاً هو التصديق بجميع ما جاء به النبي ﷺ علم من الدين بالضرورة ، إجمالاً في الإجمالي وتفصيلاً في التفصيلي . وأما لغة ، فهو مطلق التصديق ومنه قوله تعالى :

وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ، (٢)

أي بمصدق .

(١) الكهف ٦٣ .

(٢) يوسف ١٧ .

● تنبيه : إن الايمان على خمسة أقسام :

الأول - إيمان عن تقليد ، وهو الايمان الناشئ عن الأخذ بقول الشيخ من غير دليل .

الثاني - إيمان عن علم ، وهو الايمان الناشئ عن معرفة العقائد بأدلتها .

الثالث - إيمان عن بَيَان . وهو الايمان الناشئ عن مراقبة القلب لله بحيث لا يغيب عنه طرفة عين .

الرابع - إيمان عن حق ، وهو الايمان الناشئ عن مشاهدة الله بالقلب .

الخامس - إيمان عن حقيقة ، وهو الايمان الناشئ عن كونه لا يشهد إلا الله .

● فالتقليد للعوام ، والعلم لأصحاب الأدلة ، والعيان لأهل المراقبة .
ويسمى مقام المراقبة ، والحق للعارفين ويسمى مقام المشاهدة ، والحقيقة للواقفين ويسمى مقام الفناء لانهم يفتنون عن غير الله ، ولا يشهدون إلا إياه ، وأما حقيقة الحقيقة فهي المرسلين ، وقد منعنا الله من كشفها فلا سبيل الى بيانها .

● تنبيه آخر : المؤمن - إذا نام أو أغفل أو جن أو أغمى عليه أو مات - متصف جزماً بالايمان حكماً فتجري عليه أحكام الايمان في هذه الأحوال .

● والنطق فيه الخلف : أي وفي النطق بالشهادتين للقادر عليه وقع الاختلاف بين العلماء ، وموضوع هذا الخلاف كافر أصلي ، يريد الدخول في الاسلام ، أما أولاد المسلمين فمؤمنون قطعاً ، وتجري عليهم الاحكام الدنيوية ولو لم ينطقوا بالشهادتين طول عمرهم .

● والأخرس لا يطالب بالنطق ، لعدم تمكنه من ذلك . وكذلك من اختارته المنية قبل النطق من غير تراخ فهو مؤمن عند الله ، بخلاف من تمكن وفرط .

● ولا بد من لفظ أشهد ، ثم تكريره - وإن أتى بمواضع له - لما فيه من معنى التعبد ● ولا بد من التقريب بين الشهادتين ، والمواصلة . ولا يشترط الإتيان بحرف العطف .

● ولا بد من الاعتراف برسالة ﷺ إلى غير العرب أيضاً ^(١) ، إذا كان يعتقد اختصاص رسالته للعرب .

● وإذا كان كاذباً باعتقاد قدم العالم - مثلاً - فلا بد من رجوعه عنه .

● وما تقدم من الشروط المتعلقة بتحديد اللفظ بأشهاد مبني على المعتقد في مذهب السادة الشافعية ، لذلك لو أتى بالشهادتين بالعجمية لصح إسلامه ، وإن أحسن العربية ، وخالف الأبي شيخه ابن عرفة فقال « لا يتعين القول بأشهاد بل يكفي كل ما يدل على الإيمان » ، فلو قال : الله واحد ومحمد رسول لكفى ، وقابله بعض الشافعية على هذا وهما ابن حجر والنووي . قال المصنف في شرحه : القول الأول أولى بالتعويل عليه .

● بالتحقيق : أي ملتبساً بالتحقيق ، وهو الإثبات بالأدلة القائمة على دعوى كل من الفريقين ، فيكون التقدير - وفي النطق بالشهادتين - في جهة اعتبار مدخلة النطق في الإيمان الاختلاف ملتبساً بالأدلة . وفصل الخلاف بقوله في البيت التاسع عشر .

(١) قال النبي صلى الله عليه وسلم : فضلت على الأنبياء بست ، أعطيت جوامع الكام ، ونسرت بالعرب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون : رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال حسن صحيح (برقم ١٥٥٣ الجزء الخامس) . وقال تعالى : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (الفرقان ١) .

١٩- فَعِيلٌ شَرْطٌ كَالْعَمَلِ وَقِيلَ بِلْ شَطْرٌ وَالْإِسْلَامَ أَشْرَحَنُ بِالْعَمَلِ

● فَعِيلٌ شَرْطٌ : أي خارج عن ماهيته (لأن الشرط ما قام به الشيء ولم يدخل في ماهيته) وهذا القول لمحقق الأشاعرة والماتريدية ولغيرهم .

● وقد فهم الجمهور أن مرادهم أنه شرط لإجراء أحكام المؤمنين عليهم من التوارث والتناكح والصلاة خلفه ، وعليه ، والدفن في مقابر المسلمين ، ومطالبتة بالصلاة والزكوات ، وغير ذلك لأن التصديق القلبي ، وإن كان إيماناً إلا أنه باطن خفي ، فلا بد له من علامة ظاهرة تدل عليه لتناط به تلك الأحكام .

فمن صدق بقلبه ، ولم يقر بلسانه ، من غير عذر مانع ، أو إباء ، بل اتفق ذلك له ، فهو مؤمن عند الله ، غير مؤمن في الأحكام الدنيوية . أما المعذور إذا قامت قرينة على إسلامه بغير النطق - كالإشارة - فهو مؤمن فيها .

وأما الآتي - بأن طلب منه النطق بالشهادتين فأبى - فهو كافر فيها ، ولو أذعن في قلبه فلا ينفعه ذلك ولو في الآخرة .

● ومن أقر بلسانه . ولم يصدق بقلبه - كالنافق - فهو مؤمن في الأحكام الدنيوية ، غير مؤمن عند الله تعالى ، ومحل كونه مؤمناً في الأحكام الدنيوية ما لم يطلع على كفره بعلامة كسجود الصنم ، أو اعتقاد لفكرة ضالة وإلا لجرت عليه أحكام الكفر .

● وفهم الأقل أن مرادهم بالشرطية أنه شرط في صحة الإيمان ، وهذا القول كالقول بالشرطية في الحكم .

● والقول بأنها شرط في إجراء أحكام المؤمنين هو الراجح ،
والنصوص بحسب المتبادر منها مقوية للقول بالشرطية دون الشطرية ،
كقوله تعالى :

(أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) (١)

أي أثبتته في قلوبهم ، وقوله ﷺ في دعائه :
« اللهم ثبت قلبي على دينك » (٢) .

● كالعمل : أي النطق شرط . مثل العمل ، فالنطق شرط لإجراء
الأحكام الدنيوية ، والعمل شرط كمال من المختار عند أهل السنة ، فمن
أتى به فقد حصل الكمال ، ومن تركه فهو مؤمن ، لكنه فوت على نفسه
الكمال إذا لم يكن مع ذلك استعجال أو عناد للشارع أو شك في مشروعيته ،
وإلا فهو كافر فيما علم من الدين بالضرورة .

● وذهبت المعتزلة إلى أن العمل شرط من الإيمان لأنهم يقولون بأن
الإيمان هو العمل والنطق والاعتقاد ، فمن ترك العمل فليس هو بمؤمن لفقده
جزء من الإيمان ، وهو العمل ، ولا هو بكافر ، لوجود التصديق ، فهو
عندهم بين المؤمن والكافر ويخلد في النار ، ويعذب بأقل من عذاب الكافر .

(١) المجادلة ٢٢ .

(٢) عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « يا مقلب
القلوب ثبت قلبي على دينك » فقلت « يا رسول الله » آمنا بك ، وبما جئت
به ، فهل نخاف علينا ؟ قال نعم ، إن القلوب بسين أصبعين من أصابع الله ،
يقلبها كيف يشاء » تفرد به الترمذي وقال حديث حسن . وعن أم المؤمنين
أم سلمة أنها كان أكثر دعائه (يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك) حديث
حسن رواه الترمذي ٢١٤١ ج ٦ و ٣٥١٧ و ٢٥٨١ ج ٩) .

• والحوارج يكفرون مرتكب الكبائر . واختار هو القول بالشرعية في إجراء الأحكام الدينية ، لأن الإيمان لغة - هو التصديق - فيستعمل شرعاً في تصديق خاص ، ولا دليل على نقله للعمل والنطق والاعتقاد ، كما زعمه المعتزلة . وكذلك قد دلت النصوص على ثبوت الإيمان قبل الأوامر والنواهي ، وعلى أن الإيمان والعمل الصالح متغايران ، وعلى أن الإيمان والمعاصي مجتمعان ، كقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ، (١) »

فإنه يفيد ثبوت الإيمان قبل الأمر بالصوم ، وقوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، (٢) »

فإن أصل العطف للمغايرة ، وكقوله تعالى :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، (٣) »

بناء على أن المراد من الظلم المعصية ، فقد اقتضى بمفهومه اجتماع الإيمان مع المعاصي ، وقيل : إن المراد بالظلم الشرك ، لما روي أن الآية لما نزلت شق ذلك على الصعابة وقالوا : أينما لم يظلم نفسه ؟ ! فقال ﷺ

ليس كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ

بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ، (٤) »

وعليه ففهوم الآية من باب :

(١) البقرة ١٨٣ .

(٢) الكهف ١٠٩ .

(٣) الأنعام ٨٢ .

(٤) لقمان ١٣ .

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (١)

فيكون المراد بالايان مطلق التصديق .

• وقيل بل شطر : قال قوم محققون - كالإمام أبي حنيفة ، وجماعة من الأشاعرة - ليس الإقرار بالشهادتين شرطاً ، بل هو شطر . فيكون الايمان - عند هؤلاء - اسماً لعمل القلب واللسان جميعاً وهما التصديق والإقرار .

• واعترض بأن الايمان يوجد في المعذور ، كالأخرس ، والشبه لا يوجد بدون شطره ، وأجيب عن ذلك : بأنه ركن يحتمل السقوط ، كما في الأخرس ، أما التصديق الذي محله القلب فإنه ركن لا يحتمل السقوط ، وعلى هذا القول - كما في القول بأنه شرط صحة - فمن صدق بقلبه ، ولم يتفق له الإقرار في عمره ، ولا مرة ، مع القدرة على ذلك لا يكون مؤمناً ، لأننا ولا عند الله تعالى . وكلا القولين ضعيف . والمعتمد أنه شرط لإجراء الأحكام الدينية فقط وإلا فهو مؤمن عند الله تعالى كما سلف وذكرناه .

• والاسلام أثرحن بالعمل : أي أمرحنه بالعمل الصالح ، أي بالامتثال والإذعان الظاهري للعمل الصالح ، سواء عمل أو لم يعمل .

فمعنى الاسلام شرعاً : الامتثال والانقياد لما جاء به النبي ﷺ مما علم من الدين بالضرورة ، والمراد بالامتثال الإقرار اللفظي - بجميع ما جاء به النبي ﷺ - الشامل لثبوت الوحدانية لله تعالى وثبوت الرسالة لمحمد ﷺ وغير ذلك من الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة .

(١) يوسف ١٠٦

واما معناه - لغة - فهو مطلق الامتثال والانقياد. فالنطق دليل على الاسلام والايان ، والعمل كمال لهما ، وقد ذكر الغزالي في الاحياء بحثاً بعنوانه « بحث في الايمان والاسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال » ، فقال : ... الحق أن الايمان - لغة - عبارة عن التصديق ، وأن الاسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالأذعان والانقياد وترك التمرد والاباء والعناد . وللتصديق محل خاص ، وهو القلب ، واللسان ترجمانه ، وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح ، فيموجب اللغة يكون الاسلام أعم من الايمان ، ويكون الايمان عبارة عن أثر أجزائه الاسلام . وأما في إطلاق الشرع لهما فالحق أنها قد وردا - أولاً - على سبيل الترادف والتوارد بأن جعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعاً ، فان كل ذلك تسليم ، وكذا الايمان بعد تعميمه بادخال الظاهر في معناه ، وهو جائز لغة ، لأن تسليم الظاهر في القول ، والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته . ودليل هذا الاستعمال قوله تعالى :

« فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،

ولم يكن باتفاق إلا بيت واحد . وقال تعالى أيضاً :

(يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) .

وورد - ثانياً - على سبيل الاختلاف بأن جعل الايمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط ، والاسلام عبارة عن التسليم ظاهراً ، ودليل هذا الاستعمال الثاني قوله تعالى :

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا . قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)

ومعناه استسلمنا في الظاهر ، فأراد بالإيمان - ههنا - : التصديق بالقلب فقط ،
وبالاسلام : الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح . ووردا - ثالثاً - على سبيل
التداخل ، بأن جعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل
جميعاً ، والايمان عبارة عن بعض ما دخل في الاسلام وهو التصديق بالقلب ،
وهو الذي عنيناه بالتداخل . ودليل هذا الاستعمال :

ما روي أنه ﷺ سُئِلَ : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ ﷺ :

الْإِسْلَامُ . فَقِيلَ : أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ ﷺ : الْإِيمَانُ ^(١)

وهذا دليل على الاختلاف ، وعلى التداخل ، وهو أرفق الاستعمالات في
اللغة لأن الايمان عمل من الأعمال ، وهو أفضلها ، والاسلام هو تسليم ،
إما بالقلب وإما باللسان ، وإما بالجوارح ، وأفضلها الذي في القلب ،
وهو التصديق الذي يسمى إيماناً ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح .

(٢) عن الإحياء ص ١٠٢ ج ١ بتصرف .

٢٠ - مِثَالُ هَذَا الْحُجِّ وَالصَّلَاةِ كَذَا الصِّيَامِ فَادْرِ الزَّكَاةَ

مثال هذا : أي مثال العمل الحج والصلاة والصيام والزكاة . وقد ترك المصنف الركن الخامس - وهو النطق بالشهادتين لتقدم بيانه .
الحج والصلاة : قدم الناظم الحج - وإن كانت الصلاة أفضل منه - لضرورة النظم فإن بعضهم يكفر بتركها كسألاً بعد أمر الإمام ، بل الصيام أفضل من الحج على المعتمد والحج - لغة - هو مطلق القصد ، وشرعاً : قصد الكعبة للنسك المشتمل على الوقوف بعرفة . وقد اختلف في أي سنة فرض ، فقليل : فرض قبل الهجرة ، ونزول قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) (١)

الذي كان بعدها إما هو للتأكيد . وقيل : فرض بعدها ، فقل في السادسة ، وصححه الشافعية ، وقيل في التاسعة ، وصححه ابن الكمال .
والصلاة - لغة - : الدعاء مطلقاً ، وقيل بخير . وشرعاً : هي أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ، مختتمة بالتسليم ، بشرائط مخصوصة . وهي إما مأخوذة من الوصل ، لأنها وصلة بين العبد وربّه ، أو مأخوذة من صليت العود بالنار ، إذا قومه بها لأنها تقوم العبد على طاعة الله تعالى ، وتنهاه عن العصيان ، قال الله تعالى

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (٢)

وقال بعض المفسرين : الصلاة عرس الموحدين ، فإنه يجمع فيها

(١) آل عمران ٩٧ .

(٢) عنكبوت ٤٥ .

ألوان العبادة كما أن العرس يجمع فيه ألوان الطعام ^(١) . وأعلم أن الصلاة فرضت قبل الهجرة بسنة . والأرجح أنه لم يفرض عليه ﷺ صلاة قبلها ، وقبل كان الواجب قبلها ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، ثم فرضت الصلوات الخمس ليلة الإمبراء .

● كذا الصيام : أي الصيام في كونه مثلاً للعمل مثل ما ذكر من الحج والصلاة . وهو - لغة - الإمساك ، ولو عن نحو الكلام ، ومنه قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام

(إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًا) (٢)

وشرعاً : الإمساك عن المفطر جميع النهار على وجه مخصوص . وفرض في شعبان في السنة الثانية من الهجرة . وهل كان قبله صوم واجب ونسخ أو لا ؟ قولان ، وعلى الأول فقيل : عاشوراء ، وقيل : ثلاثة أيام من كل شهر . وأعلم أنه ﷺ صام تسع رمضان ولم يكمل له إلا سنة واحدة على المعتمد .

(١) قال ابن عطاء الله

(الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب ، واستفتاح لباب الغيوب)
ثم بين أنها محل المناجاة فقال : « الصلاة محل المناجاة ، ومعدن المصافاة
تتسع فيها ميادين الأبرار وتشرق فيها شوارق الأنوار علم وجود الضعف
منك فقلل أمدادها وعلم احتياكك إلى فضله فكثر أمدادها » وبين أن
المطلوب إقامتها بقوله « علم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك في
بعض الأوقات ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة ، فسا كل

مصل مقيم .

(٢) مريم ٢٦ .

• فادر والزكاة : أي فاعلم ، والمحاطب كل من يتأتى منه الذرية والعلم . والزكاة - لغة - التطهير والمدح والثناء ، وشرعاً إخراج جزء من المال على وجه مخصوص ، هذا إذا كانت بمعنى الفعل - كما هنا - وإن كانت بمعنى القدر المخرج فهي أمم لمال مخصوص ، يؤخذ من مال مخصوص ، على وجه مخصوص ، يصرف لطائفة مخصوصة ، وفرضت في السنة الثانية من الهجرة ، بعد زكاة الفطر .

٢١- وَرَجَّحْتُ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ بِمَا تَزِيدُ طَاعَةَ الْإِنْسَانِ

● وَرَجَّحْتُ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ : تقدم أن العمل من كمال الايمان ، عند أهل السنة ، وهنا ذكر المصنف أن الإيمان يزيد بسبب زيادة طاعة الانسان . ورجح جمهور الأشاعرة القول بزيادة الإيمان ، إذا زادت الطاعة ، وهي فعل المأمور به واجتناب المنهي عنه ، كما ينقص الإيمان بسبب نقص الطاعة . وقد يزيده المولى سبحانه وتعالى بمحض اختياره من غير سبب يقتضيه .

● والزيادة والنقصان في غير إيمان الأنبياء والملائكة . أما الأنبياء فيزيد ولا ينقص ، لأن الكامل يقبل الكمال فحسب . ولا يرد أن الأنبياء يحصل لهم تجل عظيم في بعض الأحيان ، كما كان في ليلة المعراج ، فالإيمان بعده ليس بمنزلته قبله ، لأن هذا لا يستلزم تفاوتاً في إيمانهم .

● وإيمان الملائكة لا يزيد ولا ينقص كما ذكره المصنف في كبريه عن ابن القيم وهو المشهور لأن إيمانهم جبلي بأصل الطبيعة لا يتفاوت ، وذكر الشيخ عبد البر الأجهوري أنه يزيد ولا ينقص ، فجهله كإيمان الأنبياء .

● فتلخص أن الأقسام ثلاثة : يزيد وينقص (وهو إيمان الأمة ؛ إنساً وجناً) ولا يزيد ولا ينقص (وهو إيمان الملائكة على المشهور) ويزيد ولا ينقص (وهو إيمان الأنبياء) وزاد بعضهم قسماً رابعاً : وهو الذي ينقص ولا يزيد وهو إيمان الفساق .

● وقول سيدنا إبراهيم عليه السلام

(وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)

ليطمئن من قلقه لرؤية الكيفية . لأن الله سبحانه قال :

(أولم تؤمن؟ قال: بلى) (١)

أي أولم يكفك إيمانك وقوله ﷺ :

فمن أحق بالشك من إبراهيم (٢)

أي لو لحقه شك لتطرق لنا بالأولى نظراً لحال الأمة ، لا لحاله ﷺ ،
أو نظراً لحاله ، وبكون منه تواضعاً .

● وقد احتجوا على أن الإيمان يزيد وينقص بحجة عقلية ونقلية ، أما
العقلية فهي : أنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان بالزيادة والنقص لكان إيمان
آحاد الأمة بل المهتمكين في الفسق والمعاصي مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة !
وهو باطل .

● وأما النقلية فهي النصوص الكثيرة الواردة على هذا المعنى :
كقوله تعالى :

(وإذا تليست عليهم آياته زادتهم إيماناً) (٣)
وكقوله

(ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) (٤)
وقوله

(ويزداد الذين آمنوا إيماناً) (٥)

-
- (١) البقرة ٢٦٠ ، قال ابن كثير : أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك
إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة .
(٢) رواه مسلم والبخاري عن أبي هريرة .
(٣) الأنفال ٢
(٤) الفتح ٤٠
(٥) المدثر ٣١ .

وقوله .

(فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً)^(١)

وكمقوله عليه الصلاة والسلام لابن عمر لما سأله ، الإيمان يزيد وينقص ؟
قال : نعم ، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى
يُدخل صاحبه النار .^(٢)

وقوله ﷺ

« لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به »^(٣)

والإبات مع حديث لو وزن إيمان ... ، لا تدل على أن الإيمان ينقص بل ترشد إلى الزيادة فحسب ، فنقول كل ما يقبل الزيادة يقبل النقص ، فيتم الدليل على أن الإيمان يزيد وينقص غير أن إيمان الأنبياء يقبل الزيادة دون النقص لوجوب العصمة الدائمة المانعة من النقص .

● بما تزيد طاعة الإنسان : أي ورجح جماعة من العلماء القول بقبول الإيمان الزيادة ووقوعها فيه بسبب زيادة طاعة الإنسان ، وهي : فعل المأمور به ، واجتناب المنهي عنه .

(١) التوبة ١٣٤ .

(٢) عند ابن ماجه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء .

(٣) رواه إسحاق بن راهويه والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن عمر من قوله ، وأخرجه ابن عدي والديلمي كلاهما عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ « لو وضع إيمان أبي بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها » وله شاهد في السنن عن أبي بكر مرفوعاً أن رجلاً قال : يا رسول الله كأن ميزاناً أنزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت ، ثم وزن أبو بكر بن بقي فرجح (كشف الحفاء ٢٣٤ الجزء الثاني .

٢٢- وَنَقَصُهُ بِنَقْصِهَا وَقِيلَ: لَا وَقِيلَ: لَا خُلْفُ كَذَا قَدْ نُقِلَا

● ونقصه بنقصها : أي ونقص الإيمان يحصل بنقص الطاعة فلا يرد الأنبياء والملائكة إذ لا يجوز على إيمانهم أن ينقص بنقصها إجماعاً ، هذا مذهب جمهور المشاعرة .

قال البخاري : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص . ● وقيل لا قال جماعة - أعظمهم الإمام أبو حنيفة - لا يزيد ولا ينقص ، لأنه مم للتصديق البالغ نهاية الجزم والإذعان ، وهذا لا يتصور فيه ما ذكر ، لأن تلك النهاية لا مراتب لها . وبحث فيه : بأن التصديق مراتب ، فإن تصديق المقلد ليس كتصديق العارف بالدليل ، وهو ليس كتصديق المشاهد ، وهو ليس كتصديق المستغرق الذي لا يشاهد إلا الله تعالى .

● وقال الذين نفوا الزيادة : إن الآيات مصروفة الى الزيادة بالمؤمن به ، لأن الصحابة كانوا بما أنزل على النبي ﷺ ، وكانت الشريعة لم تم ، والاحكام تنزل شيئاً فشيئاً ، فكانوا يؤمنون بكل ما يتجدد ، وقالوا إن الاحاديث مصروفة الى الزيادة في الاعمال ، وليست في التصديق .

● وقيل لا خلف : قال جماعة - منهم الفخر الرازي ، وامام الحرمين - ليس الخلاف بين الفريقين حقيقة بل لفظياً . ووجهه أن القول : بأنه يزيد وينقص محمول على ما به كماله ، وهو الاعمال ، والقول بأنه لا يزيد ولا ينقص محمول على التصديق الباطني وهو أصل الإيمان ، فيرجع الخلاف لفظياً .

● كذا قد نقلا : أي القول بأنه لا خلاف . والاصح أن التصديق

القلبي يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة ، وعدمها ، وقد يزيد أيضاً
بعض التجلي كما سبق (١) .

ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتبره الشبه
وعلى هذا يتبين أن الخلاف حقيقي .

● والمعتقد أن الإيمان هو التصديق فقط وأن النطق شرط في إجراء
الأحكام النبوية وأن الإيمان يزيد وينقص كما هو التحقيق ، فاستفاده ،
وأنه ولي التوفيق .

(١) روى الترمذي الحكيم في النوادر والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة
قوله عليه الصلاة والسلام : إن ربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتمرضوا
لها ، وعزاء الحافظ ابن حجر إلى محمد بن مسلمة وسكت عليه ، ورواه
الطبراني بزيادة « . . لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقوا بعدها أبداً »
« كشف الخفاء الجزء الأول ص ٢٦٩ .

٢٢- فَوَاجِبُ لَهُ اَوْجُودُ وَالْقِدَمُ كَذَا بَقَاءُ لَا يُشَابُ بِالْعَدَمِ

● فَوَاجِبُ لَهُ الوجود : تنقسم الصفات الواجبة إلى قسمين : ثبوتية وسلبية ، فالثبوتية قسمان . منها ما يدل على نفس الذات ، دون معنى زائدة عليها ، وهي الوجود . ومنها ما يدل على معنى زائد على الذات وهي صفات المعاني والمعنوية إلا أن هذا المعنى الزائد وجودي في المعاني ، وثبوتي في المعنوية ، وكلاهما أربع عشرة صفة : القدرة والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام . وكونه تعالى : قديراً ، موبداً ، عليمأ ، حياً ، بصيراً ، سميعأ ، بصيراً ، متكماً . فصفات المعاني دلت على معنى زائد على الذات ، وكذلك المعنوية ، إذ هي عبارة عن قيام المعاني بالذات (١) .

● والسلبية خمس صفات ، وهي القدم ، والبقاء ، والقيام بالنفس ، والمخالفة للحوادث ، والوحدانية .

وهنا شروع بما يجب لله تعالى ، وأول واجب هو : الوجود : واعلم أن الأسطورة يعرفون الوجود بأنه صفة نفسية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها (٢) .

(١) انظر حاشية الصاوي على الحزبة ص ٥٩ .
(٢) الوجود : مبتدأ ، خبره واجب ، ويقال أيضاً في تعريفه « الوجود صفة تصحح لموصوفها أن يرى . وفي جعله صفة تجوز . حيث شهبوا الوجود بالصفة الحقيقية كالعلم ، يجامع أن كلامها يقع صفة في اللفظ فيقال « ذات الله موجودة » كما يقال « الله عالم » والرازي يعرف الوجود بأنه : الحال الواجب أي الثابت لها ثبوتاً لا ينفك عنها وقوله ما دامت الذات أي مدة دوام الذات =

وإنما قدم الوجود على بقية الواجبات له تعالى لأنه أصل، وما
عداه كالفرع ، إذ الحكم بوجود الواجبات واستحالة المستحيلات ، وجواز
ما يجوز في حقه تعالى لا يتعقل إلا بعد الحكم بوجود الوجود .

● ومعنى كونه تعالى واجب الوجود أنه لا يجوز عليه العدم ولا
يقبله لا أزلاً ولا أبداً ، والدليل على ذلك أن نقول : العالم حادث ،
وكل حادث يجب افتقاره لمحدث ، فوجب افتقار العالم إلى المحدث ، وهو
الله تعالى ، وكل من وجب افتقار العالم إليه فهو واجب الوجود ،
فوجب وجود الله تعالى ، ولو لم يكن واجب الوجود لكان جائزاً ،
ولو كان جائز الوجود لما ظهرت الأكوان ، كيف وقد ظهرت ؛ لأنه
لو كان جائز الوجود لاحتاج إلى محدث يحدثه كما احتاج الكون للحادث
إلى محدث ، ثم لاحتاج محدثه إلى محدث كذلك ، لوقوع المائلة بينها ،
وهكذا ، فإما أن يستمر الحال إلى ما لا نهاية وهو التسلسل أو يرجع الأمر
إلى الأول ، وهو الدور ، وكلاهما باطل ، وما أدى إليهما ، وهو

ودام هنا فعل تام فاعله الذات ، ولا يجوز جعل دام فاقصة وغير معللة خبرها ،
لأن الذات لا تعمل بعلّة ، وقوله غير معللة بعلّة أي حال كون الحال الواجب
غير معلل بعلّة ، فغير حال لقوله الحال الواجب ، فصفاة المعاني السلبية عنده
ليست بحال ، والصفات المعنوية دائمة بدوام المعاني ، فهي معللة بها كالمراد فهو
معلل بقيام الإرادة بالذات ، والقادر معلل بقيام القدرة بالذات ، وهكذا .
والمراد بالتعليل لغة : التلازم والملازمة ، واصطلاحاً : كون الحكم مقتضياً
لآخر ، والأول هو اللزوم ، والثاني هو اللارم : فالمعاني ملزمة للمعنوية -
معللة - والمعنوية لازمة للمعاني ، بمعنى أنه يلزم من كونه قادراً أنه موصوف
بالقدرة : كما يلزم من اتصافه بالقدرة كونه قادراً ١ . ٥ من مقدمة شيخ الإسلام
زكريا الأنصاري في الألفاظ المتداولة ٣٠ ومفتاح اللجنة لسيد محمد الهاشمي ص ٩٢

احتياجه سبحانه إلى محدث ، باطل أيضاً ، فيثبت عدم احتياجه ، أي وجوب وجوده سبحانه .

● حقيقة الدور هي توقف الشيء على ما يتوقف عليه ذلك الشيء فإن كان التوقف بمرتبة واحدة سمي الدور المصرح ، كما اذ توقف زيد على عمرو ، في حال توقف عمرو على زيد ، فكل واحد منهما ينتظر صاحبه أن يوجد.. وان كان بمراتب سمي الدور المضمّر « كما اذا توقف آ على ب ، وتوقف ب على ج وتوقف ج على آ » . وبطلان أنه يلزم عليه كون الشيء الواحد سابقاً على نفسه مسبقاً بها « كما لو فرضنا أن زيداً أوجد عمراً وأن عمراً أوجد زيداً ، فيتحصل أن يكون زيد متقدماً على نفسه ، متأخراً عنها ، وأن يكون عمرو كذلك ، وهذا يؤدي الى اجتماع النقيضين ، وهو باطل.

● وأما حقبة التسلسل فهو أن تفرض سلسلتين ، إحداها من الآن إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي ، وتبدأ الأخرى من قبل الألف - وليكن عهد الطوفان - إلى ما نهاية له في جانب الماضي ، ثم تطبيق السلسلتان ، إحداها على الأخرى فلا يخاو حالهما إما أن تتساويا ، وهو باطل لأنه يلزم تساوي الناقص بالزائد أي تساوي السلسلة الآتية بالطوفانية وإما أن تتفاوتا ، وهو الصحيح ، فإن مقدار التفاوت بينهما معلوم ، وهو ما كان من الطوفان إلى الآن ، وهو مقدار متناه ، والذي يزيد بمقدار متناه يكون متناهياً أيضاً ، ولا بد من انتهاء الحوادث في جانب الماضي ، ومعنى انتهاءها أنها مسبوقة بعدم أي لم تكن ثم كانت .

● والوجود : صفة نفسية ، ونسبت للنفس بمعنى الذات لأنها لا تتحقق خارجاً بدونها .

● والقدم : هذا شروع في الصفات السلبية ، وهي التي دلت على سلب ما لا يليق به سبحانه أي تسلب من الذهن أضدادها ، وهي غير منحصرة على الصحيح ، وإنما عد المصنف منها خمساً لأنها من مهمات أمهاتها ، ولأن الشارع الحكيم لم يكلفنا تفصيلاً إلا بها .

● والمراد بالقدم في حقه تعالى : القدم الذاتي ، وهو : عدم افتتاح الوجود ، أو عدم الأولوية للوجود . وأما القدم في حقنا فالمراد به الزماني ، وهو طول المدة ، وهذا مستحيل في حقه تعالى .

قال تعالى : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (١)

فالأول : هو قبل كل شيء بلا بداية والآخر : هو بعد كل شيء بلا نهاية .

وإن قلت : إن وجوب الوجود يستلزم القدم بل والبقاء ، فذكرهما بعده محض تكرار ! قلت : علماء هذا الفن لا يكتفون بدلالة الالتزام ، بل يصرحون بالعقائد أشدّ خطراً الجمل بها ● ودليل القدم : أنه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً ، ولو كان حادثاً لا فتقر إلى محدث وهكذا محدثه يفتقر إلى محدث لانعقاد المائلة بينها ، حتى ننتهي إلى الدور أو التسلسل وكلاهما باطل ، ويلزم أن حدوده باطل كذلك ، وإذا ثبت بطلان الحدوث ثبت القدم ، إذ لا واسطة بينهما .

● فائدة : انشعبت الأقوال في القديم والأزلي إلى ثلاثة ، الأول : أن القديم هو الموجود الذي لا ابتداء لوجوده ، والأزلي ما لا أول له ،

(١) الحديد الآية ٣ .

عدمياً كان أو وجودياً . فعليه الصفات السلبية لا توصف إلا بالأزلية ،
بجلاف الذات العلية ، والصفات الثبوتية ، فإنها توصف بالقدم والأزلية .
الثاني : أنها متوادفان ، الثالث : ان القديم هو القائم بنفسه الذي لا أول
لوجوده ، والأزلي هو ما لا أول له ، عدمياً كان أو وجودياً ، قائماً
بنفسه أو لا .

فعليه الصفات مطلقاً لا توصف بالقدم لأنها غير قائمة بنفسها ، وتوصف
الذات العلية بكل منها .

● كذا بقاء : المواد بالبقاء في حقه تعالى عدم الآخرة للوجود ، أو
عدم اختتام الوجود .

ودليله : أنه لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القدم ، إذ كل ما ثبت
قدمه استحال عدمه ، وقد سبق دليل وجوب القدم قال تعالى :

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ
إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .^(١)
وقال تعالى :

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(٢)
● تنبيه : عدمنا في الأزل لا أول له ، وله آخر . والخلوقات لها أول

(١) القصص ٨٨ .

(٢) الرحمن ٢٧ .

ولها آخر ما عدا نعيم الجنة وعذاب النار ، فلها أول وليس لها آخر ،
 فكل منها باقى ، لكن شرعا لا عقلاً ، لأن العقل يجوز عدمها .^(١)
 • لا يشاب بالعدم : لا يلحق بقاء الله تعالى عدم ، أو لا يشاب
 بجواز العدم ، وهو معنى البطلان فى قول لبيد رضى الله عنه .
 ألا كل شيء ما خلا الله باطل

(١) إن دوام نعيم أهل الجنة واستمرار عذاب أهل الجحيم ، أبد الآبدين مما علم من
 الدين بالضرورة ، وقد تواردت الأدلة على بقاءهما ، ومضت الأمة على هذه العقيدة
 مدى الدهور ، ففي القرآن الكريم وحده نحو مائة آية فى الخلود ، قريب من
 ستين منها فى النار وأربعين منها فى الجنة ؛ وذكر التأبىء فى أربع فى النار مع الخلود
 وفى ثمان فى الجنة . وتضافر هذه الآيات ونظائرها يفيد القطع بإرادة حقيقة ،
 وأما ماورد فى السنة بالأدلة فأستمر من أن يخصى .

٢٤- وَأَنَّهُ لَمَّا يَنَالُ الْعَدَمُ مُخَالَفُ بُرْهَانُ هَذَا الْقَدَمِ

● وَأَنَّهُ لَمَّا يَنَالُ الْعَدَمُ مُخَالَفُ : أَيُّ وَوَاجِبُ لَهُ تَعَالَى أَنَّهُ مُخَالَفُ
لِلْحَوَادِثِ الَّتِي يَلْحَقُهَا الْعَدَمُ . وَالمُخَالَفَةُ لِلْحَوَادِثِ عِبَارَةٌ عَنْ سَلْبِ الْجُرْمِيَّةِ
وَلَا زِمَها (التَّعْيِيزُ) وَالْعَرَضِيَّةِ وَلَا زِمَها (الْقِيَامُ بِالْغَيْرِ) وَالْكَلْبِيَّةِ وَلَا زِمَها
(الْكِبَرُ) وَالْجُزْئِيَّةِ وَلَا زِمَها (الصَّغَرُ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سِمَاتِ الْحَوَادِثِ ،
كَالْفُرْقَةِ وَالتَّعْيِيزِ . فَهُوَ سَبْعَانَهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ ، لِأَنَّهُ كُلُّ جِسْمٍ مُؤَلَّفٌ مِنْ
جَوَاهِرٍ ، وَكُلُّ جَوْهَرٍ مُتَعَيِّزٌ لَا يَخْلُو عَنْ أَنْ يَكُونَ سَاكِنًا فِي مُتَعَيِّزِهِ أَوْ
مُتَحَرِّكًا وَكَلَّا الْحَرَكَةَ وَالسَّكُونَ حَادِثَانِ ، وَمَا لَا يَخْلُو عَنْ الْحَوَادِثِ فَهُوَ
حَادِثٌ ، إِذَا فَا لْجَوَاهِرُ حَادِثَةٌ وَبِالتَّالِي يَثْبُتُ حَدُوثُ الْأَجْسَامِ (١) .

● وَهُوَ سَبْعَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ بِعَرَضٍ ، لِأَنَّهُ الْعَرَضُ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ ، بَلْ
لَا يَدُلُّهُ مِنْ جِسْمٍ يَقُومُ بِهِ . وَقَدْ ثَبَتَ حَدُوثُ الْأَجْسَامِ فَيُثْبِتُ بِالتَّالِي
حَدُوثَ الْأَعْرَاضِ . وَلِأَنَّهُ سَبْعَانَهُ مُتَصِفٌ بِمَخَالَفَاتِ الْمُعَانِي (وَهِيَ الْقُدْرَةُ
وَالْإِرَادَةُ وَالْعِلْمُ وَالْحَيَاةُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ) وَلَا تَعْقِلُ هَذِهِ إِلَّا لِمَوْجُودٍ
قَائِمٍ بِنَفْسِهِ ، مُسْتَقِلٌّ بِذَاتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ :

● بَرْهَانُ هَذَا الْقَدَمِ : أَيُّ دَلِيلُ مُخَالَفَتِهِ سَبْعَانَهُ لِلْحَوَادِثِ هُوَ دَلِيلُ
الْقَدَمِ . وَذَلِكَ بِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُخَالَفًا لَهَا لَسَاكَانَ بِمِثَالِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ بِمِثَالِهَا
لَسَاكَانَ حَادِثًا ، كَيْفَ وَقَدْ سَبَقَ ثَبُوتُ قَدَمِهِ سَبْعَانَهُ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (٢)

أَيُّ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَحَدٌ مَكَافَأًا . وَقَالَ أَيْضًا :

(١) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ١٠٦ بحث معرفة الله تعالى .

(٢) الإخلاص

« فَاِطْرَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ اَنْفُسِكُمْ اَزْوَاجًا وَمِنْ
الْاَنْعَامِ اَزْوَاجًا يَذُرُّوْكُمْ فِيْهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيْرُ » (١)

والفاطر هو الخالق على غير مثال سبق . وإذا ما ألقى الشيطان في الذهن
أنه إذا لم يكن المولى جرمًا ولا عرضًا ، ولا كلاً ، ولا جزءاً ،
فما حقيقته ؟ قل في رد ذلك : لا يعلم الله إلا الله .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »

يبد أنه قد ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنها أن قوماً تفكروا
في الله عز وجل فقال النبي ﷺ :

« تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ
تَقْدِرُوا قُدْرَهُ » (٢)

وورد أيضاً « أن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار ، وأن
الملائكة الأعلى يطلبونه كما يطلبونه » وسئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه
هل يتأتى لبشر أن يدرك الله ؟ فقال : العجز عن الإدراك إدراك وسئل
سيدنا علي كرم الله وجهه : بم عرفت ربك ؟ قال عرفته بما عرفني به
نفسه لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالقياس ، ولا يشبه بالناس ، قريب في
بعده ، بعيد في قربيه ، فوق كل شيء ، ولا يقال تحته شيء ، وأمام كل
شيء ولا يقال أمامه شيء . وقال الجنيد رضي الله عنه : لا يعرف الله إلا

(١) الشورى ١١ .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية . والأصهباني في الترغيب والترهيب .

الله . بيد أن هذه النصوص وأمثالها إنما تنفي معرفة الله تعالى من حيث كنه ذاته وكنه صفاته ، وأما معرفة الله تعالى من حيث وحدة ذاته أو وحدة صفاته أو وحدة أفعاله فهي واجبة على كل مكلف بل هي أول الواجبات عليه ، ويلبها معرفة أحكام العبادات والمعاملات ، وتركية النفس وتخليصها من آفات وأخلاقها المذمومة وقد ذكر النسفي والحازن في تفسيرهما أن ابن عباس رضي الله عنهما قال في معنى قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم »

أي وحدوا ربكم ، وقال : كل ما ورد في القرآن من العبادة معناه التوحيد . وذكر النسفي في معنى قوله تعالى :

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »

أن معناه إلا ليعرفوني ، ثم قال : وهذا حسن ، لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده . ونقل القرطبي عن مجاهد أن معنى قوله تعالى « إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » : إلا ليعرفوني . وها هو العلامة أحمد الصاوي يشرح هذه المعرفة المطلوبة بقوله : معرفه العبد ربه نور يقذفه في قلبه ، فيدرك بذلك أمرار ملكه ، ويشاهد به ملكوته ويلاحظ صفاته ، وهذا معنى قوله تعالى :

« اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »

أي منورهما ومنور قلوب المؤمنين فيها . وقد عبر الصوفية رضي الله عنهم عن معرفة الله سبحانه بالوصول إليه وقال ابن عطاء الله : « وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به ، إذ جل ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء » . وقال النوري : الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأمرار في مقام الذهول ،

وقال الإمام الغزالي : اعلم أن الاتصال والمواصلة - فيما أشار إليه الشيوخ - لكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجد ، وهو رتبة في الوصول ، ثم يتفاوتون ، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال ، وهو رتبة في التجلي ، فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع الله تعالى . ومنهم من يوقف في مقام الهية والأنس بما يكشف قلبه من مطالعة الجلال والجمال وهو تجل بطريق الصفات ، وهو رتبة في الوصول ، ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مستملياً على باطنه أنوار اليقين والمشااهدة ، مغيباً في شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب من تجلي الذات لحواص المقربين ، وهذه رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين ، ويكون من ذلك في الدنيا للخواص المتلحق ، وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه ، وهذا من أعلى رتب الوصول^(١) . وقد بين معنى القرب من الله تعالى فقال « حقيقة الأنس : استبشار القلب وفرحه لما انكشف له من قرب الله تعالى وجماله وكماله ، وقال بعضهم : حقيقة القرب فقد حس الأشياء من القلب ، وهدوء الضمير إلى الله تعالى ؛ قلت : وهذا هو الوسيلة لنيل القرب ، لا نفس القرب ، لأن هذا هو ظهور القلب عما سوى الله تعالى ، وإذا تطهر القلب عما سوى الله تعالى كان حاضراً معه ، لأنه ليس بين العبد وبين الله إلا حجاب نفسه وعوارضها ، فإذا فني عنها وعن عوارضها ، وعلم قيسام العالم كله بقدرة الله تعالى عرف قرب الله تعالى منه ، وجملة ذلك أن كل ذرة من بدء العالم وبدء الإنسان قد تعلق علم الله تعالى بها كشافاً ، وإرادته تخصيصاً ، وقدرته إيجاداً وإبقاءً ، والصفات لا تفارق الموصوف بل

(١) فرائد الأله تصحيح الشيخ محمد نجيب المطيعي ص ١٥١ .

صفاته قائمة بالموصوف ، فإذا نطق العارف فلا ينطق بنفسه ، وإذا سمع فلا يسمع بنفسه ، وهكذا ورد في الحديث :

(كنتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ... الحديث)

فالعارفون تنشأ أحوالهم عن قرب الله تعالى ، وأما الأبرار فتنشأ أحوالهم عن ملاحظة علمهم بوجود الرب مطلقاً ، مع العلم باقتداره على المنح والعطاء والإسعاد والإشقاء . والعارفون يرون ربهم في الدنيا بعين الإيقان والبصائر ، وفي الأخرى بالأبصار ، فهو قريب منهم في الدارين ، وليس قربه منهم في الأخرى مخالفاً لقربه في الدنيا إلا بزيادة اللطف والعطف ، وإلا ، فقد ارتفع هنا وهناك قرب المسافة ولم يكن بينه وبين مخلوق إضافة ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة البتة . وهذه المعرفة مثمرة للأنس بشرط الصفاء ، والأنس يشمر السكينة ^(١) .

(١) فرائد اللآلئ ص ١٨١ .

٢٥ - قيامه بالنفس وحدانية مُنزهاً أو صافهً سَنِيةً

● قيامه بالنفس : أي وواجب له تعالى قيامه بالنفس . والمراد بالنفس الذات ، لأن الصحيح جواز إطلاق النفس على ذات الله تعالى (١) والمراد بالقيام بالنفس عدم افتقاره تعالى إلى المحل والمخصص .

● فأما عدم افتقاره إلى المحل فيراد به عدم افتقاره لذات يقوم بها ، لا بمعنى عدم افتقاره إلى المكان ، لأنه منف في حقه تعالى بصفة المخالفة للحوادث .

وأما المواد بالمخصص فالموجود ، وهذا - وإن كان مستغنياً عنه بالتقدم - مذكور لعدم كفاية دلالة الالتزام في علم التوحيد . ودليل عدم الافتقار إلى المحل أنه : لو افتقر إليه لكان صفة ولو كان صفة لما اتصف بصفات المعاني والمعنوية ، وهي واجبة القيام به تعالى وإذا بطل كونه صفة بطل افتقاره إلى محل ، وثبت عدم الافتقار .

ودليل عدم الافتقار إلى المخصص أنه لو افتقر إليه لكان حادثاً ، كيف وقد سبق وجوب وجوده ، وقدمه ، وبقائه ذاتاً وصفات .

تنبيه : علم بما تقدم أنه سبحانه مستغن عن المحل والمخصص معاً ، أما صفاته فهي مستغنية عن المخصص ، وقائمة بذاته تعالى . ولا يعبر عنها بالافتقار إلى الذات ، لما فيه من الإيحاء .

وذوات الحوادث مفتقرة إلى المخصص ، وصفاتها مفتقرة إلى الذات والمخصص معاً ، وإذا ما تدوقت فقرك الذاتي وجدت أنه لا حول لك ولا قوة إلا بربك سبحانه ، ووجدت أن كل مالك وارد من المنعم إليك ،

(١) التحقيق أن النفس باعتبار مأخذه من النفس لا يصبح إطلاقاً على الله تعالى ، أما باعتباره مأخذه من النفس فيجوز لأنه سبحانه أنفس الأشياء وأعزها .

ونافس جنح التفضل عليك . ولقد قال الحكيم ابن عطاء الله : فافتك لك ذاتية ، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي منها والفاقة الذاتية لاترفعها العوارض .

● وحدانية : أي وواجب له سبحانه وحدانية . ومبجتها هذا أشرف المباحث ، لذا سمي هذا الفن علم التوحيد . وأعلم أنه لما ثبت أنه لاخالق سوى الله تعالى لزم أنه لايستحق العبادة غيره . إذ أن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية - أي استحقاق العبادة - متلازمان عرفاً وشرعاً ، فالقول بأحدهما قول بالآخر ، والإشراك في أحدهما إشراك في الآخر . فمن اعتقد أنه لا رب ولا خالق إلا الله تعالى لم ير مستحقاً للعبادة إلا هو سبحانه . ومن اعتقد أنه لايستحق العبادة غيره سبحانه كان ذلك بناء منه على أنه لا رب إلا الله . ومن أشرك مع الله غيره في العبادة كان لاجماله قائلاً بربوبية هذا الغير . هذا ما لا يعرف في الناس سواه ، فإن من لاعتقد له الربوبية استحال أن يتخذ معبوداً ، لهذا نجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكتفون بالدعوة إلى التوحيد لأحدهما ، ويضعون كلاً منها موضع الآخر . ولما تقرر في عقول الناس أنهم لايعبدون غير الله إلا إذا اشركوا هذا الغير في الربوبية فإذا المعنى هذا الإشراك تبعه التوحيد في العبودية . وابتداء كلامه سبحانه في فاتحة الكتاب بـ :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

يشير إلى تقدير توحيد الربوبية ، المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية . وهو ما يجب على العبد أولاً من معرفة الله سبحانه وتعالى . والحاصل : أنه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية ، دون العكس في القضية ، لقوله تعالى :

«وَلَسِّنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ»

اللهُ ،

وقوله حكاية عنهم :

« ما نعبدُهم إلا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى »

بل غالب سور القرآن وآياته متضمنة نوعي التوحيد . بل القرآن من أوله إلى آخره في بيانها ، وتحقيق شأنها . فإن القرآن ، إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فهو التوحيد العلمي الحُبْرِي وإما دعوة إلى عبادته وحده ، وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبي . وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد ، وما فعل بهم في الدنيا وما يكومهم به في العقبى ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحل بهم في العقبى من العذاب والسلاسل والأغلال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد . إذن فالقرآن كله في التوحيد وحقوق أهله والثناء عليهم ، وفي شأن ذم الشرك وأهله وجزائهم^(١)

والمراد هنا وحدة الذات والصفات ، بمعنى عدم النظير فيها .

أما وحدة الذات بمعنى عدم التركيب من أجزاء فسبق في الخاتمة للحوادث ، ووحدة الصفات بمعنى عدم تعددها من جنس واحد ، كقدرتين

(١) أنظر كتاب فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان للعلامة سلامة الفضاوي ص ١١٦ - ١١٨ ، وكذلك شرح العلامة ملا علي القاري على الفقه الأكبر ص ٩ .

فأكثر - مثلاً - فستأتي في قوله : « وحدة أوجب لها » . وأما وحدة الأفعال بمعنى أنه لا تأثير لغيره سبحانه في فعل من الأفعال فستأتي أيضاً في قوله : « فخالق لعبده وما عمل » .

والحاصل أن "الوحدانية الشاملة لوحداية الذات والصفات والأفعال تعنى أولاً - بالنسبة للذات أنها غير مركبة من أجزاء ، وإنما غير متعددة بحيث يكون ثمة إله ثان ، فهي واحدة من غير تركيب ولا تعدد . ثانياً - بالنسبة للصفات تعني أنها غير متعددة من جنس واحد كقدرتين فأكثر - مثلاً - وأنه لا يوجد صفة لأحد تشبه صفته تعالى . ثالثاً - وبالنسبة للأفعال فتعنى أنه لا يوجد لغير الله فعل من الأفعال على وجه اليجاد وإنما ينسب الفعل لغير الله تعالى على وجه الكسب والاختيار .

وفي ذلك رد على المعتزلة القائلين بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، وإنما لم يكفروا بذلك لاعترافهم بأن "إقذارهم عليها من الله تعالى ، وبعضهم كفرهم وجعل المجوس أسعد حالاً منهم ، إذ المجوس قالوا بمؤثرين اثنين ، وهؤلاء أثبتوا مالا حصر له . والراجع عدم كفرهم .

ودليل الوحدانية بالمعنى المراد هنا - وهو وحدة الذات والصفات بمعنى عدم النظير فيها - أنه لو كان ثمة إلهان لما وجد شيء من الأكوان ، وجودها بالفعل مبطل للتعدد ، فتثبت الوحدانية ، وإنما لزم من التعدد عدم وجود العالم لأنه لو كانا إلهين ، فإما أن يتفقا أو يختلفا ، فإن اتفقا فلا يمكن أن يوجداه معاً ، لورود مؤثرين معاً على أثر واحد - كطريقي الحداد فإنها لا تقعان معاً - ولا يمكن أن يوجداه مرتباً ، لأنه إن أوجده الأول فالثاني لا محل له . ولا يمكن أن يختص أحدهما

ببعضها والآخر ببعضها الآخر ، لأنه إذا تعلقت قدرة الأول بشي فمعناه انسداد الطريق أمام قدرة الثاني للتعلم به ، وهذا عجز يقضي بأنه ليس بإله .

وإن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم ، والآخر إعدامه ، فلا يمكن أن ينفذ مرادهما معا ، لأنه يتوجب عليه اجتماع الضدين ، ولا يمكن أن ينفذ مواد أحدهما دون الآخر ، لأنه يعني عجز الذي لم ينفذ مراده ، وهو بالتالي ليس بإله ، إنما الذي نفذ مراده هو الإله . وإذا بطل التعدد لبطان ما يتوجب عليه ثبوت الوجدانية ، وفقدت عين الشرك .

وقد ذكر الله سبحانه هذا الدليل في قوله :

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ،

أي لو كان فيهما جنس الآلهة غير الله لم توجدا .

ملاحظة : يجوز اتفاق الإلهين - على فرض التعدد - إنما يباين الرأي وعند التأمل لا يصح الاتفاق لأن مرتبة الألوهية تقتضي الغلبة المطلقة ، كما يشير له قوله تعالى :

(١) الأنبياء ٢٢ .

« إِنْ » في الأصل « إِنْ » أداة استثناء كقوله تعالى « إِنْ الْإِنْسَانُ لَفِيْ خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا » أو أداة حصر : وذلك إِنْ سبقت بنفي كقوله تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ، أَوْ تَكُونُ أَسْمٌ بِمَعْنَى : غَيْرٌ ، كَمَا فِي الْآيَةِ ، وَلَا يَجُوزُ جَعْلُهَا هُنَا - استثناء لأن المعنى على الاستثناء يصح : لو كان فيهما آلهة مستثنى منهم الله لفسدتا ، أما لو كان فيهما آلهة والله معهم لم تفسدا ؛ وهذا هو الشرك بعينه ، لأن المقصود هو نفي الألوهية عن كل ما سوى الله تعالى .

« إذا لذهب كلُّ إله بما خلقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » (١)

● منزها أوصافه سنية : هذا تأكيد للصفات السابقة ، أي وجبت له
هذه الصفات حال كونه منزها ، وحال كون أوصافه سنية ، أي رفعة
رفعة معنوية .

٢٦- عَنْ ضِدِّهِ أَوْ شَبِّهِ شَرِيكَ مُطْلَقًا وَوَالِدِ كَذَا الْوَلَدُ وَالْأَصْدِيقَا

● عن ضد^(١) : أي منزها عن ضد ، والضدان هما أمران وجوديان بينهما غاية الاختلاف لا يجتمعان بحال ، ولو فرض أن له سبحانه ضدًا في ذاته أو صفاته لوجب ارتفاع ذات الله سبحانه وصفاته ما دام الضد ثابتًا ، كيف وقد ثبت وجوب الوجود والقدم وباقي الصفات .

● أو شبه شريك مطلقا : والشبه كالشبه ، وهو المساوي في أغلب الوجوه والنظير هو المساوي في بعضها ، والمثل هو المساوي في جميعها .

والمراد بالشبه هنا مطلق المشابهة فليس له تعالى شبيه في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، لوجوب مخالفته تعالى الممكنات ، ذاتا وصفات وأفعالا

ومراد به بالشبه نفي المشابهة من الممكنات ، ومراده بالشريك نفي المشارك من القدماء ويؤخذ في نفي الشريك دليل الوحدانية ، ومراده بقوله :

● مطلقا : نفي الشريك في الذات أو الصفات أو الأفعال ، كذلك نفي مطلق المشابهة في الذات أو الصفات أو الأفعال .

● ووالد : أي منزهاً عن أب وأم ، فهو سبحانه ليس منفصلاً عن غيره .

● كذا الولد : فكما تنزه عن الولد ، فالوجوب تنزيهه عن الوالد كوجوب تنزيهه عن الولد ، فليس سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ولداً بل خلقه الله تعالى بلا أب ، كما خلق آدم عليه السلام بلا أب ، بل آدم أغرب وأدل على القدرة ، حيث خلقه من تراب بلا أب ولا أم

(١) من ضد : جار ومجرور متعلقان بمنزه في البيت / ٢٥ .

وكما أنه ليس منفصلا من شيء ، ليس منفصلا عنه شيء .

● والأصدقا : التنزيه منصب على الواحد والجمع ، فمجال النفي أن يكون لله صديق على الوجه المعتاد من أن كلاً يعاون الآخر وينفقه ، أما الصديق بمعنى المخلص في عبادته تعالى فلا ينافي ، لكن لا يجوز أن يطلق « صديق الله » لأنه لم يرد ، ويوم الحال .
وكما يستحيل على الله الأصدقاء يستحيل الأعداء على الوجه المعتاد ، من أن كلاً يؤدي الآخر ويضره ، أما بمعنى المخالف لأمره فقد ورد :

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ) (١)

والاصل القاطع في ذلك ، المؤكد للدليل العقلي قوله تعالى :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (٢)

وقوله :

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ صَمَدٌ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »

وقد نفت هذه السورة انواع الكفر الثمانية .

١ - فقوله :

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ »

نفي الكثرة والعدد ، فهو متوحد في ذاته متفرد بصفاته .

٢ - وقوله :

« اللَّهُ صَمَدٌ »

(١) فصلت ١٩ -

(٢) الشورى ١١ -

الصمد هو الذي يقصد في الحوائج ؛ المستغني عن كل أحد والمحتاج إليه .
كل أحد ، وهنا نفى للقلة والنقص .

٣ - وقوله :

«لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ»

نفى أن يكون تعالى علة لغيره ، أو أن يكون معلولا . أي ليس هو
مبجانه بمجل للحوادث ولا بمحدث .

٤ - وقوله :

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»

نفى الشبيه والنظير ، أي ليس له أحد مماثلا أو مجانسا أو مشابها .

٢٧ - وَقُدْرَةُ إِرَادَةٍ وَغَايَرَتُ أَمْرًا وَعِلْمًا وَالرِّضَا كَمَا تَبَيَّنَ

وقدرة : لما تكلم على الصفة النفسية ، والصفات السلبية ثم شرع يتكلم على صفات المعاني مقدماً لها على الصفات المعنوية ، لكونها كالأصل لها ، إذ أن المعنوية عبارة عن قيام المعاني بالذات . والمعاني جمع معنى ، وهو كل صفة قائمة بوصف موجبة له حكماً ، كقيام القدرة بالذات ، فإنه يوجب كونه قادراً .

وبدأ المصنف من صفات المعاني بالقدرة لظهور تأثيرها ، والقدرة صفة واجبة لله تعالى ومعناها - لغة - القوة والاستطاعة ؛ وعرفاً صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة ؛ وهذا التعريف مع سائر التعاريف المذكورة للصفات لا يتناول الحقيقة لأنه لا يعلم كنه ذاته وصفاته إلا هو سبحانه .

والقدرة تعلقات سبعة ، أشار إلى واحد منها - وهو الصلوبي القديم بقوله : يتأتى بها . ومعنى التعلق الصلوبي صلاحيتها في الأزل للإيجاد والإعدام . والتعلقات الستة الباقية هي :

تعلق قبضة : وهو تعلقها بعدمنا فيما لا يزال قبل وجودنا .

تعلق بالفعل : وهو تعلقها بإيجادنا بالفعل بعد العدم السابق .

تعلق قبضة : وهو تعلقها باستمرار الوجود بعد العدم .

تعلق بالفعل : وهو تعلقها بإعدامنا بالفعل بعد الوجود .

تعلق قبضة : وهو تعلقها باستمرار العدم بعد الوجود .

تعلق بالفعل : وهو تعلقها بإيجادنا بالفعل حين البعث يوم القيامة^(١) . والتعلق هو : طلب الصفة أمراً زائداً على قيامها بالذات . وقيل : هو من مواقف العقول ، فلا يعلمه إلا الله تعالى ، والتحقيق هو التعريف الأول . ومعنى تعلق القبضة : أن الممكن في قبضة القدرة ، فإن شاء الله تعالى أبقاه على عدمه ، وإن شاء أرجده ، وإن شاء أعدمه .

وأما العدم الأزلي فلا تتعلق به القدرة ، لأنه واجب ، لا جائز وإلا لجاز وجودنا في الأزل وهو باطل ، لما يلزم عليه من تعدد ذوات القدماء^(٢) .

وذهب الأشعري الى أنها لا تتعلق بإعدامنا بعد وجودنا بل إذا أراد الله عدم الممكن قطع عنه الإمداد فيعدم بنفسه ، كالفيلة إذا ما انقطع عنها الزيت انطفأت بنفسها قال سيدي محمد الهاشمي : فلولاً لإنعامه على المكونات بإيجادها لم توجد ، ولولا إنعامه عليها بإمدادها في كل لحظة لاضمحل وجودها ، لأنها تقبل العدم في كل لحظة^(٣) .

وقال ابن عطاء الله : « نعمتان ما خرج موجود عنها ، ولا بدل لكل مكون منها ؛ نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد . أنعم عليك أولاً بالإيجاد ، وثانياً بتوالي الإمداد . وهذا معنى كون الأكوان مسبقة بالعدم ، ويلحقها العدم ، ويجوز عليها في كل لحظة من أزمنة وجودها العدم ، وقد قال العلامة ملا علي القاري : إن (واجب الوجود) : هو الصمد الغني الذي لا يفتقر إلى شيء ، ويحتاج كل ممكن إليه في إيجادها

(١) انظر انخاف المريد لمحي الدين عبد الحميد ٨٨ - ٨٩ .

(٢) انظر حاشية الدسوقي على شرح أم البراهين ١٠٠ .

(٣) انظر مفتاح الجنة .

وإمداده . ومعنى (القيوم) : هو المتضمن كمال غناه ، وكال قدرته ،
وافتيار غيره إليه في ذاته وصفاته ، إيجاداً وإمداداً ، فإنه القائم بنفسه ،
فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه ، المقيم لغيره فلا قيام لغيره
إلا بإقامته (١) .

وقد قال الدسوقي : إن القدرة تتعلق بوجود الممكن اتفاقاً تعلق
تأثير ، وكذا تتعلق بعدمه الطارئ بعد وجوده تعلق تأثير
على المعتمد (٢) .

بيد أن التأثير حقيقة إنما هو للذات ، وإسناده للقدرة إنما هو بطريق
المجاز لكونها سبباً فيه . ولذا يحرم أن يقال : القدرة فعالة ، أو انظر
الى فعل القدرة ، أو نحو ذلك ، لما فيه من إيهام أنها المؤثرة بنفسها ،
فإن قصد ذلك كفر .

ولا تتعلق القدرة بالواجب ، ولا بالمستحيل ، لأنها إن تعلقت
بالواجب ، فإما لأن توجده ، وهو موجود ، وإما لأن تعدمه ، وهو
لا يقبل العدم بحال . ولأنها إن تعلقت بالمستحيل ، فإما لأن توجده وهو
لا يقبل الوجود بحال ، أو لأن تعدمه ، وهو معدوم أصلاً وبظهر من
هذا أن عدم تعلقها بالواجب أو بالمستحيل إنما كان لأنها خارجات عن
وظيفتها ، وهي الإيجاد والإعدام ، لا العجز فيها ، إذ أن العجز إنما
يكون إذا كان المتعلق من وظائف القدرة ؛ بأن كان يقبل الوجود
لذاته ، أو العدم لذاته . أفرايت الى العين ووظيفتها الإبصار ، أفيعد

(١) انظر الفقه الأكبر ١٥ وما بعدها .

(٢) انظر حاشية الدسوقي على أم البراهين ١٠٠ .

نقصاً فيها إن لم تسمع الأصوات ؟ وهكذا تقول في الأذن - والله
المثل الأعلى - إذ ليس عجزاً أن لا ترى الأذن ، بل العجز فيها إن
لم تسمع .

والقدرة تبرز ماخصه الله تعالى بإرادته أزلاً . فيكون تعلق
الإرادة - لكونه أزلياً - سابقاً على تعلق القدرة ، لكونه تنجيزياً حادثاً ،
وهذا التعلق التنجيزي الحادث هو المعبر عنه بالخلق والرزق والإحياء .
والإمالة المسمى عندنا بصفات الأفعال^(١) .

والتنجيز هو الإيجاد أو الإعدام بالفعل .
ودليل وجوب القدرة : أنه لو لم يتصف بها لاتصف بنقيضها وهو
العجز ، ولو كان متصفاً بالعجز لما ظهر شيء من الأكوان ، كيف وقد
ظهرت ، فظهورها نافٍ للعجز ، وبإتفائه تثبت القدرة .

● إرادة : أي وواجب له إرادة ، ويردفها المشيئة . وهي لغة :
مطلق القصد ، وعرفاً : هي صفة قديمة زائدة على الذات ، قائمة بها
تخصص الممكن ببعض مايجوز عليه على وفق العلم . وبما يجوز على الممكن :
الوجود أو العدم ، وكونه في زمن مضى أو في زمن حاضر ، أو في
زمن مستقبل ، وكونه أسود أو أبيض - مثلاً - وكونه طويلاً أو
قصيراً ، وفي جهة المشرق أو المغرب - مثلاً - .

وللإرادة تعلق صلوبي قديم ، وهو صلاحيتها في الأزل للتخصيص ،
وتعلق تنجيزي قديم ، وهو ثبوت التخصيص بالفعل أزلاً أيضاً . فالله
تعالى خصص الأشياء أزلاً بالصفات التي يعلم أنها توجد عليها في الخارج .

(١) انظر الحريدة البية ٨٧ .

والإرادة - كالقعدة - لاتتعلق بالواجب ، ولا بالمستحيل ، ولكنها تتعلق بالممكن الذي يشمل الخير والشر ، والنفع والضر خلافاً للمعتزلة في قصرها على الخير والنفع .

واختلف العلماء في جواز نسبة الشرور والقبائح إليه تعالى ، والراجع جواز ذلك في مقام التعليم فقط . وهذا الخلاف نفسه جار في نسبة الأمور الحسنة إليه تعالى ، والأصح الجواز في مقام التعليم فقط فعليه لا يجوز أن يقال : الله خالق القعدة والحنازير إلا في مقام التعليم .

ودليل الإرادة أن تقول : الله صانع للعالم بالاختيار ، وكل من كان كذلك تجب له الإرادة فالله تجب له الإرادة . أضف إلى ذلك أن الفعل الصادر منه تعالى يختص بضروب من الجواز لا يتميز بعضها من بعض إلا بوجع ، ولا يكفي العلم في الترجيح ، لأنه يتعلق بالمعلوم يتعلق انكشاف ، على ما هو عليه ، دون أن يؤثر فيه أو يغيره . كما لا تكفي القدرة في الترجيح ، لأن نسبتها إلى الضدين المتقابلين واحدة ، إذا لا بد من صفة ثابتة للذات تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، وهذه الصفة هي الإرادة ، فالعلم كاشف ، والإرادة مخصصة على وفق العلم ، والقدرة تبرز ما خصصته الإرادة . كما أنه قد جرى اتفاق على إطلاق القول : بأنه تعالى مريد ، وشاع ذلك في كلامه سبحانه وكلام أنبيائه عليهم الصلاة والسلام . ولا يفهم من قولنا : مريد - بحسب اللغة - إلا ذات ثبتت لها الإرادة ، إذ لا يتعقل مريد بلا إرادة ، كما لا يتعقل عليم بلا علم ، وإن نازع في ذلك المعتزلة .

وغايرت أمراً : أي باينت الإرادة أمراً بمعنى أنها ليست عينه ، ولا مستلزمة له ، فقد يريد ويأمر (كإيمان من علم الله منهم الإيمان ، فإنه تعالى أرادهم منهم وأمرهم به) وقد لا يريد ولا يأمر (كالكفر من هؤلاء ، فإنه تعالى لم يرده منهم ولم يأمرهم به) وقد يريد ولا يأمر (كالكفر الواقع ممن علم الله تعالى منهم عدم الإيمان ، وكالمعاصي ممن علم الله تعالى وقوعهم فيها ، فإنه أراد ذلك ولم يأمر به) . وقد يأمر ولا يريد (كإيمان من علم الله تعالى كفرهم ، وإنما أمرهم بالإيمان مع كونه لم يرده منهم سبحانه ليظهر في عالم الحكمة ما علمه الله تعالى أزلاً فيعاقبون عليه) .

وعلمنا : أي وغايرت الإرادة علماً ، بمعنى أنها ليست عينه ولا مستلزمة له ، لتعلق العلم بالواجب والجائز والمستحيل ؛ وعدم تعلق الإرادة إلا بالجائز فقط .

● والرضا كما ثبت : أي وغايرت الإرادة رضا تعالى ، وهي قبول الشيء والإثابة عليه . والغرض بذلك الرد على من فسر الإرادة بالرضا ، فإن الإرادة قد تتعلق بما لا يرضى به الله تعالى (كالكفر الواقع من الكفار) فإنه تعالى أرادهم ، ولا يرضى به ، وهذا التغاير واقع لثبوت عقله . وقد قال المحققون من أهل السنة : الإرادة في كتاب الله تعالى نوعان ، إرادة قدرية ، كسوية ، خلقية ، وهي المشيئة الشاملة لجميع المكونات ، وإرادة دينية ، أمرية ، شرعية ، وهي المتضمنة للمحبة والرضا (١) .

(١) انظر الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة ص (٢٠) .

٢٨- وَعِلْمُهُ وَلَا يُقَالُ مُكْتَسَبٌ فَاتَّبِعْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَاطْرَحِ الرَّيْبَ

● وعلمه : أي وواجب له علمه ، وهو صفة أزلية متعلقة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات تعلق انكشاف على وجه الإحاطة على ماهي به من غير سبق خفاء . وتعلق العلم تعلق تنجيزي قديم ، فيعلم الله سبحانه وتعالى الأشياء أزلاً على ما هي عليه وكونها وجدت في الماضي أو موجودة في الحال ، أو توجد في المستقبل أطوار في المعلومات لا توجد تغييراً في تعلق العلم ، فالمتغير إنما هو صفة المعلوم ، لا تعلق العلم ، وليس له تعلق صلومي قديم ، ولا تنجيزي حادث ، وإلا لزم الجهل ، لأن الصالح لأن يعلم ليس بعالم والتنجيزي الحادث يستلزم سبق الجهل ، هذا ما عليه السنوسي ومن تبعه وهو الصحيح ، فيعلم الله سبحانه الأشياء أزلاً إجمالاً وتفصيلاً ، ويعلم الكليات والجزئيات ويعلم ما لا نهاية له كمالاته .

● ودليل وجوب العلم له تعالى أن تقول : الله فاعل فعلاً متقناً محكماً بالقصد والاختيار وكل من كان كذلك يجب له العلم ، فأنه يجب له العلم . فإذا قيل : إن هذا الدليل إنما يفيد علمه بالجائزات فقط ، فما الدليل على علمه بالواجبات والمستحيلات ؟ أجيب بأن دليل ذلك هو دليل عدم افتقاره لخصص ، لأنه لو لم يعلم بهما لكان محتاجاً لمن يكمله ، فيلزم أن يكون حادثاً ، فيفتقر للمخصص ، وقد تقدم دليل عدم الافتقار للمخصص أو تقول : ان الموجودات منقسمة الى قديم وحادث ، فأما القديم فذاته وصفاته . ومن علم غيره فهو بذاته وصفاته أعلم .

● ولا يقال مكتسب : أي لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يطاق أو

يعتقد أن علمه سبحانه مكتسب لاستحالته ، لأن الكسبي - عرفاً - هو العلم الحاصل عن النظر والاستدلال ، فإذا أقمت دليلاً على حدوث العالم بأن قلت : العالم متغير وكل متغير حادث ينتج العالم حادث فالعلم - هنا بحدوث العالم حاصل عن نظر واستدلال ، فهو كسبي وقيل : الكسبي هو ما تعلقت به القدرة الحادثة ، فيشمل العلم الحاصل بالإبصار أو بالشم - مثلاً - بخلافه على التعريف الأول ، وعلى كل لا يقال لعلم الله كسبي ، لأنه يلزم منه قيام الحوادث بذاته تعالى ، ويلزم أيضاً سبق الجهل في حقه تعالى ، وهو محال . وما ورد بما يوم اكتساب علمه تعالى فهو قول كقوله جل جلاله :

«ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا» (١)

فالمراد - والله أعلم : ثم بعثناهم ليظهر لهم متعلق علمنا فيكون لتعلم بمعنى لتعلم ، فاللام للعاقبة (٢) .

● فاتبع سبيل الحق : أي إذا علمت وجوب القدرة والارادة والعلم له تعالى فاتبع طريق الحق واسلك سبيل اهله ، وهم أهل السنة حيث اعتقدوا وجوب صفات المعاني له تعالى .

● واطرح الريب : أي ألق عنك الشبه ، والشبه : هي التي لا يعلم فسادها ولا صحتها . وقصد المؤلف الرد على المعتزلة النافين لصفات المعاني حيث قالوا : قادر بذاته ومريد بذاته ، وهو هذيان لأنه لا يعقل قادر بلا قدرة ولا مريد بلا إرادة ، وهكذا في باقي الصفات .

(١) الكهف ١٢ .

(٢) لام العاقبة هي المآتي بها لبيان المآل والمصير كقول الشاعر .

يُنَادِي فِي صَبِيحَةِ كُلِّ يَوْمٍ لِدَوِّ الدُّودِ وَابْنُوا لِلْخُرَابِ

٢٩- حياته كذا الكلامُ السَّمْعُ ثمَّ البَصَرُ ، بذِي أَنَا السَّمْعُ

حياته : أي وتجب له الحياة ، وقد عرف الشيخ السنوسي الحياة بتعريف يشمل الحياة القديمة والحادثة حيث قال : هي صفة تصحح لمن قامت به الإدراك ، أي تصحح لمن قامت به أن يتصف بصفات الإدراك . وبعضهم عرف الحياة القديمة فقال : هي صفة أزلية تقتضي صحة الاتصاف بالعلم وبغيره من الصفات الواجبة ، وأما في حقنا فقد ينتفي العلم مع وجود الحياة ، كما في المجنون ، وحياة الله سبحانه لذاته ، فهي ليست بروح ، وحياتنا بسبب روح . ودليل وجوبها أن تقول : الله متصف بالقدرة والارادة والعلم ، وكل من كان كذلك تجب له الحياة ، فإله تجب له الحياة .

كذا الكلام : وتجب لله تعالى صفة الكلام ، ودليل وجوبها ، إما نقلي وحده ، أو مع العقلي على وجه الترتيب ، فالمعول عليه فيه الدليل السمعي كما سيذكره بقوله : بذِي أَنَا السَّمْعُ . وقد اختلف أهل الملل والمذاهب في معنى كلامه تعالى ، فقال أهل السنة هو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، ليست بحرف ولا صوت ، منزهة عن التقديم والتأخر والاعراب والبناء ، ومنزهة عن الـكـون النفسي (بأن لا يدبر في نفسه الكلام مع القدرة عليه) وعن الآفة الباطنية (بأن لا يقدر على ذلك) كما في حال الحرس والطفولية ، فهما مانعان من الكلام الظاهري ، والآفة الباطنية تمنع من الكلام النفسي ، والله منزّه عنها .

وقالت المعتزلة : كلامه هو الحروف والاصوات الحادثة وهي غير قائمة بذاته ، فمعنى كونه متكلماً عندهم : أنه خالق للكلام في بعض

الاجسام ، لزمهم أن الكلام لا يكون الا بحروف واصوات ، وهو
مردود بأن الكلام النفسي ثابت لغة ، كما في قوله تعالى :
يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول (١)

وقول ممر رضي الله عنه : إني زورت في نفسي مقالة ، وقول الاخطل :
ان الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا
وكلامه تعالى صفة واحدة ، لا تعدد فيها ، لكن لها اقسام
اعتبارية ، فمن حيث تعلقه بطلب فعل الصلاة مثلا - أمر ، ومن حيث
تعلقه بطلب ترك الزنا - منهي ، ومن حيث تعلقه بأن فرعون
فعل كذا (خبر) ، ومن حيث تعلقه بأن الطائع له الجنة (وعد) ، ومن
حيث تعلقه بأن العاصي يدخل النار (وعيد) ، إلى غير ذلك من الأقسام .
وتعلقه بالنسبة لغير الامر والمنهي تنجيزي قديم ، وأما بالنسبة
لها - فإن لم يشترط فيها وجود المأمور والمنهي - فكذلك ، اكتفاء
بوجود المأمور والمنهي في علم الله تعالى وتقديره . وان اشترط فيها ذلك
كان التعلق فيها صلوحيا قبل وجود المأمور والمنهي ، وتنجيزيا حادثا
بعد وجودهما .

واعلم ان كلام الله تعالى يطلق على الكلام النفسي القديم بمعنى :
انه صفة قائمة بذاته تعالى ، كما يطلق على الكلام اللفظي بمعنى : أنه
خلقه ، وليس لأحد في اصل تركيبه كسب ، وعلى هذا المعنى يحمل
قول السيدة عائشة : ما بين دفتي المصحف كلام الله تعالى . وكل من
أنكر ان ما بين دفتي المصحف كلام الله فقد كفر ، إلا إذا لم يرد به
الصفة القائمة بذاته تعالى .

ومع كون اللفظ الذي نقرأه حادثاً لا يجوز أن يقال : القرآن حادث ، الا في مقام التعليم ، لانه يطلق - ايضاً - على الصفة القائمة بذاته ، فربما يتوهم من اطلاق أن القرآن حادث ، أن الصفة القائمة بذاته تعالى حادثه ولذلك ضرب الأمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه وحسب على أن يقول ذلك فلم يرض .

قال السنوسي وغيره من المتقدمين : إن الألفاظ التي نقرأها تدل على الكلام القديم ، والكلام النفسي يدل - أزلاً وأبداً - على الواجبات والجائزات والمستحيلات ، ولكون الألفاظ المقروءة دالة على الكلام النفسي ولكون الدال على شيء دال على ما دل عليه ذلك الشيء ، كانت الألفاظ دالة من هذا الوجه على الواجبات والجائزات والمستحيلات . وعليه يكون بعض مدلول الألفاظ قديماً ، وبعضه حادثاً ، كما في قوله تعالى :

«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (١)

وقوله تعالى :

(إِنَّ فَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى) (٢)

والحاصل أن الكلام اللفظي يدل على الكلام النفسي دلالة عقلية التزامية بحسب العرف ، فإن من أضيف له كلام لفظي دل - عرفاً - على أن له كلاماً نفسياً ، وقد أضيف له تعالى كلام لفظي كالقرآن - فإنه كلام الله قطعاً ، بمعنى أنه خلقه في اللوح المحفوظ - فدل التزاماً على أن له تعالى كلاماً نفسياً وهذا هو المراد بقولهم «القرآن حادث ، ومدلوله قديم» فأرادوا

(١) آل عمران ٢ .

(٢) القصص ٥٦ .

بمدلوله الكلام النفسي . ولو كشف عنا الحجاب وفهمنا من الكلام القديم
طلب إقامة الصلاة - مثلاً - نفهم ذلك من قوله تعالى :

«وَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ» ^(١)

ومن نسب القرآن لغير الله تعالى فهو كافر ، قال الطحاوي : من سمعها
- أي آيات القرآن - فزعم أنها كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وأوعده

بسقر حيث قال تعالى

«سَأُصْلِيهِ سَقَرَ» ^(٢)

فلما أوعده الله تعالى بسقر على قوله ؛

«إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» ^(٣)

«علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر» ^(٤) .

وقد دلل الإمام الغزالي على وجوب صفة الكلام له تعالى بقوله :
من قال : إني رسول الجبل اليكم ، فلا يصغى اليه ، لاستحالة الكلام والرسالة
من الجبل ، كذلك من اعتقد استحالة الكلام في حقه تعالى استحالة منه
أن يصدق الرسول إذ المكذب بالكلام لا بد وأن يكذب بتبليغ الكلام ،
فالرسالة عبارة عن تبليغ الكلام ، والرسول عبارة عن المبلغ . كذلك
الكلام للحي إما كمال ، أو نقص ، ولا يقال هو نقص ، فيثبت بالضرورة
أنه كمال ^(٥) .

(١) البقرة ٤٣ . (٢) المدثر ٢٦ (٣) المدثر ٢٥

(٤) انظر الفقه الأكبر ص ٣٢ .

(٥) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي .

وأن كلا منها غير الانكشاف بالعلم ، ولكل حقيقة يفرض علمها لله تعالى . وأما السمع الحادث فهو قوة تدرك بها الأصوات على وجه العادة ، وقد يدرك بها غير الأصوات فقد سمع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام كلام الله تعالى القديم وهو ليس بحرف ولا بصوت

● قال السعد يتعلق السمع بالمسموعات . فإما أن مراده المسموعات في حقه تعالى وهي الموجودات « الأصوات وغيرها » فيوافق ما تقدم ، أو أن مراده المسموعات في حقنا وهي الأصوات فقط ، فيكون مخالفاً للسنوسي ومن تبعه .

● ثم البصر : وكذا البصر فهو مثل ما ذكر في وجوب اتصافه تعالى به ، وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالموجودات ، الذوات وغيرها ، وهي طريقة السنوسي ومن تبعه ، وقال السعد تتعلق بالمبصرات ، فإما مراده المبصرات في حقه تعالى فيشمل الذوات وغيرها أو المبصرات في حقنا فيشمل الذوات والألوان فقط ، « هذا ما يحتمله كلام السعد » فيبصر سبحانه جميع الموجودات حتى الأصوات ، ولو خفية ، بمعنى أن ذلك انكشف لله ببصره ، وليس الأمر على ما نعهده من أن البصر الحادث يفيد بالمشاهدة وضوحاً فوق العلم بل جميع صفاته تامة كاملة ، فيستحيل عليها الحفاء والزيادة والنقص إلى غير ذلك .

● بذوي أئانا السمع : أي بهذه الصفات الثلاثة التي هي الكلام والسمع والبصر أئانا الدليل السمعي ، والمراد أنه ورد الدليل بمشتقاتها ، قال الله تعالى :

« وكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا »^(١)

أي أزال عنه الحجاب وأسمعه الكلام القديم ، ثم أعاد الحجاب ، وليس المراد أنه تعالى يبتدىء كلاماً ثم يسكت ، لأنه لم يزل متكلماً أزلاً وأبداً خلافاً للمعتزلة في قولهم بأن المعنى ، أنه تعالى خلق الكلام في شجرة وأسمعه موسى ، ويرد كلامهم أن الأصل في الإطلاق الحقيقة ، وأكثر ما اشتهر في المناجاة غير ما سبق فيه ، كذب واختلاق .

وللسمع والبصر تعلقات ثلاثة :

أولاً - صوحي قديم ، وهو صلاحيتها في الأزل لا اكتشاف ذوات الكائنات وصفاتها بها فيما لا يزال .

ثانياً - تنبؤي قديم ، وهو انكشاف الذات العلية وصفاتها بها انكشافاً بغير انكشاف العلم ، إذ لكل صفة حقيقة تخالف حقيقة الأخرى ، غير أنها لا يتعلقان بالأمور العدمية (كالسلب) والأمور الثبوتية (كالأحوال)^(٢)

ثالثاً - تنبؤي حادث ، وهو انكشاف الممكنات بعد وجودها بها .

وقد أتى الدليل على صفتي السمع والبصر في الكتاب والسنة ،

قال تعالى :

« وهو السميعُ البصيرُ »^(٣)

(١) النساء ١٦٤ .

(٢) انظر حاشية الدسوقي على أم البراهين ص ١٠٩ .

(٣) الشورى ١ .

وعن أبي موسى الأشعري قال :

رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالدَّعَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ ، وَلَا غَائِبًا ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ، ^(١) . وَارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ : أَسْفَقُوا عَلَيْهَا . وَقَدْ أَرَادَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَقْرِيرَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ حِينَ قَالَ لِأَيُّهِ :

«يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ، وَلَا يُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» ^(٢) .

ولو كان لا يعتقد أن عدم السمع والبصر نقص لحاف أن ينقلب الدليل عليه في معبوده ، فيقال له : وأنت تعبد ما لا يسمع ولا يبصر . أضف إلى ذلك أن أهل اللغة لا يفهمون من «سميع ، وبصير» إلا ذاتاً قد ثبت لها السمع والبصر .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) مريم ٤٢ .

٣٠- فهل له إدراكٌ أولاً، خلفٌ وعند قومٍ صح فيه الوقفُ

فهل له إدراكٌ أولاً : حاصل ما ذكره الناظم أنه قيل بثبوت صفة الإدراك ، وقيل بانتفائها ، وقيل بالوقف . وقد اختلف أيضاً في صفة التكوين ، فأنبتها الماتريديّة ، وقالوا : هي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يوجد بها وبعدم ، ولكن إن تعلقت بالوجود تسمى بإيجاداً وإن تعلقت بالعدم تسمى بإعداماً وإن تعلقت بالحياة تسمى بإحياء ، وهكذا ، فصفات الأفعال عندهم قديمة ، لأنها هي صفة التكوين القديمة وعلى هذه الطريقة وظيفة القدرة تهمة الممكن بحيث تجعله قابلاً للوجود أو العدم ، إذ أن الممكن قبولاً امكانياً وقبولاً استعدادياً قريباً من الفعل ، ومثال ذلك : قش رطيب ، فقبوله للاشتعال يسمى قبولاً إمكانيّاً ، فإذا ما جفّف وأضعى يابساً ، سمي قبوله للاشتعال قبولاً استعدادياً قريباً من الفعل ، ونفاها الأشاعرة وقالوا : إن صفات الأفعال حادثة لأنها عبارة عن تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة ، وصفة التكوين - عندهم - ليست سوى صفة القدرة باعتبار تعلّقها بتعلّق خاص ، فالتخلّق هو القدرة باعتبار تعلّقها بالخلق ، وكذا التزريق . والصفات الفعلية هي التي يتوقف ظهورها على وجود الخلق ، والحد بين صفات الذات وصفات الفعل أن ما يلزم من نفيه نقيضه ، فهو من صفات الذات ، فإنك لو نفيت الحياة للزم الموت ، ولو نفيت القدرة للزم العجز ، وكذا العلم مع الجهل ، ولو نفيت الإرادة للزم منه الجبر والاضطرار ، ولو نفيت عنه سبحانه الكلام للزم الحرس

والسكوت ، فثبت أنها من صفات الذات ، وإن مالا يلزم من نقيضه نقيضه فهو من صفات الفعل ، فلو نفيت الاحياء أو الإمامة أو الخلق أو الرزق لم يلزم منه نقيضه ، وصفات الأفعال حادثة - عند الأسعرة - لأنها عبارة عن تعلقات القدرة ، وتعلقاتها حادثة .

والإدراك : في حق الحادث هو تصور حقيقة الشيء المدرك ، وأما في حقه تعالى - على القول به - فهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تسمى الإدراك ، قيل إنه يدرك بها كل موجود ، وقيل يدرك بها الملموسات (كالعومة) والمشمومات (كالروائح) والمذوقات (كالحلاوة) من غير اتصال بها لها التي هي الاجسام ، ولا تكيف بكيفيتها لان الاتصال والتكيف إنما هو عادي في حصول الإدراك وقد ينفك . وقد سرح بعض المتأخرين بأنها صفة واحدة ، لكن الواقع في كتب علم الكلام أنها ثلاث صفات ، إدراك الملموسات ، وإدراك المشمومات ، وإدراك المذوقات . ودليل المثبتين لها كالباقلافي وإمام الحرمين : بأنها كمال ، وكل كمال واجب لله ، لانه لو لم يتصف بها لاتصف بضدها ، وهو نقص ، والنقص عليه تعالى محال ، فوجب أن يتصف بها على ما يليق به من غير اتصال بالاجسام ، ومن غير وصول الذات . والآلام له تعالى .

ودليل النافين لها : أنه لو اتصف بها للزم الاتصال بها لزموا عقلياً ، فلا يتصور انفكاكه ، والاتصال مستحيل ، فلذا يستحيل الاتصاف بها . وتقدم أن المثبتين قد جعلوه تلازماً عادياً بحيث يمكن انفكاكه . وأن دعواهم - أنه تعالى لو لم يتصف بها لاتصف بضدها - فاسدة ، لان العلم

الواجب له تعالى ينفي الانصاف بضدها : فعلمه سبحانه محيط بتعلقاتها ، وهو كاف عنها ، ولم يرد بهذه الصفة دليل سمعي ، ولا يفهم من خلق المكنونات ثبوتاً له تعالى ، لان خلقها لا يتوقف عليها ، كما يتوقف على القدرة والارادة والعلم .

‘خلف’ : هذا الاختلاف مبني على الاختلاف في دليل الصفات الثلاثة السابقة التي هي الكلام ، والسمع ، والبصر ، فمن أثبتها بالدليل العقلي - فقال : إنها صفات كمال ، ولو لم يتصف بها لاتصف بأضدادها ، وأضدادها نقائص ، والنقص عليه محال - أثبت هذه الصفة التي هي صفة الادراك ، ومن أثبت الصفات الثلاثة بالدليل السمعي نفى الصفة المذكورة لانه لم يرد به سمع^(١) .

● وعند قومٍ صح فيه الوقف^٢ : أى وصح التوقف عن القول بإثبات الإدراك أو نفيه عند قوم من المتكلمين - كالقترح وابن التلمساني وبعض المتأخرين - لتعارض الأدلة ، فهم لا يهزمون بالإثبات ولا بالنفي . وهذا القول أسلم وأصح من القولين الأولين . وقد اختلف أيضاً في كونه مدركا أو لا ، تبعاً للاختلاف في الادراك ، والأصح الوقف عن ذلك .

(١) إن عدم ورود السمع يقتضي الجزم بعدم ثبوت هذه الصفة ، لا الوقوف . لكنهم توقفوا نظراً لعدم ورود من جهة ، ولثبوت هذه الصفة في الشاهد من جهة أخرى « من حاشية الدسوقي بتصرف ص ١١٧ » .

٢١ حيّ عليمٌ قادرٌ مُريدٌ سميعٌ بصيرٌ ما يشأ يُريدُ

● حي : هذا شروع فيما هو كالنتيجة لما قبله ، وهو الصفات المعنوية وهي سبع : وقيل لها : المعنوية نسبة للسبع المعاني ، لأن الاتصاف بها كالفرع للاتصاف بالمعاني ، باعتبار التعقل ، لا باعتبار التأخر في الزمان . وإن اتصاف محل من المحال بكونه عالماً أو قادراً - مثلاً - لا يصح إلا إذا قام به العلم أو القدرة . وإن عد هذه السبع في الصفات هو على سبيل الحقيقة ، إن قلنا بصفات الأحوال ، وهي صفات ثبوتية ، ليست بموجودة ولا بمعدومة ، قائمة بموجود ، فهذه الصفات ثابتة قائمة بذاته تعالى . وأما إن قلنا بنفي الأحوال ، وأنه واسطة بين الوجود والعدم - كما عليه الأشعري وهو المعتمد - فالثابت من الصفات التي تقوم بالذات إنما هو السبع الأول ، أي صفات المعاني . أما هذه فهي عبارة عن قيام تلك بالذات ، لا أنها لها ثبوتاً بالخارج عن الذهن بحيث يقال فيها : إنها قائمة بالذات ، وهذا لا ينافي أنها أمر اعتباري ثابت في نفسه بقطع النظر عن اعتبار المعتبر فالأحوال صفات قارة في الذات بخلاف الاعتبار الثابت في نفس الأمر فإنه غير قار فيها .

● وحيث وجبت له الحياة فهو سبحانه حي كما علم من الدين ضرورة ، وثبت من الكتاب والسنة بحيث لا يمكن إنكاره ولا تأويله . قال الله تعالى :

«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» ، (١)

(٢) البقرة: ١٠٠ .

وقال: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (١) .

والقيوم : القائم بتدبير خلقه ، والسَّنة : النعاس ، وحقيقة الحي هو الذي تكون حياته لذاته ، وليس ذلك لأحد من الخلق . والكون حياً عبارة عن قيام الحياة بالذات ، وهو أمر اعتياري .

لذلك 'تعرف' الصفات المعنوية بأنها صفات ثبوتية ، أى ثابتة للذات ، وهي كل صفة ثابتة لا توصف بالوجود - كالمعاني - ولا بالعدم - كالسلبات - ملازمة للسبع الأول .

والفرق بين المعاني والمعنوية أن المعاني صفات وجودية والمعنوية ثبوتية . بمعنى أنها عبارة عن قيام المعاني بالذات ، وهذا هو المعتمد . وأن المعاني ملزومة للمعنوية عقلاً والمعنوية لازمة للمعاني ، بمعنى أنه يلزم من كونه قادراً أنه موصوف بالقدرة ، كما يلزم من اتصافه بالقدرة كونه قادراً ، وأن الصفات المعنوية واجبة له تعالى إجماعاً ، على مذهب أهل السنة والمعتزلة .

(١) طاهر ٦٤، ٦٥ .

تنبيه : التحقيق أن من ينفي المعنوية يكفر ، إن أثبت ضدها ، لأن الحق نفي صفات الأحوال ، أما النافي لأن يكون له تعالى صفة قديمة يقال لها : الكون عالماً ، وهو مثبت لانكشاف الأشياء له تعالى أزلاً بذاته فلا ضرر في ذلك . وأما صفات المعاني فنفي زيادتها على الذات مع إثبات أحكامها لها فموجب للفسق فقط ، وأما نفيها مع إثبات اضدادها فهو كفر^(١) .

علم : أي وحيث وجب له العلم فهو علم بمعنى عالم ، وهو الذي علمه شامل لكل ما من شأنه أن يعلم . وصيغة المبالغة « علم » باعتبار كثرة المعلوم ، وإن كانت صفة العلم واحدة . قال الله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ، يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) (٢)

وقال تعالى أيضاً :

(يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)^(٣) .

وقال تعالى حكاية عن لقمان :

« يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي

(١) انظر حاشية الدسوقي على أم البراهين ١١٨ .

(٢) سبأ .

(٣) التغابن ٤ .

صخرة أو في السموات أو في الأرض يا الله إن الله لطيف خبير»^(١)

وقال حكاية عما وقع بين شعيب وقومه :

«وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا»^(٢) .

وقال : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ،

مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ

وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ

يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»^(٣) .

وقال : «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ، وَلَا تَعْمَلُونَ

مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَغْرِبُ

عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرَ

مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »^(٤) .

وهذه آيات كثيرة مبثوثة في كتاب الله دالة على سعة علمه تبارك

(١) لقمان ١٦ .

(٢) الأعراف ٧٨ .

(٣) المجادلة ٧ .

(٤) بولس ٦١ .

وتعالى وإحاطته بكل شيء قل أو كثر ، دق أو عظم .
 قادر : أي وحيث وجبت له القدرة فهو قادر . والقادر هو الذي
 إن شاء فعل وإن شاء ترك ، فهو المتمكن من الفعل والترك ، فيكون
 منه كل منها بحسب ما خصصته الإرادة على وفق ما انكشف بالعلم .
 قال الله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من
 البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة
 ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ...) .
 إلى أن قال :

(وأنه يُحْيِي الْمَوْتَى وأنه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) . (١)
 وقال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) . (٢) اللغوب : التعب
 (وهو الذي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ، وَهَذَا مِلْحٌ
 أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُخْجوراً . وَهُوَ الَّذِي
 خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ، وَكَانَ رَبُّكَ
 قَدِيرًا) (٣) .

والمرج : الارسال ، والفرات : شديد العذوبة ، والأجاج شديد

(١) الحج ٦ .
 (٢) ق ٣٨ .
 (٣) الفرقان ٥٣-٥٤ .

الملوحة ، والبرزخ : الحاجز ، والحجر المحجور : السور المستور الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر ، وخلق من الماء : أي من النطفة .
وقال سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ . وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١)

والودق : المطر ، وسنا البرق : لمعانه .

مريد : أي وحيث وجبت له الإرادة فهو مريد . والمريدهو الذي تتوجه إرادته الى المعلوم فتخصصه بالوجود بدلاً عن العدم - مثلاً - :
قال الله تعالى :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٢)

(١) النور ٤٣ - ٤٤ .

(٢) يس ٨٢ .

وقال أيضاً : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق علينا القول قدمرناها تدميراً » . (١)

وأمرنا مترفيها : أي أمرنا رؤساءها بالطاعة - على لسان - الرسل ففسقوا فيها .

• ممع : أي مبيع « حذفت الياء للضرورة » وحيث وجب له السمع فهو مبيع ، والسميع هو الذي يسمع كل موجود . قال الله تعالى :

« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » (٢)

ومعنى تجادللك : تراجعك وقال أيضاً : لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون

« إِنِّي مَعَكُمْ أُنْصِتُ وَأَرَى » (٣)

• بصير : وحيث وجب له البصر فهو بصير ، وهو الذي يبصر الأشياء ، فهو سبحانه يحيط بالسموعات والمبصرات من غير أن يشغله شأن عن شأن قال :

« أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى » (٤)

-
- (١) الإسراء ١٦ .
 - (٢) المجادلة ١ .
 - (٣) طه ٤٦ .
 - (٤) العلق ٣٤ .

● مايشا يريد : أشار - هنا - الى اختيار مذهب الجمهور من اتحاد المشيئة والإرادة وأنه يطلق إحداهما على الأخرى ، والمعنى : أن كل مايشاؤه الله تعالى فهو - من حيث إنه مشاء له - مراد له ، وكلما يريدته فهو - من حيث إنه مراد له - مشاء له ، خلافاً للكرامية الزاعمين بأن المشيئة صفة واحدة أزلية تتناول مايشاؤه الله بها ، والإرادة حادثة متعددة بتعدد المرادات .

ومراتبه سبعانه هي شؤونه بخلقه ، وشؤونه بيديها ولا يبتديها ، أي هي أحوال يظهرها للناس ولا يبدئها علماً ، لأنه تعالى يعلم الاشياء أزلاً ، خلافاً لمن قال « الأمر أنف » ، أي يستأنف الله الاشياء علماً وهم قوم كفار لانهم أنكروا القدر .

٣٢- مُتَكَلِّمٌ ثُمَّ صِفَاتُ الذَّاتِ لَيْسَتْ بِغَيْرٍ أَوْ بَعَيْنِ الذَّاتِ

● متكلم : وحيث وجب له الكلام فهو متكلم ، ولا خلاف لأرباب المذاهب والملل في أنه تعالى متكلم ، وإنما الخلاف في معنى كلامه وقد تقدم معناه ^(١) ، وقد اختلفوا في قدمه وقد تقدم بيانه أيضاً وسيأتي في قوله : ونزه القرآن أي كلامه * عن الحدوث واحذر انتقامه .

● ثم صفات الذات : أورد النافون لصفات الذات شبهة هي : أن الصفات الوجودية إما أن تكون « حادثة » فيلزم قيام الحوادث بذاته تعالى ، ويلزم خاؤه تعالى في الأزل عنها . وإما أن تكون « قديمة » فيلزم تعدد القدماء وهو كفر بإجماع المسلمين ، والغرض هنا بيان حكم صفات الذات ، وهو أنها ليست بعين الذات ، ولا بغيرها ، ولم تكن عنها لأن حقيقة الذات غير حقيقة الصفات ، وإلا لزم اتحاد الصفات والموصوف ، وهو لا يعقل ، ولم تكن غيرها لأنها قائمة بالذات ، أي ليست غيراً منفكاً عن الذات ، وإن كانت غيراً في المفهوم ، وعلى هذا يظهر بطلان القول بتعدد القدماء ، وإنما يلزم التعدد وقيام الحوادث بذاته تعالى فيما لو كانت كل صفة قائمة بنفسها . ولكون الصفات ليست غيراً بالمعنى المتقدم وقع التسامع بإضافة ما للذات إليها نحو : « كل شيء نواضع لقدرته » والمواد

(١) راجع البيت (٢٩) .

تواضع كل شيء ذاته لأجل قدرته ، وإلا فعبادة مجرد الصفات كفر ،
وعبادة مجرد الذات فسق ، والقول المستقيم عبادة الذات المتصفة بالصفات .
والصفات السلبية لا تدخل في الخلاف السابق لأنها غير قائمة بالذات ،
فهي أمور عدمية وكذلك صفات الأفعال - كالإحياء والإماتة - فإنها
غير قائمة بها أيضاً ، لأنها منفكة ، فهي تعلقات القدرة التمييزية الحادثة ،
كما سبق . والصفة النفسية - التي هي الوجود - مثل مامن ، من حيث
عدم الدخول في الخلاف . إذ أن الوجود عين الموجود ، فهو ليس زائداً
على الذات .

- ليست بغير : أي ليست بغير الذات ، والمراد ليست غيراً
منفكاً فلا ينافي أنها غير ملازم ، أي قائم بالذات .
- أوجعين الذات : أي ليست عين الذات ، لأنهما مختلفتان تخالف
معرفة الذات ، فهي صفات مغايرة للذات ، مفهومها ، لكنها قائمة بالذات ،
لذا يحال أن يقوم الوصف بنفسه ، وهي واجبة لذاتها ، مثل وجوب
الذات كما هو الحق ، وليست ممكنة في ذاتها واجبة لغيرها بسبب
اقتضاء الذات لها (١) .

(١) ثمرة العلم بهذه الصفات من وجهين ، الأول وفكري عقدي يصحح به المكلف
فكره وعقيدته فيبني إيمانه على قاعدة راسخة ثلاثية الشكوك والتشبهات . والثاني :
شهودي ذوقي ، وهذا ثمرة للوجه الأول إن واكب سلوك تعبدية سوية وصحية
صالحة قلبية ، وذكر يستغرق الأوقات ، فيشهد عندها المكلف أن الله هو الصميع ،
فيحفظ لسانه ، بل يراقب خلجات قلبه وهو اجس نفسه ، ويعلم أنه خلق له
السمع ليسمع به كلام الله تعالى ، فيزداد به هداية ويعهد أنه يرى من الله تعالى ،
فلا يستبين بنظره إليه وأخلاه عليه وإن أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله
فقد استبان بنظر الله تعالى إليه ، ويعلم أنه خلق له البحر لينظر في الآيات المبثوثة =

٣٣ - فِقدرةٌ بُممكنٍ تعلَّقتْ بِلا تَنَاهِيٍّ ما بِهِ تعلَّقتْ

● فِقدرةٌ بُممكنٍ تعلَّقتْ : الفِقدرةُ لغةً : عبارة عن الصِفة التي بها يتبَيَّ الفعل للفاعل ، وبها يقع الفعل . ولما طوى ذيل مباحث الصِفات شرع هنا في نشر ما لها من التعلقات . والتعلق : هو طلب الصِفة أمراً زائداً على الذات يصلح لها . والذي اعتمده المحققون أن التعلق لصفات المعاني فقط ، وبعض المتكلمين قال : التعلق للمعنوية . ولم يقل أحدٌ بها معاً لئلا يجتمع مؤثرين على أثر واحد ، في القدرة والكون قادراً ، والإرادة والكون مريداً ، وهكذا .

واعلم أن صفات المعاني من حيث التعلق وعدمه ، ومن حيث شموله لأوجب والجائز والمستحيل أقسام :

فالقدرة تتعلق بالمكنات إيجاباً أو إعداماً ، والارادة تتعلق بالمكنات تخصيماً لها . ببعض ما يجوز عليها ، وتعلقها قديم ، والعلم يتعلق بالواجبات

= وعجائب الملك فيزداد عبدة وإيماناً . وهذه المراقبة هي إحدى ثمرات الإيمان بهاذين الصفتين ، بل يقوي بها عزمه ، ويشد أزره ، ولا يهرب مخلوقاً لعله بأن الله معه يسمع ويرى ، وقد قال سبحانه لموسى وأخيه عليهما الصلاة والسلام (إلى معكأ أسمع وأرى) بل لا يطوف على قلبه طائف الرباء اكتفاء بسمع الله وبصره إذ الرباء قرين الغفلة عن الله لأنه إكتفاء بسمع الناس وبصرهم . ومن قارف معصية ، وهو يعلم بأن الله تعالى يراه فلا أجراه ، وإن ظن أنه لا يراه فأكبره . ويشهد المكلف أن الله هو القدير فابو جل له فؤاد ، ولا يهرب من مخلوق كيف وقد قال سبحانه (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً) ويشهد أنه لا يند عن إرادته سبحانه مخلوق ، فلا يحزن على ما فات ويسلم أمره . رب الأرض والسماوات فيبحث في روخات الصلح عبوراً ، وخبره في مضائق الغفلات محصوراً .

والجائزات والمستحيلات تعلق انكشاف . والكلام بتعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات تعلق دلالة . والسمع والبصر والادراك - على القول به - تتعلق بالموجودات ، سواء قديمها وحادثها ، لكنه في القديم قديم وفي الحادث حادث . والحياة لا تتعلق بشيء ، فهي لا تقتضي أمراً زائداً على قيامها بالذات . ومعرفة هذه التعلقات غير واجبة على المكلف لأنها من غوامض علم الكلام . ولكنها ركن ركين في معرفة الله سبحانه ، وفي شهود تجلياته .

فالقدر لا تتعلق إلا بالممكن فلا تتعلق بواجب ولا بمستحيل بل كل ممكن داخل في متعلقها ، إذ لو خرج ممكن عنه لزم منه العجز وهو محال عليه تعالى (١) . والممكن هو ما لا يجب وجوده ، ولا عدمه لذاته ، ولو وجب وجوده أو عدمه لفسده .

(١) عموم التعلق بكل ممكن ثابت لأن صفة الإمكان لا تنحصر في عدد من الممكنات بل هي صفة عامة في كل ممكن يتصور في العقل وجوده وعدمه لهذا لا يمكن الإشارة إلى حادث - مرضا كان أو شفاء ، حرارة أو برودة ، شعباً أو رياً ، عطاء أو منعا موتاً أو حياة - بأنه خارج عن تعلق القدرة به مع تعلقها بمثله ، إذ بالضرورة يعلم أن ما وجب لشيء وجب لمثله . قال الغزالي : إنكار عموم تعلق القدرة بإنكار لما أطبق عليه السلف - رضي الله عنهم - من أنه لا خالق إلا الله ولا مخترع سواه ، كذلك في إنكارها نسبة الاختراع والخلق إلى قدرة من لا يعلم ما فعله من الحركات ، فالصبي يدب إلى ثدي أمه ويمتص ، والهرة تدب إلى أمها وهي مغمضة عينيها ، والعنكبوت تلتصق من البيوت ما يجير عقول المهندسين في استدارتها وتوازني أضلاعها وتناسب ترتيبها ، وبالضرورة يعلم انفكاكها عن العلم بما يعجز المهندسون والعقلاء عن معرفته . والفحل تشكل بيوتها على شكل التسديس ، فلا يكون فيها مربع ولا مدور ولا شكل آخر لأن الشكل المسدس له خصائص عجيبة دلت عليها البراهين الهندسية لا توجد في غيرها ، فالأشكال =

فالذي تعلق علمه تعالى بوجوده من الممكنات ، وخصصته إرادته ، فهو - وإن كان ممكناً في ذاته ، متساوياً وجوده وعدمه - واجب الوجود لغيره ، كإيمان أبي بكر الصديق . والذي تعلق علمه تعالى بعدم وجوده من الممكنات ، وخصصته الإرادة فهو - وإن كان ممكناً في ذاته - واجب الوجود لغيره ، كإيمان أبي جهل . وقد قال سيدي محمد الهاشمي :
والحاصل أن الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام :

أولاً - الواجب الذاتي : (كوجود الله سبحانه وصفاته) ولا يتفرع عن هذا شيء ، أي لا يكون جائزاً عرضياً ولا محالاً عرضياً ، لما يلزم عليه من قلب الحقائق .

ثانياً - المحال الذاتي : (كاستحالة وجود الشريك لله سبحانه) ولا يتفرع عن هذا شيء ، أي لا يكون جائزاً عرضياً ولا واجباً عرضياً ، لما يلزم عليه من قلب الحقائق .

= المسدرة إذا وضعت متراحة بقيت بينهما فرج معطلة لا عالة ، وكذلك الأشكال القرية من المستديرة ، كالبيضوي والمربع والمثلث ، ولما كان التحل عتاجاً إلى شكل قريب من الدائر ليكون حاوياً لجسمه - لأنه قريب من الاستدارة - وكان عتاجاً - لضيق مكانه وكثرة عدده - إلى أن لا يضيع موضعاً بفرج تتخلل بين البيوت ولم يكن في الأشكال شكل يقرب من الاستدارة ، وله هذه الخاصية - خاصية التماس والخلو عن الفرج - إلا المسدس فقد سخرها الله تعالى لاختيار الشكل المسدس في صناعة بيتها . فليت شعري أعرف التحل هذه الحقائق التي يقصر عن دركها أكثر عقلاء الإنس ، أم سخره الخالق المنفرد بالجبروت لنيل ما هو مضطر إليه ، فتقدير الله تعالى يجري عليه ، وفيه ولا بدريه ، ولا قدرة له على الامتناع منه . وفي صناعات الحيوانات ما إن أوردته امتلأت الصدور من عظمة الله تعالى وجلاله . فتمسأ للزائفين عن طريق الهدى ، الظانين أنهم مساهمون مع الله في الخلق والاختراع (انظر كتاب الاقتصاد للغزالي) .

فأشأ - الجائز الذاتي : (كوجود المكونات) ولا يكون الجائز إلا ذاتياً ، أي لا يكون جائزاً عرضياً متفرعاً عن الواجب الذاتي ، ولا جائزاً عرضياً متفرعاً عن المحال الذاتي ، كما سبق وبيناه ، وقد يعرض الجائز الذاتي الوجوب (كوجود الجنة والنار) لإخبار الشرع بوقوعه فيسمى الواجب العرضي . أو قد يعرض له الاستعالة (كدخول الكافر الجنة) بإخبار الشرع بعدم وقوعه ، ويسمى المستحيل العرضي . والعرضي لا ينافي الامكان الذاتي ، وإنما ينافيه الواجب الذاتي ، والمحال الذاتي ، لما فيه من قلب الحقائق^(١) .

والقدرة تتعلق بما وجب عدم وجوده لغيره تعلقاً صلوحياً قديماً ، بمعنى أنها صالحة لانجازه أولاً ، لا تنجيزياً حادثاً ، وإلا لانقلب العلم جهلاً وهو محال ، إذ أنه لو تعلقت به القدرة تعلقاً تنجيزياً حادثاً لوجد ، ووجوده يناقض ما في العلم من عدم وجوده .

● بلا تناء ما به تعلقت : أي متعلقات القدرة لا تنتهي إلى حد ونهاية في جانب المستقبل ، إذ منها نعم الجنان ، وهو متجدد شيئاً فشيئاً ، ومنها عذاب النيران وهو أبدي مرمدي . أما ما وجد منها في الخارج فهو متناه ، لأن كل ما حصره الوجود من الممكن فهو متناه . وقد فسر قوله (بلا تناء) بأن القدرة لا تنتهي عند طائفة من الممكنات ، بأن تتعلق بها دون غيرها بل هي عامة تتعلق بجميعها ، بحيث لا يشذ عنها ممكن .

(١) مفتاح الجنة ٧٠ - ٧٤ .

٣٤- وَوَحْدَةً أَوْجِبْ لَهَا وَمِثْلُ ذِي إِرَادَةٍ وَالْعِلْمُ لَكِنْ عَمَّ ذِي
٣٥- وَعَمَّ أَيْضًا وَاجِبًا وَالْمُتَنَبِّعُ وَمِثْلُ ذَا كَلَامِهِ فَلْتَنْتَبِعْ

● ووحدة أوجب لها : أي اعتقد وجوب وحدتها ، وهي أن الله تعالى قدرة واحدة لأن تعددها لا يقتضيه معقول ولا منقول ، إذ لو كان له تعالى قدرتان للزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد فالقدرة واحدة والمقدور متعدد كالحركة والسكون وغيرهما .

● ومثل ذي « إرادة » : المعنى أن إرادة الله تعالى مثل قدرته في الأمور الثلاثة المتقدمة التي هي : تعلقها بكل ممكن ، وعدم تناهي متعلقاتها ، وإيجاب الوحدة لها بلا تفاوت بينها . فالمثلية إنما هي في هذه الثلاثة ، وإن اختلفت جهة التعلق فيها ● فالقدرة تبرز الممكن من العدم إلى الوجود ، أو تخرجه عن الوجود إلى العدم ، والإرادة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ● ويسدل على عموم تعلق الإرادة أدلة عقلية كأن يقال : لو تعلق ببعض الممكنات دون الآخر لزم عليه الترجيح بلا مرجع ، والترجيح بلا مرجع باطل ، فينتج أن التعلق ببعض الممكنات باطل ، ويثبت تعلقها بجميعها . والأدلة السمعية على ذلك هي كقوله تعالى :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (١)
والمراد من ذلك - والله أعلم - أنه متى تعلقت إرادته أولاً وقدرته حالاً بشيء برز في الحال ، فهو كناية عن مرة وجود مراده تعالى ، وعدم

تخلفه ، وليس المراد من ذلك ما هو ظاهره من أنه تعالى إذا أراد شيئاً يصدر منه أمر للكائنات بلفظ (كين) .

إعلم أن الإرادة تعلقين : صلوحياً قديماً ، وهو صلاحيتها في الأزل لتخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه كتخصيصه بالوجود أو بالعدم ، بالغنى أو بالفقر ، وهكذا . وتعلقاً تنجيزياً قديماً ، وهو تخصيص الله بها أولاً الممكن ببعض ما يجوز عليه .

● والعلم : هو مثل القدرة في الأمور الثلاثة ، وهي تعلقه بالممكنات وعدم تنامي متعلقاته ، وإيجاب الوحدة له بإجماع من يعتد بإجماعه ، فإنه لم يذهب أحد إلى تعدد علمه تعالى بعدد المعلومات إلا أباسهل الصعوكي فقال بعلوم قديمة لا نهاية لها ولو كان له علوم لا نهاية لها ، فكل علم هل يكشف كل المعلومات أم لا ؟ فإن كشفها كلها فما يكون بالنسبة لبقية العلوم إلا تحصيل حاصل ، إذ كل المعلومات مكشوفة لأحدها - كما فرض - وإن لم يكشفها كلها فهو علم ناقص لا يوصف به الله تعالى فتثبت وحدة صفة العلم .

● لكن عم ذي : استدرك هنا ليدخل الواجب والمستحيل في متعلقات العلم ، إلا يتوهم أن العلم متعلق بالممكنات فقط ، كما يقتضيه تشبيهه بالقدرة فالعلم يشمل من حيث التعلق ● الواجب العقلي (كذاته تعالى وصفاته) ● والممتنع العقلي (كاستحالة الشريك له تعالى أو كاتخاذ ولد أو صاحبة) بمعنى أنه يعلم استحالة ذلك ، ويعلم أنه لو وجد لرتب عليه من الفساد كذا وكذا . والجائز العقلي :

وقد قال الله تعالى فيه : « يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (١)

(١) الحديد ٤ .

وليس للعلم إلا .تعلق تنجيزي قديم فقط على التحقيق .

● واعلم أن " تعلقات القدرة والإرادة والعلم مترتبة - عند أهل الحق - باعتبار التعقل فقط في التعلقات القديمة أما في تعلقات الحادث منها (كتعلق القدرة التنجيزي بالحادث) مع القديم (كتعلق العلم والإرادة) فالترتيب على الحقيقة ، أي في التعقل والخارج .

● فننتقل أولاً لتعلق العلم ، ثم تعلق الإرادة ، ثم تعلق القدرة الصلوبي ، فتعلق القدرة تابع لتعلق الإرادة ، وتعلق الإرادة تابع لتعلق العلم ، وليس بين هذه التعلقات ترتيب في الخارج لأنها كلها قديمة ، والقديم لا ترتيب فيه خارجاً وإلا " لزم أن المتأخر حادث . وأما بين تعلق القدرة التنجيزي بالحادث وتعلق الإرادة الصلوبي والتنجيزي القديمين ، وتعلق العلم التنجيزي القديم فالترتيب في الخارج ، وفي التعقل ، لأن تعلق القدرة التنجيزي بالحادث متأخر عن هذه التعلقات القديمة ضرورة تأخر الحادث عن القديم

● ومثل ذا كلامه : أي كلامه مثل علمه ، فكلامه النفسي القديم القائم بذاته تعالى مثل العلم فهو عام التعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات ، ولا تنهاى متعلقاته وهو واحد لأنه لم يرد السمع بالتعدد ، بل انعقد الإجماع على نفي كلام ثان قديم . لكن تعلق العلم على سبيل الكشف ، أما تعلق الكلام فعلى سبيل الدلالة ، وهو تعلق تنجيزي قديم بالنظر في الأمر والنهي ، فهو يدل أولاً على أن ذاته وصفاته تعالى واجبة ، وعلى أن الشريك والولد مستحيلان ، وأن رزق زيد وعلمه جائزان ، وأن من أطاع فله الجنة - ويسمى هذا وعداً - ومن عصى فله النار - ويسمى هذا وعيداً - أما بالنسبة للأمر والنهي فإن اشترط وجود المأمور والمنهي فتعلق تنجيزي حادث ، وإلا فقديم .

● فلنتبع : لعموم المحل وصعوبته يشير إلى أنه ليس لنا في هذا المقام إلا اتباع القوم ، خصوصاً في إثبات التعلقات الأزلية .

٣٦- وكل موجوداً نط للسمع به كذا البصر إدراكه إن قيل به

● وكل موجود أنط للسمع به ^(١) : أي اعتقد تعلق السمع الأزلي بكل موجود .

● كذا البصر : أي فهو مثل السمع في وجوب اعتقاد تعلقه بكل موجود .

● إدراكه إن قيل به : أي والإدراك كالسمع والبصر ، على القول بثبوت الإدراك كما مر في قوله (فهل له إدراك أولاً ؟ خلاف) ^(٢) فهذه الصفات الثلاثة متحدة المتعلقت مع أنها متعددة ، وكل منها له حقيقة من الإنكشاف ليست عين حقيقة غيره ، ولا يعلم تلك الحقيقة إلا الله تعالى . وكلام السعد وغيره على أن السمع الأزلي صفة تتعلق بالمسموعات ، وأن البصر الأزلي صفة تتعلق بالمبصرات ، فإن قصد المسموعات في حقنا فهو مخالف لما عليه الشيخ السنوسي ومن تبعه من أن السمع يتعلق بكل موجود ، وإن قصد المسموعات في حقه تعالى فهو موافق للسنوسي وهكذا يقال بالنسبة للبصرات . والإدراك على القول به يتعلق بكل موجود ، وقول آخر أنه يتعلق بالمعوسات والمشومات والمذوقات من غير اتصال بمجالها . ولسمع والبصر والإدراك - إن قيل به - ثلاثة تعلقات .

تنجيزي قديم : وهو التعلق بذات الله سبحانه وصفاته . وصولحي قديم : وهو صلاحية التعلق بنا قبل وجودنا ، وتنجيزي حادث : وهو التعلق بنا بعد وجودنا .

وأشار الناظم الى عدم تناهي متعلقاتها بقوله : (وكل موجود ،

فإن : لفظ كل : من أدوات العموم . وسكت عن وحدة هذه الصفات للعلم بها من وجوبها بنظائرها كالقدرة والإرادة ، إذ لا فرق بينها .

(١) كل : إما مفعول محذوف يفسره فعل - أنط - ، أو مبتدأ وجهه أنط خبره .

(٢) انظر البيت رقم ٣٠ .

٣٧- وَغَيْرُ عِلْمٍ هَذِهِ كَمَا ثَبَتَ ثُمَّ الْحَيَاةُ مَا بِشَيْءٍ تَعَلَّقَتْ

وغير علم هذه : هذه الصفات الأربع ، وهي الكلام والسمع والبصر والإدراك ، غير العلم . ودفع بهذا توهم اتحادها مع العلم ، لاتحاد متعلق الكلام معه . واندراج متعلق السمع والبصر والإدراك في متعلقه . لاسيما وتعلق هذه الثلاثة بتعلق انكشاف كتعلق العلم . وكما أنها تفار العلم فكذلك تغاير بعضها بعضا .

كما ثبت : كالتغاير الذي ثبت عند القوم بالأدلة السبعة . لأن هذه الصفات إنما ثبتت بالسمع ، بالنسبة لبعضها . فكل لفظة تدل على معنى مخالف لللفظة الأخرى لغة . وإذا ثبت تغايرها - لغة - ثبت تغايرها شرعاً . فكنه كل واحدة غير كنه الأخرى . ونفرض علم كل ذلك إلى الله سبحانه وتعالى .

ثم الحياة ما بشيء تعلقت : المعنى أن الحياة لاتتعلق بشيء ، سواء كان معدوماً أو موجوداً . فليست من الصفات المتعلقة . لأنها صفة مصححة لمن قامت به أن يتصف بصفات الإدراك ، ولا تقتضي أمراً زائداً على قيامها بمحلها (وهو الذات) .

٣٨- وَعِنْدَنَا أَسْمَاؤُهُ الْعَظِيمَةُ كَذَا صِفَاتُ ذَاتِهِ قَدِيمُهُ

● وعندنا : لما فرغ من الصفات وتعلقاتها شرع في مبحث يجب اعتقاده . فيجب على المكلف أن يعتقد أن أسماء الله العظيمة قديمة . وكذا صفات ذاته .

فأَسْمَاؤُهُ الْعَظِيمَةُ - عندنا معاصر أهل الحق - قديمة ، خلافاً للمعتزلة في قولهم « بأن أسماءه تعالى حادثة ، وأنهما من وضع الخلق » وهي قديمة لا باعتبار ذاتها إذ هي ألفاظ ، والألفاظ حادثة قطعاً ، وإنما باعتبار التسمية بها . والمراد بالتسمية القديمة ، وهي دلالة الكلام أزلاً على معاني الأسماء من غير تبعض ولا تجزئة في الكلام . فإله تعالى لم يزل مسمى بأسماء قبل وجود الخلق ، وعند وجودهم ، وبعد فناهم . لأنه لا تأخير لهم في أسمائه ، هذا ما يفهم من كلام القرطبي رحمه الله .

● أَسْمَاؤُهُ : المواد ما دل على الذات بمجردا (كآله ، وَخُدَاي في الفارسية) أو ما دل على الذات باعتبار الصفة (كالعالم والقادر) (١) .

(١) من الأسماء ما يدل على الذات - كآله - ويقرب منه اسم الحق ، إذا أريد به الذات من حيث هي واجبة الوجود .

* ومنها ما يدل على الذات مع سلب : مثل القدوس والسلام والغني والأحد ، ولظايرها ، فإن القدوس : هو المسلوب عنه كل ما يخطر بالبال ، ويدخل في الوهم ، والسلام : هو المسلوب عنه العيوب . والغني : هو المسلوب عنه الحاجة . والأحد : هو المسلوب عنه النظير والقسمة .

* ومنها ما يرجع إلى الذات مع إضافة : كالعلي والعظيم والأول والآخر والظاهر والباطن ونظائرها ، فإن العلي ، هو الذات التي هي فوق سائر الذات في =

المرتبة ، فهي إضافة ، والعظيم يدل على الذات من حيث تجاوز حدود الإدراكات ، والأول : هو السابق على الموجودات ولا أول لوجوده . والآخر : هو الذي إليه مصير الموجودات ، والظاهر : هو الذات بالإضافة إلى دلالة العقل ، والباطن : هو الذات مضافة إلى إدراك الحس والوهم .

* ومنها ما يرجع إلى الذات مع سلب وإضافة : كالملك والعزیز ، فإن الملك يدل على ذات لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء . والعزیز : هو الذي لا نظير له وهو مما يصعب قبله . والوصول إليه .

* ومنها ما يرجع إلى صفة ، كالعلم والقادر والحي والسميع والبصير .
* ومنها ما يرجع إلى صفة العلم مع إضافة : كالخبير والحكيم والشهيد والمحصي .
فإن الخبير يدل على العلم مضافاً إلى الأمور الباطنة ، والشهيد يدل على العلم مضافاً إلى ما يشاهد ، والحكيم يدل على العلم مضافاً إلى أشرف المعلومات : والمحصي يدل على العلم من حيث يحيط بمعلومات بصورة معدودة .

* ومنها ما يرجع إلى القدرة مع زيادة إضافة : كالقهار والقوي والمقتدر والمتين .
فإن القوة هي تمام القدرة . والمتانة شدتها . والقهر تأثيرها في المقدور بالغلبة .

* ومنها ما يرجع إلى الإرادة مع إضافة أو مع فعل . كالرحمن والرحيم والرزوف والودود ، فإن الرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج الضعيف . والرفقة شدة الرحمة ، وهي مبالغة في الرحمة . والود : يرجع إلى الإرادة مضافاً إلى الإحسان والإنعام ، وفعل الرحيم يستدعي عتساجاً . وفعل الودود لا يستدعي ذلك ، بل الإنعام على سبيل الابتداء يرجع إلى الإرادة مضافاً إلى الإحسان وقضاء حاجة الضعيف .

* ومنها ما يرجع إلى صفات الفعل : كالخالق والباريء والمصور والوهاب والرزاق والفتاح والقابض والباسط والخافض والرافع والمعز والمذل والعدل والمقيت والمجيب والواسع والنباعث والمبدئ والمعيد والمحيي والمميت والمقدم والمؤخر والوالي والبر والتواب والمننم والمقسط والجامع والمانع والمغني والهادي ، ونظائره .
ومنها ما يرجع إلى الدلالة على الفعل مع زيادة . كالمجيد والكریم . فإن المجيد يدل على سعة الإكرام مع شرف الذات . والكریم كذلك . واللطيف يدل على الرفق في الفعل . (من كتاب المقصد الأسنى للإمام الغزالي ص ١٥٢ باختصار).

العظيمة : أي الجليلة المطهرة عن أن يسمى بها غيره سبحانه ،
أو عن أن تفسر بما لا يليق ، أو أن تذكر على غير وجه التعظيم ، كما
قاله السعد . وحق أنها متفاضلة فيما بينها . وأعظمها لفظ الجلالة وهو
الاسم الأعظم ،^(١) وكان سيدي علي الوفا رضي الله عنه يذهب الى التفاضل
في الأسماء ، وفي البواقيت عن ابن العربي أن أسماء الله تعالى متساوية في
نفس الأمر لرجوعها كلها الى ذات واحدة ، وإن وقع فيها تفاضل فإن
ذلك لأمر خارج .

كذا صفات ذاته قديمة : كل من أسمائه وصفات ذاته قديم .
وهي صفات المعاني السبع ، أو الثمان ، على الخلاف في ذلك . فليست
أسماءه تعالى من وضع خلقه . وليست صفاته حادثه ، لأنها لو كانت
حادثه لزم قيام الحوادث بذاته تعالى ، وللزم كونه تعالى عارياً عنها في الأزل .
فيلزم افتقارها إلى موجد وهو بنا في وجوب الغنى المطلق ، الذي هو انتفاء
الحاجات مطلقاً ، وهو لا يكون إلا الله تعالى . بخلاف الغنى المقيد ، الذي
هو قلة الحاجات ، فهو غنى الحوادث ، قال بعضهم : إلهي غناك مطلق وغنانا مقيد .

(١) مال الغزالي إلى تفاضل الأسماء فيما بينها فقال : الأسماء يجوز أن تتفاوت
فضيلتها لتفاوت معانيها في الجلالة والشرف . (١٦١ المقصد الأسنى) . وروى
هشام بن محمد بن الحسن قال : سمعت أبا حنيفة - رحمه الله - يقول : اسم الله الأعظم
هو (الله) ، وبه قال الطحاوي وأكثر العارفين حتى أنه لا ذكر هندم لصاحب مقام
فوق الذكر به . (الفقه الأكبر لأبي حنيفة) .

وقال الغزالي رحمه الله : إعلم أن هذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين لأنه
دال على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها حتى لا يشذ منها شيء ، وسائر الأسماء =

أما صفات الأفعال فعادثة عند الأشاعرة ، قديمة عند الماتريدية . لأنها
 عند الأشاعرة عبارة عن تعلقات القدرة التمييزية بالحادثة ، « وعند الماتريدية »
 هي عين صفة التكوين القديمة . وأما الصفات السلبية فهي قديمة قطعاً .

= لا تدل آحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره ، ولأنه أخص
 الأسماء ، إذ لا يطلقه أحد على غيره سبحانه لا حقيقة ولا مجازاً . وسائر الأسماء قد
 تسمى بها غيره ، كالقادر ، والعليم ، والرحيم ، وغيره . فلهذين الوجهين يشبه أن
 يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء (ص ٨٨ المقصد الاسنى)

٣٩- واختير أن أسماءه توقيفية كذا الصفات فاحفظ السمعية

ولمختير : اختار جمهور أهل السنة أن أسماءه تعالى توقيفية ، وكذا صفاته . فلا ثبت لله إسماء ، ولا صفة إلا إذا ورد بذلك توقيف من الشارع^(١) ومال إليه الباقلاني ، وتوقف فيه أمام الحرمين ، وفصل الغزالي ، فجوز إطلاق الصفة (وهي ما دللت على معنى زائد على الذات) ومنع إطلاق الإسم (وهو ما دل على نفس الذات) .

(١) قال الغزالي رحمه الله في كتابه المقصد الأسنى (صفحة ١٥٧ : إن أسماء الله تعالى من حيث التوقيف خبر مقصورة على تسعة وتسعين بل ورد التوقيف بأسماء سواها ، إذ في رواية أخرى عن أبي هريرة إبدال لبعض هذه الأسماء بما يقرب منها وإبدال بما لا يقرب . فأما الذي يقرب فالأحد بدل من الواحد . والقاهر بدل القهار والشاكر بدل الشكور . والذي لا يقرب كالحادي والكافي والدائم والبصير والمنور والمبين والجميل والصادق والغيث والقريب والقديم والوتر والفاطر والعلام والمليك والأكرم والمدير والرفيع وذو الطول وذو المعارج وذو الفضل والخلق . وقد ورد أيضاً في القرآن ما ليس متفقاً عليه في الروايتين جميعاً : كالنور والتصير والغالب والقريب والرب والناصر ، ومن المضافات « كقوله » شديد العقاب ، وقابل التوب ، وخاف الذنب ، ومولج الليل في النهار ، ومولج النهار في الليل ، ومخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي . » وقد ورد في الخبر أيضاً : السيد » إذ قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « يا سيد » فقال : السيد هو الله تعالى وكأنه قصد المنع من المدح في الوجه (رواه الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود ، عن عبد الله بن السخير) وإلا فقد قال صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم ولا فخر (رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه ، =

والخاص أن علماء الاسلام اتفقوا على جواز إطلاق الأسماء والصفات على الباري عز وجل إذا ورد بها الإذن من الشارع ، وعلى امتناعه إذا ورد المنع منه . واختلفوا حيث لا إذن ولا منع ، والمختار منع ذلك ، وهو مذهب الجمهور .

● أن أسمائه : المراد بالأسماء ما قسابل الصفات لا الأسماء في مصطلح النحو . والإمام ما دل على الذات (إما وحدها كلفظ الجلالة ، وإما مع الصفة كلفظ الرحمن) . والصفة ما دلت على معنى زائد على الذات (كلفظ قدرة فإنه دل على المعنى القائم بذاته سبحانه وتعالى) (١) .

● توقيفية : أي يتوقف جواز إطلاق الأسماء عليه تعالى على ورودها في كتاب ، أو سنة صحيحة ، أو حسنة ، أو إجماع ، لأنه غير خارج عنها ، بخلاف السنة الضعيفة إن قلنا : إن المسألة من الاعتقادات بحيث يعتقد أن ذلك الاسم من أسمائه تعالى ، وإن قلنا : إنها من العمليات بحيث نستعمله ونطلقه عليه تعالى فالسنة الضعيفة كافية في ذلك لأنهم قالوا : الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال - وأما القياس ، فقبلي

= عن أبي سعيد (والدبان أيضاً قد ورد ، وكذلك الحنان والممان . وما روى عليه الاتفاق بين الفقهاء والعلماء من الأسماء « المريد والمتكلم والموجود والشئ والذات والأزلي والأبدي » وإن ذلك مما يجوز إطلاقه في حق الله تعالى . وقد ورد في الحديث لا تقولوا جاء رمضان ، فإن رمضان إسم من أسماء الله تعالى لكن قولوا . جاء شهر رمضان .

(١) انظر تقارير الأجهوري ص ٦٣

كالإجماع ما لم يكن ضعيفاً ، وعليه يقاس واهب - لأنه لم يرد - على واهب ، وأطلق بعضهم منع القياس . قال المصنف في الشرح الصغير : وهو الظاهر لاحتمال إيهام أحد المتوادرين دون الآخر كالعالم والعارف ، والجواد والسخي ، والحليم والعامل أ. هـ . وبالجمله فما أذن الشارع في إطلاقه واستعماله جاز - وإن أوم - كالصبر والشكور والحليم فإن الصبر : يوم وصول مشقة له تعالى ، لأن الصبر حبس النفس على المشاق ، فيفسر في حقه تعالى : بالذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه . والشكور يوم وصول الإحسان إليه لأن معناه كثير الشكر لمن أحسن إليه ، مع أن الإحسان كله من الله تعالى ، فيفسر في حقه تعالى : بالذي يجازي على يسير الطاعات كثير الدرجات ، ويعطي بالعمل في أيام معدودات نعماً في الآخرة غير محدودة . والحليم يوم وصول أذى إليه ، فيفسر في حقه تعالى : بالذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه ، فيرجع لمعنى الصبر . وقد تقدم أن أسماءه ﷺ توقيفية اتفاقاً وسبقت حكمة ذلك فتفطن لها .

● كذا الصفات : أي صفاته تعالى توقيفية مثل أسمائه ، فلا يجوز إثبات صفة له تعالى إلا بتوقيف من الشارع لنا .

● فاحفظ السمعية : أي فاحفظ الأسماء والصفات الواردة في السمع ، كالواردة في الكتاب ، أو السنة أو الثابتة بالإجماع : كالصانع والوجود والواجب والقديم .

٤٠- وكل نص أوهم التشبيه أوله أو فوض ، ورؤم تنزيها

● وكل نص : المراد بالنص - في هذا الموضع - ما قابل الإجماع والقياس والاستنباط ، وهو منحصر في الدليل من الكتاب أو السنة ، سواء أكان صريحاً أو ظاهراً ، وليس المراد به ما قابل الظاهر كما هو مصطلح علماء أصول الفقه ، إذ لو كان هذا المعنى هو المراد - هنا - لما أمكن تأويله .

● والمراد من التشبيه - في هذا الموضع - المشابهة للحوادث ، ومحل الشبهة أن ظاهر بعض النصوص يوم أن قد تعالى مكاناً ، أو جارية ، وهو مخالف لصريح قوله تعالى :
«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (١)

وقوله : «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»

● والمراد من التأويل - هنا - حل اللفظ على خلاف ظاهره مع بيان المعنى المراد فيحكم المكلف بأن اللفظ مصروف عن ظاهره قطعاً ، ثم يؤول اللفظ تأويلاً تفصيلاً بأن يبين فيه المعنى الذي يظن أنه المقصود من اللفظ .

● والمراد من التفويض صرف اللفظ عن ظاهره ، مع عدم التعرض لبيان المعنى المراد منه ، بل يتوكأ ويفوض علمه إلى الله تعالى ، بأن يقول : الله أعلم بمراده .

(١) الشورى ١١ .

وقبل أن نبين مذهبي السلف والخلف نورد تعريف كل من الحكم والمتشابه .

● تعريف الحكم : الحكم - لغة - المتقن الذي لا يطرأ إليه الفساد ، وأحكمه أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد^(١) . واصطلاحاً : ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ ، ولا من حيث المعنى^(٢) . والآيات المحكمات هي التي أحكمت فلا يحتاج سامعها إلى تأويلها لبينها ، فلا تختمل التصريف ، ولا التحريف ، ولا يحتاج سامعها إلى تأويلها ، وهي قطعية الدلالة على المعنى المراد . قال ابن كثير فالآيات المحكمات من حجة الرب ، وعصمة العبد ودفع الخصم الباطل ، ليس لمن تصريف ، ولا تحريف عما وضعن عليه ، ولا يطرأ عليهن احتمال أو اشتباه^(٣) وقال الرازي : ما يتأكد ظاهرها بالدلائل العقلية فذاك هو الحكم حقاً . وقال أبو السعود : هي قطعية الدلالة على المعنى المراد ، محكمة العبارة ، محفوظة من الاحتمال والاشتباه .

● تعريف المتشابه : والمتشابه - لغة - هو امم لكل ما لا يمتدي إليه الانسان^(٤) لأن من شئت الأمور المتشابهة أن يعجز العقل عن التمييز بينها . والشبه : المثل ، وشابهه : أمثله ، وأمور مشتبهة : مشكوك^(٥) والشبه والشبيه : حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية ، كاللون والطعم ،

(١) القاموس المحيط ٩٨/٤ .

(٢) مفردات الراغب ١٢٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٦/٢ وكذا النسفي .

(٤) إتحاف الكائنات للسيكي ٢٥ .

(٥) القاموس المحيط ٢٨٦/٤ .

والعدالة والظلم . والشبهة : هو أن لا يتميز أحد الشئيين من الآخر لما
بينهما من التشابه عيناً كان أو معنى ^(١) وأصل التشابه : أن يشبه اللفظ
اللفظ في الظاهر والمعنيان مختلفان ، قال تعالى في وصف ثمار الجنة

« وَأَتُونَا بِهِِ مُتَشَابِهًا »

أي : متفق المناظر ، مختلف الطعوم ^(٢) . وأما اصطلاحاً : فالمتشابه من
القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته لغيره ، إما من حيث اللفظ أو من حيث
المعنى ^(٣) ، وقال في شرح المنار : هو اسم لما انقطع معرفة الرجاء منه .
وقال ابن كثير : فالمتشابه هو الذي يقابل الحكم ^(٤) . أي هو النص المشتبه
من حيث لفظه أو من حيث معناه ، والمحتمل للتصريف والتحريف ،
والذي يحتاج سامعه الى تأويله فليس قطعي الدلالة على المعنى المراد ،
وتتظاهر الأدلة العقلية على أن ظاهره غير مراد ، وقال القرطبي :
المتشابهات لمن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد . وقال
الرازي : المتشابهات هي التي قامت الدلائل القاطعة على امتناع ظواهرها ،
فذاك الذي يحكم فيه بأن مراد الله تعالى به غير ظاهره . وقال أبو السعود :
هن المحتملات لمعان متشابهة ، لا يمتاز بعضها من بعض في استحقاق
الإرادة بها ، ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق والتأمل الأنيق فالتشابه
في الحقيقة وصف لتلك المعاني ، وصف به الآيات على طريق وصف الدال

(١) مفردات الراغب ٢٥٤ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ٧٤ .

(٣) مفردات الراغب ٢٥٤ .

(٤) ابن كثير ٦/٤ .

بوصف المدلول ، وقال النسفي : التشابهات : المحتملات ، مثال ذلك

« الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى »

فالاستواء يكون بمعنى الجلوس وبمعنى القدرة والاستيلاء ، ولا يجوز الأول على الله تعالى بدليل المحكم ، وهو قوله :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »

وعرف السبكي التشابه بأنه « كل ماورد في الكتاب أو السنة الصحيحة موها بمائلته تعالى للحوادث. في شيء ما ، وقامت الدلائل القاطعة على امتناع ظاهره في حق الله تعالى . ولذا أجمع السلف والخلف على تأويله تأويلاً إجمالياً (أي بصرف اللفظ عن ظاهره المحال على الله تعالى) لقيام الأدلة القاطعة على أنه تعالى ليس كمثله شيء^(١) .

وبناء على التعريفين السابقين يتبين أن المحكم :

١ - هو النص الذي لاتعرض فيه شبهة من حيث لفظه ، ولا من حيث معناه ، فلا يحتمل التصريف والتعريف .

٢ - وهو الذي لا يحتاج سامعه إلى تأويله فهو قطعي الدلالة على المعنى المراد .

٣ - وهو الذي تظاهرت الأدلة العقلية على أن ظاهره هو المراد .
والتشابه هو :

١ - النص المشتبه من حيث لفظه ، أو من حيث معناه ، فهو يحتمل التصريف والتعريف .

(١) انحاء الكائنات للسبكي ص ٢٥ .

والذي يحتاج سامعه إلى تأويله فليس قطعي الدلالة على المعنى المراد .
 ٣ - والذي تتظاهر الأدلة العقلية على أن ظاهره غير مراد .

● السلف والخلف : وقد اتفق السلف (وهم من كانوا من أهل العلم قبل نهاية القرن الثالث الهجري ، وهم الصحابة والتابعون وتابعهم والأئمة الأربعة وكبار علماء مذاهم) والخلف (وهم من كان من العلماء بعد نهاية القرن الثالث الهجري) على صرف النصوص المتشابهة عن ظواهرها المستحيلة ، واعتقاد أن هذه الظواهر غير مرادة للشارع قطعاً ، كيف وهذه الظواهر باطلة بالأدلة القطعية ، وبما هو معروف عن الشارع من الآيات المحكمات (١) قال الامام السبكي رحمه الله : أجمع السلف والخلف على تأويل الآيات المتشابهة تأويلاً إجمالياً بصرف اللفظ عن ظاهره الحال على الله تعالى ، لقيام الأدلة القاطعة على أنه تعالى مخالف للحوادث (٢) .

ثم بعد اتفاقهم على صرف النص عن ظاهره ذهب السلف الى تفويض معاني هذه المتشابهات الى الله تعالى وحده بعد تنزيهه عن ظواهرها المستحيلة (٣) . وطريقهم هذه تشتمل على السلامة من تعيين معنى لانستطيع أن نجزم أنه مراد الله تعالى ، ولأن التأويل التفصيلي أمر مظنون بالاتفاق ، والقول في صفات الله تعالى بالظن غير جائز ، وربما أولت الآية على غير مراد الله تعالى فيكون سبباً للوقوع بالزيف (٤) .

(١) مناهل العرفان ١٨٢/٢ .

(٢) انحاء الكائنات للسبكي ص ٢٥ .

(٣) مناهل العرفان ١٨٣/٢ .

(٤) الشهرستاني ١٧٣/١ .

وذهب الخلف الى حمل اللفظ على معنى يسوغ في اللغة ، ويليق
بأنه تعالى . وقد كان إمام الحرمين يذهب هذا المذهب ثم رجع عنه
وقال : الذي نرتضيه ديناً ، وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة ،
فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها^(٥) . وطريقة الخلف تشتمل على
مزيد ايضاح ، ولا يلجأ اليها إلا عند الضرورة بأن نخشى على عقيدة
إنسان من الذهاب . وحاصل المذهبين أن الخلف والسلف قد اتفقوا على
وجوب تنزيه الله تعالى عما دل عليه ظاهر اللفظ ، وتفسير المتشابه على
ضوء الحكم من الآيات كقوله تعالى :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »

وقوله :

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »

فهاذان الآيتان من الحكم الذي لاشبهة في معناه ، فاتفقوا على أن الله
تعالى لا يشبه شيء من المخلوقين وصفاتهم وأحوالهم ، ثم وكلّ السلف
تحليل معاني النصوص المتشابهة وشرحها الى الله عز وجل مع الايمان بأنه
تعالى لا مثيل له ، وبأنه منزّه عن الجارحة والمساكن . وأما الخلف فقدم
آثروا أن يحملوا ألفاظ الآيات المتشابهة على يحمل يليق بذات الله تعالى ،
مع التزام الدلالة اللغوية وعدم الخروج عليها ، أو التكلف في معالجتها .
وحجبتهم في التأويل : أن المطلوب صرف اللفظ عن مقام الإهمال الذي
يوجب الخيرة ، وما دام في الامكان حمل كلام الشارع على معنى سليم ،

(٥) المناهل ٢/ ١٨٥ .

دون معارضة القطعي المحكم ، فالنظر فاض بوجوده انتفاعاً بما ورد . وقد تقدم أن حمل الكلام على بعض المعاني المحتملة في النصوص القطعية لا يورث القطع بأنها مراد الله تعالى .

بعض النصوص المتشابهة :

١ - من النصوص المتشابهة قوله تعالى :

« الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى »

فهذه الآية الكريمة يوم ظاهرها ما يستحيل في حق الله تعالى ، وكلمة الاستواء فيها تحمل عدة معانٍ ولا يرجح إرادة أحدها دون الآخر مرجح ، وقد تظاهرت الأدلة النقلية والعقلية على استعالة ظاهرها ، لأن فيه مشابهة سبعانه بالمخلوقات ، وبحاج سامعها الى تأويلها ، فالاستواء يحتمل الاعتدال ، والقصد ، والاستيلاء ، والعلو والارتفاع (الحسين) والاقتدار ... إذن هي مشبهة من حيث معناها .

قال الامام تقي الدين أبو بكر الحنفي : وأعلم أن الاستواء في اللغة على وجوه ، وأصله « افتعال من السواء أي العدل والوسط » وله وجوه في الاستعمال منها : الاعتدال ، كقول بعض بني تميم : استوى ظالم العشيعة والمظلوم ، أي اعتدلا . ومنها : إتمام الشيء كقوله تعالى :

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى »

ومنها القصد إلى الشيء كقوله تعالى :

« ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ »

ومنها : الاستيلاء كقول الشاعر :

إِذْ مَا غَزَى قَوْمًا أَبَاحَ حَرِيمَهُمْ وَأَضْعَى عَلَى مَا مُلْكُوهُ قَدْ اسْتَوَى .

ومنها الاستقرار كقوله تعالى :

« وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ »

وهذه صفة المخلوق الحادث قال تعالى :

« وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ »

وقد نزه نفسه سبحانه عن ذلك في كتابه العزيز في أكثر من موضع (١) .

وقال النسفي في تفسيره : متشابهات : محتملات ، مثال ذلك :

« الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى »

فالاستواء يكون بمعنى الجلوس أو القدرة أو الاستيلاء . ولا يجوز الأول .

على الله بدليل الحكم ، وهو قوله :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » (٢)

وقال السبكي . وللفظ الاستواء مجازات كثيرة لا يتعين أحدها إلا بدليل لغوي ظني ، والقول بالظن في ذات الله تعالى وصفاته غير جائز بالإجماع (٣)

٢ - ومنها أيضاً قوله تعالى :

(١) دفع شبه من شبه ٩ .

(٢) النسفي ١/١٤٦ .

(٣) الانتحاف ٣٦ .

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ »

وقوله « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ »

فلفظة فوق تحمل عدة معان ، فهي تستعمل في المكان والزمان والجسم والعدد والمنزلة ، فهي مشتبهة من حيث معناها . قال الراغب ، فوق : يستعمل في المكان والزمان والجسم والعدد والمنزلة ، وذلك أضرب ^(١) . وقال الغزالي : إذا سمع لفظ « فوق » في قوله تعالى :

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

فَلْيُعْنَمَ أن الفوق اسم مشترك لمعنيين ، أحدهما : نسبة جسم الى جسم ، بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل ، أي أن الأعلى من جانب رأس الأسفل . وثانيها : قد تطلق الفوقية ويراد بها الرتبة ، كما يقال : الخليفة فوق السلطان . والمؤمن يعتقد أن المعنى الاول غير مراد قطعاً ، وأنه على الله تعالى محال ، لانه من لوازم الاجسام ، أو لوازم أعراض الاجسام ^(٢) . فالآيتان إذن من النصوص المتشابهة ، لأن ظاهرها المتبادر يستعمل في حق الله إذ أنه يوجب مماثلته سبحانه للحوادث ، كما أنه لا يوجد فيها دليل قاطع على المعنى المراد من المعاني المحتملة لها .

قال الامام شمس الدين محمد اللبان : صفة الفوقية وقد جاء بها الكتاب والسنة كقوله تعالى :

(يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)

(١) المفردات ٣٨٨ .

(٢) إجماع العوام ٥ - ٧٦ .

وهو معدود من التشابه .

٣- ومنها قوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)^(١)

فللمظة الوجه ظاهر معناها يفيد الجارحة ، والله تعالى منزّه عن الجوارح ، لأن الوجه هو الذي تقع به المواجهة ، فهي لفظة ظاهرها فيه تشبيه الخالق بالخلق ؛ قال الراغب : أصل الوجه الجارحة . فهي إذن مشتبهة من حيث لفظها .

٤- ومنها قوله تعالى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ)

وقوله تعالى : (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)

وقوله ﷺ : (يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ ، ويقول : (مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)^(٢)

فهذه النصوص من التشابه في الجسمية ، كما تفيده كلمة : الاثنيان ،

(١) الرحمن ٢٧ .

(٢) رواه أصحاب الكتب الستة وغيرهم ، انظر شرح القسطلاني على البخاري ٣٦٧/٢

والجهمي والنزول . لأن كلاً من هذه الكلمات يفيد الانتقال الملازم للجسمية .
قال الراغب : الإتيان مجيء بسهولة ... ويقال المجيء بالذات ، وبالأمر ،
وبالتدبير ، ويقال في الخير ، وفي الشر ، وفي الأعيان ، وفي الأعراض .

قال تعالى : (إِنِ اتَّأْتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ ، أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ)
وقال : (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ) (١)

وقال الراغب : المجيء كالإتيان ، لكن المجيء أعم ، لأن الإتيان مجيء
بسهولة ...

ويقال : جاء في الأعيان والمعاني ، ولما يكون مجيئة بذاته ، وبأمره ،
ولمن قصد مكاناً أو مملأ أو زماناً .

قال تعالى : (فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ)
وقال : (إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ)

وقال : (فَقَدْ جَاؤُوا ظُلُمًا وَّزُورًا) (٢)

وقال في معنى النزول : النزول في الأصل المخطاط من علو ...
وانزال الله تعالى نِعَمَهُ وَنِقَمَهُ على الخلق إما بانزال الشيء نفسه ،
كإنزال القرآن ، أو بإنزال أسبابه والهداية إليه ، كإنزال الحديد واللباس .

قال تعالى : « وَأُنْزَلْنَا الْحَدِيدَ »

(١) المفردات ٩ .

(٢) المفردات ١٠٤ .

وقال : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » (١)
 وقال الغزالي : النزول اسم مشترك ، قد يُطلق إطلاقاً يفتقر إلى
 ثلاثة أجسام ، جسم عال ، هو مكان لساكنه ، وجسم سافل ، وجسم
 منتقل من السافل إلى العالي ، ومن العالي إلى السافل ، فإن كان من
 أسفل مُسمي صعوداً وعروجاً ورقياً ، وإن كان من أعلى مُسمي نزولاً
 وهبوطاً . وقد يطلق على معنى آخر ، ولا يفتقر الى تقدير انتقال
 وحركة في جسم ، كما قال تعالى :

« وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ »

وما رؤي البعير نازلاً من السماء بالانتقال ، بل هي مخلوقة في الأرحام .
 وكما قال الشافعي : دخلت مصر فلم يفهموا كلامي ، فنزلت ثم نزلت ثم
 نزلت . فلم يرو انتقال جسمه إلى أسفل ويتحقق المؤمن أن النزول في
 حق الله تعالى ليس بالمعنى الأول قطعاً ، وهو انتقال من علو الى أسفل ،
 لأنه سبحانه ليس بجسم .

وهو منها قوله ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ) (٢)

وقوله : « إِنِّي رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ » .

فالصورة اسم مشترك ، قد يُطلق ويُراد به الهيئة الحاصلة من أجسام مختلفة مرتبة ترتيباً
 مخصوصاً ، مثل الأنف والعين وغيرهما ، وقد يُطلق ويُراد به ما ليس بجسم ولا هيئة

(١) المفردات ٤٨٨ .

(٢) رواه الشيخان والإمام أحمد .

في جسم ، كقولك : عرفت صورة المسألة والمعنى الاول يستعمل في حق الله تعالى .

● موقف السلف من المنشأيات : بعد ما سقنا بعضاً من النصوص المنشأية آنفاً نذكر الآن موقف كل من السلف والخلف تجاهها : إن الخلف ذهبوا - بعد ان نزّهوا الله تعالى عن الظاهر المتبادر من هذه النصوص - الى التأويل التفصيلي ، فقالوا : إن المراد بالاستواء الاستيلاء والقهر من غير معاناة ولا تكلف ، واللغة تتسع لهذا المعنى الذي عينوه ، لأن استوى - لغة - تكون بمعنى استولى وقهر ، أو دبر وحكم ، أو اعتدل وقصد ، أو علا وارتفع . وإن المراد بالوجه الذات ، وباليد القدرة ، وبالصورة الصفة من سمع وبصر وعلم وحياة ، فهو على صفته على الجملة وإن كانت صفته تعالى قديمة وصفة الانسان حادثة وإن المراد باليمين في قوله تعالى :

(وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) :

القوة ، وبالفوقية : العلو المعنوي دون الحسي ، وبالجمي : مجيء الأمر ، وبالغندية في قوله :

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) :

الاحاطة والتمكن ، وبالعين في قوله :

(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) :

التربية والرعاية .

وقد ذهب السلف الى تفويض علم المراد من هذه النصوص إليه سبحانه .

قال الزرقاني : المذهب الأول مذهب السلف ، ويُسمى مذهب المفوضية وهو تفويض معاني هذه التشابهات الى الله وحده بعد تنزيهه عن ظواهرها المستحيلة ، ويستدلون على مذهبهم بدليلين .

أحدهما عقلي : وهو أن تعيين المراد من هذه التشابهات إنما يجري على قوانين اللغة واستعمالات العرب ، وهي لا تقيد إلا الظن مع أن صفات الله من العقائد التي لا يكفي فيها الظن بل لابد فيها من اليقين ، ولا سبيل اليه ، فلنتوقف ، ولنكل التعيين الى العلم الخبير .

وثانيها نقلي : ويعتمد على عدة أمور منها أن الوقف في الآية الكريمة :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ، مِنْهُ آيَاتٌ

محكمات ...)

على قوله تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ)^(١)

ولامناص لمن أراد الإحتراز عن الزيغ من أن يمتنع عن التأويل والتفسير والتصريف .

(١) يؤيد هذا قراءة ابن مسعود « إن تأويله إلا عند الله » وعليه لا يجوز عطف « والراسخون » على لفظ الجلالة ويؤيده قراءة أبي ابن كعب « ويقول الراسخون في العلم آمنوا به » وهي كذلك قراءة ابن عباس على ما رواه الحاكم بإسناد صحيح عن طاووس . ويؤيده ما رواه الحاكم بإسناد صحيح عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كان الكتاب الأول أنزل من باب واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب ، على سبعة أحرف ، زاجر وأمر ، وحلال وحرام ، وعصم ومتشابه ، وأمثال . فأحلوا حلاله وحرموا حرامه ، وأعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا آمننا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال بعد أن قرأ قوله تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ)

(إذا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِمْ فَهُمْ الَّذِينَ عَنِىَ اللَّهُ فَأَحْذَرُوهُمْ ، ^(١)) .

وما أخرجه ابن مردويه عن أبيه عن جده :

(أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَهُمْ يَتَرَجَعُونَ فِي الْقَدَرِ ، فَخَرَجَ مُغْضَبًا حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : يَا قَوْمِ ! هَذَا ضَلَّتِ الْأَمَمُ قَبْلَكُمْ ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضُرْبِهِمْ الْكِتَابَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يُنْزَلْ لِيُضْرَبُوا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَلَكِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُصَدَّقَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَأَعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا تَشَابَهَ فَأَمِنُوا بِهِ) .

وحديث أبي مالك الأشعري ، وفيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :
(لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا ثَلَاثَ خِلَالٍ : أَنْ يُكْشَرَ لَهُمُ الْمَالُ فَيَتَحَاسَدُوا فَيَقْتَتِلُوا ، وَأَنْ يُفْتَحَ لَهُمُ الْكِتَابُ فَيَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ يَدْتَفِي تَأْوِيلَهُ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، وَأَنْ يَزْدَادَ عِلْمُهُمْ فَيُضِيعُوهُ ، وَلَا يُسْأَلُ عَنْهُ) ^(٢) .

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَاللَّفْظُ لَهُ .

(٢) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ .

ومنها مارواه سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له « صَبِيغ » أو (صَبِيغ) قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل اليه عمر رضي الله عنه وقد أعد له عراجين النخل فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله ابن صبيغ . فأخذ عمر عرجوناً فضربه حتى دمي رأسه ، فتركه حتى برأ ، ثم عاد ، ثم تركه حتى برأ ، فدعا به ليعود فقال : إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً ، فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري : « ألا يجالس أحد من المسلمين » (١) .

وقد ورد عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى :

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

فقلت : كيف غير معقول والاستواء غير مجهول ، والاقوار به من الإيمان ، والجود به كفر . وورد أن عامر الشعبي وسفيان ، الثوري وجماعة من المحدثين قالوا عن الحروف التي في أوائل السور هي سر الله في القرآن ، والله في كل كتاب من كتبه سر ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، ويجب ألا يتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ، وتمر كما جاءت . وقد روي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما . (٢) .

وإليك بعض أقوال السلف رحمهم الله تعالى في المتشابه :

قال جابر بن عبد الله : المحكم ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل ، فهو مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه (٣) .

(١) أخرجه الدارمي في الانتقان ٥/٢ .

(٢) انظر القرطبي ١٥٤/١ .

(٣) القرطبي ٩/٤ .

ونقل عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر . قال أبو بكر الأنباري : فهذا يوضح أن حروفاً من القرآن استتوت معانيها عن جميع العالم اختصاراً من الله عز وجل وامتناناً ، فمن آمن بها أنيب وسعد ، ومن كفر وشك أثم وبُعد . وجاء عن الإمام مالك رحمه الله ﷺ أنه قال حين سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة ، ثم قال للسائل : وأظنك رجل سوء ، أخرجوه عني . وقد عقب العلامة ملا علي قاري على قول الامام مالك بقوله : وهذه طريقة السلف ، وهي أسلم . وسئل الامام الاوزاعي عن تفسير قوله تعالى :

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

فقال : « الرحمن على العرش استوى » كما قال ، وإني لأراك ضالاً . وقد عقب ابن الصلاح على هذا بقوله : على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها ، وإياها اختار الأئمة الفقهاء وقادتها ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأبأها^(١) .

وقد سئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن الاستواء فقال : استوى كما أخبر ، لا كما يحظر للبشر .

ولما سئل الشافعي قال : آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل ، واتهمت نفسي عن الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك . وقال يونس بن عبد الأعلى : سمعت الشافعي يقول : « ثبتت هذه الصفات التي جاء بها القرآن ، ووردت بها السنة ، ونفني التشبيه عن الله كما نفاه عن نفسه فقال :

(١) انظر مناهل العرفان ١٨٥/٢ والبرهان ٨٠ - ٨٢ .

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (١)

وقال الترمذي عند حديث :

(إِنْ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ) .

وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه :
 «يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يُبْتَوَّسَمُ» ، ولا يقال . كيف ؟ . هكذا روي عن مالك بن
 أنس وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، أنهم قالوا في هذه الأحاديث :
 «أمرؤها بلا كيف» وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، (٢) .
 ونقل الشهرستاني أن الأئمة : مالك والشافعي وأحمد لم يتعرضوا
 للتأويل واحتزوا عن التشبيه أيما احتزار ، حتى قالوا : «من حرك يده
 عند قراءة قوله تعالى :

«لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ» .

أو أشار بأصبعه عند رواية :

«قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ» .

وجب قطع يده وقطع أصبعه . (٣)

وقد قال الامام النووي بعد أن ذكر حديث النزول ... وفي هذا
 الحديث وشبهه من أحاديث الصفات وآياتها مذهبان ، أحدهما : تأويله على
 ما يليق بصفات الله تعالى وتنزيهه عن الانتقال وسائر صفات المحدث ،
 وهذا هو الأشهر عن المتكلمين .

ثانيها : الإمساك عن تأويلها مع اعتقاد تنزيه الله سبحانه عن صفات المحدث .

(١) رواه ابن أبي حاتم .

(٢) الترمذي ٢٤/٣ .

(٣) الملل والنحل ١٧٢/١ .

لقوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » .

وهذا مذهب السلف وجماعة من المتكلمين ، وحاصله أن يقال :
لأنهم لم المراد بهذا ، ولكن نؤمن به مع اعتقاد أن ظاهره غير مراد ،
وله معنى يليق بالله تعالى (١) .

وقال الشيخ زين الدين قاسم الحنفي : قالت الشافعية : الاستواء على
العرش مفة لله تعالى بلا كيفية ، وكذلك جميع التشابهات ، وقال مشايخنا :
(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

لا يعلم تأويله إلا الله ، وكذلك جميع التشابهات (٢) .

وحكى التكراري وغيره أن سلفنا قالوا في جملة التشابه : نؤمن
به ونفوض تأويله الى الله تعالى مع تنزيهه عما يوجب التشبيه والحدوث .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير : أجمع السلف على ألا يزيدوا على
تلاوة الآية ، فلا يقولون . مستو على العرش (لأن اسم الفاعل يدل
على كون المشتق متمكناً ومستقراً ، بخلاف لفظ الفعل ، إذ دلالة على
هذا المعنى ضعيفة) ولا يبدلون لفظة « على » ، بل لفظة « فوق » (٣) .
وقال العيني : ثم إن الجمهور سلكوا في هذا الباب الطريقة الواضحة
للسالمة ، وأجروا على ماورد مؤمنين به ، منزهين الله تعالى عن التشبيه
والكيفية ، وهم الزهري ، والاوزاعي ، وابن المبارك ، ومكحول ، وسفيان
الثوري ، ومنهم الأئمة الأربعة : مالك ، وأبو حنيفة والشافعي ، وأحمد (٤) .
وقال القرطبي : إن مذهب السلف ترك التعرض لتأويلها (أي الآيات

(١) انظر شرح صحيح مسلم ٢٩/٦ .

(٢) الحاشية على المسامرة ٣٥ .

(٣) انظر أساس التقديس ٢٢٩ .

(٤) العيني ١٩٩/٧ .

المتشابهات (مع قطعهم باستحالة ظواهرها ، فيقولون : أمروها كما جاءت .
وقال الإمام فخر الرازي موضعاً مذهب السلف : حاصل هذا المذهب
أن هذه المتشابهات يجب القطع فيها . بأن مراد الله تعالى منها شيء غبر
ظواهرها ، ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ، ولا يجوز الخوض
في تفسيرها ^(١) .

وقال العلامة اللقاني : فالسلف ينزهونه سبحانه عما يرومه ذلك الظاهر
من المعنى المحال ، ويفوضون علم حقيقته على التفصيل إليه تعالى ، مع
اعتقاد أن هذه النصوص من عنده سبحانه ، فظهر مما قررنا : إتفاق
السلف والخلف على تنزيه الله سبحانه عن المعنى المحال ، وعلى الإيمان
بأنه من عند الله .

وقال صاحب الحريدة : ... وأجاب أئمتنا ، أي سلفهم : بأن الله
تعالى منزّه عن صفات الحوادث مع تفويض معاني هذه النصوص إليه تعالى
إشارة للطريق الأسلم :

« وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » (٢)

وقال الإمام البيضاوي في تفسيره : ... وعن أصحابنا أن الاستواء
على العرش صفة لله تعالى بلا شك ، والمعنى أن الله تعالى استوى
على العرش على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكين ،
ولكي ينقض آخر حجة في بناء المشبهة والمجسمة وأصحاب الأهواء
والبدع الضالة ، ولكي لا تبقى شبهة في خاطر ضعيف ، ولأجل أن
تبقى شمس الحقيقة بازغة تذيب كل وسوسة شيطان ، وتحرق كل زخرف
قول ، لكل هذا نورد - ختاماً - قول ابن كثير عند قوله تعالى :

(١) أساس التقديس ٢٢٣ .

(٢) الحريدة ٦٤ .

« ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ »

قال : فلأناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ، ليس هذا موضع بسطها ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري ، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله تعالى ، فإن الله تعالى لا يشبه شيء من خلقه

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »^(١)

حقيقة مذهب السلف :

وقد جمع الإمام الغزالي في كتابه إحياء العوام نقاطاً تخص بها مذهب السلف فقال : وحقيقة مذهب السلف ، وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث (أي المتشابهة) من عوام الخلق يجب عليه أمور :

- أولاً - التقديس : وهو تنزيه الرب تعالى عن الجسمية ونوابعها .
- ثانياً - التصديق : وهو الإيمان بما قاله ﷺ ، وأن ما ذكره حق ، وهو فيما قاله صادق ، فإنه حق على الوجه الذي قاله وأراد .
- ثالثاً - الاعتراف بالعجز : وهو أن يقرر بأن معرفة مراده ليس على قدر طاقته ، وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته .
- رابعاً - السكوت : وهو أن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه ،

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٢ .

ويعلم أن سؤاله عنه بدعه ، وأنه في خوضه فيه 'مخاطر' بدنيه ، وأنه يوشك أن يكفر لو خاض .

خامساً - الإمساك : وهو أن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلفظة أخرى أو الزيادة فيه ، والنقصان منه ، والجمع والتفريق بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ ، وعلى ذلك الوجه من الإيراد والاعراب ، والتصريف ، والصيغة .

سادساً - الكف : وهو أن يكف باطنه عن التصرف فيه ^(٢) .

● ورم تنزيها : بعد أن بين مذهب السلف والخلف في كل من الحكم والمتشابه قال : أقصد تنزيها له تعالى عما لا يليق به ، مع تقويض علم الماني المراد من النصوص المتشابهة ، وقد ظهر مما قورناه اتفاق السلف والخلف على التأويل الإجمالي (وهو نفي الظاهر المرم من النص) ثم فوض السلف معرفة حقيقته لله تعالى ، وأول الخلف بما يتفق مع التنزيه واللغة .

الحكمة من إزال المتشابه :

وأما الحكمة من إزال المتشابه - مع أنه كتاب أنزل للقراءة والفهم - فهي كما قال ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن : أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد ، والإشادة إلى الشيء ، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللحن ، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي . ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوى في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس ،

(٢) الجام العوام ٤ - ه .

وسقطت الهنة وماتت الخواطر^(١) . على أن الإعجاز القرآني - كما قاله الدكتور سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى - في جملته قائم على البحث والنظر في أمور ، منها الحقي والجلي ، ومنها الدقيق والأدق ، واللطيف والألطف ، وإلا فكيف تنبع المعاني ، وتأتي الدهشة لها ، إذا كان جميعها من الظهور بحيث تنكشف لكل ناظر مهما تفاوتت درجة العلم ورتبة الفهم . ونافلة في إظهار الحكمة من إنزال الآيات المتشابهات ما قاله ابن الهبان في كتابه رد الآيات المتشابهات ، إن الحكمة من ورود هذه الآيات هو : أنه من المعلوم أن أفعال العباد لا بد فيها من توسط الجوارح ، مع أنها منسوبة إليه تعالى ، وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين : مظهر عبادي منسوب لعباده ، وهو الصور والجوارح الجسمانية ، ومظهر حقيقي منسوب إليه ، وقد أجوى عليه أسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لأفهامهم ، والتأنيس لقلوبهم . وقد نبه تعالى في كتابه على القسمين ، وأنه منزّه عن الجورح في الحالين : فنبه على الأول بقوله :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

فهذا يُفهِمُ أن كل ما يظهر على أيدي العباد فهو منسوب إليه تعالى ، ونبه على الثاني بقوله فيما أخبر عنه نبيه ﷺ :

﴿ ... وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى

(١) فأويل مشكل نقرآن ٦٢ .

أَحِبُّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ
الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَنْطُشُ بِهَا ... الخ »^(١)
وقد حقق الله تعالى ذلك لنبيه بقوله :

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ »
وبقوله : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى »^(٢)

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه .

(٢) انظر مناهل العرفان للزرقاني ١٩٣/٢ - ١٩٤ .

٤١ - ونزه القرآن أي كلامه عن الحدوث واحذر انتدأمة

● ونزه القرآن : أي اعتقد أيها المكلف نزه القرآن - بمعنى كلامه تعالى - عن الحدوث ، خلافاً للمعتزلة القائلين به زعماً منهم أن من لوازمه الحروف والاصوات وذلك مستحيل عليه تعالى . فكلامه سبحانه - عندهم - مخلوق وأن الله تعالى خلقه في بعض الأجرام .

● ومذهب أهل السنة أن القرآن الكريم - بمعنى الكلام النفسي - ليس بمخلوق وأما القرآن - بمعنى اللفظ الذي نقرؤه - فهو مخلوق . لكنه يتمتع أن يقال : القرآن مخلوق ، ويراد به اللفظ الذي نقرؤه إلا في مقام التعليم . لأنه ربما أوهم أن القرآن - بمعنى الكلام النفسي - مخلوق . ولذلك امتنعت الأئمة عن القول بخلق القرآن ، وقد وقع في ذلك امتعان كبير خلق كثير من أهل السنة . فقد تخرج البخاري رضي الله عنه فاراً وقال : اللهم اقبضي اليك غير مفتون . فمات بعد أربعة أيام . وقد سجن عيسى بن دينار عشرين سنة . وسئل الشعبي رضي الله عنه فقال : أما التوراة والانجيل والزبور والفرقان ، فهذه الأربعة - وأشار إلى أصابعه - حادثة ، فكانت سبب نجاة . وقد اشتهرت عن الشافعي رضي الله عنه أيضاً ، وحبس الامام أحمد ، وضرب بالسياط حتى غشي عليه ويذكر أن النبي ﷺ قال للإمام الشافعي في الرؤيا : بشر أحمد بالجنة على بلوى تصيبه في خلق القرآن . فأرسل الشافعي لأحمد كتاباً يبلغه خبره فيه برؤياه ، فلما قرأه الامام أحمد بكى ، ودفع للرسول قميصه

الذي يلي جده ، وكان عليه قيصان ، فلما دفع للشافعي غسله
وادهن بمائه .

● أي كلامه : لما كان الأكثر إطلاقي القرآن على اللفظ المقروء دفع
نوم ذلك بتفسيره بكلامه تعالى . والمراد تنزيه القرآن - من حيث هو
كلامه النفسي الأزلي .

● عن الحدوث : أي الوجود بعد العدم ، فليس مخلوقاً بل هو
صفة ذاته العلية .

● واحذر انتقامه : أي خف الانتقام منك إن قلت بمحدوثة .

٤٢ - فكل نص للحدوث دلاً إجملياً على اللفظ الذي قد دلاً

● فكل نص للحدوث دلاً : هذا جواب عما تمسك به المعتزلة من النصوص الدالة على الحدوث ، سواء وردت في القرآن الكريم أو في السنة ، من مثل قوله تعالى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ »

وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ »^(١)

فكل نص دل ظاهره على حدوث القرآن يحمل على اللفظ المنزل على نبينا ﷺ أي على القرآن بمعنى اللفظ ، لا بمعنى الكلام الذي هو المعنى النفسي الأزلي القائم بذاته تعالى . واللفظ المنزل هو اللفظ المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه^(٢) . ومعنى المتعبد بتلاوته : أت من خصائص هذا الكتاب الكريم ، أن مجرد قراءته تكسب القارئ أجراً ومثوبة من الله تعالى ، وأن ذلك يعتبر نوعاً من العبادة المشروعة ، وأن الصلاة لا تصح إلا بقراءة شيء منه .

(١) الحجر ٩ .

(٢) إنما وقع التحدي لثبوت المعجزة الدالة على ثبوت النبوة له صلى الله عليه وسلم . قال القرطبي رحمه الله : سميت المعجزة معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثله . وقال السيوطي مبيناً معنى إعجاز القرآن ، ومعنى أن القرآن معجز : أنه لا يقدر العباد عليه ، وإنما تقع المعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات ، وعلى أن من ظهرت عليه ووقعت موقع الهداية إليه صادق فيما يدعيه =

== من نبوته . وقد قامت الحججة على العرب - كما قال القرطبي وغيره - إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة ، كما قامت الحججة في معجزة سيدنا عيسى عليه السلام على الأطباء ، وفي معجزة سيدنا موسى على السحرة . فان الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره ، فسكان السحر في زمن موسى إلى غايته ، وكذلك الطب في عهد عيسى عليه السلام ، والفصاحة في زمن سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقد قال الرافعي : بلغ العرب في عهد القرآن مبلغاً من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل ، فقامت فيهم بذلك دولة الكلام ، ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن .

وقال أيضاً : ولولا أن القرآن الكريم قد ملك سر الفصاحة ، وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده ، ولا حيلة لهم معه ، فاستبد بإرادتهم ، وغلب على طباعهم ، وحال بينهم وبين مانزحوا إليه من خلفه ، حتى انعقدت قلوبهم عليه ، وهم يجهدون في نقضها ، واستقاموا لدعوته ، وهم يبالغون في رفضها ، ولو كان مقدوراً للعباد أن يأتوا بمثله لكان قد اتفق إلى وقت مبعضه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به . قال الرافعي : إن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه ، حين ينفي الإمكان بالمعجز عن غير الممكن ، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مألوف ولا جهة ، وإنما هو ، أثر كفيره من الآثار الإلهية ، يشاركها في إعجاز الصنعة ، وهيئة الوضع ، « فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الإنساني ومعجز في حقائقه » . وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح دخوله تحت قدرة العباد ، وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه قال ابن عطية : ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كله ، فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ومعلوم - ضرورة - أن بشراً لم يكن محيطاً قط ، فلماذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة « ولو صح دخوله تحت قدرة العباد لبطلت دلالة المعجز ، وما يدل على هذا قوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أألم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فأخبر سبحانه أن الكتاب آية من آياته وعلم من أعلامه ، ==

• • • • •

== وأن ذلك يكفي في الدلالة ، ويقوم مقام معجزات كثيرة . ولو كان غير خارج عن العادة لأنوا بمثله أو عرضوا عليه من كلام فصحاءهم وبلغائهم ما يعارضه . والعرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ ، لأن ذلك طبعهم ولغتهم .

قال الرافعي : فلو أن هذا القرآن غير فصيح ، أو فصاحته غير معجزة في أساليبها التي ألفت إليهم لما قال منهم على الدهر منالاً « كيف وهذا صاحب الذوق الرفيع الذي فضحت الصبح شهرته ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحدثنا عن أثر القرآن فيه فيقول « كنت للإسلام مباحداً ، وكنت صاحب نحر في الجاهلية ، أحميا وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال قريش ، فخرجت أريد فيه جلسائي أولئك ، فلم أجد منهم أحداً ، فقلت لو أنني جئت فلاناً الخمار ، وخرجت فجئته ، فلم أجد ، قلت لو أنني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين ، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، وكان إذ صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، واتخذ مكاناً بين الركنين ، الأسود والبياض ، فقلت حين رأيته : والله لو أنني استمعت لحمد الله ، حتى أسمع ما يقول ، وقام بنفسي أني لو دنوت منه أسمع لأروعه فجئت من قبل الحجر ، فدخلت تحت ثيابه ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة ، فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام . والفضل ما شهدت به الأعداء ، وهذا ، رأسهم بل عظيم الوليد بن المغيرة ، يسمع شيئاً من القرآن الكريم فكأنما رقى له ، فقالت قريش : صبا والله الوليد ولتصبون قريش كلها . فأوفد إليه أبو جهل بشير كبريائه واعتزازه بنسبه وماله ويطلب إليه أن يقول في القرآن قولاً يعلم به قومه أنه له كاره ، قال : فإذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ، ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإنه ليحطم ماتحته ، وإنه ليعلو وما يعلى . » ولا يقل عن هذا في الدلالة على تأثير القرآن عن قول بعض الكفار فيما يحكيه سبحانه (لا تسمعوا لهذا القرآن وأنفوا فيه لعاسكم قلوبون) فإن هذا ليدل على الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم من تأثير هذا القرآن فيهم وفي أتباعهم . قال الرافعي : فكانوا يفرّون منه في كل وجهه ثم لا ينتهون إلا إليه إذ يروونه أخذ عليهم بفصاحته وإحكام أساليبه جهات أنفسهم » والعرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم . إنه =

== نحتاج إلى أن بانوا بمثله وقرعهم على ترك الإتيان دهر أطويلاً، فلما بانوا بذلك وإن حكمه هذا التحدي وذكره في القرآن إنما هي أن يشهد في كل عصر بمعجز العرب عنه ، وم البلغاء اللد ، والفصحاء اللسن ، حتى لا يجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن مولد أو أعجمي أو كاذب أو منافق أو ذو غفلة فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله ، وأنه غير معجز بل إن تسمى معجزة إلا إذ وقع بها التحدي بدئياً ، فإن هذا التحدي ميزان ينصب بين القدرة والمعجز . وإئن عجز أهل ذلك العصر عن الإتيان بمثله فن بعدم أعجز . إنه تحد مقتصر على طلب المعارضة بمثل القرآن ثم بعشر سور مثله مدتربات ، لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة وليس إلا النظم والأسلوب ، وهم أهل والله ، ولن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور ، ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة كما يندخ الرماد الهامد .

وقال أبو الحسن الأشعري: « إن كل سورة قد علم كونها معجزة بمعجز العرب عنها » وقال السيوطي: « الذي ذهب إليه عامة أصحابنا - وهو قول أبو الحسن - أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة ، قصيرة كانت أو طويلة ، أو ما كان بقدرها » وقال ابن الحصار فهذه سورة الكوثر ، ثلاث آيات قصار ، وهي أقصر سورة في القرآن وقد تضمنت الاخبار عن مغيبين ، أحدهما : الاخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوائه ، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل . والثاني : الاخبار عن الوليد بن المغيرة ، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد كما هو مقتضى قوله تعالى : « وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً » ، ومهدت له تمهيداً « ثم أهلك سبحانه ماله وولده وانقطع نسله .

وهو الذي خلقه الله تعالى أولاً في اللوح المحفوظ ، ثم أنزله في صحائف إلى سماء الدنيا في محل يقال له : بيت العزة ، في ليلة القدر .

كما قال تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

وقال : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » . (١)

ثم أنزله على النبي ﷺ مفروقاً بحسب الوقائع كما قال :

« تَوَلَّى بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ » . (٢)

● الذي قد دلا : أي كل نص دل على الحدوث يحمل على القرآن بمعنى

اللفظ المقروء الدال على الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى بطريق الالتزام .

لكن يتنوع أن يقال : القرآن مخلوق إلا في مقام التعليم .

(١) البروج ٢٢ - ٢٣

(٢) الشعراء ١٩٣ . قال ابن كثير في تفسيره : وأما القرآن فأما نزل جملة

واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة

القدر منه ، هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس . وفي رواية سمع بن جبير

عن ابن عباس قال : أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا ،

فجعل في بيت العزة ثم أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة لجواب

كلام الناس ، ٣٨٠/١ - .

٤٣- وَيَسْتَحِيلُ ضِدُّ ذِي الصِّفَاتِ فِي حَقِّهِ كَالْكُونِ فِي الْجِهَاتِ

● ويستحيل : هذا شروع في ثالث الأقسام المتقدمة في قوله : فكل من كان شرعاً وجباً عليه أن يعرف ما قد وجباً ، لله والجائز والممتنعاً ،^(١) ولا شك في علم استحالة هذا القسم من وجوب القسم الاول له تعالى ، وأنما تعرض له المصنف - هنا - على طريق القوم من عدم اكتشافهم بدلالة الالتزام ولا بدلالة التضمن بل مالوا إلى الدلالة المطابقة لخطر الجهل في علم العقيدة . وضد الصفات الواجبة المار ذكرها يشمل الأمر الوجودي والعدمي . وليس المراد بال ضد الأمر الوجودي فقط .

● ضد ذي الصفات في حقه : أي يستحيل ضد الصفات الواجبة في حقه تعالى وهذه الأضداد المنفية هي :

١ - العدم

٢ - الحدوث .

٣ - طرو العدم أي الفناء .

٤ - المائلة للحوادث ،

فليس بجرم سواء كان جسماً مركباً ، أو جوهرأ فرداً غير مركب ، وليس بعرض قائم بجرم (لأنه متصف بالحياة والعلم والارادة والقدرة وغيرها من صفات المعاني ، وليس العرض كذلك إذ لاتعقل هذه الأوصاف إلا لموجود قائم بنفسه) . وليس في جهة للجرم ، بأن يكون فوق العرش أو تحته أو عن يمينه أو عن شماله ، ونحو ذلك ، وليس له جهة بأن يكون له فوق أو تحت أو يمين أو شمال ونحو ذلك ، لأن الجهات الست حادثة بأحداث الإنسان ونحوه بما يشي على رجليه ، فإن معنى الفوق ما يجاذي الرأس ، وهكذا في سائر

(١) انظر البيت التاسع والعاشر .

الجهات ، فقبل خلق العالم لم تكن جهات ، لذا كانت الجهات اعتبارية
تقبل الانتفاء . فلو كان كل حادث مستديراً كالكرة - مثلاً - لما وجدت
هذه الجهات . ولو كان الله سبحانه وتعالى في جهة لكان جوهرأ أو
جسمأ ، وهما باطلان في حقه تعالى . ومن أراد جهة غير الجهات الست
المعروفة فقد أخطأ في التعبير لعدم وروده في اللغة - هذا إن قصد
التنزيه - وإلا فيرد عليه لفساده فإن قيل فما بال الالهي ترفع إلى
السماء عند الدعاء ، وهي جهة العلو ؟ أجيب بأنها قبلة الدعاء تستقبل
بالأيدي ، كما أن البيت قبلة الصلاة يستقبل بالصدر والوجه ، والمعبود
بالصلاة والمقصود بالدعاء منزله - قطعاً - عن الحلول بالبيت أو بالسماء ،
ولا يتصف سبحانه بالصغر أو الكبر ، بمعنى قلة الاجزاء أو كثرتها ،
وهذا لا ينافي أنه تعالى كبير في المرتبة والشرف .

قال سبحانه : « عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » (١)

ولا يتصف بالأغراض في الأفعال والأحكام ، إذ ليس خلقه الاكوان
لمصلحة باعثة على ذلك الخلق ، وهذا لا ينافي أنه حكمه ، لأنه إن
انتفت الحكمه كان عبثاً ، وهو محال في حقه سبحانه . وكذلك إيجابه
الصلاة - مثلاً - علينا ، فهو ليس لغرض باعثة ، وإن كان حكمه
٥ - ويستحيل عليه ألا يكون قائماً بنفسه ، بأن يكون صفة يقوم
بمحل ، أو يحتاج الى مخصص .

٦ - ويستحيل : ألا يكون واحداً بأن يكون مركباً ، أو
يكون له مماثل في ذاته ، أو يكون في صفاته تعدد من نوع
واحد ، كقدرتين ، أو إرادتين - مثلاً - أو يكون لأحد صفة
كصفته تعالى ، أو يكون معه في الوجود مؤثر في فعل من الأفعال .

(١) الرعد ٩ .

لهذا قال العلامة السعد : .. وقد يفسر شمول قدرته سبحانه بأن ماسوى الذات والصفات من الموجودات واقع بقدرته وإرادته ابتداءً ، بحيث لا مؤثر سواه ، وهذا مذهب أهل الحق من المتكلمين ، وقليل ما هم^(١) ، وهذا كله ضد الوجدانية .

٧ - ويستحيل أن يكون عاجزاً عن ممكن ما ، وهذا ضد القدرة .

٨ - ويستحيل أن يوجد شيئاً من العالم مع الإكراه ، أو يعدمه مع الإكراه ، أو مع النسيان ، أو مع السهو ، أو مع التعليل . (بأن يكون سبحانه علة تنشأ عنه الخلائق من غير اختيار ، كحركة الخاتم بحركة الأصبع) . ونحن نقول : الخالق لحركة الأصبع والحركة الخاتم هو الله تعالى من غير تأثير أحدهما في الآخر البتة ، أو مع الطبع بأن يكون البارئ سبحانه طبيعة تنشأ عنه الخلائق من غير اختيار ، كالنار تحرق بشرط المماس لها بطبعها عندهم ، ونحن نقول : المؤثر في الاحراق هو الله تعالى ، ولا تأثير للنار فيه أصلاً . وهذا كله ضد الإرادة .

٩ - ويستحيل في حقه الجهل وما في معناه ، كالظن والشك والوهم والنوم ، وهذا ضد العلم .

١٠ - ويستحيل في حقه الموت وهو ضد الحياة .

١١ - ويستحيل اليك النفسي ، وهو ضد الكلام .

١٢ - والعمى وهو ضد البصر .

١٣ - والصمم وهو ضد السمع .

١٤ - حتى ٢٠ ويستحيل كونه عاجزاً . أو مكروهاً . أو جاهلاً .

أو مبتأً . أو أبكم . أو أعمى . أو أعم .

● كالكون في الجهات : هذا مثال من أمثلة المماثلة للحوادث ، أي بما يستحيل في حقه تعالى أن يكون في جهة من الجهات

(١) انظر شرح المقاصد ٨٠/٢ .

الست . ولقد أسرف بعض الناس في هذا العصر فغاضوا في متشابهة الصفات بغير حق ، وأتوا في حديثهم عنها بما لم يأذن به الله ، ولهم فيها كلمات غامضة تحتمل التشبيه والتنزيه ، ونحتمل الكفر والإيمان ، حتى باقت هذه الكلمات نفسها من التشابهات ، فهم قوم قد تصوروا الذات الإلهية كما صورتها لهم أخيلتهم ، ثم راحوا يستنهضون ظواهر بعض آيات من كتاب الله تعالى إلى تلك الأخيلة لتصديقها ومن الزيف أنهم يواجهون العامة وأنشأهم بما اعتقدوه ، ومن المؤسف أنهم ينسبون ما يقولون إلى سلفنا الصالح ، ويحيلون إلى الناس أنهم سلفيون ، ومن أقوالهم أن الله تعالى يشار إليه بالإشارة الحسية وأن له من الجهات الست جهة الفوق ، وأنه استوى على عرشه بذاته استواء حقيقياً ، بمعنى : أنه استقر استقراراً حقيقياً غير أنهم يعودون للقول : بأنه ليس كاستقرارنا ، وليس على ما نعرف ، وليس لهم مستند في ذلك إلا التشبث بالظواهر ، ولقد تجلى مذهب السلف والخلف آنفاً ، وفيه : أن حمل تشابهات الصفات على ظواهرها مع القول بأنها باقية على حقيقتها ليس رأياً لأحد من المسلمين ، وإنما هو رأي لبعض أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى ، وأهل النحل الضالة كالشبهة والمجسمة . أما المسلمون فأمور العقائد — عندهم — معتمدة على الأدلة القطعية التي توافرت على أنه تعالى ليس بجسم ، ولا متجزئاً ، ولا متوكباً ، ولا محتاجاً لأحد لا مكان ولا زمان ، ولا حالاً فيها . ولقد جاء القرآن الكريم بهذا في محكماته إذ قال :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) . وقال : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) . وقال : (وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) . وقال : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

وغير هذا كثير في الكتاب والسنة ، وكل ما جاء مخالفاً بظاهره لتلك القطعيات والمحكمات فهو من التشابهات الذي لا يجوز اتباعها . ثم إن هؤلاء المتشبهين بالسلف - وما هم منهم ، ولا من الخلف - متناقضون في أنفسهم ، لأنهم يثبتون تلك التشابهات على حقائقها ولا ريب أن حقائقها تستلزم الحدوث وأعراض الحدوث ، كالجسمية والتجزؤ والحركة والانتقال لكنهم بعد أن يثبتوا تلك التشابهات على حقيقة ينفون هذه اللوازم ، مع أن القول بشبوت الحقائق ونفي لوازمها تناقض لا يرضاه عاقل فضلاً عن طالب علم أو عالم فقولهم في مسألة الاستواء الآتفة : إن الاستواء باق على حقيقته يفيد أنه الجلوس المعروف المستلزم الجرمية والتحيز .

وقولهم بعد ذلك : ليس هذا الاستواء على ما نعرف ، يفيد أنه ليس الجلوس المعروف المستلزم الجرمية والتحيز .

فكأنهم يقولون : إنه مستو غير مستو ، أو متحيز غير متحيز ، وجسم غير جسم ، أو الاستقرار فوق العرش ليس هو الاستقرار فوقه ، إلى غير ذلك من الاسفاف والتماقت .

نعم ، إن أرادوا بقولهم : « الاستواء حقيقة » أنه على حقيقته التي يعلمها الله تعالى ، ولا نعلمها نحن ، فقد اتفقنا ، لكن يبقى أن نغيرهم هذا موهوم ولا يجوز أن يصدر عن مؤمن خصوصاً في مقام التعليم ، وفي موقف النقاش والحجاج لأن القول : « بأن اللفظ حقيقة أو مجاز » لا ينظر فيه إلى علم الله وما هو عنده ، ولكن ينظر فيه إلى المعنى الذي وضع له اللفظ في عرف اللغة ، والاستواء لغة : يدل على ما هو مستحيل على الله تعالى في ظاهره ، فلا بد - إذن - من صرفه عن هذا الظاهر . واللفظ إذا صرف عما وضع له واستعمل في غير ما وضع له خرج عن الحقيقة - لا محالة - إلى المجاز ، ما دامت هذه قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

ثم إن كلامهم هذا على هذه الصورة فيه تلبس على العامة وفتنة لهم ، فكيف يواجهونهم به ، وفي ذلك من الإضلال وغزيق الأمة مافيه ؟ الأمر الذي نهانا القرآن الكريم عنه والذي جعل عمر يفعل مايفعل بـابن صُبَيْغ وجعل مالكاً يقول مايقول ، كما مرّ في بحث سابق . ولو أنصف هؤلاء لسكتوا عن الأخبار والآيات المتشابهات ، واكتفوا بتنزيه الله تعالى عما ثوّمه ظواهرها من الحوادث ولوازمه ، وفرضوا الأمر في تعيين معانيها إلى الله تعالى وحده لكنهم :

١ - لم يسلكوا في النصوص المتشابهة مسلكاً واحداً ، فترام يحضون إلى تأويل بعضها .

كقوله تعالى : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ » .

وقوله تعالى : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ » .

وقوله تعالى : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ فِي الْأَرْضِ » .

ويتركون بعضها الآخر على ظواهرها ابتغاء إثبات ما قر في أنفسهم من عقيدة الجهة لله تعالى .

٢ - ولم يأتوا إلى النصوص المتشابهة وهم مُنَزَّهُون ، بل هم قد اعتقدوا عقيدة وأرادوا إثباتها ، فراحوا يتلمسون النصوص التي يوهّم ظاهرها تأييداً لعقيدتهم .

أدلة نهافت مسلكهم :

١ - إن الأخذ بظاهر النصوص يوجب تناقضاً ، وتشبيهاً لله تعالى

بالحوادث ، وإليك أمثلة ذلك :

في النصوص الموهمة بالجراحة « قال العلامة فخر الدين الرازي في كتابه أساس التدريس : وأعلم أن نصوص القرآن لا يمكن إجراؤها على ظاهرها لوجوه :

الأول - أن ظاهر قوله تعالى : (وَلَتُضْمَعَ عَلَى عَيْنِي)

يقضي أن يكون موصى عليه السلام مستقراً على تلك العين ملتصقاً بها مستعياً عليها ، وذلك لا يقوله عاقل .

والثاني - أن قوله تعالى : (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

يقضي أن تكون آلة تلك الصنعة الأعين .

والثالث - أن إثبات الأعين في الوجه الواحد قبيح فنبت أنه لا بد من المصير إلى التناوب (أي بصرف النص عن ظاهره المحال في حقه تعالى) .

ويقال لهم إذا كنتم تُعْمِلُونَ النصوص على ظواهرها حقيقة فأخبرونا : أله عين أم أعين ١٢ . كذلك ما تقولون في :

قوله تعالى : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ، يافراد اليد

وقوله تعالى : « لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ » بتثنيها

وقوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ » بجمعها

أله يد أم يدان أم له أيد ١٣ .

ويقال لهم أيضاً : إذا كنتم تأخذون بظواهر النصوص على حقيقتها ، فكيف توفقون بين هذه النصوص .

في النصوص الموهمة للجهة :

آ - ورد من الآيات التي يوم ظاهرها أنه سبحانه وتعالى في السماء
 قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » .
 وقوله : « بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ » .
 وقوله : « أَأَمْنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ » .

وقوله : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » .
 ب - ومن الآيات التي يوم ظاهرها أنه سبحانه وتعالى في الأرض
 قوله تعالى : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ » .
 وقوله : « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ » .
 وقوله : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » .
 وقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ » .
 وقوله : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ » .
 وقوله : « فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَسَمُّ وَجْهُ اللَّهِ » .

وقوله : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَآلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ » .
 أفقولون : إنه في السماء حقيقة أم في الأرض حقيقة أم فيها معاً حقيقة ؟
 وإذا كان في الأرض وحدها حقيقة فكيف تكون له جهة فوق ؟ وإذا
 كان فيها حقيقة فلماذا يقال : له جهة فوق ، ولا يقال له جهة تحت ؟ !

ثم ألا تعلمون أن الجهات أمور نسبية ، فما هو فوق بالنسبة الينا يكون.
 تحتاً بالنسبة إلى غيرنا ؟ فإين تذهبون ؟! وإن راموا تأويل القسم الثاني
 من الآيات حتى يوافق اعتقادهم الجهة فـه سبحانه فيسألون : كيف تسوغون.
 تأويل بعض النصوص مع ترك النصوص الأخرى على ظاهرها ، مع أنها
 كلها متشابهة ، ومستحيلة الظاهر في حقه سبحانه ؟! أضف إلى ذلك أنه
 يلزمهم التأويل في كل النصوص ، إن أولوا بعضها ، والعجيب أنهم قد
 أتوا إلى النصوص التي تهدم معتقدهم فأولوها بما يتناسب مع أهوائهم ، وإلى
 النصوص التي بوم ظاهرها تأييداً لما انظروا عليه من اعتقاد الجهة فـه
 سبحانه فتشبهوا بها ، ولم ينظروا إلى النصوص المتشابهة كلها نظرة واحدة ،
 كما عليه السلف والحلف رضي الله عنهم بحيث يعتقدون استحالة ظواهرها
 على الله تعالى ، ويفوضون المعاني المروءة منها إلى الله تعالى كما عليه
 السلف ، أو يؤولونها كما هي طريقة الحلف . والحق أنه ليس أحد من
 السلف فعل ما فعلوه ، ولا أحد من الحلف ذهب إليه . كذلك وردت
 بعض الأحاديث الشريفة المتشابهة التي منها ما يوم ظاهره بأنه سبحانه في
 السماء ومنها ما يوم ظاهره أنه تعالى في الأرض ، فيقال فيها كما سبق.
 وبيناه في الآيات ، وإليك بعضها :

آ - قال رسول الله ﷺ : « يَنْزِلُ رَبُّنَا فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ
 الأخير ... الحديث » .

وقد سأل ﷺ جارية مرة فقال لها :
 « أئن الله ؟ فأشارت بأصبعها النسيابة إلى السماء » .

ب - وقال ﷺ : «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» . (١)

وقال أيضاً : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ وَجْهِ أَحَدِكُمْ إِذَا صَلَّى فَلَا يَبْصُقُ بَيْنَ يَدَيْهِ» . (٢)

ويقال لمعتدي الجهة : كيف تأخذون بظاهر حديث النزول وجلي أن الليل مختلف في البلاد لاختلاف المشرق والمغرب ، وإذا كان ينزل لأهل كل أفق نزولاً حقيقياً في ثلث ليلهم الأخير ، فمتى يستوي على عرشه حقيقة - كما يزعمون - لأن الأرض لا تخلو من ليل في وقت من الأوقات ، وهذا لا يماري فيه إلا جهول ، كذلك لو كان جل جلاله كما زعموا في جهة ، فكيف يكون فيها ويكون بين المصلي وقبلته ؟ وكما من المصلين في الزمن الواحد في أقطار الأرض مختلفين متباينين ؟

● مناقضة : لربما جادل معتقدوا الجهة بالباطل فقالوا : إن قوله ﷺ «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ وَجْهِ أَحَدِكُمْ ...»

من الأحاديث المتشابهة . ويجاب : بأن حديث الجارية كذلك من الأحاديث المتشابهة .

ولئن قالوا : هو نص يجب تأويله . يجاب : بأنه لما يجب تأويله ؟ لأنه يعارض التنزيه ؟ أم لأنه لا يعارض التشبيه ؟ فإن وجب لأنه يؤم في ظاهره الحلول والاتحاد ، ومما تشبه له سبحانه بمخلوقاته ، لزم أيضاً

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) رواه البخاري وأبو داود .

وجوب تأويل حديث الجارية لأنه يوم بظاھرہ أنه سبحانه وتعالى في جهة ، ولا يكون في جهة إلا الحادث .

ولئن قالوا : حديث الجارية صحيح ، وتؤيده النصوص القطعية .
أجيبوا : بأن هذا الحديث صحيح أيضاً وتؤيده النصوص القطعية ، فقد قال تعالى : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » ،

وقال : « فَأَيْنَمَا تُولُوا فَسَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » . وغيرها كثير .

ولئن قالوا : هذا حديث ظني الثبوت . أجيبوا بأن حديث الجارية كذلك .

أضف الى ذلك أنه قد ورد في بعض الروايات أن هذه الجارية كانت غرساء ، فأشارت الى السماء .

(فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء أعجمية فقال : يا رسول الله ، إن علي رقبة مؤمنة . فقال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ فأشارت برأسها الى السماء ، أو بأصبعها السبابة ، فقال لها رسول الله : من أنا ؟ فأشارت بأصبعها الى رسول الله وإلى اسماء أي أنت رسول الله قال : اعتقها) . (١)

كذلك سؤال « أين الله » لم يكن القاعدة المطردة لمعرفة إيمان من دخل في الإسلام ، بدليل أنه عليه الصلاة والسلام كان يسأل : أتشهدين

(١) رواه أحمد والبخاري والطبراني في الأوسط إلا أنه قال لها : من ربك ؟ فأشارت برأسها الى السماء ، ورجاله موثوقون . انظر الموطأ ١٤٠/٢ .

أن لا إله إلا الله ، أو : من ربك ؟ فقد ورد عن عبيد الله بن عبد الله
ابن عتبة بن مسعود :

[أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله ﷺ بجارية له سوداء
فقال : يا رسول الله ، إن علي رقبة مؤمنة فإن كنت تراها
مؤمنة أعتقها ، فقال لها رسول الله : أتشهدين أن لا إله إلا
الله ؟ قالت نعم ، ثم قال : تشهدين أن محمداً رسول الله ؟
قالت نعم . فقال رسول الله ﷺ أعتقها (١)] .

وعن الشريد بن سويد الثقفي قال : قلت يا رسول الله : إن أمتي
أوصت أن أعتق عنها رقبة مؤمنة ، وعندي جارية سوداء نويته ،
أفأعتقها ؟ قال : أذعها . فدعوتها فجاءت ، فقال : من ربك ؟
قالت : الله . قال : فمن أنا ؟ قالت : رسول الله . قال أعتقها
فإنها مؤمنة (٢) .

وقد قال الإمام النووي في شرحه حديث الجارية : ... ولقد كانت
المواد امتحانها هل هي موحدة تقرر بأن الخالق المدبر الفعال هو الله وحده ،
وهو الذي إذا دعاه الداعي استقبل السماء كما إذا صلى المصلي استقبل
الكعبة ، وليس ذلك لأنه انحصر في السماء ، كما أنه ليس منحصر في جهة
الكعبة ، بل ذلك لأن السماء قبلة الداعين ، كما أن الكعبة قبلة المصلين ،

(١) الموطأ ١٤٠/٢ .

(٢) في تفسير الوصول ١٧٥/١ أخرجه النسائي وأبو داود .

أو هي من عبدة الأوثان التي بين أيديهم . فلما قالت : في السماء علم أنها موحدة وليست عابدة للأوثان ، (١) .

وقال العلامة الكوثري عند قوله ^{تعالى} للجارية « أين الله » على أن « أين » تكون للسؤال عن المكان ، والسؤال عن المكانة . وقال أبو بكر العربي : المراد بالسؤال بـ « أين » عنه تعالى : « المكانة » ، فإن المكان يستحيل عليه ، (٢) .

والخلاصة : أن مَنْ لم يصرف لفظ التشابه - آية كان أو حديثاً - عن ظاهره الموهم للتشبيه أو الخيال ، فقد ضل ، ومن فسره تفسيراً بعيداً عن الحقيقة والبرهان قائماً على الزيغ والبهتان فقد ضل ، كالباطنية . وكل هؤلاء يقال فيهم : إنهم يتبعون مائشابه منه ابتغاء الفتنة ، أما من يصرف التشابه عن ظاهره بالحجة القاطعة لاطلباً للفتنة ولكن منعاً لها ، وتثبيتاً للناس على المعروف من دينهم ، ورداً لهم إلى محكمات الكتاب القائمة ، فأولئك هم هادون مهديون حقاً ، وعلى ذلك درج سلف الأمة وخلفها ، وأئمتها وعلمائها ، وهائهم بعض النصوص في نفى الجبهة عنه سبحانه ، قال ابن اللبان : . . . لما ادعى فرعون الربوبية واعتقد الجبهة لله تعالى قال :

« يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى » .

(١) حديث الجارية ٢٤/٥ .

(٢) السيف الصقيل ص ٩٤ - ٩٥ .

فرد الله تعالى عليه ، وسخف رأيه بقوله :

« وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِقِرْعَوْنَ سُوءُ تَعْمَلِهِ ، وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ » .

أي عدل عن سبيل القرب والدنو من إله موسى فإنه سبحانه منزّه عن علو المكان . وقول موسى عليه السلام :

« وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى » .

مع أنه لم يكن له صرحاً ، ولا احتاج في الدنو والقرب إلى صعود السماء . وكذلك قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حيث جاء ربه بقلب سليم ، فكان بجيشه إليه سبحانه ، ووصوله إنما بسلامة القلب ، لا بالتسور والصعود . وقال الإمام الفخر الرازي : المشبهة احتجوا بقوله تعالى :

« بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ » .

في إثبات الجهة . والجواب هو أن المراد الرفع إلى موضع لايجري فيه حكم غير الله تعالى كقوله تعالى :

« وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وقد كانت الهجرة في ذلك الوقت إلى المدينة المنورة . وقد قال إبراهيم عليه السلام :

« إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدَيْنِ » (١)

قال العلامة النسفي : معنى قوله تعالى

(١) الرازي ١٠٢/١١

« بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ » .

أي إلى حيث لأحكم فيه لغير الله تعالى (١) .
قال ابن حجر قال الكرمانى :

قوله تعالى : « أَلَمْ نَسْأَلْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » .

ظاهره غير مراد ، إذ أن الله تعالى منزّه عن الحلول في المكان ، لكن لما كانت جهة العلوّ أشرف من غيرها أضافها إليه إشارة إلى علو الذات والصفات (١) .

وقال البيهقي : . . . وليس معنى قول المسلمين « إن الله استوى على العرش » أنه مماس له ، أو متمكن عليه ، أو متعيز في جهة من جهاته ، لكنه بائن من خلقه (٢) . وقد أوضح معنى الينونة هذه فقال : وأنه فوق الأشياء بائن منها ، بمعنى أنها لا تحله ولا يحلها ، ولا يسها ، ولا يشبهها ، وليست الينونة بالعزلة ، تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسه علواً كبيراً (٣) .

وقال الإمام الرازي : ١ - لو وجب اختصاصه تعالى بالجهة لكان محتاجاً إليها ، وذلك يقدح في كونه غنياً على الإطلاق .

٢ - قوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) .

(١) النسفي ٢٦٢/١ .

(٢) فتح الباري الحديث عن السيدة زينب .

(٣ - ٤) الأسماء والصفات ٣٩٦ - ٤١١ .

وقد سئل رسول الله : أقریب ربنا فتنأجیه أم بعید فتنأدیه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية . ولو كان سبحانه في السماء أو في العرش لما صح القول بأنه تعالى قريب من عباده .

٣- قوله تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) .

ظاهره يقتضي فناء العرش ، وفناء جميع الأحياء والجهات ، وحينئذ يبقى الحق سبحانه وتعالى منزهاً عن الحيز والجهة ، وورد في صحيح البخاري أنه ﷺ قال :

(كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئاً غَيْرُهُ) .

وإذا ثبت ذلك امتنع أن يكون الآن في جهة ، وإلا لزم وقوع التغير في الذات ٤ - ولو كان سبحانه متعيزاً لكان متناهياً ، وكل متناه ممكن ، وكل ممكن حادث ، فلو كان متعيزاً لكان محدثاً ، وهو باطل ، وقال العلامة الشيخ أحمد فهمي أبو سنة عند كلامه حول معرفة أسباب النزول : إن معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها عند نزول القرآن ضروري ، لأن كثيراً من الألفاظ ، إذا أريد تفسيرها بمجرد اللغة من غير رجوع إلى هذه العادات وقع المفسر في الغلط والجهل . . . ومن ذلك قوله تعالى :

(يَخَافُونَ رَبَّهُمْ) . وقوله : (أَأَمْنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) .

وأشبه ذلك إنما جرى على معتادهم من اتخاذ الآلهة في الأرض ، وإن كانوا مقرين بإلهية الواحد الحق ، فجاءت الآيات بتعيين الفوق وتخصيصه تنبيهاً على نفي ما ادعوه في الأرض من الأوثان ، فلا يكون فيه دليل على إثبات الجهة لله سبحانه ، ومن ذلك قوله :

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى)

فعين هذا الكوكب مع أنه رب الكواكب كلها لأن خزاعة من العرب قد عبده (١) .

وقال القرطبي في تفسيره ثم إن إضافة العرش إلى الله تعالى كإضافة البيت ، وليس البيت للسكنى وكذلك العرش (٢) .

وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى : من قال لا أعرف الله في السماء هو أم في الأرض فقد كفر ، لأن هذا يوم أن للحق سبحانه مكاناً ، ومن نوه أن للحق مكاناً فهو مشبه .

(١) انظر أدلة الأحكام والاجتهاد لأبي سنة ١٨-١٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٨/٢٦٧ .

٤٤- وجائز في حقه ما أمكننا إيجاداً إعداماً كرزقه الغنى

● لما فرع من الكلام على الواجب والمستحيل شرع بتكامل على الجائز الذي هو ثاني الأقسام الثلاثة في الاجمال وإنما أخره في التفصيل لما مر آنفاً من طول الكلام عليه ..

وجائز في حقه ...: أي جائز في حقه تعالى إيجاد الممكن وإعدامه ، أو بمعنى آخر : جائز في حقه فعل كل ممكن وتركه فلا يجب عليه شيء من الممكنات كما لا يستحيل ، خلافاً للمعتزلة في قولهم بوجوب بعض الممكنات عليه تعالى ، مثال ذلك : قولهم بوجوب الصلاح والأصلاح عليه تعالى ، أما أهل السنة فعندهم الصلاح والأصلاح جائز في حقه تعالى كما هو مبين في هذا الكتاب^(١) .

(١) قال سيدي الشيخ محمد الهاشمي في كتابه « مفتاح الجنة » ص ٢٥٣ : والجائز في حقه تعالى فعل كل ممكن أو تركه ، وأفراده كثيرة فمنها الخلق والرزق ، والإماتة والاحياء ، والصحة ، والاسقام ، وبعدة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والثواب والعقاب ، والقضاء والقدر ، وفعل الصلاح والأصلاح ورؤية المؤمنين الى الله تعالى بلا كيف ولا انحصار، وإيجاد تأثيره تعالى عند الأسباب العادية لابها ولا بقوة أودعها الله فيها ، ولا هي سبب عقلي بحيث لا يصح فيها التخلف ، وإنما المولى تبارك وتعالى أجرى العادة أن يخلق عند تلك الأسباب لابها أو بها عادة مع صحة التخلف كإيجاد تأثيره تعالى عند قدرة العبد الحادثة وإيجاد الاحتراق عند النار، والضوء عند الشمس والنور عند القمر والمصباح والشبع عند الاكل والجوع عند عدم الاكل والري عند شرب الماء والستر والوقاية عند لبس الثوب والقطع عند السكين والشفاء عند التداوي .

وخصت خمسة منها بالذكر للرد صريحاً على من يزعم عدم دخولها في القسم الجائز وإن كانت تؤخذ منه ، لأن أرباب هذا الفن لا يكتفون بخاص عن عام ولا بدلالة الإلتزام لخطر الجهل فيه وهي : جواز الفعل والترك . وجواز إيجاده الحكمة في أفعاله تعالى ، وأحكامه . وجواز إيجاده وتأثيره تعالى عند مقارنة الأسباب العادية مع صحة التخلف ، وجواز إيجاده تأثيره عند الطبيعة والعلّة من الأسباب العادية مع صحة التخلف أيضاً وجواز إحداثه تعالى هذا العالم بأسره فإنما أحدثه وأظهره بمحض إرادته تعالى واختياره .



٤٥ - فَخَالِقُ لِعَبْدِهِ وَمَاعِمِلٌ مُؤَفَّقٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَهْتَدِيَ

فخالق لعبده وماعمل : هذا تفريع على ما علم مما تقدم من انفراد تعالى بالإيجاد فإذا ثبت وجوب انفراده تعالى بالإيجاد فهو سبحانه خالق لعبده وماعمل . وهذا يسمى عند العارفين « بوحدة الأفعال » ، ومنها يعلم بطلان دعوى أن شيئاً يؤثر بطبعه أو بقوة فيه ، فمن اعتقد أن الأسباب العادية كالنار والسكين والأكل والشرب يؤثر في مسبباتها كالحرق والقطع والشبع والري بطبعها وذاتها فهو كافر بالإجماع ، أو بقوة خلقها الله فيها ، ففي كفره قولان والأصح أنه ليس بكافر بل هو فاسق مبتدع

ومن اعتقد أن المؤثر هو الله تعالى ، لكن جعل بين الأسباب ومسبباتها تلازماً عقلياً بحيث لا يصح تخلفها فهو جاهل ، وربما جره ذلك إلى الكفر ، فإنه قد ينكر معجزات الأنبياء لكونها على خلاف العادة . ومن اعتقد أن المؤثر هو الله تعالى ، ولكن جعل بين الأسباب والمسببات تلازماً عادياً بحيث يصح تخلفها فهو المؤمن الناجي إن شاء الله تعالى ، فالفرق في ذلك أربعة . والسلامة أن يعتقد أنه سبحانه خالق لعبده وعمله . والمراد بالعبد - هنا - كل مخلوق يصدر عنه الفعل ، عاقلاً كان أو غيره ، خلافاً لبعضهم حيث قصره على المكلف بدعوى أن بعض الأدلة التي ذكرها العلماء في هذه المسألة لا تجري في غير فعل المكلف .

وإنما ذكر المصنف العبد ، مع أنه متفق على خلق الله إياه ، توصلاً لما بعده ، واقتداء بقوله تعالى :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ^(١)) .

والتقدير في الآية : والله خلقكم وعملكم . أو : والله خلقكم والذي تعملونه . وذلك رد على المعتزلة في قولهم : بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية . وهذه المسألة ذات فرعين أحدهما : بيان هل الموجد للفعل المنسوب إلى العبد هو قدرة الله تعالى أم قدرة العبد ؟ . وثانيها : بيان هل للعبد فيه كسب أولاً ؟ . وقد ذكر المصنف الفرع الأول - هنا - وسيأتي قوياً كلامه عن الفرع الثاني بقوله : « وعندنا للعبد كسب » ، وخلاصة القول في هذه المسألة : أن أهل السنة ذهبوا إلى أن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها ، وليس لقدرة العباد تأثير فيها ، بل الله تعالى أجري عادته بأن يوجد في العبد قدرة واختياراً ، فإذا لم يكن ثمة مانع أوجد فيه فعله المذكور مقارناً لهذه القدرة وهذا الاختيار اللذين أوجدهما الله تعالى فيه ، فيكون فعل العبد - على هذا - مخلوقاً لله تعالى إبداعاً وإحداثاً ومكسوباً للعبد . والمراد بكسبه : مقارنة وجود الفعل بقدرة واختياره ، من غير أن يكون ثمة تأثير منه أو مدخل في وجوده سوى كونه محلاً لظهور الفعل . هذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ، وسيأتي إيضاح الكسب في الكلام على الفرع الثاني من فروع المسألة وقال أكثر المعتزلة : أفعال العباد واقعة بقدرتهم وحدها على سبيل الاستقلال بلا إيجاب ، بل بالإختيار ، وذهبت طائفة من المتكلمين إلى أنها واقعة بالقدرةين معاً ، وهذه الطائفة تختلف فيما بينها . فمنهم من يقول : أفعال العباد

(١) الصافات ٩٦ .

واقعة بمجموع القدرتين . قدرة الله تعالى وقدرة العبد ، على أن تتعلق القدرتان جميعاً بالفعل نفسه ، وهذا مذهب الأستاذ من أهل السنة ، والنجار من المعتزلة ، وعندهما لا يمتنع اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، ومنهم من يقول : أفعال العباد واقعة بالقدرتين جميعاً ، على أن تتعلق قدرة الله تعالى بأصل الفعل وتعلق قدرة العبد بوصفه ، من كونه طاعة أو معصية إلى غير ذلك من الأوصاف التي لا توصف بها أفعاله سبحانه وتعالى . كما في لطم اليتيم تأديباً أو إيذاءً ، فإن نفس اللطمة واقعة بقدرة الله تعالى وتأثيره ، وأما كونها تعد طاعة إن قصد تأديبه ، ومعصية إن قصد إيذاؤه فواقع بقدرة العبد وتأثيره . وأما ما نقل عن الأستاذ والقاضي وإمام الحرمين من القول بوقوع التأثير من القدرتين لم يصح عنهم وهم منزهون عن مخالفة مشهور أهل السنة ، وهو أن التأثير لله سبحانه وتعالى وحده ، إذ هو المتفرد بالإيجاد والامداد . وقد استدل أهل السنة على ما ذهبوا إليه بالنصوص وبوجوه من المعقول ، أما النصوص فقد قال سبحانه وتعالى في معرض التمدح والتفرد بالألوهية واستحقاق العبادة :

« لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ »^(١) .

فيحمل قوله على العموم ؛ ويدخل فيه أعمال العباد . وقال أيضاً :

« أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ،

قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

(١) الشعراء ٧٨ .

وقال : « ولم يكن له شريك في الملكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرُهُ
تَقْدِيرًا » .

وقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ » .

إزالة لما يتوهم من أن العبيد - وإن لم يكونوا شركاء له في الملك على
الإطلاق - يخلقون بعض الأشياء .

قال تعالى : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » .

أي خلقنا كل موجود من الممكنات بتقدير وقصد وقال :

« هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ » .

وهذا يفيد حصر الخالق في سبحانه .

قال تعالى : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ إِلَّا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » .

وفيه احتجاج على علمه - سبحانه - بما في القلوب من الدواعي والصواف والعقائد
والخواطر لكونه خالقاً لها ، على طريق ثبوت العلم بثبوت الخلق ، وفي
أسلوب الآية إشارة إلى أن سכלاً من ثبوت الخلق ، والعلم به ، واضح
لا ينبغي أن يشك فيه .

قال تعالى : « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرِثُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

وقال : « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا » .

وهذا يتناول السيد المسيح عليه الصلاة والسلام والملائكة وغيرهم من الأحياء الذين يدعونهم الكفار ، فيجب أن لا يخلقوا شيئاً أصلاً .

قال تعالى: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) .

وهذا يدل على أن من سوى الله تعالى لا يخلق شيئاً وإلا لكان للكفار أن يقولوا : نحن خلقنا كثيراً من الحركات والأوضاع والهيئات المحسوسة - إن أريد بالرؤية الإبصار - وإن أريد بها الإعلام فجميع الأفعال الظاهرة والباطنة .

قال تعالى : (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) .

وقال : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِإِطْلَاقٍ) .

وقال : (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى) .

وقال تعالى حكاية : (رَبُّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ) .

فجعل بمعنى صير ، والتصيير تحصيل صفة مكان صفة ، فإذا وقع مفعوله الثاني من أفعال العباد ، أفاد أنه يجعل الله ويخلق .

قال تعالى : (فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ) .

وهذه الآية تدل على أن الله تعالى يفعل كل ما تتعلق به إرادته ، وهي متعلقة بالإيمان وسائر الطاعات ، فتدل على أنه فاعلها . وقال :

(إِنَّ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) .

هذه الآية تدل على أن جميع الحسنات والسيئات بخلق الله تعالى ومشيتته ، لأن منشأ الإحتياج (أي الإمكان والحدوث) مشترك بينهما ، بحيث لا ينبغي أن يخفى على العاقل ، فما لهم لا يفهمون ؟ ! وعليه يكون قوله تعالى بعد ذلك :

(وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ).

وارداً على سبيل الإنكار فكيف تكون هذه التفرقة ، أو يحمل على مجرد السببية دون الإيجاد توفيقاً بين الكلامين .

قال تعالى : « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ » .

وَقَالَ : « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

وأي ممكن يخرج عن إرادته سبحانه حتى يقال فيه : إنه ليس بتكوين الله تعالى ؟ .

قال تعالى : « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى » .

وقال : « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » .

وقال : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ » .

فهو سبحانه الموجد لوقوف الطير في الهواء مع أنه فعل اختياري من الحيوان كما يبدو . ونصوص كثيرة أخرى كلها تصرح بتفرد الله تبارك وتعالى في الإيجاد والإمداد ، وإنما للعباد الكسب فقط وليس لهم الخلق ، إذ هو إبداع واختراع . وجملة أتعاديت شريفة نقلها الثقات مثل البخاري

ومسلم وغيرها تؤكد خالقية الله تعالى لكل شيء ، منها ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« كلُّ شيءٍ بِقَدَرٍ ، حتى العَجْزُ وَالْكَيْسُ » .

ومارواه حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتُهُ » .

ومنها قوله ﷺ :

« مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَنْ يُقَيِّمَهُ أَقَامَهُ ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزَيِّغَهُ أَزَاغَهُ » .

ومارواه جابر من أنه ﷺ كان كثيراً ما يقول :

« يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ . فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا حَدَّثْتَ بِهِ ؟ » ، فَقَالَ « إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا هَكَذَا ، وَأَشَارَ إِلَى السَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى يُحَرِّكُهُمَا » .

وإنما نسبت الأفعال والأعمال والصنع والخير للعباد في بعض النصوص لكونهم أسباباً عادية فيها ، فهي من باب إسناد الفعل لما هو سببه كما في قولك « بني الأمير المدينة » ، وقد قال تعالى :

« وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » .

فأخبر سبحانه أنه رمى ، وأن نبيه ﷺ قد رمى ، فباعتبار أنه سبحانه خالق
الحركة ، بمض للرمية ، خالق لسيرها ، نفاها عن نبيه ﷺ ، وباعتبار أنه
ﷺ محل ظهورها أثبتا له . وعلى هذا الغرار قوله تعالى :
« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » .

وقد قال تعالى حاكياً عن سيدنا المسيح عيسى بن مريم :

« أَنِّي أَنشَأْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيَاةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ
طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْكَلِمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ » .
وقال مخبراً عن نفسه أنه هو الذي يحيي ويميت فالإحياء من حيث خلقه
منسوب له تعالى ، ومن حيث محل ظهوره منسوب للسيد المسيح عليه
السلام . وقد قال تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » .
فنسبته له تعالى لأنه مخترعه وخالقه ومنميه ، ونسبته إلينا لأننا نحركنا
في زرعه فظهرت الحركة المخلوقة فينا ، فهذه كلها أفعال خلقها الله تعالى
وأظهرها في عباده ، وقس على هذا كل النصوص الواردة التي نسبت فيها
الأفعال للعبادات والأعراض . كتحرك الفلك ، ونزول المطر ، وسيلان
الوادي ، وإحراق النار ، وتبريد الثلج .

قال تعالى : « تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ » .

وقال : « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » .

وقال : « فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا » .

وقال : « فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمَسْكُهُ فِي الْأَرْضِ » .
وقال : « وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَجْرُونَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِ » .

وما نسبت الأفعال إلى هذه الجمادات إلا لأنها محل لظهورها، أما موجدها فهو سبحانه وحده ، لا شريك له .

وأما وجوه المعقول على أنه سبحانه متفرد بالإيجاد فالأول : أن فعل العبد ممكن في نفسه ، وكل ممكن فهو مقدور لله تعالى لما مر من شمول قدرته سبحانه للممكنات بأمرها ، ولا تأثير لقدرة العبد في فعله لامتناع اجتماع قدرتين مؤثرتين لمؤثر واحد ، وإذا ما ثبت هذا دحض كون فعل العبد واقعاً بقدرة العبد وثبت أنه واقع بقدرة الله تعالى والثاني : لو كان العبد موجداً لأفعاله بالاستقلال لوجب أن يعلم تفاصيلها ، لأن كل فعل من أفعاله يمكن وقوعه منه على وجوه متفاوتة بالزيادة والنقصان ، وكل من الأزيد والأنقص مما أتى به كان ممكناً أن يقع ، ووقوع الفعل على الوجه المعين دون سائر الوجوه التي كان يمكن وقوعه عليها لأجل القصد إليه بخصوصه والاختيار المتعلق به وحده ، وهذا يستدعي العلم بالوجوه التي يمكن أن يقع كل فعل عليها ، ويثبت الوجه المعين دون غيره ، وذلك بما تشهد به البدية ، فإذا تفصيل الأفعال الصادرة منه باختياره لابد أن تكون مقصودة معلومة له ، لكنه لا يعلم تفاصيلها بالتحقيق ، لأن النائم والساهي قد يفعل كل منها باختياره فعلاً كأنقلابه من جنب إلى آخر ونحوه وهو لا يشعر بكمية ذلك الفعل ولا بكيفيته ، وأيضاً المحرك

منا لأصبعه محرك لكل أجزائها لاحتمالة ، ولا شعور له بها ، فكيف
 يتوهم أنه يعرف حركة الأجزاء ويقصدها ؟ ! فيثبت ضرورة أن العبد
 غير موجد لأفعاله بالإختيار والاستقلال . والثالث : أنه لو كان العبد
 موجداً لفعله باختياره وقدرته استقلالاً لوجب أن يكون متمكناً من فعل
 كل عمل يقدم عليه وتركه ، وإلا لم يكن قادراً عليه مستقلاً بإيجاده ،
 ولوجب أيضاً أن يكون - ملة - مرجع يرجع فعله على تركه ، إذ لو
 لم يتوقف على المرجع للزم ترجيح أحد الأمرين المتساويين بغير مرجع
 وهو محال ، وإذا لزم وجود مرجع فهذا المرجع إما أن يكون من العبد
 باختياره فيلزم التسلسل بأننا ننتقل إلى صدور هذا المرجع منه وهكذا ،
 وإن كان المرجع من الله تعالى فهو المطلوب . وههنا شيان أنبهك اليهما
 الأول : أنه قد تبين لك أن أهل الملة جميعاً متفقون على أن
 الله تعالى خالق للعباد ، وعلى أنه تعالى خالق لأفعالهم الإضطرارية ،
 كاتفاضة الحى ، وحركة القلب والمععدة وغيرهما ، وحركة
 الموتعش . وتبين لك أيضاً أن مذهب أهل السنة هو أنه تعالى
 الخالق لأفعال العباد الإختيارية أيضاً ، خيرها وشرها ، وأن للعبد فيها
 الكسب فقط . فإذا ما أبصرت القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة
 تنسب الفعل الإختياري إلى العبد فنشأ هذه النسبة من حيث ماله فيه
 من الكسب ، وإذا وجدتها ينسبنا الأفعال إلى الله تعالى فهو بالنظر
 إلى حقيقة الحال ، وأنه سبحانه هو الخالق لكل شيء . وقد قال سيدي
 محمد الهاشمي في هذا : ... وبالجمله فذهب أهل السنة أن الموجد لأفعال
 العباد هو الله تبارك وتعالى وحده ، غير أن الإختيارية منها تقارنهم قدرة

حادثة ، من غير تأثير لها فيها أصلاً . وهذه الأفعال هي التي في وسع المكلف على حسب مادل عليه الشرع ، قال جل من قائل :

« لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ،

أي إلا ما تسعه طاقتها بحسب الظاهر والعادة ، وأما بحسب ما في نفس الأمر فليس في وسعها فعل من الأفعال ، فلا يقال الجبر لازم لأهل السنة حيث لم يجعلوا للعبد تأثيراً في أفعاله ، لأننا نقول : الجبر المحذور هو الحسي ، كما ذهب إليه الجبرية ، أما العقلي - وهو سلب الحاقبة عن العبد - فهو متوجه على جميع الفرق ، ولا يضر ، بل هو الإيمان فاعرفه . وبالجملة فأهل السنة جانبوا الجبرية بتقسيم الأفعال إلى قسمين : إختيارية وإضطرابية ، وإن الأولى مقدورة للعباد ، بمعنى أن لهم قدرة حادثة تقارن تلك الأفعال الإختيارية ، وتتعلق بها من غير تأثير . وجانبوا أيضاً القدرية ، لأنهم لم يجعلوا لتلك القدرة الحادثة - المخلوقة لله تعالى في المخلوقات - تأثيراً البتة ، في أثر ما ، بدليل برهان الوحدانية ، ووجوب عموم القدرة والإرادة لجميع الممكنات ، ودل عليه الكتاب والسنة . وإجماع السلف الصالح قبل ظهور البدع ، وقال به الشيخ كمال الدين بن أبي الشريف . وقد كان الأوائل من المعتزلة لقرب عهدهم بإجماع السلف ، على أنه لا خالق إلا الله تعالى . وقال الإمام جعفر رضي الله عنه يوماً لقدري : إقرأ الفاتحة . فلما بلغ قوله تعالى :

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » .

قال الإمام جعفر : على ماذا تستعين بالله ، وعندك أن الفعل منك ،

وجميع ما يتعلق بالإقدار والتمكين والألطف قد حصلت وتمت ؟ فانقطع القدري . وقد قال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله : « إن التوسط في الأمر فيه السلامة ، فانه سبحانه خالق الأفعال ومقدرها ، والعبد كاسبها ومحصلها ، يمدح ويثاب باختياره الخير ، وينمذم ويعاقب باختياره الشر » . وقد قال الشيخ محي الدين قدس الله مره : وإنما أضاف الله تعالى الأعمال إلينا لأننا محل الثواب والعقاب وهي لله حقيقة ، ولكن لما شهدنا الأعمال بارزة على أيدينا ، وادعيناها لنا ، أضافها تعالى إلينا بحسب دعوانا ، ابتلاء منه لأجل الدعوى ، ثم إذا كشف الله تعالى عن بصيرتنا رأينا الأفعال كلها لله تعالى ، فهو تعالى خالق فينا مانحن العاملون ، ثم مع هذا المشهد العظيم لابد من القيام بالأدب ، فما كان من حسن شرعاً أضفناه إليه خلقاً ، وإلينا محلاً ، وما كان من ميه أضفناه إلينا بإضافة الله تعالى . على هذا يقول الجنيد رحمه الله : إياك أن تقف في حضرة شهود الفعل لله تعالى وحده دون عباده فتقع في مهوأة من التلف ، ولا ترى لك مع ذلك قط ذنباً ، فتهلك مع المالكين وفي ذلك هدم للشرائع كلها .

● الأمر الثاني : أن الأدب يقتضي أن ينسب الخير إلى الله تعالى ، لأنه هو الفاعل الموجد ، وينسب الشر إلى أنفسنا لأننا اكتسبناه لها ، وقد جاء هذا الأدب العالي في كتاب الله تعالى ، فانظروا في قوله سبحانه على لسان إبراهيم الخليل :

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ،
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) . (١)

تجده قد أسند كل الأفعال ما خلا المرض إلى الله تعالى ، لكونها خيراً ،
وفعلها منة من الله على عبده ، فلما ذكر المرض أسنده إلى نفسه ، مع
أنه يعلم حق العلم أن الله تعالى خالق كل شيء . ثم تدبر قول العبد
الصالح لمومي عليه الصلاة والسلام :

« أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ
أَنْ أَعِيبَهَا » . (٢)

وقال : « فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا
كَذَٰبَهُمَا » . (٣)

ترَ أن إحداث العيب قد نسبته الى نفسه لكونه شراً في ظاهر الأمر
فلما ذكر المنة على الغلامين ، وظاهر أمرهما الخير ، نسبها الى الله تعالى ،
مع أن كلاً منها من عنده سبحانه (٤) . على أنه ينبغي أن لا يغرب عنا
أن قدرته تعالى لا تبرز إلا ما خصصته الإرادة بالوجود أزلاً . وأن
إرادته سبحانه لا تخصص إلا وفق علمه تبارك وتعالى . ففي الحقيقة

(١) الشعراء ٧٨ .

(٢) كهف ٧٩ .

(٣) كهف ٨٢ .

(٤) انظر الجوهرة بتحقيق محي الدين عبد الحميد .

ما برز شيء الى الوجود - من خير أو شر ، من نفع أو ضرر - إلا لتعلق العلم بوجوده ، والثابت أن تعلق العلم إنما هو تعلق انكشاف ، أي أن العلم يكشف الأمر على ما هو عليه من غير سبق خفاء ، فهو لا يتعلق تعلق إجبار ، فالذي تبرزه القدرة إنما هو وفق تخصيص الإرادة ، والذي تخصصه الإرادة إنما تخصصه على وفق العلم . فقد علم الله أن أبا بكر سيؤمن ولا يعاند فخصصت الإرادة هذا الإيمان على الهيئة التي سيكون عليها ، وفي الزمن الذي سيظهر به ، ثم أبرزت القدرة ما خصصته الإرادة فظهر إيمانه على ما نعرفه . فالعلم تعلق بإيمان أبي بكر تعلق انكشاف لا إجبار فيه . كذلك قد علم الله تعالى أن أبا جهل سوف لا يؤمن عناداً وحسداً ، فخصصت الإرادة أزلاً عدم إيمانه على الهيئة المعروفة ، وفي الزمن الذي سيظهر به ثم أبرزت القدرة هذا العناد على ما عرفناه ، فتعلق العلم بكفر أبي جهل تعلق انكشاف لا إجبار فيه .

وقد قال تعالى : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

لفعله سبحانه وتعالى - إذن - هو ظهور ما سبق في العلم الكاشف ، بحيث لو فرضنا أن العبد لو ترك شأنه بعد إعطائه القدرة على الفعل والتوك لما ظهر منه إلا ما علمه الله تعالى ، وخصصته إرادته ثم أبرزته قدرته .

● موفق لمن أراد أن يصل : التوفيق - شرعاً - هو خلق قدرة الطاعة ، والداعية اليها في العبد ، كما قاله إمام الحرمين ، وأراد بالقدرة سلامة الأسباب والآلات . وزاد قيد « الداعية اليها » ليخرج الكافر ، والمراد أن بما

يجب اعتقاده أنه سبحانه هو الحائز لقدرة الطاعة في من أراد توفيقه .
وأراد أن يصل لرضاء ومحبة .

وأما المراد من الأسباب والآلات في تعريف القدرة ، فالأسباب هي الأشياء التي تكون حاملة على فعل الشيء ، والآلات هي الأشياء التي تكون بها المعونة على فعل الشيء . فالرجل الذي يريد الصلاة مثلاً ، فالماء المتوضأ به من الأسباب العرفية بفعل الصلاة ، والأعضاء التي يحاول بها فعل هذه الطاعة آلات لها . ولما كان الكافر على هذا داخلًا في التعريف ، إذ خلق الله فيه قدرة الطاعة بهذا المعنى ، قال المصنف « خلق قدرة الطاعة ، والداعية إليها في العبد ، والداعي إلى الطاعة مفقود في الكافر ، لأن الداعية إلى الطاعة هو الميل النفساني السائق إليها المرغب فيها .

والقدرة على فعل الطاعة ضربان : الأول - قدرة واستطاعة بمعنى تمكين الله العبد من أن يفعل الفعل ، أو يتركه بحض اختياره ، وهذه هي مناط الأمر والنهي وهي المصححة للفعل ، وهذه لاشك أنها لا يجب فيها مقارنة الفعل ، والثاني : قدرة واستطاعة يجب معها وجود الفعل ، وهي بغير شك مقارنة للفعل لاسابقتها عليه ، والكتاب والسنة أشارا لهذين الضربين . فقد أشير إلى الأول بقوله تعالى :

« وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » . (١)

وقوله : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » . (٢)

وفي قوله ﷺ لعمران بن الحصين :

« صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ » . (٣)

ومعلوم أن الحج والصلاة واجبان على المستطيع بمعنى المتمكن من الفعل .

(١) آل عمران ٩٧ .

(٢) التغابن ١٦ .

(٣) فيض القدير ، ٥٠٨ ، قال البيهقي حديث حسن رواه البخاري وأحمد بسنده .

سواء أفعَل أم لا . وأشير إلى الضرب الثاني بقوله :

« مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ » . (١)

وقوله : « الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » . (٢)

فالمراد بعدم استطاعتهم مشقة ذلك عليهم ، وصعوبته على نفوسهم ، فنفسهم لا تقبله ولا تريده ، وإن كانوا قادرين على فعله متمكنين منه لو أرادوا . وهذا ينبغي أن العبد قادر حين التكليف بالقوة القريبة لما اتصف به من سلامة الآلات وتوافر الأسباب . ويدخل في التوفيق المؤمن العاصي خلافاً لمن قال : الموفق لا يعصي ، إذ لا قدرة له على المعصية ، كما أن المخدول لا يطيع إذ لا قدرة له على الطاعة . وقد سئل الجنيد : أيعصي الولي ؟ فأطرق ثم رفع فقال :

« وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » . (٣)

إذ العصمة لا تثبت إلا للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

(١) هود ٢٠ .

(٢) الكهف ١٠١ .

(٣) الأحزاب ٣٨ . ومن الخطأ أن يدعي إنسان الولاية وهو منهك في الشهوات مقارن للعاصي ، كيف وقد عرف السعد في شرحه على المقاصد الولي : بأنه هو العارف بالله تعالى المواظب على الطاعات المجتنب للعاصي المعرض عن الإيهام في الذات والشهوات .

٤٦- وَخَاذِلْ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَهُ وَمُنْجِزٌ لِمَنْ أَرَادَ وَعْدَهُ

● وخاذل لمن أراد بعده : الخذلان لغة ترك النصرة والإعانة ،
وشرعاً : خلق المعصية في العبد والداعية اليها ، أو خلق قدرة المعصية للذي
أراد بعده عن رضاه ومحبه . واستغنى عن نسبة الهداية والضلال والحتم
والطبع والأكنة والمد في الطغيان بنسبة خلق التوفيق اليه تعالى ، وبنسبة
خلق الخذلان (١) .

والأصل قوله تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » . (٢)

وقوله تعالى : « فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا » . (٣)

● ومنجز لمن أراد وعده : ولما اختلف الأشاعرة والماتريدية في الوعد
والوعد أشار بذلك إلى قوله : وما يجب شرعاً اعتقاده أن الله تعالى
معط - لمن أراد به خيراً - وعده الذي سبقت به إرادته في الأزل ، إذ
المراد لا يتخلف عن الإرادة ، لأنه لو تخلف إعطاء الموعود به لزم الكذب
والسفه والخلف والتبديل في القول ، وهو خلاف قوله تعالى :

(١) ذكر الحتم على القلوب إشارة إلى ما أجرى الله به العادة من أن الإنسان إذا
تناهى في اعتقاد باطل ، أو ارتكب محذور ، ولا يكون منه ثلثت بوجه إلى
الحق ، يورثه ذلك هيئة تفرقه على استحسان المعاصي ، وكأنما يجتم على قلبه وعلى
ذلك قوله تعالى : (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) وعليه استعارة الإغفال
والكن والقساوة في قوله : (ولا تطعم من أغفلنا قلبه) وقوله : (وجعلنا على قلوبهم
أكنة) وقوله : (وجعلنا قلوبهم قاسية) .

(٢) القصص ٥٦ .

(٣) الأنعام ١٢٥ .

« إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » .^(١)

وقوله : « مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ » .^(٢)

فوعده الله المؤمنين بالجنة لا يتخلف - شرعاً - قطعاً ، إذ الحلف في الوعد نقص يجب تنزيه الله تعالى عنه ، وأما الوعيد فلا بد من تحققه بالكافرين قطعاً ، قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » .^(٣)

وأما عصاة المؤمنين فيجوز أن يغفر الله لهم ويمحو أن يعذبهم ويدخلهم النار ، إلا أنه يقطع بإنفاذ الوعيد في بعض المؤمنين لورود الأخبار بذلك ، قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .^(٤)

وقال ﷺ : « مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى عَمَلٍ ثَوَاباً فهُوَ مُنْجَزٌ لَهُ ، وَمَنْ أَوْعَدَهُ عَلَى عَمَلٍ عِقَاباً فهُوَ بِالْخِيَارِ ، إِنْ شَاءَ عَذِّبَهُ ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ » .^(٥)

(١) آل عمران ١٩٤ .

(٢) ق ٢٩ .

(٣) النساء ٤٨ .

(٤) روى الحافظ أبو بكر البزار والحافظ أبو يعلى ، وتفردا به عن أنس رضي الله عنه : « مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى عَمَلٍ ثَوَاباً فهُوَ مُنْجَزٌ لَهُ ، وَمَنْ أَوْعَدَهُ عَلَى عَمَلٍ عِقَاباً فهُوَ بِالْخِيَارِ » وذكره ابن كثير ج ٢ / ٣١٨ .

٤٧- فوز السعيدِ عندهُ في الأزلِ كَذَا الشَّقِيّ ثُمَّ لَمْ يَنْتَقِلِ

● فوز السعيد عنده في الأزل : أي السعادة والشقاوة مقدرتان أزلاً، لا يتغيران ولا يتبدلان. لأن السعادة هي الموت على الإيمان، باعتبار تعلق علم الله تعالى أزلاً بذلك، والشقاوة هي الموت على الكفر بذلك الاعتبار. فالخاتمة تدل على السابقة. فإن من ختم له بالإيمان دل على أنه كان من السعداء في الأزل، وإن تقدم ذلك كفر. وإن ختم له بالكفر — والعياذ بالله تعالى — دل على أنه كان من الأشقياء في الأزل، وإن تقدم ذلك إيمان، كما يدل لذلك حديث الصحيحين، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال حدثنا الصادق المصدوق قال :

« إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، بَكْتَبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا ». (١)

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

فظفر السعيد بحسن الخاتمة عنده تعالى في الأزل ، والمراد من العندية العلم ، ومن الأزل : عدم الأولية .

● كذا الشقي : أي سقاؤه عنده في الأزل مثل فوز السعيد ، فليس كل من فوز السعيد وشقاء الشقي - باعتبار الوصف القائم به في الحال - من الإيمان في السعيد ، والكفر في الشقي ، بل باعتبار ماسبق أزلًا في علمه تعالى .

● ثم لم ينتقل : أي كل من السعيد والشقي لم يتحول عما ختم له به ، وإلا لزم انقلاب العلم جهلاً . وعلى هذا يصح قولك : « نا مؤمن إن شاء الله تعالى » نظراً للمآل ، وأما عند الماتريدي فلا يصح ، نظراً للحال ، إذ السعيد عندهم : هو المسلم باعتبار الآن ، والشقي : هو الكافر بالاعتبار نفسه . أما لو قالها شك فلا يجوز بالإجماع .

لأن الشك في إيمان نفسه كفر . أما لو قالها وهو مريد للتبرك بذكر اسم الله تعالى فإنه جائز بالإجماع . والحاصل أن الشك على قسمين : إما أن يتردد في أنه هل يستمر على الإيمان أو يقطعه ؟ فهذا هو الشك المنوع ، وإما أن يتردد الآن في أنه هل يكون مؤمناً عند الموت أو لا ؟ فهذا غير ممنوع ، لأن الخاتمة مجهولة ، على أن الماتريدي لا يجوزون الإرتداد على من علم الله موته على الإسلام ، ولا الإسلام على من علم الله موته على الكفر . والخلاصة : أن العامة تخاف من الخاتمة ، وأما خوف

الخاصة فن السابقة^(١) ، وهو أشد ، وإن تلازما . فيكون الخلاف بين
 الأشاعرة والماتريدية لفظياً ، فيتناول أن السعادة عند الأشاعرة هي الموت
 على الإيمان ، فهي مستقبلة ، لذلك صح تعليقها ، وعند الماتريدية هي الإيمان
 الحالي ، أي الحاصل بالفعل لذلك لا يعلق .

(١) ذكر القرطبي في تفسيره : أن القراء اجتمعوا إلى إبراهيم بن آدم رضي الله
 عنه ليسمعوا ماعنده من الأحاديث ، فقال لهم : إني مشغول عنكم بأربعة أشياء ،
 فقبل له وما ذاك الشغل ؟ قال أحدها : أني أفكر في يوم الميثاق حيث قال :
 « هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي . فلا أدري من أي الفريقين
 كنت في ذلك الوقت » . والثاني : « حيث صورت في الرحم ، فقال الملك الذي هو
 موكل على الأرحام : « يا رب ، شقي هو أم سعيد ؟ . فلا أدري كيف كان الجواب
 في ذلك الوقت » . والثالث : « حين يقبض ملك الموت روحى فيقول : يا رب مع
 الكفر أم مع الإيمان ؟ فلا أدري كيف يخرج الجواب » . والرابع حيث يقول :
 « وامتازوا اليوم أيها الجرمون » . فلا أدري في أي الفريقين أكون » ٨/٤

٤٨- وَعِنْدَنَا لِلْعَبْدِ كَسْبٌ كُلُّفًا وَلَمْ يَكُنْ مُؤَثَّرًا فَلْتَعْرِفَا

● وعندنا : أشار إلى المسألة المترجمة عندهم بمسألة الكسب فقال :
وعندنا أهل السنة والحق خلافاً للجبرية والمعتزلة كسبٌ للعبد ، وهذا هو
الفرع الثاني من فروع المسألة على ما ذكرناها عند القول بأن الله تعالى
خالق لأفعال العبد الاختيارية . وحاصل هذه المسألة ثلاثة مذاهب :
مذهب أهل السنة والجماعة ، وحاصله : أن للعبد في أماله الاختيارية
كسباً ، وأنه ليس له إلا ذلك الكسب . فليس هو مجبوراً عليها - كما
يقول الجبرية - وليس هو خالقاً لها - كما يقول المعتزلة - . والثاني :
مذهب الجبرية ، وحاصله : أن العبد ليس له شيء في عمله الاختياري ،
لاخلق ، ولاإبداع ، ولا كسب . بل هو مجبور مقهور على فعله كريشة
في الهواء تقلبها الريح كيف شاءت . والثالث : مذهب المعتزلة ، وحاصله :
أن العبد خالق لأفعاله الاختيارية بقدرة خلقها الله تعالى فيه . فأما
الجبرية فقد أفرطوا . وأما المعتزلة فقد فرطوا ، وأما أهل السنة فقد
جاء مذهبهم وسطاً خارجاً من بين فوثن ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين .
فإن قيل : قد قام البرهان على وجوب استقلاله تعالى بالأفعال ، والمقدور
الواحد لايدخل تحت قدرتين كما يستلزمه إثباتكم للعبد كسباً ؟ أجيب
بأن المقدور الواحد يدخل تحت قدرتين بجهتين مختلفتين ، فيدخل تحت
قدرة الله تعالى بجهة الخلق والايجاد والامداد ، وتحت قدرة العبد في
جهة الكسب ، إذ العبد محل لظهور قدرة الله تعالى .

● للعبد كسب : المراد بالعبد كل مخلوق يصدر عنه فعل اختياري ، فيشمل حينئذ الجذع

ومشي الشجر ، وتسبيح الحصى ، وتلك من معجزاته عليه الصلاة والسلام والكسب هو : « ما يقع به المقذور بلا صحة انفراد القادر به ، بخلاف الخلق فانه : « ما يقع به المقذور مع صحة انفراد القادر به ، وللعلماء اختلاف في تفسير الكسب -هنا- على مذهب أهل الهنة ، وهناك أربعة أمور لا بد من بيانها أولها : الإرادة السابقة على الفعل . وثانيها : القدرة المقارنة للفعل . وثالثها : نفس الفعل المقارن للقدرة عليه . ورابعها : الارتباط والتعلق بين القدرة التي يكون بها الفعل وبين الفعل . فمن العلماء من جعل الكسب : هو الإرادة ، التي هي العزم على الفعل وتوجيه القصد والنية اليه . ومنهم من جعله : هو التعلق بين القدرة والفعل . والتعريف السابق الذي هو : ما يقع به المقذور من غير صحة انفراد القادر به ، يتمشى على المذهبين جميعاً^(١) . والمقدور على هذا يراد به الفعل ، كالحركة ونحوها ، وأما المراد بالقادر فالعبد . ومعنى قولهم (من غير صحة انفراد القادر به) : من غير تجويز كون العبد منفرداً بفعل ذلك المقذور ، بل ومن غير صحة كون العبد مشاركاً في فعل ذلك المقذور ، إذ لا تأثير للعبد بوجه ما ، لا على الاستقلال ، ولا على المشاركة ، والله سبحانه وتعالى هو المنفرد بعموم التأثير وليس للعبد إلا مجرد المقارنة أو توجه القصد .

وهناك تعريف ثان للكسب ، وهو قول بعضهم :

الكسب هو : ما يقع به المقذور في محل قدرته ، ومحل القدرة الجارحة التي بها الفعل ، كاليد في الضرب .

(١) على هذا تكون (ما) من قوله « ما يقع به » لكرة موصوفة تقع موقع (إرباط) أو موقع (إرادة) أي الكسب : هو إرباط أو (إرادة) يقع به المقذور بلا صحة انفراد القادر به .

ولا شك أن ماهيات الممكنات كلها - ومنها الأفعال التي تنسب إلى العباد - معلومة لله سبحانه أولاً ، فهي في العلم متميزة في أنفسها أولاً وتعلق العلم بها تعلق انكشاف وإحاطة بدون سبق خفاء ، وبدون تأثير ، كما هو معلوم . ومن تميزها في ذاتها أن لها أسباباً ناشئة عن استعدادات ذاتية غير مجعولة أيضاً . فإذا ما تعلق العلم الإلهي بها على ماهي عليه في أنفسها ، وبأنها يقتضي استعدادها ، تعلق الإرادة الإلهية بهذا الذي اختاره العبد بمقتضى استعداده ، فيصير مراده - بعد تعلق الإرادة الإلهية - مراد الله تعالى . فاختياره المعلوم لله أولاً - بمقتضى استعداده - متبوع للعلم ، المتبوع للإرادة . واختيار العبد - فيما لا يزال - تابع للإرادة الأزلية المتعلقة باختياره . فالعباد منساقون إلى فعل ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر ، فليسوا مجبورين في اختيارهم المعلوم لله أولاً ، لأن علمه سبحانه كشف له على ما هو عليه من غير سبق خفاء ، ولا إجبار ، فعنا أربعة أشياء متوتبة ، أولها : اختيار العبد المعلوم لله أولاً ، وهذا هو المعلوم . والثاني : تعلق علم الله تعالى بهذا الاختيار . والثالث : تعلق إرادة الله تعالى به ، والرابع : وقوعه وفقاً للإرادة ، وهذا الرابع هو الذي يقال إن العبد مجبور فيه ، وعند التحقيق لا جبر ، لأنه ما من شيء يبرزه الله بمقتضى الحكمة ويفيضه على الممكنات إلا وهو مطلوبها بلسان استعدادها ، وما حرم الله تعالى من خلقه شيئاً من ذلك ، وعلى هذا يقول الله تعالى في حق الكافرين المعرضين الذين نفروا من سماع الحق وأبوا الإنصاع إليه .

قال تعالى: (وَكَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمِعَهُمْ ، وَلَوْ
أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)^(١).

وفائدة إرسال الرسل وإنذارهم من أرسلوا إليهم بعد أن علم الله تعالى
أن منهم من لا يشعر فيه الإنذار إنما هو استخراج سر ماسبق به العلم ،
من طواعية بعض المكلفين ، وإياء بعضهم الآخر .

قال تعالى: « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » .
فإن الله سبحانه لو أدخل فريقاً من الناس النار لسابق علمه بأنهم لا
يؤمنون بل يعيشون في الأرض الفساد إن خلقهم لكان شأن المعذب منهم
ما وصف الله تعالى بقوله :

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)^(٢).

فأرسل سبحانه الرسل مبشرين ومنذرين ليستخرج ما في استعداد العباد من
الطوع والإياء ، بل ليظهر ما ثبت في الأعيان العلمية - أولاً - في عالم الإمكان
قال تعالى: (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)
إذ بعد الذكرى وتبليغ الرسالة تتحرك دواعي الطوع من الطائعين ، أو الإياء
من الآيين بحسب الاستعداد المعلوم فه أولاً ، فيتروّب عليه الفعل أو الترك بشيئة الله
وإرادته السابقة ، للتابعة للعلم ، ويتروّب على ذلك الفعل والترك الثواب
والعقاب . وإنما قامت الحجة على العصاة والمذنبين والكفار لأن الذي امتنعوا

(١) الأنفال ٣٤ .

(٢) طه ١٣٤ .

عن الاتيان به - بعد بلوغ الدعوة وظهور المعجزة - وهو الإيمان والطاعة، لم يكن أمراً ممتنعاً لذاته ، إذ لو كان ممتنعاً لذاته لما وقع من أحد أصلاً ، فوقع الإيمان والطاعات من بعض العباد يدل على عدم الإمتناع لذواتها ، وإنما تمتنع لإباء بعض الناس وهذا الإباء ناشيء عن استعدادهم المعلوم لله ألا باختيارهم السيئ ، وإن كان إباؤه الحادث واقعاً بخلق الله تعالى .

ونعود لنقول : إن المعلوم - الذي هو استعداد العبد - من حيث ثبوته أزلاً غير مجعول ، فعلم الله تعالى يتعلق به أزلاً على ما هو عليه في ثبوته غير المجعول ، أي لاثباته لتعلق علم الله تعالى بإيمان زيد أو بكفره ، وتخصص الإرادة أزلاً ماسبق به العلم ثم تبرز القدرة طبق الإرادة ، قال تعالى :

« قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، قُلُوا شَاءَ لِهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ » .^(١)

لكنه لم يشأ ، إذ لم يسبق العلم بذلك ، لكون العلم ليس إلا كاشفاً لما في الاستعداد المعلوم لله أزلاً ، فلم تبرز القدرة إلا ماشاء الله تعالى ، فصح أن له الحجة البالغة على من حاول أن يعتذر عن نفسه ، ولهذا

قال ﷺ : « فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ » .^(٢)

لأن الله تعالى هو المتفضل بالإيجاد ، ولا واجب عليه .

« وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » .

فلأنه سبحانه ما أبرز بقدرته إلا ما هو من مقتضى استعداد العبد . من كل ما تقدم يحصص الحق المبين ، وتبطل نزعات المنحرفين القائلين بالجبر .

(١) الأنعام ١٤٩ .

(٢) رواه مسلم من حديث طويل عن أبي ذر الغفاري .

فنعوذ به سبحانه من أهل الزيغ والضلال .

● كلفا به : أي بسبب الكسب ألزمه الله فعل ما فيه كلفة ،
فالكسب سبب في التكليف ، وفي « كلفا » رد مذهب الجبرية .

● ولم يكن مؤثراً فلتعرفوا : أي لم يكن العبد مؤثراً في المقدور
تأثير إختراع وإيجاد له ، فهو وإن كان له كسب - يتعلق به التكليف -
لأفعاله ، غير موجد لها خلقاً . فليعرف المكلف هذا الحكم الحقي الإدراك ،
مع ظهوره عند مثبت الوجدانية المحضة له تعالى^(١) . وبقوله : « ولم يكن
مؤثراً » رد مذهب المعتزلة . ولما كان القوم لا يكتفون إلا بالتصريح في
مقام رد المذاهب الفاسدة قال :

(١) قال سيدي محمد الهاشمي في مفتاح الجنة : والأسباب العادية كلها حادثة ممكنة
مفتقرة غاية الإفتقار إلى الله تعالى في إيجادها وإمدادها لا فرق بين سبب وسبب ،
إذ كلها ممكنات ، وليس عند المؤمنين الموقفين منها ما يؤثر بطبعه أو علته أو
قوة وخاصية ، أو ملازمة عقلية بينها وبين ما جعلت دليلاً وعلامة عليه بحيث
لا يصح فيها التخلف . وليس للأسباب العادية إلا الربط العادي وهو المقارنة
المعتادة مع صحة التخلف وعدم تأثير أحدها في الآخر البتة . وشرك الأسباب -
وهو إسناد التأثير للأسباب العادية - كشرك الفلاسفة والطباطبعيين ومن تبعهم
على ذلك الإعتقاد الفاسد فسببه عمى البصيرة والإغترار بما ظهر للحس من اقتران
حادث بحادث ودورانه معه وجوداً وعدمياً على ما شاء الله تعالى فاعتقد الناظر
إذ كان أعمى البصيرة أن ذلك السبب العادي هو الذي أثر في وجود ما اقترن معه
وليس من فعل الله تبارك وتعالى ، وهذا كإغترار فقير أحمق أعمى البصيرة جرت
عادته أنه مها جاء إلى باب من أبواب الملك جعل في يده عند وقوفه على ذلك
الباب ما يأكل وما يشرب أو نحو ذلك مما يحتاج إليه ، فلم يشك بحقيقة - وعمى
بصيرته ولعدم مشاهدته من ألقى في يده ذلك - أن ذلك الباب هو الذي يعطيه
أغراضه بطبعه أو بقوة فيه ، فامتلاً قلبه بحبه ، وأكثر لسانه الثناء عليه ، ونسي =

٤٩- فَلَيْسَ مَجْبُوراً وَلَا إِخْتِيَاراً وَلَيْسَ كَلَّامٌ يَفْعَلُ إِخْتِيَاراً

فليس مجبوراً ولا اختياراً : ففرض المصنف التصريح بالرد على الجبرية في قولهم : إن العبد مجبور لا اختيار له في صدور جميع أفعاله عنه ، فهو كبريئة معلقة في الهواء ، فقال : اعتقد أيها المكلف أن العبد ليس مجبوراً ، وليس القول بأنه « لا إختيار له » صحيحاً . بل هو مختار . والواجب اعتقاده أن بعض أفعاله صادر باختياره وبعضها الآخر باضطرابه لما يجده كل عاقل من الفرق الضروري بين حركتي يد المرتعش الإرتهاسية والإرادية حال تناول بعض الأشياء . والاختيار هذا غير الكسب ، لأن معناه كونه إن شاء فعل وإن شاء ترك ، فيكون الإختيار هو التمكن من الفعل والترك ، وهذا غير الكسب قطعاً . ومن أثبت الكسب أثبت الإختيار ، ومن نفاه - وهم الجبرية - نفى الإختيار . وقد أجاب على مذهب المعتزلة بقوله :

● وليس كَلَّامٌ يَفْعَلُ إِخْتِيَاراً ^(١) : أي الواجب اعتقاده أيضاً أن العبد لا يفعل : أي لا يخلق كل فعل حال كون ذلك الفعل اختيارياً .

ذكر الملك وفضله وانفراجه بالعطاء وليس له في قلبه موقع . وأما أهل السنة رضي الله عنهم فقد نور الله تعالى بصائرهم ولم يفتنوا بشي من الأسوان وكوشفوا بالحقائق على ما هي عليه في نفس الأمر . فمن أنكر وجود ذوات الأسباب العادية فقد عطل الحكمة ، ومن نسب إليها التأثير فقد أشرك بالله تعالى ، لأنه منافض لما عليه العقل من وجوب انفراجه تعالى باختراع جميع الكائنات بلا واسطة على وفق ما شاء جلا وعلا . ١٠ . كذلك نكون قد جعلناها مستغنية عن الله تبارك وتعالى كيف وهو الذي يفتقر إليه كل ما سواه عموماً .

(١) قوله . ليس : منصوب على قوله : « لا إختيار » أي ليس العبد مجبوراً ، وليس العبد لا إختيار له ، كما يزعم الجبرية . وقوله : كَلَّامٌ مفعول مقدم لفعل يفعل .

لأن المعتزلة قالوا : إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية ، والحق أن العبد لا يخلق أي فعل من أفعاله الاختيارية . وقد علم من وجوب انفراده تعالى بالخلق ، ومن نفي تأثير العبد عما باشره من الأفعال ، بطلان دعوى أن شيئاً يؤثر بطبعه ، أو بقوة مودعة فيه ، وإلما الله تعالى بحسب ما جرت به العادة يخلق ذلك الأثر عنده لا به ، كالستر عند اللبس ، والري عند الشرب ، والإحترق عند ماسة النار ، وعليه فمن اعتقد أن شيئاً من الأسباب العادية يؤثر بطبعه فلا نزاع في كفره ، وإن كان يعتقد حدوث الأسباب العادية ، وأنها ليست مؤثرة بطبعها ، وإلما الله تعالى خالق فيها قوة ، هي التي تؤثر ، فهو فاسق مبتدع ، ومن اعتقد حدوث الأسباب وأنها لا تؤثر بطبعها ولا بقوة جعلها الله فيها ، وإلما المؤثر هو الله تعالى ، لكن التلازم بينهما وبين ما قارنهما عقلي لا يمكن تخلفه ، فهذا جاهل بحقيقة الحكم العادي وربما جره ذلك إلى الكفر ، بأن يحدد بعث الأجساد لأنه خلاف المتبادر ، وكذلك المعجزات .

ومن اعتقد حدوثها ، وأنها لا تؤثر بطبعها ولا بقوة فيها ، ويعتقد صحة التخلف بأن يوجد السبب العادي ولا يوجد الشبغ الذي هو المسبب عنه ، وإلما المؤثر في المسبب هو الله تعالى ، فهو الماوحد الناجي بفضل الله عز وجل .

ثم فرع الناظم على وجوب انفراده تعالى بخلق أفعال العباد وأنه لا تأثير لهم فيها سوى الكسب فقال : إذا علمت أنه سبحانه هو الخالق لأفعالنا وحده خيراً ، كانت أو شراً ، وأن قدرتنا الحادثة ليست مؤثرة في أفعالنا ، فاعتقد أنه تعالى إله بشنا على الطاعة فياقبته إيانا إلما هي بفضل الله الخالص .

٥٠- فَإِنْ يَثْبِتْنَا قَبِيحَ خُصْرِ الْفَضْلِ وَإِنْ يُعَذِّبُ قَبِيحَ خُصْرِ الْعَدْلِ

● فَإِنْ يَثْبِتْنَا فِيهِ خُصْرَ الْفَضْلِ : إِنَّ الْإِنْسَانَ مَثَابُونَ وَمُعَاقِبُونَ ، وَالْمَلَائِكَةُ سَيَّافِي الْكَلَامِ فِي إِثَابَتِهِمْ ، وَأَمَّا الْجَنُّ فَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ كَافَرُوا مُعَذِّبٌ فِي النَّارِ وَأَمَّا مُؤْمِنُهُمْ فَمُخْتَلَفٌ فِيهِ عَلَى أَقْوَالٍ ، قِيلَ : إِنَّهُمْ كَالْإِنْسَانِ ، وَقِيلَ : ثَوَابُهُمْ نَجَاتُهُمْ مِنَ النَّارِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ : كُونُوا تَرَاباً ، وَقِيلَ : ثَوَابُهُمْ أَنْ يَكُونُوا فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ ، يَرَامُ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُمْ ، عَكْسُ مَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا . وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ - وَهُوَ أَنَّهُمْ كَالْإِنْسَانِ - هُوَ الْمَعْتَمَدُ .

● وَالْفَضْلُ الْخُصْرُ : هُوَ الْفَضْلُ الْخَالِصُ بِمَعْنَى الْإِعْطَاءِ عَنْ اخْتِيَارٍ كَامِلٍ ، لِأَنَّ الْإِجْبَابَ - بِحَيْثُ يَثْبِتْنَا وَلَا اخْتِيَارَ لَهُ فِي الْإِثَابَةِ أَوَّلًا ، لَكُنْ طَاعَةُ عِلَّةٍ تَنْشَأُ عَنْهَا مَعْلُولَاتُهَا مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ لَهَا كَمَا يَقُولُ الْفَلَّاسِفَةُ - وَلَا عَنْ وَجُوبٍ بِحَيْثُ تَصِيرُ الْإِثَابَةُ مُسْتَحَقَّةً لِأَزْمِهِ يَقْبَعُ تَوْكِهَا . فَبِالْفَضْلِ الْخَالِصِ رَدُّ مَذْهَبِ الْمُعْتَزِّلَةِ وَالْفَلَّاسِفَةِ ، وَيَدُلُّ لِمَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ طَاعَاتِ الْعَبْدِ - وَإِنْ كَثُرَتْ - لَا تَقْبَلُ بِشُكْرِ بَعْضِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ ، فَكَيْفَ يَتَصَوَّرُ اسْتِحْقَاقُهُ عَوْضاً عَلَيْهَا ، وَقَدْ وَرَدَ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ :

«خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ أَنْفَأَ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنَّ اللَّهَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِهِ عَبْدَ اللَّهِ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ . وَقَدْ أَخْرَجَ لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرَضٍ الْأَصْبَعِ تَقْيِضُ بِهَا عَذْبٌ فَتَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ

وَشَجَرَةَ رُمَانَ تُخْرِجُ لَهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ رُمَانَةً ، يَتَعَبَّدُ يَوْمَهُ
فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَانَةَ
فَأَكَلَهَا ، ثُمَّ قَامَ بِصَلَاتِهِ فَسَأَلَ رَبَّهُ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجْلِ
أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا ، وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ ، وَلَا لِلْهَوَى
يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ وَهُوَ سَاجِدٌ . قَالَ
فَفَعَلَ . فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا ، فَتَجِدُ لَهُ
فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ : أَذْخَلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، فَيَقُولُ :
رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي . فَيَقُولُ : أَذْخَلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي . فَيَقُولُ :
بَلْ بِعَمَلِي . فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ
وَبِعَمَلِهِ . فَتَوَجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ
سَنَةٍ وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ . فَيَقُولُ : أَذْخَلُوا عَبْدِي
النَّارَ فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ . فَيُنَادِي رَبُّ بِرَحْمَتِكَ أَذْخَلْنِي الْجَنَّةَ .
فَيَقُولُ : رُدُّوهُ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَيَقُولُ : يَا عَبْدِي ،
مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ؟ فَيَقُولُ : أَنَا يَا رَبِّ . فَيَقُولُ :

مَنْ قَوْلِكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِينَ سَنَةً ؟ فَيَقُولُ : أَنْتَ يَا رَبُّ . . .
وَيُعَدُّ عَلَيْهِ نِعْمَةً ثُمَّ يَقُولُ : كَذَلِكَ بِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ ،
أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي . فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ
الْجَنَّةَ . قَالَ جِبْرِيلُ : إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ ^(١) .

● وإن يعذب فبمحض العدل : معنى العدل المحض وضع الشيء في
محلّه من غير اعتراض على الفاعل . والظلم هو وضع الشيء في غير محله
مع الإعتراض على فاعله . وهذا رد على المعتزلة القائلين : بوجوب تعذيب
العاصي ، لقولهم بوجوب إثابة الطائع . وبنوا ذلك على قاعدتهم من أن
العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية التي منها الطاعة والمعصية ، وأما أهل
السنة فقاعدتهم : أن الله تعالى هو الخالق للأفعال كلها ، ومنها الطاعة
والمعصية . وبنوا على ذلك أن الإثابة بالفضل والتعذيب بالعدل ، وليس
بواجبين عليه تعالى . وبالجملة فهو سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .
فليست الطاعة مستلزمة للثواب وليست المعصية مستلزمة للعقاب ، وإنما
هما أمارتان عاديتان تدلان على الثواب لمن أطاع ، والعقاب لمن عصى .
حتى لو عذب الله المطيع وأثاب العاصي ، بأن جعل الطاعة أمانة على
العذاب والمعصية أمانة على الثواب لكان منه ذلك حسناً سبحانه ، لا يسأل
عما يفعل ، وهذا كله بحسب العقل ^(٢) ، وأما بحسب الشرع فلا يجوز

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٢) أنظر البيت الثالث والثلاثين .

خُلِّفَ الوعد ، لأنه سفيه ، وهو يستحيل عليه سبحانه . وأما الوعد فهو
في حق الكفار واقع لا محالة ^(١) ، لقوله تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » . ^(٢)

أما في حق المؤمنين فواقع في بعضهم لورود الأخبار بذلك ، ثم يخرجون
من النار ، فلا يبقى فيها موحد ، فتظل لأصحابها الطغاة الفجرة ، الذين
استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا .

(١) قال في الكفاية : قال أصحابنا رحمهم الله تعالى لا يجوز أن يعفو الله تعالى
عن الكافرين ، ويخلد في الجنة ، ولا أن يخلد المؤمنين في النار ، لأن الحكمة تقتضي
التفرقة بين المسيء والחסن ، وما يكون على خلاف قضية الحكمة يكون سفيها .
ودلالة ذلك أنه تعالى رد على من حكم بالتسوية بين المسلم والمجرم بقوله تعالى :
(أفجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيف تحكمون) . وقوله : (أم حسب الذين
اجترأوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء بحبهم ومماتهم ،
سواء ما يحكمون) . ثم التفرقة بين الفريقين في الدنيا متحققة فلا بد منها إذن
في الآخرة .

(٢) النساء ٤٨

٥١ - وَقَوْلُهُمْ إِنَّ الصَّلَاحَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ زُورٌ مَا عَلَيْهِ وَاجِبٌ

● وقولهم إن الصلاح واجب : أي وقول المعتزلة بوجوب الصلاح والأصالح عليه سبحانه فهنا إشارة إلى هذه المسألة ، ومضمونها : أنه إذا كان ثمة أمران ، أحدهما صلاح ، والآخر فساد ، وجب على الله تعالى أن يفعل الصلاح منها ، دون الفساد ، وإذا كان هناك أمران أحدهما صلاح ، والآخر أصالح منه ، وجب على الله تعالى أن يفعل الأصالح منها دون الدلاح . فالصلاح والفساد كالإيمان في مقابلة الكفر . والصالح والأصالح ككون العبد في أول مراتب الجنان في مقابلة أعلاها . والمضنف على هذا تعرض لإبطال مذهبهم « بوجوب فعل الصلاح » ولم يتعرض لنقض مذهبهم « بوجوب فعل الأصالح » ، إلا أنه لما أبطل الأول لزم منه بطلان الثاني ، إذ أن الصلاح أعم من الأصالح ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص . ألا ترى أنه لو نفي كون الشيء بحيواناً لزم أن ينتفي كونه إنساناً . والحاصل أن المعتزلة قالوا : فعل الصلاح والأصالح واجب على الله تعالى . وأنهم اختلفوا ، فمنهم من قال : يجب مراعاة الصلاح والأصالح لعباده بالنظر إلى الدين والدنيا جميعاً . ومنهم من قصر الوجوب على الدين وحده . واختلفوا في معنى الأصالح ، ففسر له : بالأوفق في الحكمة والتدبير ، ومفسر له : بالأنفع والأكثر فائدة . وبالجملة فقد ذهبوا جميعاً إلى أنه يجب إقدار العبد وتمكينه وأن يفعل معه أقصى ما يمكن في معلومه سبحانه بما يؤمن عنده المكلف وبطبيع . وأنه سبحانه فعل مع كل أحد غاية مقدوره من الأصالح . وليس في مقدوره لطف لو فعله

بالكفار لآمنوا جميعاً ، وإلا لكان تركه بخلا منه وسفها . ومعدنهم
 القصوى في هذه المسألة (قياس الغائب على الشاهد) لقصور نظرهم في
 المعارف الإلهية والقطائف الخفية الربانية ، ووفور غلظهم في صفات الواجب
 الحق وأفعال الغني المطلق ، وما ضربوه من الأمثال مصروف إلى أن
 المخلوق عندما يفعل ما يفعل ، إما اتقاء لضر ، أو جلباً لمنفعة ما . أما
 في الغني كل الغني عن موالاة الأولياء ، القادر كل القدرة على الإنتقام من
 الأعداء ، فلا ينطبق عليه ما ضربوه مثلاً وأنه لو وجب عليه الأصلح لعباده
 لما خلق الكافر الفقير المعذب في الدنيا والآخرة سيما المبلى بالأسقام
 والآلام والمحن والآفات . حكى أن الحافظ ابن حجر مر يوماً في السوق
 بموكب عظيم وهياة جميلة ، فهجم عليه يهودي ، وأثابه ملطخة بالدرن ،
 وهو في غابة الرثالة والبشاعة . فقبض على لجام بغلته ، ثم قال له :
 يا شيخ الإسلام ، أنت تزعم أن نبيكم قال :

« الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » .^(١)

فأي سجن أنت فيه مع هذه النعمة ؟ وأي جنة أنا فيها مع ماترى ؟
 فقال له الحافظ رضي الله عنه : أما أنا فإن الذي أنا فيه بالنسبة لما أعدّه
 الله في الآخرة من النعيم للمؤمنين يُعَدُّ سِجْنًا ، وأما أنت فإن الذي أنت
 فيه بالنسبة لما ينتظرك من العذاب الأليم بعد جنة . ولو وجب عليه فعل
 الأصلح لما استوجب عليه شكراً ، لكونه مؤدياً للواجب عليه كمن يرد
 وديعة أودعها ، وكمن يؤدي ديناً لزمه ، مع أنه سبحانه قد طلب من

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة وابن ماجه في الزهد ٢٣٢٥ ج ٧ ترمذي

عباده أن يشكروه على ما فعله معهم . ووجه آخر في دحض مذهبهم هو أنه يلزم على قولهم أن تكون إمامة الأنبياء والموشدين بعد حين من حياتهم مع تبقية إبليس وذريته من الضالين المضلين إلى يوم الدين أصلح عندهم لعباد الله ، وكفى بهذا فظاعة . وأخيراً حجة نسوقها على لسان أبي الحسن الأشعري حينما كان أحد تلامذة أبي هاشم الجبائي كبيرهم ، فينبه كان الجبائي يقرر هذه المسألة في درسه يوماً ، قال أبو الحسن : ماتقول في ثلاثة أخوة ، مات أحدهم كبيراً طائعاً ، ومات الثاني كبيراً عاصياً ، ومات الثالث صغيراً ؟ فقال الجبائي : الأول يثاب بالجنة ، والثاني يعاقب بالنار ، والثالث لا ثواب له ولا عقاب ، (لأنهم يقولون بالمنزلة بين المنزلتين) فقال الأشعري : فإب قال الثالث : يارب لم أمتني صغيراً ولم تبقيني حتى أبلغ فأطيعك فأدخل الجنة ؟ فقال الجبائي : يقول له ربه : علمت أنك لو كبرت عصيت ، فتدخل النار ، فكانت الأصلح لك أن تموت صغيراً . فقال الأشعري : فإن قال الثاني : يارب لما علمت أنني إن كبرت عصيت فدخلت النار فلم لم تمتني صغيراً حتى أكون كأخي ؟ ماذا يقول الرب ؟ فهبت الجبائي . وفي ذلك الحين ترك الأشعري درسه ومذهبه ، واشتغل هو وأتباعه بإبطال مذهب المعتزلة ، وإثبات ما وردت به السنة ومضى عليه الجماعة من السلف الصالح ، ولذلك سموا أهل السنة والجماعة .

● زور : أي قولهم في مذهبهم : إن الصلاح واجب زور . والزور هو الباطل فمذهبهم باطل ومن أصبح المذاهب لأنه لو وجب عليه سبحانه

الأصلح لما بقي للتفضيل مجال ولم يكن له تعالى خيرة في الإنعام ، وهو باطل في قوله تعالى :

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » .^(١)

وقوله : « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » .^(٢)

● ماعليه واجب : أي ليس عليه تعالى واجب من فعل أو ترك لأنه تعالى فاعل بالإختيار وأما الآيات الدالة على الوجوب عليه تعالى فمعمولة على أن المراد بها الوعد تفضلاً منه سبحانه ، كقوله تعالى :
« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » .^(٣)
وكذلك الأحاديث الدالة على ذلك .

(١) القصص ٦٨ .

(٢) آل عمران ٧٤ .

(٣) هود ٦ .

٥٢ - أَلَمْ يَرَوْا إِيْلَامَهُ الْإِطْفَالَا وَشِبْهَهَا فَحَازِرِ الْهَحَالَا

● أَلَمْ يَرَوْا إِيْلَامَهُ الْإِطْفَالَا : أي أَلَمْ يَرِ الْمَعْتَزَلَةُ بِأَبْصَارِهِمْ إِيْلَامَهُ الْإِطْفَالَا وَيَنْبَهُ الْمَصْنَفُ بِهَذَا عَلَى فِسَادِ مَذْهَبِ الْمَعْتَزَلَةِ . وَالطِّفْلُ هُوَ مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ ، وَحِكْمَةُ إِيْلَامِهِمْ حُصُولَ الثَّوَابِ لِأَبْوَيْهِمْ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَائِبِ الَّتِي يَثَابُ الشَّخْصُ عَلَيْهَا ، وَلِهَذَا قَالَ إِمَامُ الْحُرَمَيْنِ : شِدَائِدُ الدُّنْيَا بِمَا يُلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهَا نَعَمٌ حَقِيقَةٌ . وَقَالَ سَيِّدُنَا عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « مَا ابْتَلَيْتُ بِبِلَاءٍ إِلَّا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ فِيهِ أَرْبَعٌ نَعَمٌ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي دِينِي ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ أَعْظَمُ ، وَإِذْ لَمْ أَحْرَمِ الرِّضَا بِهِ ، وَإِذْ لَمْ أَرْجُو الثَّوَابَ عَلَيْهِ ^(١) » .

● وَشِبْهَهَا : أي وَشِبَهُ الْإِطْفَالِ كَالْعَجِزَةِ وَالذَّوَابِ ، فَإِنَّهُمْ لَا نَفْعَ لَهُمْ فِي إِتْرَالِ الْأَسْقَامِ بِهِمْ .

● فَحَازِرِ الْهَحَالَا : أي فَاحْذَرِ عِقَابَ اللَّهِ تَعَالَى النَّازِلِ بِهِمْ عَلَى إِضْلَالِهِمْ .

قَالَ تَعَالَى : « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ » . ^(٢)

أَوْ فَاحْذَرِ الْهَحَالَا أَيِ الشُّكِّ فِي ذَلِكَ . أَوْ فَاحْذَرِ الْمُتَحَالَا أَيِ الْمُنْتَعِ ، وَهُوَ وَجُوبُ شَيْءٍ عَلَيْهِ تَعَالَى .

(١) مَخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ ص ٣٠٤ .

(٢) الرِّعْدُ ١٣ .

٥٣- وَجَائِزُ عَلَيْهِ خَلْقُ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ كَالْإِسْلَامِ وَجَمَلُ الْكُفْرِ

● وجائز عليه خلق الشر : هنا يرد على المعتزلة في قولهم : « إن الله تعالى يمتنع عليه إرادة الشرور والقبائح » . زعموا أنه تعالى أراد من الكافر الإيمان وإن لم يقع منه ، ولم يرد الكفر وإن وقع منه ، وكذا أراد من الفاسق الطاعة لا الفسق ، حتى أن أكثر ما يقع من العباد خلاف مراده تعالى ، بنوا ذلك على أصلهم الفاسد من الحن والقيح العقليين ، فقال : « وجائز عليه » : أي عندنا جائز عقلاً عليه تعالى إرادة إيجاد الشر بإجرائه على أيدي العباد ، وهو ما يعبرون عنه بالقيح . والقيح : ما يكون مَسْهُلَقَ الذم في العاجل والعقاب في الآجل ، لأن الحن عندنا ما حسنه الشرع والقيح ما قبحه الشرع .

والمعتزلة استدلت على مذهبهم . بأن إرادة الشر شرٌ وإرادة القبيح قبيحة والله تعالى منزّه عن الشرور والقبائح ، ورد بأنه لا يقبح من الله تعالى شيء وغاية الأمر أنه يخفى علينا وجه عسفه . ويلزم على مذهبهم أن أكثر ما يقع في ملكه تعالى غير مراد له ، لأن الشرور أكثر من الخيرات ، ويرد مذهبهم قوله ﷻ :

« مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ » .

والقيح عندهم هو الحرام بخصوصه ، والحسن ما يشمل الواجب ، والمندوب والمباح ، والمكروه ، وخلاف الأولى إن لم ندخله في المكروه . واصطلاح كثير من أهل السنة على أن المنهي عنه مطلقاً قبيح ، والأحسن ما قاله إمام الحرمين : أن المكروه - ومنه خلاف الأولى - ليس بحسن ولا قبيح . ● والخير كالإسلام : « أي وجائز عليه إرادة خلق الخير كالإسلام مثلاً ، نجمل للخير بالإسلام ، وللشر بجمل الكفر . لأن مذهب أهل السنة : أن

الإرادة تتعلق بالممكنات بأمورها ، لا يند عنها ممكن ما ، كالقدرة في تعلّقها بالممكنات ، لكن الإرادة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، والقدرة تبرز ما خصته الإرادة ، والإرادة غير العلم والرضا والأمر . ومذهب المعتزلة : أن الإرادة والرضا والأمر شيء واحد ، ولا تتعلق إلا بما هو خير ، فوافقوا أهل السنة في أنه سبحانه يريد الخير ، وخالفوهم في أنه يريد الشر .

● وجعل الكفر^(١) : لما مثل بالإسلام على إرادته الخير ، مثل بجعل الكفر على إرادته خلق الشر . والكفر ضد الإيمان ، فهو إنكار ما علم بحجبه النبي ﷺ به من الدين بالضرورة أو ما يستلزمه .

(١) أضاف الناظم الجبل إلى الكفر لأنه سببه ، وإن كان له أسباب أخرى لعل من أخطرها الجبل ، إذا أنه لا يعرف عنه سبب ما من أسبابه الأخرى . وقد يكون جهلاً عضواً وهذا يزهد بأزل جولة مع دوام الحق .

وربما خالطه اعتزاز بالنفس ، ومازجه تكبر وعناد . وبأبى هؤلاء استماع النصيحة ، والإنصباح لها ، والرجوع عن الخطيئة استغراقاً في الأثرة وتجاهلاً للفضل . حيثما ظهر . وقد قال الله تعالى فيهم : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » وهم لا يقتصرون على جرئتهم في أنفسهم بل يدأبون على جر الآخرين إلى ما هم فيه ، رغبة في الفساد ونشر الضلال في الأرض ، وصدأ عن سبيل الله ، وقد قال تعالى فيهم : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول . يقول الذين استضعفوا الذين استكبروا : لولا أذنتم لكنا مؤمنين .. » وقال الذين استضعفوا الذين استكبروا بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمرونا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً . وأسرنا الندامة لما رأوا العذاب » .

وقد يكون جهلاً غارقاً في بلج الهوى ، وما أثقل حجاب الهوى على القلوب بل ما أغلظ أفعاله ، وما أشد استبداده بصاحبه ، حتى إنه ليطغى فيه قبس العلم ويحمل موازينه خاضعة لمثاقيل هواه . قال تعالى : « وائل عليهم نبأ الذي آثناه آياتنا فانسلخ منها ، فأقعبهُ الشيطان فكان من الفاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنّه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » . وإذا ما تمكن الهوى من القلب استحالة تخلصه منه ، =

٥٤ - وَوَاجِبٌ إِيمَانُنَا بِالْقَدَرِ وَبِالْقَضَا كَمَا أَتَى فِي الْخَبَرِ

● وواجب إيماننا : غرض المصنف - هنا - الرد على القدرية التي تنفي القدر وتزعم أنه تعالى لم يقدر الأمور أزلاً ، وتقول : الأمر يستأنفه الله علماً - حال وقوعه ، ولقبوا بالقدرية لحوضهم في القدر حيث بالغوا في نفيه . وهؤلاء انقضوا قبل الإمام الشافعي رضي الله عنه أي قبل انقضاء القرن الهجري الثاني . وثمة فرقة أخرى أطلقوا عليها اسم القدرية وهي إحدى فرق المعتزلة ، وهم القائلون بأن العبد خالق لأفعال نفسه الإختيارية ، والمثبتون - مع أهل السنة - أن الله تعالى عالم بالعبد أزلاً قبل وقوعها منه ، وقد مضى الرد على هذه الطائفة في قوله : « فخالق لعبده وما مل » ، فها قدريتان ، الأولى : وهي تنكر سبق علمه تعالى بالأشياء قبل وقوعها وتخوض في القدر حيث بالغت في نفيه . والثانية : تنسب أفعال العباد إلى قدرهم ، ومذهب الثانية أخف من الأولى - الذي هو كفر - ، وإن كان باطلاً مثله .

== ولن تقتلع جذوره إلا بالموت . من هنا نعلم خطر البدعة ، وبخاصة في الاعتقاد إذا ما من بدعة إلا ومنشؤها الهوى .

وبكون الجهل - أحياناً - محاطاً بأشباح الخوف ، عذقة به وسواسه ، وهذا نوع يصعب شفاؤه ، إذ أن صاحبه يظل في حذر مفرط ، وتردد واحجام ، يعمدانه في زوايا العزلة القاتلة ، ويجملاه دوماً - في الصف الأخير سلباً خامراً . ولما يتخلو خوف من تفاق . وإن الله تعالى قد عرض مشهداً حياً لهذا الصنف من الناس ، مظهرهم منهم خلجات القلوب المنافقة المرعوبة التي تبغي النجاة بأي سبيل ، قال عز وجل : « ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما من منكم ، ولكنهم قوم بفرقون . لو يجدون ملجأ ، أو مغارات ، أو مدخلأ لولوا إليه وم يجمعون » .

فأروعا صورة تبعث الشفقة مشوبة بالإشمئزاز . أما القلب العارف المطمئن فلا سبيل للقلق والخوف إليه ، قال تعالى فيه : « يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة

ومئة مسألتان ، الأولى : أن الإيمان بالقضاء والقدر يستدعي الرضا بها ، فيجب الرضا بها ، واستشكل بأنه يلزم على ذلك الرضا بالكفر والمعاصي لأن الله قضى بها وقدرها ، مع أن الرضا بالكفر كفر ، وبالمعاصي معصية ! فقال السعد : إن الكفر والمعاصي مقضي ومقدر ، لا قضاء وقدر ، والواجب الإيمان به إنما هو القضاء والقدر وليس المقضي والمقدر ، فالؤمن بها لا يعترض على الله في قضائه وقدره ، ويعتقد أنه لحكمة وإن كنا لانعلمها ، وإنما يعترض على الكافر والفاسق في اختيارهما واكتسابهما .

والمسألة الثانية : أنه وإن وجب الإيمان بالقدر لا يجوز الاحتجاج به قبل الوقوع توصلًا إليه أو بعد الوقوع تخلصًا من الحذر أو نحوه ، بأن يقول : قدر الله علي الزنا وغرضه التوصل إلى الوقوع فيه ، أو قال بعد وقوعه في

لائم » . وقال : « لا يخشون أحدًا إلا الله » . ومهما تجبر الباسقي وتمنت الطاغية فلن تظم من الإيمان أو يخفت من نوره ، أو ينزل من علياء القلب المؤمن . لما قر فيه من المعرفة ، فها هو ذا فرعون يهد من آمن ، بقوله تعالى على لسان فرعون : « لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » . فهاذا يحييون ؟ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا . فاقض ماأنت قاض ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا » .

وأحياناً أخرى يشاب الجبل بمظنة العلم ، والأنكى من ذلك أن يدعي الجاهل الرسوخ في العلم ، وهذا هو الجبل المرسكب ، الذي يتعذر شداؤه ، قال تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله » .

وقد ذكر السنوسي في المقدمات أن أصل الكفر والبدع سبعة أمور . أولها - الإيجاب الذاتي ، وهو إسناد الكائنات إلى الله تعالى على سبيل التعليل أو الطبع من غير =

الزنا : قدر الله علي ذلك ، فأما الإحتجاج به بعد الوقوع لدفع اللوم فقط فلا بأس به ففي الحديث الصحيح :

« أن رُوحَ آدَمَ التَّثَقَّتْ مع رُوحِ موسى عليها الصلاة والسلامُ فقالَ موسى لآدَمَ أنتَ أبو البَشَرِ الذي كنتَ سَيِّباً لإِخْرَاجِ أولادِكَ من الجنةِ بأكلِكَ من الشجرةِ ، فقالَ آدَمُ : يا موسى فأنتَ الذي اصطفاك اللهُ بكلامِهِ وخطَّ لك التوراةَ بيدهِ ، تلوِّمُنِي على أمرٍ قد قَدَّرَهُ اللهُ عليَّ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَنِي بأربعين ألفَ سنةٍ . قالَ النبي ﷺ : فحجَّ آدَمُ موسى . يريدُ أَنَّهُ غلبَهُ بالحُجَّةِ (١) . »

● بالقدر وبالقضاء : اختلف الأشاعرة والماتريدية في كل من القدر والقضاء فقال الأشاعرة : القدر إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين أرادته تعالى فهو عبارة عن الإيجاد عندهم ، وهو من صفات الأفعال . وقال الماتريدية : « القدر هو تحديد الله أزلاً كل مخلوق بحسبه الذي يوجد

= اختيار منه تعالى . وهو أصل كفر الفلاسفة الذين جعلوا ذاته تعالى علة للممكن بلا اختياره .

ثالثها : التحسين العقلي ، وهو كون أفعال الله تعالى وأحكامه موقوفة عقلاً على الأغراض ، وهي جلب المصالح ودرفع المفاسد . وهذا أصل كفر البراهمة حتى نفوا النبوات ، إذ قالوا باكتفاء العقل في معرفة الحسن والقبيح ، وأصل ضلال المعتزلة حتى أوجبوا على الله تعالى مراعاة الصلاح والأصلح لخلقهم .

رابعها : التقليد الرديء ، وهو متابعة الغير لأجل الحمية والنصب من غير طلب للحق . وهو أصل كفر عبدة الأوثان وغيرهم ، حتى قالوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » . =

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، والنسائي وأبو داود وابن ماجه ، وأخرجه الترمذي بنحوه في الجزء السادس ص ٣٠٧ برقم ٢١٣٥ .

عليه من حسن وقبح ، ونفع وضرر ، إلى غير ذلك ، فهو علمه تعالى
أزلاً بصفات المخلوقات ، وهو - عندهم - راجع لصفة العلم وهي من صفات الذات .
وأما القضاء - عند الأشاعرة - فقد قالوا : هو إرادة الله الأشياء في
الأزل على ما هي عليه فيما لا يزال ، فهو من صفات الذات وعند الماتريدية :
هو إيجاد الله الأشياء مع زيادة الإحكام والإتقان ، فهو راجع لصفات
الأفعال . وعلى هذا يكون القدر - عند الأشاعرة - حادث ، والقضاء
قديم . وعلى العكس عند الماتريدية ، وحمل الشارح كلام المصنف على
على مذهب الماتريدية في القدر والقضاء . لأن القضاء لغة له نحو معان سبعة ،
أشهرها الحكم ، وهو يرجع للفعل ، فناسب أن يفسر - اصطلاحاً -
بالفعل . وأما القدر فلم يرد أن معناه في اللغة الفعل ، فناسب ألا يفسر
في الاصطلاح بالفعل بل بالعلم .

= رابعاً : الجهل بالربط العادي ، وهو ثبوت التلازم بين أمر وأمر ، وجوداً وعدمًا ،
بواسطة التكرار . وهو أصل كثر الطبائعيين ، وضلال من اتبعهم من جهة المؤمنين
خامساً - : الجهل المركب ، وهو أن يجهل الحق ويجهل جهله به .
سادساً - : التمسك في عقائد الإيمان بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها
على البراهين العقلية والقواعد الشرعية . وهو أصل ضلال الخشوية إذا قالوا بالتشبيه
والتجسيم والجهة .

سابعاً - : الجهل بالقواعد العقلية التي هي العلم بوجود الواجبات . وجواز
الجائزات ، واستحالة المستحيلات . ١ هـ .

ثانيه :

إن الرضا بالكفر كفر ، وكذلك جعل الحرام حلالاً أو مباحاً ، واستحسان
المعاصي أو تجويد القتل بغير حق ، وتعظيم أعياد الكفرة ، ومساوات الحلال بالحرام ،
واعتقاد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليست من الواجبات المقررة في الأصول ،
والقول عن الظلم بأنه عدل . (انظر خواتيم كتاب الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة
رحمه الله تعالى) .

وبعد هذا كله فالقضاء والقدر راجعان لما تقدم من العلم والإرادة وتعلق القدرة ؛ وأنه يجب على المكلف أن يؤمن بأن الله سبحانه علم أزلا بجميع أفعال العباد ، وخصص بإرادته - سبحانه - أزلا هذه الأفعال على وفق العلم وأنه أوجدها - حين أوجدها فيها لا يزال - على القدر الخصوص والوجه المعين الذي سبق العلم به وخصسته الإرادة ، بل إن ذلك مما لا يتحقق الإيمان إلا به .
 • كما أتى في الخبر : أشار المصنف - هنا - إلى أن دليل القضاء والقدر سمعي . ومن جملة ما ورد في السمع ما روي عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ : يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، يَعْنِي بِالْحَقِّ ، وَيُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ ، وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ »^(١) .

وعن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ :

« لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، وَحَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ »^(٢) .

وإنما عوّلوا على الدليل السمعي لأنه للعامة أسهل ، وإلا فقد علم بما مر أن القضاء والقدر يرجعان إلى الصفات المعول فيها على الدليل العقلي^(٣) .

(١) أخرجه الترمذي ٦/٣١٩ برقم ٢١٤٦ .

(٢) الترمذي كذلك ٦/٣١٧ برقم ٢١٤٥ .

(٣) قال سيدي محمد الهاشمي في كتابه مفتاح الجبه من (١٥٦) : فكل شيء من الممكنات هو بقدرته تعالى وإرادته وعلمه ، ودل عليه كلامه . فالقضاء والقدر عقيدة =

• • • • •

== سمعية جزئية من الكلي (الذي هو الجائز الذاتي في حقه تعالى) تندرج في معاني العلم والإرادة والقدرة والكلام ، وبرهانها العقلي هو برهان هذه الصفات الثلاث ، ودليها النقلي هو دليل هذه الصفات الأربع - بزيادة الكلام - لأنها سمعية . ٥١ .

فعلية يرجع القضاء والقدر إلى صفات العلم والإرادة والقدرة . فالعلم يتعلق بالمقدور - أزلاً - متعلق انكشاف لا إجبار فيه ، والإرادة تتعلق بالمقدور أيضاً - أزلاً - متعلق تخصيص على وفق العلم ، فتخصص المقدور ببعض ما يجوز عليه . والقدرة تتعلق بالمقدور متعلق إيجاد وإمداد وإعدام على وفق ما خصصته الإرادة . وعلى هذا يتبين أن القضاء والقدر لا يقتصران على بعض المكونات كالكوثر مثلاً بل كل شيء بقضاء وقدر . روى البخاري في صحيحه والإمام مالك في موطنه أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لما خرج إلى الشام في إحدى قدمائه لقيه في « مرع » مرب ثوبك أمراء الأجناد ، أبو عبيدة وأصحابه ، فأخبروه أن الطاعون في الشام . قال ابن عباس فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء وقع في أرض الشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء وقال بعضهم : قد خرجت لأمر ، ولا نرى أن ترجع عنه ، فقال ارتفعوا عني . ثم قال : ادع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلخوا سبل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم ، فقال ارتفعوا عني . ثم قال ادع لي من كان - ههنا - من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم ، فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس لا تقدمهم على هذا الوباء . فنادى عمر في الناس إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه . قال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله . أرأيت لو كانت لك إبل هبطت وإدياً ، له هدوتان إحداها خصب ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبية رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟

وهنا تتأوى شبهات الذين يحسبون أن العبد مجبور ، وخاصة إذا علمنا أن القضاء إنما هو متعلق علمه سبحانه بالأشياء ، أزلاً ، على سبيل الكشف ، على الصورة التي ستوجد عليها وعلمه تعالى ليس مجبر ، إنما هو كاشف .

== والله تبارك وتعالى قد علم أولاً ما سيفعله كل إنسان ، فكتب سبحانه أعمال العباد على وفق علمه بها ، ثم بعد ذلك ظهر إيمان من آمن ، وكفر من كفر ، وعصيان من عصى ، فعلمه تعالى ليس مجبراً ، وكتابه سبحانه ليست مجبرة أيضاً لأنها على وفق العلم ، وبهذا استحق المؤمن الثواب والكافر العذاب ، فأين الإجبار فيما كتبه الله تعالى علينا ؟ إذن فالقدر إنما هو إيجاد ما علم الله إيجاده في عالم الحكمة على وجه يوافق القضاء السابق . وقد قال الإمام جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه وقد سئل ، هل العباد مجبرون ؟ فقال : الله أعلم من أن يجبر عبده على معصية ثم يعذبه عليها ، وليمت الكائدون للإسلام بغيظهم ، الذين يرفون بأن الإيمان بالقضاء والقدر يورث كسلاً وخولاً ، وكيف يكون مدعاة للكسل والخمول ، والذين آمنوا قد دحروا كل ظالم وطاغية حتى أشرقت البسيطة بعدل الإسلام ، وحطموا كل طاغوت ، وكانوا في شدة البأس مثلاً ، وفي الجراءة بالحق والصدق به نبراساً ، لذلك قال المستشرق الألماني ديور : إن المسلمين حينما اتبعوا أمر دينهم واستسلموا لله في الصدر الأول دكوا معاقب القياصرة : وحطموا حصون الأكاسرة ، لإعلاء كلمة الله ، واتخذوا - كما أمرهم دينهم - لكل شيء سبباً ، وأعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، حتى لكأنما صغرت رقعة الدنيا فطووها في فترحم طياً . وإنهم رضي الله عنهم إيماناً منهم بالقضاء والقدر لم يهنوا لأحد ، ولم يخضعوا إلا لرب السموات والأرض ، ومارضوا إلا به حافظاً إياهم ونصيراً لهم . فقد أخرج أبو داود وابن عساکر عن يحيى بن مرة قال : كان علي رضي الله تعالى عنه يخرج بالليل إلى المسجد يصلي تطوعاً فنجثنا نخرسه ، فلما فرغ أنا فقال : ما يجبسكم ؟ قلنا : نخرسك ، فقال : أمن أهل السماء نخرسون أم من أهل الأرض ؟ قلنا : بل من أهل الأرض ، قال : انه لا يكون في الأرض شيء حتى يقضى في السماء ، وليس من أحد إلا وقد وكل به . ما كان يدفعان عنه ويكلائه حتى يجيء قدره . فإذا جاء قدره سلبا بينه وبين قدره وإن علي من الله جنة حصينة فإذا جاء أجلي كشفت عني ، وأنه لا يجد طعم الإيمان عبد حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فهم رضي الله عنهم قد استقر في أعماقهم ، وفي أرواحهم أنه لا تطرف في العالم عين ولا تهب نسمة هواء ، ولا يحدث فيه حادث ، صغيراً كان أو كبيراً ، إلا يعلم الله تعالى وإرادته وقدرته ، ولقد ==

== امتزج هذا بدمائهم ، فاستسلموا لله تعالى غنيتين خاضعين بأن ماشاءه كان ، وما لم يشأه لم يكن ، وهو سبحانه قد أمرم بالعمل ، وبالضرب في مناكب الأرض ، وبالجهاد لإعلاء كلمته ، وسحق أمة الكفر « إنهم لا إيمان لهم لعلمهم ينتهون » فاستجاباتهم هذه من الاستسلام ، فلا تناقضه . وناهيك بإمامهم صلى الله عليه وسلم فقد قد كاث حياته كلها استسلاماً لله تعالى ، وإيماناً بقدره ، وجهاداً ؛ وتضحية ، ودعوة دائبة لا تفى ولا تفتقر ؛ حتى لقد كسرت رباعيته وجرحته ركبته وشج رأسه ورمي بالحجارة حتى سالت الدماء من عقبه في الطائف ، رهاجر من سقط رأسه ومأس نفسه « مكة » إلى المدينة . ومن كل ما تقدم يتضح أن الإيمان بالقضاء والقدر إنما هو إيمان بالحقيقة ، وطاعة لله تعالى يثاب عليها ، وأن الكفر بها إنما هو كفر بالحقيقة الواقعة ومصيبة الله تعالى يعاقب عليها ، وليت شعري هل شيء أثبت للقلوب من معرفة الحقيقة والإيمان بها ؟ . أخرج ابن عساکر عن علي رضي الله عنه أنه قال . من رضي بقضاء الله جري عليه ، وكان له أجر ، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله . وقد جاء رجل إلى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فقال له : إن فلاناً يقرأ عليك السلام يريد رجلاً من أهل الشام ، فقال ابن عمر إنه بلقي أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فإن كان قد أحدث فلا تقرأ مني عليه السلام . وللعبد أمام القضاء والقدر أحوال ذكرها الإمام الغزالي في كتابه « الأربعين في أصول الدين » فقال : إن قضاء الله تعالى على أربعة أوجه : قضاء الطاعات ، وقضاء المعاصي ، وقضاء النعم ، وقضاء الشدائد .

والمذهب المستقيم في ذلك أنه إذا قضى للعبد الطاعة فعليه أن يستقبله بالحمد والإخلاص حتى يكرمه الله تعالى بالتوفيق والهداية . وإذا قضيت عليه المعصية فعليه أن يستقبلها بالإستغفار والتوبة والتدابة من صميم الفؤاد . وإذا قضيت له النعمة فعليه أن يستقبلها بالشكر والسخاء حتى يكرمه الله تعالى بالزيادة . وإذا قضيت عليه الشدة فعليه أن يتسقبلها بالصبر حتى يعطيه الكرامة في الدار الآخرة .

ونظراً لأمور يلبيغي ملاحظتها : منها أن كل ما يتناول العباد من عقاب إلهي في الدنيا أو في الآخرة فبشؤم ذنوبهم وسوء سلوكهم ، قال الله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير » . وقال أيضاً : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة ==

• • • • •

مطمئنة بأنهم رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والحوف بما كانوا يصنعون » . وقال : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » . والمراد بالبر - هنا - الفيافي ، والبحر : الأمصار والقرى ، وبظهور الفساد : النقص في الزروع والثمار . قال أبو العالية عن عيسى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسما بالطاعة ، ولهذا جاء في الحديث : « لحد يقام في الأمر أحب إلى أهلها من أن يطروا أربعين صباحاً » . والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا اجتنبت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض ، ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأقباة ، وبأجوج ومأجوج ، قبل للأرض : أخرجني بركتك ، فبأكل من الرمانه الفثام من الناس ويستظلون بقحفها ويكلمني لبن اللقحة الجماعة من الناس ، وما ذلك إلا ببركة تنفيذ الشريعة المطهرة ، فكما أقيم العدل كثرت البركات والخيرات ولهذا ثبت في الصحيحين : أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب .

ومن هذه الأمور أن الحظ من جملة المفردات الإلهية ، كالحارمان تماماً إذ كل شيء بقضاء الله وقدره كما أسلفنا .

ومنها أنه قد أسدلت دوننا سجف الغيب ، فإندري ما الذي تعلق به علمه تعالى إلا بعد ظهوره في عالم الشهادة ، ونحن إنما طولبنا بالنظر إلى الأعمال المشروعة ، والقيام بها فحسب ، لهذا لا ينبغي لأحد أن يزعم أنه قد قدرت عليه معصية ما قبل وقوعها - بضية الوصول إليها .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قد وضع لنا المنهج الكامل الناظم لحياتنا كلها فحذرنا من كل ما يؤدي في الجحيم ، وحشنا على كل ما يدخل النعم ، وما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب المشروعة - وهذا كله الجوارح - ونفوض النتائج لله تعالى وهذا كله للقلب - ومن عكس انتكس ، وتردى في بؤرة التواكل المذموم .

٥٥- وَمِنْهُ أَنْ يُنْظَرَ بِالْأَبْصَارِ لَكِنْ بِلَا كَيْفٍ وَلَا انْجِصَارٍ

● ومنه أن ينظر : أي ومن بعض جزئيات الجائز عقلاً عليه تعالى أن ينظر الله تعالى بالأبصار ، بمعنى أن العقل إذا خلي ونفسه لم يحكم بامتناع الرؤية ولا بوجوبها . ولقد ذهب أهل السنة إلى أنه تعالى يجوز أن يرى ، والمؤمنون يرونه في الجنة منزهاً عن المقابلة والجهة والمكان . فكما يعلمون أنه سبحانه ليس في جهة يرونه كذلك بلا جهة . فالرؤية جائزة عقلاً دنيا وأخرى ، لأنه سبحانه موجود ، وكل موجود يصح أن يرى ، لكننا لم تقع في الدنيا إلا لنبيينا محمد ﷺ وهي واجبة شرعاً في الآخرة كما أطبق عليه أهل السنة ، للكتاب والسنة والإجماع . وقبل الخوض في مرد الأدلة نورد أسئلة تقترب من طبيعة المسألة ، ثم نورد أجوبتها ، والأسئلة هي :

- ١- هل الرؤية بما يجوز به العقل ؟.
- ٢- وهل في السمع ما يدل على جوازها ؟.
- ٣- وهل في السمع ما يجوز وقوعها في الدنيا ؟ ، أو أن ما ورد فيه - إن دل على الجواز - خاص بالآخرة .

السؤال الأول : هل الرؤية بما يجوز به العقل ؟.

ذهب المعتزلة إلى عدم تجويز العقل رؤية العباد لربهم ، بل إن العقل يحكم بامتناعها . وأجمع الأئمة من أهل السنة على أنها بما يجوز به العقل . واحتج المعتزلة على مقالهم : بأننا نعلم علم اليقين أن الله تعالى ليس

بجسم ، ولا في جهة من الجهات ، وأنه يستحيل عليه المقابلة والمواجهة وتقليب الحدة نحوه . والرؤية لا تتحقق إلا إن كان المرئي في الجهة المقابلة لنظر الراي ، لهذا لا يمكن لعبد أن يرى ربه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

وأجاب أهل السنة : بأننا لا نسلم لكم ما زعمتموه من عدم تحقق الرؤية إلا إن كان المرئي مقابلًا للراي ، بل نحن نقول : إن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى في عبده متى شاء من غير لزوم مقابلة المرئي ، ولا لزوم كونه في جهة وحيز . ونقول : إن الله تعالى ليس بجسم ولا هو في جهة ، وإنه يستحيل عليه المقابلة والمواجهة ، ومع ذلك يصح أن ينكشف لعباده انكشاف القمر ليلة البدر كما ورد في صحيح الأحاديث .

السؤال الثاني : هل في السمع ما يدل على جوازها ؟ .

فقد ذهب المعتزلة إلى نفي الدليل السمعي الصريح في الرؤية ، بل قالوا : إن في السمع ما يدل على أنها لا تجوز ولزمهم أن يؤولوا صريح القرآن وصحيح الأحاديث ليوافق ما ذهبوا إليه ، كجمل الجبائي قوله تعالى : (ناظرة) في هذه الآية :

« وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » .^(١)

على معنى الانتظار ، وجعل (إلى) بمعنى النعمة ، وكأنه قيل : وجوه يومئذ منتظرة نعمة ربها . وهو كلام عجيب ، فيه من الهوى الجامع

(١) القيامة ٢٢ - ٢٣ .

ما فيه ، لأن الإخبار بانتظارهم للنعمة والثواب لا يتلاءم والمقام ، بل يناهيه
أشد المناهضة ، إذ أن في الإنتظار موتاً أحمر ، فهو بالغم والهلك والهم .
وضيق الصدر أجدر ، أضف إلى ذلك أن النظر المتعدي بـ (إلى) ،
والمسند إلى الوجه بما لم يثبت عند الثقاة بمعنى الإنتظار . ومحدثهم في
هذا المذهب قوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام :

« رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْهُ إِلَيْكَ » قَالَ : لَنْ تَرَانِي ، وَلَكِنْ
أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ، فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي . فَلَمَّا
تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ، وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا ، ^(١)

قالوا : أجاب الله بـ (لن تراني) فنفى الرؤية ثم علقها على استقرار الجبل
وهو يعلم أنه لن يستقر : فكانه علقها على أمر مستحيل ، فتكون
رؤيته سبحانه مستحيلة .

- وأهل السنة يقولون إن في السمع كثيراً من الآيات الكريمة ،
والآحاديث الصحيحة تدل صراحة على جوازها ، بل إن الآية التي أحتج
بها المعتزلة وذنبنوا حولها تدل نفسها على جوازها ، ومن علة وجوه ،
الأول : أن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قد طلبها ، ولا شك أنه
أدرك من المعتزلة بما يجوز في حقه تعالى وبما لا يجوز ، ولو كانت يعلم
استحالتها لما استعاض أن يطلبها . والثاني أنه سبحانه علق حصول الرؤية

(١) الأعراف ١٢٣ .

في آخر الآية على أمر جائز في نفسه ، وهو استقرار الجبل ، بل هو من حيث ذاته أقرب من صيرورته دكاً ، وكل أمر يعلق على أمر جائز فهو جائز ، وادعاء المعتزلة من أنه سبحانه يعلم أنه لا يستقر لا يخرجهم عن كونه جائزاً . وقد قال المعتزلة في الآية حذف مضاف وهو : « أرى آية من آياتك » وهو فاسد ، كيف ومومى عليه الصلاة والسلام اختص من من الله تعالى بآيات كثيرة ؟ ، واندك الجبل أعظم آية من آياته ، فكيف يستقيم نفى الرؤية ؟ ، بل كيف يصح تعلق رؤيتها بالإستقرار ؟ ، وإنما الآية عند اندك الجبل وقالوا أيضاً : إنه إنما سألها لأجل قومه . وهو قول باطل أيضاً ، لأن تجويز الرؤية باطل ، بل هو كفر عند أكثر المعتزلة ، فلا يجوز لموصى عليه الصلاة والسلام تأخير الرد عليهم ، وتقرير الباطل . إلا ترى أنهم لما قالوا له :

« إِنَجْعَلْ لَنَا إلهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » .

رد عليهم لساعته :

« إِنُكُم قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » ^(١) .

ولأن القوم إنما يصدقون نبينهم فيكفيم إخباره بامتناع الرؤية ، هذا وإن لم يصدقه فلا تفيدهم حكايته عن الله تعالى وإنما أخذتهم الصاعقة بقصدهم التعتت ، لا لطلبهم الباطل . والحق أن السائلين القائلين :

« لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً » ^(٢) .

(١) الأعراف : ١٣٨

(٢) البقرة : ٥٥

لم يكونوا مؤمنين ، ولم يكونوا حاضرين عند سؤاله عليه الصلاة والسلام
للوّية . وقد نقل ابن فورك عن الأشعري رحمه الله أنه قال :
قال تعالى : « لَنْ تَرَانِي » .

ولم يقل . لست بمربي على ما هو مقتضى المقام لو امتنعت الرؤية . وإنه
ليس معنى التجلي للجبل أنه ظهر عليه بعد ما كان محبوباً عنه ، بل إفاه
خلق فيه الحياة والرؤية فوآه . واحتج المعتزلة على نفيها بقوله تعالى :
« لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » .

فقالوا إن الإدراك بالبصر هو الرؤية ، والإدراك بالبصر منتف بهذه الآية .
فأجابهم أهل السنة : بأن لإدراك بالبصر ليس مجرد الرؤية ، بل هو رؤية مخصوصة ،
وهي التي تكون على وجه الإحاطة بحيث يكون المربي منحصراً بمحدود
ونهايات . فالنفي في الآية أخص من مجرد الرؤية ، ولا يلزم من نفي
الأخص نفي الأعم . وقد قال في المسامرة بدال على جواز الرؤية عقلاً : ...
وأما عقلاً فلأنه غير مؤد إلى محال ، فوجب ألا يعدل عن ظاهر للنصوص
الواردة ، إذ العدول عنه عند عدم إمكانه ، وذلك أن الرؤية نوع كشف
وعلم للدرك بالمربي يخلقه الله تعالى عند مقابلة الحاسة له عادة ، فجاز
أن يخلق هذا القدر من العلم بعينه من غير مقابلة بجهة أو إحاطة
بمجموع المربي . وكما أنا نرى السماء ولا نحيط بها ، وكما يرانا الله تعالى
من غير مقابلة في جهة باتفاق ، بل كما قد يخلق الله تعالى الرؤية من

(١) الأعراف : ١٤٣

(٢) الأنعام : ١٠٣

غير مقابلة لحاسة البصر أصلاً نراه سبحانه وتعالى . وقد روي عنه عليه السلام أنه قال للصحابه :

« سَوُّوا صُفُوفَكُمْ فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي » ^(١) .

السؤال الثالث : هل في السمع ما يدل على جوازها في الدنيا ، أو هو - إن وجد - خاص بالآخرة ؟ . ولا خفاء في أن إثبات وقوع الرؤية لا يمكن إلا بالأدلة السمعية . وقد اتفقت الأمة قبل حدوث المخالفين على وقوعها ، ولكن من أهل السنة من قال : إن الوارد في السمع خاص في الآخرة . وعلى هذا تحمل الآيات التي تنفي جوازها ، فقوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » .

إن سلمنا أن الإدراك المنفي هو الرؤية فهذا خاص في الدنيا ، أما في الآخرة فقد ثبت بدليل آخر أنه يرى ، وكذا قوله سبحانه :

« لَيْسَ تَرَانِي » .

أي في الدنيا . وكانت السيدة عائشة ومعووية بن أبي سفيان رضي الله عنهما يقولان : كانت رؤية النبي لربه ليلة الإسراء والمعراج رؤيا منام ، ولم تكن يقظة ، ولعلمها قالا ذلك بناء على اجتهاد منها ، وقد روى البخاري وغيره عن مسروق قال : قلت لعائشة يا أماء ، هل رأى محمد عليه السلام ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري بما قلت ، أين أنت من ثلاث ، من حدثكم

(١) انظر كتاب المسيرة على المسامرة ص ٤١ .

فقد كذب ، من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ثم قرأت قوله تعالى :

« لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » .

وقوله : « وما كان ليهيئ أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب »^(١) .

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت :

« وما قدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً »^(٢) .

ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ، وقرأت قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ »^(٣) .

ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين^(٤) . ولعلها قالت ذلك

اجتهاداً منها ، على أنها رضي الله عنها لم تكن في بيته عليه السلام حين أسري به ،

بل لم تكن غيظ - إن سمعت - في وقت الحادث ، على أن الراجع أنها

لم تكن ولدت ورأت الدنيا ، لأن المعراج حدث في أول البعثة وعائشة

رضي الله عنها لم تكن قد بلغت العاشرة يوم الهجرة على الأرجح . وأما

معاوية رضي الله عنه فلم يكن قد أسلم يوم هذا الحادث . وإن بعض الناس

قد بوجه قولها بقوله تعالى :

(وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس)^(٥) .

(١) الشورى : ٥١

(٢) لقمان : ٣٤

(٣) المائدة : ٦٧

(٤) انظر الترمذي الحديث رقم ٣٢٧٤ ج ٩ .

(٥) الاسراء : ٦٠

لأن الرؤيا تطلق على رؤيا المنام ، وأما الرؤية فتطلق على اليقظة . والمصحيح
أن الرؤيا كما تطلق على النوم تطلق على اليقظة . قال الشاعر :

فكَبَّرَ للرؤيا وهشَّ فؤاده وبشَّرَ قلباً كلَّ جأ بلائه

فإنه يصف راعياً رأى العشب والكلأ فاستبشر به ، وطمان نفسه ،
وهذا حاصل في اليقظة لا محالة . وقد قال تعالى عن هذه الرؤيا إنها كانت
فتنة لقناس ، يعني ابتلاء لهم واختباراً ، ليرى من يثبت على إيمانه ومن
يرقد عن دينه لعدم تصديقه ذلك ، وقد كان ذلك فعلاً ، فإن النبي ﷺ
لما أصبح وأخبر أهل مكة بما كان من مسراه إلى بيت المقدس ، وعروجه
إلى السموات وما فوقها ، سخرُوا منه وكذبوه حتى ارتد ضعاف القلوب ،
وثبت أهل التقوى والمغفرة ومنهم أبو بكر الذي قال حين سمع ما يتدرون
به على النبي : إن كان قد قال ذلك فقد صدق ^(١) . وليس من المعقول
أن يكون حديث الإنسان عن رؤيا وآها في المنام فتنة وبلاء واختباراً ،
ويصدق به قوم ، وينكروا آخرون .

وقد ذهب الأكثرون إلى أن في السمع ما يدل على جوازها في الدنيا
لمن أراد الله له ذلك . ومن ذلك قصة معوجه ﷺ . ويقول هذا الفريق :
إنه ﷺ رأى ربه بعيني رأسه وهما في مكانها الخلق ، لم يحولها الله تعالى
إلى قلبه كما زعم بعض الناس ، وقد كان ﷺ يرى ربه كذلك في كل
مرة من مرات المراجعة التي كان يسأل فيها تخفيفاً للصلوات المفروضة ^(٢) .

(١) أخرجه البيهقي وذكره ابن كثير في تفسيره ٢٥٤/٤ .

(٢) هداية الباري ٢٩٨/١ فيه حديث المعراج والمراجعة .

ورؤيته ﷺ هذه منقولة عن جمهرة الصحابة فعن ابن عباس رضي الله
عنها قال :

رأى محمداً ، قال عكرمة : قلت : أليس الله يقول :

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) .

قال : وبجك ذلك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره ، وقد رأى
ربه مرتين^(١)

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال :
(رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ) .^(٢)

وروى أيضاً عن ابن عباس . أنه رآه بعينه ، وكذا عن أنس وأبي ذر
وكعب والزهري^(٣) .

وعن ابن عباس أنه قال : بعد ما قرأ قوله تعالى :

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) .

هي رؤيا عين ، أرى النبي ﷺ ليلة أمري به إلى بيت المقدس^(٤) .

(١) رواه الترمذي ٣٢٧٥/٩ .

(٢) قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح .

(٣) في زجاجة المصابيح ٣٦٢/٤ .

(٤) رواه الترمذي ٣١٣٣/٨ .

وروى شريك عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : (رأى النبي ﷺ ربه) .
 وحكى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه ،
 وحكى أيضاً عن عكرمة ، وبعض المتكلمين حكى هذا المذهب عن
 ابن مسعود ، وأبي هريرة . وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال :
 أنا أقول بحديث ابن عباس ، بعينه رآه ، رآه . . (حتى انقطع نفس أحمد) .
 قال الماوردي : إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد صلى الله عليهما
 وسلم . وقد اجتمع ابن عباس وكعب ، فقال ابن عباس : أما نحن بني هاشم
 فنقول إن محمداً قد رأى ربه فكبير كعب . وقال المناوي : والرؤية بالمشاهدة
 العينية التي لم يحتمل الكلام أدنى شيء منها ، أو القلبية بمعنى التجلي التام .
 والأرجح أن الله تعالى جمع له بين الرؤية البصرية والجنانية
 (أي القلبية) (١) .

وقد استدل أهل السنة على جواز رؤيته تعالى من الكتاب والسنة ،
 أما الكتاب ففيه أكثر من آية غير قوله تعالى :

« وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ » .

منها قوله تعالى :

« الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » (٢) .

(١) المناوي على الجامع الصغير ٤ / ٦ .

(٢) يونس ٢٦ .

قال جمهور المفسرين : الحسنى هي الجنة ، والزهادة هي النظر
إلى وجهه الكريم ، وقد روي عن صهيب أنه قال : لما قرأ رسول الله ﷺ
هذه الآية قال :

« إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ
الْجَنَّةِ ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَ كُفْمَهُ ، قَالُوا : مَا هَذَا
المَوْعِدُ ؟ أَلَمْ يُثْقِلْ مَوَازِينُنَا ، وَبُنْضَرُ وُجُوهِنَا ، وَيُدْخِلَنَا
الْجَنَّةَ ، وَيُجِرَّنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيَرْفَعُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ
إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . قَالَ : فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ
مِنَ النَّظَرِ . »

وروى الإمام مسلم عن صهيب أيضاً أن رسول الله ﷺ قال :
« إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :
تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا
الْجَنَّةَ وَتُخْرِجْنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا
أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ . »

وخرجه ابن المبارك في وثائقه عن أبي موسى الأشعري ، وخرجه النسائي
عن صهيب نحوه إلا أنه قال :

« يُكْشَفُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أُعْطَاهُمْ اللَّهُ شَيْئًا

أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ وَلَا أَقْرَبُ لَأَعْيُنِهِمْ .

وخرج الترمذي الحكيم عن أبي ابن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن الزيادة في كتاب الله تعالى في قوله :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) . قال : «النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ» .
وعنه قوله : (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَّةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُون) .

قال : «عِشْرُونَ أَلْفًا» .

وذكر القرطبي في تفسيره^(١) : أن أنساً رضي الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى :

« وَزِيَادَةٌ » . قال : «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْعَمَلُ فِي الدُّنْيَا لَهُمُ الْحُسْنَى ، وَهِيَ الْجَنَّةُ» ، «وَالزِّيَادَةُ : «النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ» .

قال القرطبي : وهو قول أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في رواية ، وحذيفة وعبادة بن الصامت وكعب بن عجرة وأبي موسى وصهيب وابن عباس في رواية ، وهو قول جماعة من التابعين ، وهو الصحيح في الباب .
فإن قيل : إن الرؤية أجل الكرامات وأعظمها ، فكيف يعبر عنها بالزيادة ؟ قلنا : للتبني على أنها أجل من أن تعد في الحسنات ، وفي أجزية الأعمال الصالحات ، ومنها قوله تعالى :

« عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ »^(٢) .

(١) تفسير للقرطبي ج ٨ ص ٣٣٣ .

(٢) المطففين ٢٤ .

وأما الأحاديث فمنها الحديث الذي ورد في الصحيح فيما روي عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال :
« كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَقَالَ :
إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيَانًا كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ ، لَا تُضَامُونَ
فِي رُؤْيَيْهِ » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه وجير أنه رضي الله عنه قال :
« هَلْ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، أَيْسَ يَدْنَكُمْ وَيَدْنُهُ
سَحَابٌ ؟ كَذَلِكَ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ » ^(١) .

والتشبيه للرؤية لا للموتى ، ووجه الشبه عدم الشك والحفاء .

(١) حديث جرير متفق عليه ذكره الإمام النووي في رياض الصالحين برقم ١٩٠٢
وحديث أبي هريرة في الصحيحين قال في شرح المقاصد : وهو مشهور رواه
واحد وعشرون من أكابر الصحابة . وذكر الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي
الحكيم الترمذي رحمه الله في تصنيف له فقال : على صحة حديث الرؤية عدة
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم أئمة منهم ابن مسعود ، وابن
عمر وابن عباس ، وصهيب وأنس ، وأبو موسى الأشعري وأبو هريرة ، وأبو
سميد الخدري وعمار بن ياسر ، وجابر بن عبد الله ، ومعاذ بن جبل ، وثوبان ،
وعمار بن ربيعة الثقفي ، وحذيفة وأبو بكر الصديق ، وزيد بن ثابت ، وجرير
ابن عبد الله البجلي ، وأبو أمامة الباهلي ، وبريدة الأسلمي ، وأبو برزة ، وعبد
الله بن الحارث فهم واحد وعشرون من مشاهير الصحابة وكبرائهم وعلمائهم نقلوه
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يختلف العلماء من الصحابة رضي الله عنهم في وقوع رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ، وكذلك من بعدهم من أهل العلم .

قال الإمام مالك رضي الله عنه : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى يروه ، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة ، لم يعير الكافرون بالحجاب .

قال تعالى : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ »^(١).

وذكر الربيع أنه كان ذات يوم عند الشافعي ، فجاء كتاب من الصعيد يسألونه فيه عن قوله عز وجل :

« كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » .

فكتب : لما حجب قوماً بالسخط دلّ على أن قوماً يرونه بالرضا^(٢).

وقال ابن العربي : « إن رؤية الله تعالى جعلت تقوية للمعرفة الخاصة في الدنيا ، فما رآه كمن سمعها » . وقال محمد بن الفضل : « كما حجبهم في الدنيا عن نور توحيدهم ، حجبهم في الآخرة عن رؤيته » . وقال سيدي ابن عطاء الله : (أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوناته ، وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته) .

● بالأبصار : ظاهره أن الرؤية بالحدق فقط ، وهو أحد أقوال

ثلاثة . ثانياً : أنها بجميع الوجوه لظاهر قوله تعالى :

« وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا قَاظِرَةٌ » .

(١) المطهفين ١٥ .

(٢) الطبقات الكبرى للسبكي ج ١ ص ٨١ .

قالهم : أنها بكل جزء من أجزاء البدن ، كما نقل عن أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه .

● لكن بلا كيف : لما كان قد يتوهم من إثبات الرؤية بالأبصار أنها تحصل بكيفية من كفيات الحوادث ، من مقابلة ، وجهة ، وتحيز ، وغير ذلك ، استدرك بقوله : « لكن بلا كيف » ، والمراد بالرؤية بلا كيف خلوها عن الشروط والكفيات المعتبرة في رؤية الأجسام والأعراض ، وكيف يكون شرط مقابلة الموتي عقلياً لا يتخلف . وقد ثبت أنه عليه السلام قال : « هَلْ تَرَوْنَ قِبَلَتِي هَاهُنَا ؟ فَوَاللَّهِ مَا يَخْفَى عَلَيَّ خَشَوْعُكُمْ وَلَا رُكُوعُكُمْ ، إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي » ^(١).

وقال أنس رضي الله عنه : « صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم صَلَاةً ، ثُمَّ رَفَعِيَ الْمُنْبَرَ فَقَالَ : فِي الصَّلَاةِ وَفِي الرُّكُوعِ إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَائِي كَأَرَاكُمْ » ^(٢).

وعن مجاهد أنه عليه السلام كان يبصر في الظلمة كما يبصر في الضوء . والضوء شرط عادي في الرؤية . قال ابن حجر في شرحه على صحيح البخاري بعدما أورد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لَأَنَّهُ لَحِقَ عِنْدَ أَهْلِ السَّنَةِ أَنَّ الرُّؤْيَا لَا يَشْتَرِطُ لَهَا عَقْلًا عَضْوً مَخْصُوصً ، وَلَا مُقَابَلَةً ، وَلَا قُرْبَ ،

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة . فتح الباري ج ١ ص ٤٣٠ .
(٢) فتح الباري ج ١ ص ٤٣٠ . ولمسلم في رواية « إِنِّي لَأَبْصُرُ مِنْ وَرَائِي كَأَبْصَرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ » .

وإنما تلك أمور عادية يجوز حصول الإدراك مع عدمها عقلاً ، ولذلك حكموا بجواز رؤية الله تعالى في الدار الآخرة خلافاً لأهل البدع لوقوفهم مع العادة .

● ولا انحصار : يعني ولا انحصار للموتى عند الرائي بحيث يحيط به لاستعالة الحدود والنهايات عليه تعالى . والغرض بهذا الرد على الشبهة النقلية التي أوردها المعتزلة :

وهي قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » ^(١) .

والحاصل أنه تعالى يرى من غير تكيف بكيفية من الكيفيات المعتبرة في رؤية الأجسام ، ومن غير إحاطة ، بل بحار العبد في العظمة والجلال حتى لا يعرف إسمه ، ولا يشعر بمن حوله من الحلائق ، فإن العقل يعجز هنالك عن الفهم ويتلاشى الكل في جنب عظمتة تعالى . ولما كان النظر مضمناً معنى الإنكشاف قال :

(١) الأنعام ١٠٣ .

٥٦ - لِلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُجَازِزُ عُلُقَتٌ هَذَا وَلِلْمُخْتَارِ دُنْيَا تَبْتَ

● للمؤمنين : يعني انكشافه تعالى بحاسة البصر انكشافاً تاماً لكل فرد ممن مات محكوماً له باتصافه بالإيمان ، والتصديق الشرعي . فيخرج الكفار والمنافقون ، لأنهم ليسوا من أهل الإكرام والتشريف . وقيل : لأنهم يروونه تعالى ثم يحبسون عنه ، لتكون الحجة حسرة عليهم . وجعل الإمام النووي محل الخلاف في المناق ، فأما السكاور فلا .

والأقوى أن الرؤية حاصلة للملائكة أيضاً ، ولؤمني الجن ، فيحصل لهم الرؤية في الموقف مع سائر المؤمنين قطعاً ، وفي الجنة على الراجع ، ولؤمني الأمم السابقة ، وهو الأظهر ، وعمل الرؤية الجنة بلا خلاف غيراه أهلها في مثل يوم الجمعة والعيد ، ويراها كل يوم خواصهم بمكررة وعشياً . فعن ابن عمر رضي الله عنها قال :

قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ لِمَنْ يَنْظُرُ جَنَانَهُ وَأَزْوَاجَهُ وَنَعِيمَهُ وَخَدَمَتَهُ وَسُرْرَهُ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ »

غُدُوءَ وَعَشِيَّةَ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «وَجُوهَ يَوْمَئِذٍ
نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» .^(١)

وبعضهم لا يزال مستمراً في الشهود حتى قال أبو يزيد البسطامي :
« إن لله خواصاً من عباده ، لو حججهم في الجنة عن رؤيته ساعة
لاستغاثوا من الجنة ونعيمها ، وأما في في عرصات القيامة - كالموقف -
فالصحيح وقوعها أيضاً ، لأنه ورد في السنة ما يقتضي ذلك ، فعن أبي
سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ
بِالظُّهْرِ ، ضَوْءُهُ لَيْسَ فِيهِ سَحَابٌ ؟ » قَالُوا : لَا ، قَالَ : وَهَلْ
تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، ضَوْءُهُ لَيْسَ فِيهِ
سَحَابٌ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ
أَحَدِهِمَا . إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُذِّنَ مُؤَذِّنٌ : تَتَّبِعُ كُلُّ
أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ
مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى

(١) الترمذي رقم ٣٣٢٧ ج ٩ و القُرطبي ١٩ من ٤٠٧

إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ
وَعُثْرَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ . فَيُدْعَى الْيَهُودُ ، فَيُقَالُ لَهُمْ :
مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرًا ابْنَ اللَّهِ .
فَيُقَالُ لَهُمْ : كَذَبْتُمْ ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ
فَإِذَا تَبَغُّوْا ؟ قَالُوا : عَطَشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا ، فَيُشَارُ : أَلَا
تَرِدُونَ ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ ، كَأَنَّهُا سَرَابٌ ، يَحْطُمُ
بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى
فَيُقَالُ لَهُمْ : مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : كُنَّا نَعْبُدُ
الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُمْ : كَذَبْتُمْ ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ
صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : مَاذَا تَبَغُّوْا ؟ فَكَذَلِكَ
مِثْلَ الْأُولَى حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ
بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنْ الَّتِي
رَأَوْهُ فِيهَا ، فَيُقَالُ لَهُمْ : مَاذَا تَلْتَظِرُونَ ؟ تَتْبَعُ كُلُّ
أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، قَالُوا : فَارْقِنَا النَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَلَى
أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ ، وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ رَبَّنَا
الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ . فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : لَا نُشْرِكُ

بِاللهِ شَيْئاً « مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً »^(١) . فَيَتَجَلَّى لَهُمْ تَجَلِّياً لَا يُفَا
يَحَالِ الْمَقَامَ وَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ كَمَا
يَعْلَمُونَ ، أَيْ عَلَى وَفْقِ مَا يَعْتَقِدُونَ فَيَخِرُّونَ سُجَّداً إِلَّا
الْمُنَافِقُ ، وَالْقَبَرَات : الْبَقَايَا .

● إِذْ بِجَائِزٍ عَلِقَتْ : كَأَنَّهُ قَالَ حَكَمْنَا بِجَوَازِ الرُّؤْيَةِ عَقْلاً لِأَنَّ
اللهَ تَعَالَى عَلَّمَهَا بِأَمْرِ جَائِزٍ فِي نَفْسِهِ عَقْلاً ، وَهُوَ اسْتِقْرَارُ الْجَبَلِ .

● هَذَا وَالْمَخْتَارُ دُنْيَاً ثَبَتَ : أَيْ كَمَا عَلِمَتْ جَوَازِ وَقُوعِ الرُّؤْيَةِ
فَانْتَقَلَ عَنْهُ إِلَى الْإِخْبَارِ بِوُقُوعِهَا فِي الدُّنْيَا . وَعَبَّرَ بِالْمَخْتَارِ مَنَاسِبَةً لِاخْتِيَارِهِ
لِهَذَا الْمَقَامِ . وَإِضَافَةً لِمَا مَرَّ فِي مَبْعَثِ رُؤْيَتِهِ ﷺ لِرَبِّهِ نَقُولُ : إِنَّ السَّيِّدَةَ
عَاشَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَدْ نَفَتْ وَقُوعَهَا ، وَابْنُ عَبَّاسٍ أَثْبَتَهَا ، وَالْمُثَبِّتُ مُقَدِّمٌ
عَلَى النَّاسِ . وَإِنْ مَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ قَالَ : مَا عَاشَتْ عِنْدَنَا بِأَعْلَمَ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .
وَاخْتَلَفَ فِي وَقُوعِهَا لِلْأَوَّلِيَاءِ عَلَى قَوَائِنَ ، لِلأَشْعَرِيِّ ، أَرْجَحُهَا الْمَنْعُ .
وَالحَقُّ أَنَّهَا لَمْ تُثَبِّتْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لَهُ ﷺ ، وَمِنْ ادِّعَائِهَا غَيْرُهُ فِي الدُّنْيَا
يَقِظَةُ فَهِيَ ضَالٌّ يَاطُبِقُ الْمَشَايِخَ ، حَتَّى ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى تَكْفِيرِهِ .

● وَأَمَّا رُؤْيَتُهُ تَعَالَى مَنَاسِباً فَقَدْ نَقَلَ عَنِ الْقَاضِي عِيَاضٍ : أَنَّهُ لَا نِزَاعَ
فِي وَقُوعِهَا وَصَحَّتْهَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتِمَثَّلُ بِهِ تَعَالَى ، كَمَا لَا يَتِمَثَّلُ

(١) هَذَا قَوْلُ الْعَامَّةِ الْمُحِبِّينَ ، أَمَّا الْخَوَاصُّ الْعَارِفُونَ بِرَبِّهِمْ فَلَا يَجْهَلُونَهُ فِي حَالِ
مِنْ الْأَحْوَالِ . أَنْظِرْ هِدَايَةَ الْبَارِي إِلَى تَرْتِيبِ أَحَادِيثِ الْبُخَارِيِّ ٢ / ٢٦٦ .

بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقال بعضهم لا يتمثل بالملائكة ولا بالشمس ، ولا بالقمر ، ولا بالنجوم المضيئة ، ولا بالسحاب الذي فيه الغيم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « تَسْمُوا بِاسْمِي ، وَلَا تُكْنُوا بِكُنْيَتِي ، وَمَنْ رَأَانِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَانِي ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »^(١) .

وعنه أيضاً قال رسول الله ﷺ :

« وَمَنْ رَأَانِي فِي الْمَنَامِ فَسِيرَانِي فِي الْيَقَظَةِ ، وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي »^(٢) .

وعن أبي سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ رَأَانِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَكَوَّنُنِي »^(٣) .

وعنه أن الإمام أحمد رأى المولى سبحانه في المنام تسعاً وتسعين مرة ، وفي تمام المائة قال : سيدي ومولاي ، ما أقرب ما يتقرب به المتقربون إليك ؟ قال : تلاوة كلامي . والمرئي - إن كانت بوجهه لا يستحيل عليه تعالى - فهو هو تعالى ، وإلا - بأن كان بصورة رجل مثلاً - فليس هو هو تعالى ، بل خلق من خلقه ، ويقال حينئذ : إنه رأى ربه في الجملة

(١ و ٢ و ٣) رواها البخاري وفي مداية الباري ١/١٨٠ و ٢/٢١٨ .

لحكمة تظهر للمعبرين ، بأن يقولوا : إنما تدل على كذا وكذا . وقيل :
هو هو أيضاً ، وكونه بهذا الوجه إنما هو باعتبار ذهن الراي ، وأما في
الحقيقة فليس تعالى كذلك . وعن معاذ بن جبل قال :

احتبسَ عنّا رسولُ اللهِ ذاتَ غداةٍ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى
كَدْنَا نَرَأَى عَيْنَ الشَّمْسِ ، فَخَرَجَ سَرِيعاً ، فَتَوَّابَ بِالصَّلَاةِ ،
فَصَلَّى رسولُ اللهِ ﷺ ، وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا
بَصَوْتِهِ فَقَالَ لَنَا عَلَى مَصَافِكُمْ كَمَا أَنْتُمْ ، ثُمَّ انْفَتَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ :
أَمَّا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمْ الْعُدَاةَ . إِنِّي قُمْتُ مِنَ
اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي ، فَنِعَسْتُ فِي صَلَاتِي
فَاسْتَقَلْتُ ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ
يَا مُحَمَّدُ قُلْتُ : رَبِّ لَبَّيْكَ . قَالَ : فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟
قُلْتُ : لَا أَدْرِي رَبِّ . قَالَهَا ثَلَاثًا ، قَالَ : فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ
كَتِفَيْ ، قَدْ وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْ ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ ،
وَعَرَفْتُ . قَالَ : يَا مُحَمَّدُ . قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَبِّ . قَالَ : فِيمَ يَخْتَصِمُ
الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قُلْتُ فِي الْكَفَّارَاتِ . قَالَ مَا هُنَّ ؟ قُلْتُ : مَشْيُ
الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ،

وإسباغُ الوضوءِ في المكروهاتِ . قالَ : ثُمَّ فَنِمَ ؟ قالَ :
إطعامُ الطعامِ ، ولينُ الكلامِ ، والصلاةُ بالليلِ والنَّاسُ نيامٌ .
قالَ : سَلْ . قلتُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ
الْمُنْكَرَاتِ ، وَحُبَّ الْمَساكِينِ ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي
وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ ، وَأَسْأَلُكَ
حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ .
قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّهَا حَقٌّ فَأَذْرُسُهَا ثُمَّ تَعْلَمُوهَا ^(١) .

قال ابن صدقة : بعد كلام على حديث ابن عباس المرفوع :

« رَأَيْتُ رَبِّي فِي صُورَةِ شَابٍّ . . . »

فالحديث إن حمل على رؤية المنام فلا إشكال ، أي فهو كحديث
معاذ السالف ، وإن حمل على البقطة فأجاب عنه ابن المهام : بأن هذا
حجاب الصورة ^(٢) . وختاماً إن بعض الصوفية رأى ربه في منامه على
وصفه فقبل له : كيف رأيتَه ؟ فقال : أنهكس بصري في بصيرتي
فصرت كلِّي بصرأ ، فرأيت من ليس كمثله شيء . ولما فرغ من الإلهيات
شرع في النبوات فقال :

(١) تفرد به الترمذي وقال . حسن صحيح ٣٢٣٣ / ٨

(٢) انظر كشف الخفاء ٥٢٦ / ١ الحديث رقم ١٤٠٩

٥٧- وَمِنْهُ إِرْسَالُ جَمِيعِ الرُّسُلِ بَلَاوُجُوبَ بَلِّ بِمَحْضِ الْفَضْلِ-

● ومنه : تقريره أن مذهب أهل السنة والجماعة أن من أنواع الجائز العقلي على الله تعالى إرساله لجميع الرسل من لدن آدم أبي البشر إلى خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين ، فأرسالهم جائز ، وليس بواجب - كما ذهب إليه المعتزلة والفلاسفة - ولا بمستحيل كما ذهب إليه السُّنِّيَّة والبراهمة . أما المعتزلة فقد قالوا بالوجوب ، ابتداء على ما أمضوه من عند أنفسهم ، وهو أنه يجب على الله تعالى فعل الصلاح والأصلح لعباده فقالوا : إن النظام المؤدي إلى صلاح حال النوع الإنساني على وجه العموم في معاشه ومعاذته لا يتم إلا ببعثة الرسل ، وكل ما هو كذلك فهو واجب على الله تعالى . وقد تقدم هدم هذه المقدمات إذ أن عنايته سبحانه فينا لا شيء منا ، وأين كنا حين واجهتنا عنايته وقابلتنا رعايته ؟ لم يكن في أزاله إخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال . بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال وعظيم النوال . فبجل "حكم الأزل أن يضاف إلى الحال . وأما الفلاسفة فبنوا الوجوب على قولهم بالتعليل أو الطبيعة فقالوا : يلزم من وجوده تعالى وجود العالم بالتعليل ، بأن يكون سبحانه علة للعالم ، أو بالطبع ، ويلزم من وجود العالم وجود من يصلحه . ويرد هذا أنه سبحانه فاعل بالإختيار لا بطريق الإيجاب . وأما الطائفة الثانية القائمة بالإستحالة فقد عللت قولها : بأن إرسالهم عبث ، لأنه يُستغنى عنهم بالعقل ، بأن يجعل مناسط فعل الشيء تحسين العقل إياه ، ومناسط ترك الشيء تقبيح العقل إياه ، والعبث على الله تعالى محال ، فيكون إرسال

الرسول محال . ويرد على هذا : بأننا لانسلم أن "إرسالهم عبث ، لأن الأحوال إن انحصرت فيها ذكروا فالبعثة تعضد العقل ، وإن لم تنحصر - وهو الواقع - فإنها تقيّد حكم مالا يستطيع العقل الإستقلال به ، فإن ما يوافق العقل قد يستقل بمعرفته ، فيعاضده النبي ، ويؤكدده ، بمنزلة الأدلة العقلية على مدلول واحد ، وقد لا يستقل به فيدل عليه النبي ويرشده إليه . وما يخالف العقل قد لا يكون مع الجزم فيدفعه النبي أو يرفع عنه الإحتال . وما لا يدرك حسنه ولا قبحه قد يكون حسناً يجب فعله أو قبيحاً يجب تركه ، هذا مع أن العقول متفاوتة ، فالتفويض إليها مظنة التنازع ، على أن العمدة في باب البعثة هو التكليف ، ومن شبههم أنه ليس في التكليف فائدة ، لا للأمر بها لتعالیه عن أن ينتفع بعمل عبده ، ولا للأمور بها لأنه يتضرر باحتاله ما يشق عليه . وهذا ظاهر البطلان ، بل إن فيها نفعاً عظيماً للعباد ، وكل واحد منا يتحمل كثيراً من المشاق في سبيل تحصيل منفعة لا تقاس أبداً بما يعود عليه من ثواب عبادة الله عز وجل وطاعته ، على أن الإسلام حينما نظم حياة الفرد والجماعة والأمة نظمها بشكل لا يدع مجالاً للريبة في أنه إن طبقت أحكامه فلا أسعد ولا أرقى من تلك الأمة على وجه الأرض ، وأية فائدة أسمى من هذه . فقول المصنف : فلا وجوب ، نفى المذهب المعتزلة والفلاسفة ، ولم يصرح بنفي المذهب الثاني ، إما من باب الاكتفاء أي كأنه قال : فلا وجوب ولا استحالة ، وإما لكون مذهبهم ظاهر البطلان بإرسال الرسول فعلاً ، فهو مردود بالمشاهدة والعيان وإنما ادعاء الإستحالة مكابرة للحس .

والخلاصة أن إرسالهم جائز ، وأنه واقع منه سبحانه تفضلاً ورحمة
لما فيه من الحكم والمصالح الغزيرة ، ومنها معاضدة العقل فيما يمكنه أن
يستقل بعرفته كوجوده سبحانه وعلمه وقدرته .

قال تعالى : « لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » .
ومنها استفادة الحكم من الأنبياء فيما لا يستقل العقل به مثل مبحث
الكلام ورويته تعالى ، والمعاد الجسماني . ومنها بيان حال الأفعال التي
تحسن قارة وتفسح أخرى من غير اعتداء العقل إلى مواطنها . ومنها تكميل
النفوس البشرية بحسب استعداداتهم المختلفة في العمليات والعمليات ، وتبيين
الأخلاق الفاضلة ، الراجعة إلى الأشخاص ، والسياسات الكاملة العائدة إلى
الجماعات . فهم قد دلونا على الحكمة من وجود الأكوان ، وأرشدونا إلى
الله تبارك وتعالى ، وبينوا لنا الطريق الموصل إلى رضوانه ، وحذرونا
من الطريق الموصل بالنار ، ونظموا لنا الحياة بما يتلاءم مع واقعية
العبودية وأصالتها .

● إرسال جميع الرسل : أي من أفراد الجائز العقلي إرسال الله
تعالى جميع رسل البشر حتى تقوم الحجة على المكلفين من الثقلين بالبينات ،
وتنقطع عنهم سائر التعللات .

قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا
رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا » ^(١) .

(١) القصص ٤٧ .

وقال : « وما كنّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً »^(١) .
 وقال : « رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ
 عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »^(٢) .

● فلا وجوب : أي إذا علمت أن الإرسال بما يجوز في حقه تعالى
 فعله وتركه فاعلم : أنه لا وجوب عليه .

● بل بمحض الفضل : أي إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما هو بمخالص
 الإحسان وهو بما يحسن فعله ، ولا يقبح منه تعالى تركه .
 ولما كان قد يتوهم من كون الإرسال من الجائز العقلي ، أن الإيمان
 بوقوعه ليس واجباً ، استدرك بقوله :

(١) الإسراء ١٥ .
 (٢) النساء ١٦٥ .

٥٨- لَكِنْ بِذَا إِيمَانُنَا قَدْ وَجَبَا قَدْ دَعَى هَوَى قَوْمٍ بِهِمْ قَدْ لَعِبَا

- لكن بهذا إيماننا قد وجب : أي قد وجب إيماننا بوقوع الإرسال .
وقد سبق في أول الكتاب بيان من يجب الإيمان بهم تفصيلاً ومن يجب الإيمان بهم إجمالاً ، وأن الأولى عدم حصرهم في عدد .
- فدع هوى قوم : أي إذا عرفت أن إرسال الرسل من الجائز العقلي في حقه تعالى ، وأن الإيمان به واجب ، فدع هوى قوم ، أي اعتقادهم حيث أنكروا بعدما زين لهم الشيطان ذلك .
- بهم قد لعبا : أي قد تلاعب بهم هوام الذي اتبعوه حتى أوقعهم في البدع والمعاصي أو في الكفر . فإن المعتزلة والحكماء قد أوجبوا الإرسال ، وأحاله الآخرون . والهوى - عند الإطلاق - يصرف إلى الميل إلى خلاف الحق ، وإنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار .
ولما تم الكلام على ما يجب في حقه تعالى وما يستحيل وما يجوز ، شرع - هنا - في الكلام على ما يجب في حق الرسل وما يستحيل وما يجوز فقال :

٥٩- وَوَاجِبٌ فِي حَقِّهِمُ الْإِمَانَةُ وَصِدْقُهُمْ وَضَيْفٌ لَهُ الْقَطَانَةُ

● وواجب في حقهم : المراد بالوجوب - هنا - عدم قبول الإنفكاك بالنظر للشرع لأن ما ذكر من الواجبات سمعي ، نعم ، تصديق المعجزة لهم في دعوى الرسالة وضعي لتزليلها منزلة الكلام ، أي صدق عبدي فيما يبلغ عني ، ، ودلالة الكلام وضعية ، فكذا منازل منزلته ، وقيل : تصديقها عقلي لتزعمه تعالى عن تصديق الكاذب . والمتبادر عود الضمير بقوله « في حقهم » على الرسل ، وقد فسرهُ الشارح بالأنبياء قائلًا : لأن معظم هذه الأحكام لا يختص بالرسل ، وإنما يختص بهم وبالأنبياء ، فهم مشتركون بكل الأحكام ما عدا التبليغ ، إذ أنه خاص بالرسل وحدهم . وبعضهم عممه بالأنبياء ، لأنه يجب على النبي أن يبلغ أنه نبي ليعتزم .

● الأمانة : أي العصمة ، وللعلماء فيها عدة تعاريف ، لكنها متقاربة ، وأحسنها : « أن العصمة ملكة نفسانية تمنع صاحبها الفجور » ، فتكون الأمانة على هذا هي حفظ ظواهرهم وبواطنهم عليهم الصلاة والسلام من التلبس بمنهي عنه ، ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى ، فأفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب ، كيف لا ؟ وفي الأولياء الذين هم أتباعهم من يصير لمقام تصبح فيه حركاته وسكناته طاعة لله تعالى بالنيات ، إذ أن النية تقلب العادة عبادة .

وقد اختلف في وقت وجوب هذه العصمة لهم عليهم الصلاة والسلام ، فذهب بعضهم إلى أنها واجبة لهم من أول الولادة إلى آخر العمر ، وذهب الآخرون إلى أنها تجب لهم في زمن النبوة ، أما قبلها

فهي غير واجبة . والذي عليه المعتمد في هذا ما قاله العلامة محمد بن حنبل المطيعي ، من أنهم معصومون قبل النبوة وبعدها ، فلا يصدر منهم ذنب لاستحالة صدور كل ما ينفر عنهم قبل النبوة ، وما قاله كذلك في « فواتح الرحموت » .. وأما قبل النبوة فالتحقيق الذي عليه أهل الله من الصوفية الكرام أنهم معصومون أيضاً من الكبائر والصغائر عمداً ، كيف لا وهم إنما يولدون على الولاية ، ولا يمر عليهم طرفة عين وهم غير مشاهدين لله تعالى ، ولايتهم قوية عن ولاية الأولياء الذين ولايتهم مأخوذة منهم . وقد عقب الشيخ محمد بن حنبل على هذا بقوله :

وقد قال تعالى : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » ^(١)

فكان كل رسول مولوداً على الاستعداد التام لأن يكون رسولاً فلذلك كانت ولايته غير مكتسبة برياضات بل فضل من الله تعالى كرسالاته ، بخلاف الأولياء ^(٢) وما ورد من النصوص الموهمة بخلاف العصمة يؤول على أنه من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولا يجوز النطق به في غير موردته إلا في مقام البياض . ودليل وجوبها أنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه أو خلاف الأولى لكننا مأمورين بذلك المحرم أو المكروه أو خلاف الأولى ، لأن الله تعالى قد أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم من غير تفصيل

قال عز وجل : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي » ^(٣)

(١) الأنعام ١٢٤

(٢) انظر حاشية العلامة المطيعي على نهاية السؤل في شرح مناهج الأصول ٣/٦٢٠ .

(٣) آل عمران ٣١ .

والله تبارك وتعالى لا يأمر بمحرّم ولا بمكروه ولا بخلاف الأولى .
كذلك كانوا يأمرّون بالطاعات ويترك المعاصي ، ولو تركوا الطاعة وفعلوا
المعصية لدخلوا تحت قوله تعالى :

« كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » .^(١)
وقوله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) .^(٢)
ومعلوم أن هذا في غاية القبح ، وقد أخبر سبحانه عن رسوله شعيب
عليه السلام أنه قد برا نفسه من ذلك فقال :

« وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ » .^(٣)

وقال تعالى أيضاً في صفة إبراهيم وإسحاق ويعقوب :

« إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » .^(٤)

والألف واللام في صيغة الجمع (الخيرات) تفيد العموم ، فدخل
تحت لفظ (الخيرات) فعل كل ما ينبغي ، وترك كل ما لا ينبغي ، وذلك
يدل على أنهم كانوا فاعلين لكل الطاعات وتاركين لكل المعاصي
وقال تعالى أيضاً :

« وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ » .^(٥)

ولفظ (المصطفين) و (الأخيار) يتناول جملة الأفعال والتروك
بدليل جواز الإستثناء ، فيقال : فلان من المصطفين الأخيار إلا في
كذا ، والإستثناء يخرج من الكلام مالواه لدخل ، فدلّت هذه الآية

(١) الصف ٢٣ (٢) البقرة ٤٤ (٣) مود ٨٨ (٤) الأنبياء ٩٠ (٥) من ٤٧

على أنهم كانوا من المصطفين الأخيار في كل الأمور ، وهذا بنا في صدور
الذنب عنهم . وقال تعالى في حق موسى عليه السلام :

« إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي » .^(١)

وقال في حق غيره :

« وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي
وَالْأَبْصَارِ ، إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ » .^(٢)

وما ورد في حق موسى عليه السلام في قوله تعالى :

« فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ » .^(٣)

فيحتمل أن يقال : إنه لكفر القبطي كان مستحقاً للقتل بيد أنه
عليه السلام لم يقصد إلا تخلص الذي من شيعته فتأدى به ذلك إلى القتل
من غير قصد . علاوة على ما تقدم نورد قوله تعالى حكاه عن إبليس :

« فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ » .^(٤)

فقد استثنى المخلصين من إغوائه وإضلاله ، وشهد تعالى على إبراهيم
وإسحق ويعقوب أنهم من المخلصين فثبت بذلك أن إغواء إبليس ووسوسته
لا تصل إليهم ، وهذا يوجب القطع بعدم صدور المعصية عنهم . كذلك ،

قال تعالى في حق إبراهيم : « إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » .^(٥)

(١) الأعراف ١٤٤ (٢) من ٤٥ (٣) القصص ١٥ (٤) من ٨٣ (٥) البقرة ١٢٤

والإمام هو الذي يقتدى به ، فلو صدر الذنب عن إبراهيم لكان اقتداء الخلق به في ذلك الذنب واجباً ، وهو باطل ، وقد ورد أن خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قد شهد على وفق دعوى النبي ﷺ وذلك أنه ﷺ قد اشترى فرساً من سواء بن قيس الحارثي ، فبعده سواء ، فشهد خزيمة للنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ :

« مَا حَمَلَكَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَلَمْ تَكُنْ مَعَنَا حَاضِرًا ؟ قَالَ صَدَّقْتُكَ بِمَا جِئْتَ بِهِ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا تَقُولُ إِلَّا حَقًّا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :
« مَنْ شَهِدَ لَهُ خُرَيْسَمَةُ أَوْ عَلِيٌّ ، فَهُوَ حَسْبُهُ » .^(١)

ولو كان الذنب جائزاً على الأنبياء لكانت شهادة خزيمة غير جائزة .

● وصدقهم : أي وواجب في حقهم الصدق ، وهو مطابقة خبرهم للواقع ، ولو بحسب اعتقادهم ، ودليل وجوبه أنهم لو لم يصدقوا لزم الكذب في خبره تعالى لتصديقه لهم بالمعجزة النازلة منزلة قوله تعالى :

(صدق عبدي في كل ما يبلغ عني) وتصديق الكاذب كذب وهو محال في حقه تعالى فينتج أن عدم صدقهم محال ، وإذا استحال عدم الصدق وجب الصدق وهو المطلوب .

● وذف له الفطانه : أي وضم لما تقدم - مما يجب لهم عليهم السلام - وجوب الفطانة وهي التفطن والتيقظ لإلزام الخصوم وإبطال دعاويهم ودحض

(١) رواه البخاري .

حججهم . ودليل وجوبها أن من لم يكن فطناً - بأن كان مغفلاً -
لا يمكنه إقامة الحجة ولا المجادلة ، وهم يتعرضون في دعوتهم - إلى الله
عز وجل - لمُحْصوم يجادلونهم ، فلا يمكن دفعهم إلا بهذه الحجة .

وقد قال الله تعالى : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ
تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ » .^(١)

وقال أيضاً : « يٰٰنُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ » .^(٢)

أي خاصمتنا فاطلت ، أو أثبت بأنواعه .

وقال أيضاً : « وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .^(٣)

فإن قيل هذه الآيات واردة في بعضهم ، فلا يدل على ثبوتها للجميع أجيب :
بأنه لما ثبت الكمال لبعضهم ثبت لكلهم ، وإن كانوا أنبياء فقط ، إذ
اللائق بمنصب النبوة أن يكون عندهم من الفطنة ما يردون به الجهم على
تقدير وقوع جدال معه . نعم الواجب للأنبياء مطلق الفطنة ، وإغما للرسل
كاملها ، إذ هم شهود الله على عباده والشاهد لا يكون مغفلاً .

(١) سورة الأنعام ٨٣ .

(٢) هود ٣٢ .

(٣) النحل ١٢٥ .

٦٠- وَمِثْلُ ذَا تَبْلِيغُهُمْ لِمَا أَتَوْا وَيَسْتَحِيلُ ضِدُّهَا كَمَا رَوَوْا

● ومثل ذا تبليغهم : أي تبليغهم ما أمروا بتبليغه مثل الأمانة والصدق ، والفظانة في الوجوب .

● لا أتوا : أي تبليغهم لما جاؤوا به عن الله تعالى واجب بقيد أن يكون بما أمروا بتبليغه للخلق ، بخلاف ما أمروا بكتابه ، أو ماخيروا فيه . ودليل وجوب التبليغ أنهم لو كتبوا شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق لكننا مأمورين بكتان العلم ، إذ أننا مأمورون بالإقتداء بهم . وبما أننا غير مأمورين بكتان العلم ، بل كلمة ملعوث ، يلزم أنهم لا يكتبون .

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَجْلَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » .^(١)

وقال أيضاً : « مَنْ كَتَمَ عِلْماً مِمَّا يَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ فِي أَمْرِ الدِّينِ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » .^(٢)

وما ذكره الناظم شروط عقلية للنبوة ، أما شروطها الشرعية العادية : فالبشرية ، والحيوية ، والذكورة ، وكال العقل ، والذكاء ، وقوة الرأي ولو في الصبا كعيسى ويحيى عليهما السلام ، والسلامة عن كل ماينفر من الإلتباع حين النبوة . ومنها كونه أعلم من جميع من بعث إليهم ، بأحكام الشريعة المبعوث بها ، أصلية كانت أو فرعية^(٣) .

(١) رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة وحسنه .

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري .

(٣) انظر شرح عبد السلام على الجوهرة ص ١٨١ .

● ويستحيل ضدها : أي ضد الصفات الأربعة الواجبة . فالحيانة ضد الأمانة ، والكذب ضد الصدق ، والغفلة ضد الفطنة ، وكتمان شيء مما أمروا بتبليغه ضد التبليغ . فهذه الأضداد مستجيبة في حقهم أي غير قابلة الثبوت .

● كما رووا : أي استحالة الحيانة والكذب والغفلة والكتمان ثابتة بالدليل الشرعي لما رواه العلماء من : (كتاب وسنة وإجماع) .

٦١- وَجَائِزٌ فِي حَقِّهِمْ كَالْأَكْلِ وَكَالْجَمَاعِ لِلنِّسَاءِ فِي الْحِلِّ

● وجائز ... : هذا شروع بما يجوز في حقهم رسلاً وأنبياء ، وهو مالا يجب عقلاً ثبوته لهم ، ولا نفيه عنهم ، ومثل لما يجوز بالأكل والجماع الحلال لبشير إلى أنه لا فرق بين أن يكون الجائز في حقهم من توابع الصحة التي لا يستغنى عنها عادة كالأكل ، أو التي يستغنى عنها كالجماع للنساء ، لكن الجماع مشروط في حال الحل بأن كان بالملك أو بالنكاح ، فيجوز لهم الوطء بالملك ، ولو الأمة الكتابية ، بخلاف المجوسية ونحوها كالوثنية ، ويجوز عليهم سائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية كالمرض ، ومنه الإغماء إلا أنه قيد بالإغماء غير الطويل ، بخلاف الجنون قليله وكثيره لأنه نقص ، وبخلاف الجزام والبرص والعمى وغير ذلك من الأمور المنفرة ، ولم يثبت أن شعيباً كان ضريباً ، وأما ما كان ليعقوب فهو حجاب على العين من تواصل الدموع ، ولذلك لما جاءه البشير عاد بصيراً ، وما كان بأيوب من البلاء لم يكن منفراً ، أما ما اشتهر عنه من الحكايات المنفرة فهي باطلة من فعل اليهود .

وأما السهو فمتنع عليهم في الأخبار البلاغية وغير البلاغية . وجائز عليهم في الأفعال البلاغية وغيرها للتشريع ، كالسهو في الصلاة ، لكن سهوهم لم يكن ناشئاً عن اشتغالهم بغير ربهم ، وفي ذلك قال بعضهم : قد غاب عن كل شيء مره فسها عماسوى الله فالتعظيم لله وأما النسيان فهو ممتنع في البلاغيات قبل تبليغها ، قولية كانت أو فعلية .

وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر على أنه من الله تعالى ، أما
 نسيان الشيطان فستحيل عليهم ، إذ ليس له عليهم سبيل .
 وقول يوشع : « وما أنسانيه إلا الشيطان » .
 تواضع منه أو قبل نبوته وعلمه بحال نفسه ، وإلا فهو رحمني بشهادة:
 « ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ » ، فارتدّا على آثارهما قصصاً ، ^(١)
 ووسوسة الشيطان لآدم بتمثيل ظاهري ، والمنوع في حقهم سلطانه على
 بواطنهم . وبالجملة فيجوز على ظواهرهم ما يجوز على البشر ، لا يؤدي إلى
 نقص ، وأما بواطنهم فمنزهة أبداً متعلقة بربهم . وفي المتن ^(٢) كان معروف
 الكرخي رضي الله عنه يقول : « لي ثلاثون سنة في حضرة الله ما خرجت
 فأنا أكلهم الله والناس يظنون أنني أكلهم » . فإذا كان هذا حال أحد
 الأتباع ، فما بالك بالأنبياء ، خصوصاً رئيسهم الأعظم ﷺ .

(١) الكهف ٦٤ .

(٢) كتاب المتن للإمام عبد الوهاب الشعراني .

٦٢- وَجَامِعُ مَعْنَى الَّذِي تَقَرَّرَ شَهَادَةُ الْإِسْلَامِ فَاطْرَحَ الْمِرَا

● وجامع معنى الذي تقررا : لما فصل فيما يجب لله وما يستحيل وما يجوز ، وما يجب للرسل وما يستحيل وما يجوز ، ذكر الكلمة المشرفة التي تتضمن كل ما قرره في السابق ، وهو جميع العقائد الإيمانية بما يرجع إلى الألوهية والنبوة ونجوباً وجوازاً وإستحالة .

● شهادة الإسلام : أي الشهادتان الدالتان على الإسلام الذي هو الإنقياد الظاهري ، أو اللتان هما سبب في الإسلام ، أو اللتان هما الجزء الأعظم من مسمى الإسلام ، بناء على أن الحياة المركبة من الأركان الخمسة المذكورة فيما رواه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحِجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ . رواه البخاري ومسلم » .

والجامع لما تقدم من العقائد إنما هو معنى الشهادتين لالفظها ، فالجملة الأولى نفت الألوهية عن غيره تعالى ، وأثبتتها له تعالى ، ويلزم منها استغناء الإله عن كل ماسواه ، وافتقار كل ما عداه إليه ، فحقيقة الإله هو المعبود بحق ، ويلزم منه أنه مستغن عن كل ماسواه . فالمعنى الحقيقي لـ « لا إله إلا الله » : لا معبود بحق في الواقع إلا الله . فإذا علمت ذلك

علمت أن الاستغناء يستلزم وجوب الوجود والقدم والبقاء والخالفه للحوادث ، والقيام بالنفس ، والتزهد عن النقائص ، ويدخل في التزهد : السمع ، والبصر والكلام ، ولوازمها ، وهي كونه سمياً بصيراً متكماً ، إذ لو لم تجب له هذه الصفات لكان محتاجاً إلى المحدث أو المحل ، أو إلى من يدفع عنه النقائص . فهذه إحدى عشرة عقيدة من الواجبات ، وإذا وجبت هذه الصفات استحال أضرارها . فهذه إحدى عشرة عقيدة من المستحيلات . ويستلزم الغنى أيضاً ، نفى وجوب فعل شيء من الممكنات أو تركه ، وإلا لزم افتقاره إلى فعل ذلك الشيء أو تركه ليتكامل به . فهذه عقيدة الجائز . فجملة ما استلزمه الاستغناء ثلاث وعشرون عقيدة . وأما افتقار كل ما عداه إليه سبحانه فيستلزم الحياة والقدرة والإرادة والعلم ولوازمها ، وهي كونه حياً قادراً مريداً عالماً . ويستلزم أيضاً الوحدةانية . فهذه تسع من العقائد الواجبات . ومتى وجبت هذه للصفات استحال أضرارها . فهذه تسع من العقائد المستحيلات . فجملة ما استلزمه الافتقار ثمان عشرة عقيدة ، فإن ضمت للسابقة كان المجموع واحداً وأربعين . الواجب له تعالى منها عشرون ، والمستحيل عليه عشرون ، والجائز له واحدة . فقد اشتملت الجملة الأولى د لا إله إلا الله ، على أقسام الحكم العقلي الثلاثة الراجعة له تعالى . وأما الجملة الثانية وهي د محمد رسول الله ، ففيها الإقرار برسالة ﷺ ، ويلزم منه تصديقه في كل ما جاء به ، ويندرج فيه وجوب صدق الرسل ، وأمانتهم ، وفطانتهم ، وتبليغهم لما أمروا بتبليغه للخلق . ويندرج فيه أيضاً استحالة الكذب والحيانة والخلفه

والكتان عليهم . ويندوج فيه جواز جميع الأعراض البشرية التي لا تؤذي
إلى نقص في مراتبهم العلية .

● فاطرح الموا : إذا علمت أن كلمتي الشهادتين جمعتهما جميعاً ما تقدر
من العقائد الإيمانية فاترك الجدال في صحة جمعها . ولعلها لما كانتا بهذا
المعنى العظيم جعلها الشارع الحكيم ترجمة مما في القلب من الإيمان ، ولم
يقبل من أحد الإيمان إلا بهما مع القدرة عليهما . وقد نص العلماء على أنه
لا بد من فهم معنهما ولو إجمالاً ، وإلا لم ينتفع الناطق بهما . قال بعضهم :
الأنفع للذكر بهما أن يلاحظ أخذهما من القرآن ليناب عليهما مطلقاً .
واختلف العلماء هل الأفضل المد فيها أو القصر ؟ فالجائحون إلى المد
عللوا باستشعار التلغظ بهما بنفي الألوهية عن كل موجود سواه تعالى ، أما
الجائحون للقصر فلثلاثاً تختوم المنية ذاكروها قبل التلغظ بذكر « الله » تعالى .

٦٣- وَلَمْ تَكُنْ نُبُوَّةً مُكْتَسَبَةً وَلَوْ رَقِيَ فِي الْخَيْرِ أَعْلَى عَقَبَةٍ

● ولم تكن نبوة مكتسبة : أي لا يكتسب العبد النبوة مباشرة أسباب مخصوصة ، كملزمة الخلوة والعبادة ، وتناول الحلال ، كما زعمت الفلاسفة . فالذي ذهب إليه المسلمون جميعاً أن النبوة إنما هي خصوصية من الله تعالى ، ولا يبلغ العبد أن يكتسبها ، ويفسرونها : باختصاص العبد لسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي ، سواء أمر بتبليغه أم لا ، وهكذا الرسالة ، لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ . ويفسر الفلاسفة النبوة : بأنها صفاء وتجل للنفس يحدث لها من الرياضات ، وبالتغلي عن الأمور الدنيوية والتخلق بالأخلاق الحميدة . والقول : بأنها مكتسبة ، من أقوى المسائل التي كفرت بها الفلاسفة ويلزم على قولهم باكتسابها تجوز نبي بعد سيدنا محمد ﷺ ، أو معه . وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنة .

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ » .^(١)

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا نَبِيَّ بَعْدِي » .^(٢)

وأجمعت الأمة على إبقائه على ظاهره .

(١) الأحزاب ٤٠ .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : « سيكون في أمي ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي » . أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . برقم ٢٢٢٠ ج ٦ .

وأما الولاية ففيها طريقتان ، فمنها ما هو مكتسب ، وهو امتثال
 الأمور ، واجتناب المنهات ، وتسمى الولاية العامة . ومنها ما هو
 غير مكتسب ، وهو العطايا الربانية ، كالعلم اللدني ، وغير ذلك ^(١) .
 • ولو رقى في الخير أعلى عقبة : العقبة في اللغة ، هي الطريق
 الصاعد في الجبل والمعنى لا يكتسب النبوة أحد ، ولو فعل في الخير أسقى
 العبادات . ثم قال :

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله عليه الصلاة
 والسلام ، إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب
 إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترخته علي . ولا يزال عبدي يتقرب
 إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره
 الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه
 ولئن استعاذني لأعيذنه » . رواه البخاري . ففيه دلالة على الجانبين ، الكسبي
 والوحي ، فبعدما ذكر مكانة الولي من الله تعالى بين طريقها .

٦٤- بَلْ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ لِمَن يَشَاءُ اللَّهُ وَاهِبُ الْمُنَنِ

● بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن يشاء : بعدما قرر أن النبوة والرسالة من غير اكتساب قرر - هنا - أنها تكون بفضل الله تعالى . والفضل هو إعطاء الشيء بغير عوض ، لا عاجل ولا آجل ، لذا لا يكون لغيره تعالى فعليه يكون الإصطفاء للنبوة والاختيار للرسالة إنما هو بفضل الله تعالى ، كما قال عز وجل : « يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ » .^(١)

وَقَوْلُهُ : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .^(٢)

وَقَوْلُهُ : « وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِيعْ يَا يُوْحَى » .^(٣)

فهو سبحانه يعلم من كان مستجعماً لشروط النبوة فيؤتيه إياها .

● جل الله واهب المنن : أي نزهه الله عن أن ينال أحد شيئاً لم

يُرد إعطاءه إياه ، فهو سبحانه واهب المنن ، أي واهب العطايا .

(١) غافر ١٥ .

(٢) الأنعام ١٢٤ .

(٣) طه ١٢ .

٦٥ وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِثْلَاقِ نَبِيْنًا قِيلَ عَنِ الشَّقَاقِ

● وأفضل الخلق : أي أفضل المخلوقات على العموم الشامل للعلوية منها والسفلية من البشر والجن والملك في الدنيا والآخرة في سائر خصال الخير وأوصاف الكمال هو نبينا محمد ﷺ . وما ورد من النهي عن تفضيله ﷺ

قوله : « لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ »^(١) .

وقوله : « لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُوسُفَ بْنِ مَتَّى » .

وقوله : « لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى » .

ونحو ذلك ، فمحمول على تفضيل يؤدي إلى تنقيص غيره من الأنبياء ، أو قاله نادباً ونواضعاً . وقيل معنى : « لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُوسُفَ بْنِ مَتَّى » ، أي لا تعتقدوا أنني أقرب إلى الله تعالى من يونس في الحس حيث ناجيته سبعانه فوق السموات السبع ، وهو ناجى ربه في بطن الحوت في قاع البحر ، لتنزهه تعالى عن الجهة والمكان فيستوي في حقه سبعانه من فوق السموات ، ومن في قاع البحار .

(١) في الصحيحين عن أبي هريرة قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال اليهودي في قسم يقسمه : « لَا وَالَّذِي اصْطَلَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ ، فَرَفَعَ الْمَسْلَمُ يَدَهُ فَلَطَمَ بِهَا وَجْهَ الْيَهُودِيِّ وَقَالَ : أَيُّ خَبِيثٍ ، وَعَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَجَاءَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاشْتَكَى عَلَى الْمَسْلَمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أُفَبِقَ فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشاً بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ فَلَا أُدْرِي : أَفَأَقِ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ ؟ فَلَا تُفَضِّلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (ج ١ ص ٥٣٩) معقبا : « قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا ، مِنْ بَابِ الْهَضْمِ وَالْتَوَاضُعِ ، أَوْ قَالَ مِنْ بَابِ النَّهْيِ عَنِ التَّفْضِيلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي تَحَاكَمُوا فِيهَا عِنْدَ التَّخَاصُمِ وَالتَّشَاجُرِ ، أَوْ =

وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ عَلَى اللَّهِ وَلَا فَخْرَ » .^(١)

أي ولا فخر أعظم من ذلك ، أو ولا أقول ذلك فخراً بل نحمدنا بنعمة الله . وتفضيله هذا إنما هو بتفضيل الله سبحانه له .

● فمل عن الشقاق : أي بعدما عرفت بما تقدم فضله ، إعدل عن المنازعة فيه ، إذ المنازعة خرق للإجماع .

== المقصود عدم التفضيل بمجرد الآراء والعصبية ، أو المعنى أن مقام التفضيل ليس إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل . وفي هداية الباري عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تختبروني على موسى ... الحديث ، إلى أن يقول : فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري : أكان فيمن صقع فأفاق قبل أن يكون من استثنى الله ؟ » (ج ٢ ص ٢٨٨) . وفيه أيضاً من ابن عباس : « ما ينبغي لعبد أن يقول : إني خير من يونس بن متى » ، قال الشارح معلقاً على هذا الحديث : إنما خص سيدنا يونس بالذكر خشية على من سمع قوله تعالى : (ولا تكن كصاحب الحوت) أن يقع في نفسه تنقيصه ، والخط من مرتبته ، فبالغ في ذكر فضله سداً لهذه الذريعة (هداية الباري ج ٢ ص ١٨٤) .

(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أسبوا ، لوأه الحمد بومثبيدي ، وأنا أكرم ولد علي رضي ولا فخر » . رواه الترمذي ج ٩ برقم ٣٦١٤ ورواه مسلم أيضاً . وعن ابن عباس ... قال صلى الله عليه وسلم : « ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لوأه الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك خلق الجنة فيفتح الله لي فبذلها ومعها فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخريين ولا فخر » (رواه الترمذي برقم ٢٦٢٠ ج ٩) . قال القرطبي في تفسيره (الجزء الثالث ص ٢٦٢) ،

• • • • •

إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها ،
 وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطفات والمعجزات المتباينات . وأما
 النبوة نفسها فلا تتفاضل ، وإنما تتفاضل بأمر آخر زائدة عليها ، ولذلك منهم رسل وأولوا
 هزم ، ومنهم من اتخذ خليلاً ، ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات . وقد أشار
 ابن عباس إلى هذا فقال : إن الله فضل محمداً على الأنبياء ، وعلى أهل السماء ، فقالوا :
 يا ابن عباس فضلة على أهل السماء ؟ فقال : إن الله تعالى قال : « ومن يقل منهم إلى إله من
 دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » . وقال ل محمد صلى الله عليه وسلم : « إذا فتحنا
 لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » . قالوا فما فضله على الأنبياء ؟
 قال : قال الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » . وقال له صلى الله
 عليه وسلم : « وما أرسلناك إلا كافة للناس » . فأرسله إلى الجن والإنس . ذكره أبو
 محمد الهارمي .

٦٦- وَالْأَنْبِيَاءُ يَلُونَهُ فِي الْفَضْلِ وَبَعْدَهُمْ مَلَائِكَةُ ذِي الْفَضْلِ

● وَالْأَنْبِيَاءُ ... : فالأنبياء يتبعون نبينا محمداً ﷺ في الفضل ، فرتبتهم بعده ، وإن تفاوتوا فيما يليه سيدنا إبراهيم فموسى فعيسى فنوح ، وهؤلاء هم أولوا العزم ، صبروا وتحملوا مشاق الدعوة العظيمة ، وبلي أدلي العزم بقية الرسل ثم الأنبياء غير الرسل مع تفاوت مراتبهم عند الله تعالى .

● وبعدهم ملائكة ... : وبعدهم الأنبياء ملائكة الله ذِي الْفَضْلِ . فرتبتهم تلي مرتبة الأنبياء في الجلالة . والذي يلي الأنبياء من الملائكة رؤسائهم جبريل ميكائيل وإسرافيل فملك الموت ثم بقية الملائكة . وجبريل أفضل الملائكة على المشهور . وذهب القاضي أبو عبد الله الحلبي مع آخرين - كالمعتزلة - إلى أن الملائكة أفضل من الأنبياء ما خلا نبينا محمداً ﷺ . قال السعد : ولا قاطع في هذه المقامات . وقال تاج الدين السبكي : ليس تفضيل البشر على الملك مما يجب اعتقاده ، والسلامة في السكوت عن هذه المسألة ، والدخول في التفضيل من غير دليل قاطع دخول في خطر عظيم ، وحكم في مكان لسنا أهلاً للحكم فيه .

واعلم أن الملائكة أجسام لطيفة نورانية ، قادرة على الشكل بأشكال مختلفة ، حسنة ، شأها الطاعة ، ومسكنها السموات غالباً .

قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : « يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ » .^(١)

وَقَالَ : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .^(٢)

(١) الأنبياء ٢٠ .

(٢) التحريم ٦ .

لا يوصفون بذكره ، فمن وصفهم بها فسق ، ولا بأنوثة ، فمن وصفهم
بها كفر لمعارضته قوله تعالى :

« وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ،
سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » ^(١) .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :
« خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ،
وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ مَّا وَصَفَ لَكُمْ » ^(٢) .

(١) الزخرف ١٩ .

(٢) رواه الإمام مسلم ، وفي رياض الصالحين برقم ١٨٤٣ .

٦٧- هذا وَقَوْمٌ فَضَّلُوا إِذْ فَضَّلُوا وَبَعْضُ كُلِّ بَعْضِهِ قَدْ يَفْضُلُ

● هذا : أي إفهم هذا المذكور من تفضيل الأنبياء على الملائكة ، وتفضيل الملائكة على بقية البشر ، من غير تفصيل كما هو طريقة جمهور الأشاعرة المرجوحة . وإنما قدمها الناظم لأن منظومته على مذهبهم .

● وقوم فصلوا إذ فضّلوا : وهم الماتريدية ، فقالوا : إن الأنبياء أفضل من رؤساء الملائكة ، ورؤساء الملائكة أفضل من عوام البشر ، وليس المواد بالعوام هنا ما يشمل الفساق ، وعوام البشر المذكورون أفضل من عوام الملائكة . ويدخل في الرؤساء حملة العرش ، وهم ثمانية يوم القيامة لمزيد الجلال ، وأربعة في الدنيا ^(١) ، والكروبيون ، وهم حافون بالعرش ، لقبوا بذلك لأنهم متصدون للدعاء برفع الكرب عن الأمة . وهذه هي الطريقة الراجعة . وأعلم أن العصمة لا دخل لها في التفضيل فلا ينظر إليها ، لذلك فضل للعوام على الملائكة المعصومين ، وإنما ينظر للأكثرية في الثواب على العبادة ، وعوام الحلق أكثر ثواباً لحصول المشقة لهم في عبادتهم ، بخلاف عوام الملائكة ، فإن الطاعة جيلية فيهم .

● وبعض كل ^(٢) : أي بعض الأنبياء كأولي العزم أفضل من بعضهم

(١) ذكر الثعلبي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حلة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أيدم الله تعالى بأربعة آخرين فكانوا ثمانية ، وخرجه الماوردي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحمله اليوم أربعة وهم يوم القيامة ثمانية » .

(٢) قوله : بعضه قد يفضل ، فبعضه مفعول مقدم ليفضل أي : بعض كل قد يفضل بعضه .

الآخر ، وبعض الملائكة كروؤسائهم أفضل من بعضهم الآخر .
والخلاصة : أن سيدنا محمداً ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق ثم سيدنا
إبراهيم ، ثم سيدنا موسى ، ثم سيدنا عيسى ، ثم سيدنا نوح ، وهؤلاء هم أولوا
العزم ، ثم بقية الرسل ، ثم الأنبياء وهم متفاضلون فيما بينهم عند الله تعالى ،
ثم جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم بقية الرؤساء ، ثم عوام البشر ، كأبي بكر
وهروعثمان وعلي ، ثم عوام الملائكة ، وهم متفاضلون فيما بينهم عند الله
أيضاً . وقد سبق أنه يتمتع المجهوم فيما لم يرد فيه توقيف فلاسه عنه .

٦٨- بالمعجزات أيدوا تكراً وعصمة الباري لكل حتماً

● بالمعجزات أيدوا : أي أيدى الله تعالى بالمعجزات حيث أظهرها على أيديهم تصديقاً لهم في دعوى النبوة والرسالة ، وفيما بلغوه عنه سبحانه ، لأنها نازلة منزلة قوله تعالى : « صدق عبيدي في كل ما يبلغ عني » .

ولا يشترط في ثبوت النبوة والرسالة عدد من المعجزات بل واحدة تكفي .
● تكراً : أي كان تأييدهم بالمعجزات تفضلاً وإحساناً من غير إيجاب ولا وجوب ، وفيه رد على من أوجب المعجزة كما أوجب الإرسال .
والحق أنه تعالى لا يجب عليه شيء لأحد من خلقه .

والمعجزة : - لغة - مأخوذة من العجز ضد القدرة .
وعرفاً : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة .

وقال السعد : هي أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين على وجه يعجز المنكرين عن الإتيان بمثله ، فحقيقة الإعجاز لإثبات العجز .

قال الشيخ أبو الحسن : هي فعل من الله تعالى ، أو قائمة مقام الفعل يقصد بمثله التصديق .

ومعنى التحدي : طلب المعارضة فيما جعله شاهداً لدعوته ، وتعجيز المنكرين عن الإتيان بمثله ما أبداه ، وبالتحدي يحصل ربط الدعوى بالمعجزة ، والمراد بعدم المعارضة ألا يظهر مثله ممن ليس بنبي وأما من نبي آخر فلا امتناع . والمراد بخوارق العادات أمور ممكنة في نفسها متممة في العادة بمعنى أنها لم تنجر العادة بوقوعها ، كالغلاب العصا

حية ، فإمكانها ضروري ، وإبداعها ليس أبعد من إبداع خلق الأرض والسماء وما بينها . ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسالة أنها - عند التحقيق - بمنزلة صريح التصديق لما جرت العادة به من أن الله تعالى يخلق عقبها العلم الضروري بصدقه . كما إذا قام رجل في مجلس ملك بحضور جماعة ، وادعى أنه رسول هذا الملك إليهم ، فطالبوه بالحجة فقال : هي أن يخالف هذا الملك عادته ، ويقوم عن سريره ثلاث مرات ويقعد . ففعل ، فإنه يكون تصديقاً له ، ومفيداً للعلم الضروري بصدقه من غير ارباب . واعتبر المحققون في المعجزة سبعة قيود .

الأول : أن تكون قولاً - كالقرآن ، - أو فعلاً - كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ ، أو تركاً - كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام . فأما الصفة القديمة - كما إذا قال : آية صدقي أن الله متصف بالقدرة - فليست بمعجزة .

الثاني : أن تكون خارقة للعادة ، والعادة مادي على الناس واستمروا مرة بعد أخرى ، فغير الحارق ليس بمعجزة ، كما إذا قال : آية صدقي طلوع الشمس من المشرق وغروبها من حيث تغرب .

الثالث : أن تكون على يد مدعي النبوة أو الرسالة ، فتخرج للكرامة ، والمعونة ، والإستدراج ، والإهانة من حد المعجزة . فأما الكرامة فهي ما يظهره الله تعالى على يد عبد ظاهر الصلاح . وأما المعونة فهي ما يظهره الله تعالى على يد العوام تخليصاً لهم من شدة ، وأما الإستدراج فهو ما يظهر على يد فاسق خديعة ومكرراً به ، وأما الإهانة فهي ما يظهر على يد الفاسق تكذيباً له ، كما وقع لمسيمة الكذاب ، فإنه تفل في

عين أعور لتبرأ فعميت الصحيحة ، وتفل في بئر لتعذب مياهه فغارت .
الرابع : أن تكون مقرونة بدعوى النبوة أو الرسالة حقيقة ،
أو حكماً بأن تأخورت بزمان يسير . ويخرج الإرهاس ، وهو ما كان
قبل النبوة والرسالة تأسيساً لها ، كإظلال الغمام له ﷺ قبل البعثة ، أو
كظهور النور في جبين أبيه عبد الله .

فقد نقل السهيلي^(١) وابن سعد في طبقاته^(٢) والنويري^(٣) أن
أخت ورقة بن نوفل - واسمها رقية - قالت لعبد الله أبي المصطفى ﷺ
بعد ما افتدي من الذبح بمائة من الإبل نحوت : لك مثل الإبل التي
نحوت عنك اليوم إن قبلت أن أهب لك نفسي الساعة ، وبعد أن تزوج
آمنة أم النبي ﷺ انصرف عنه رقية وزهدت فيه ، فسأها يوماً : مالك
لا تعرضين علي اليوم ما كنت عرضت علي بالأمس ؟ ! فأجاب : فارقك
النور الذي كان معك بالأمس ، فليس لي بك اليوم حاجة .

وذكر ابن الأثير أن فاطمة بنت مو - وكانت كاهنة من خنعم
قرأت الكتب ، ومن أجل النساء وأعفهن - دعت عبد الله يوماً إلى
نكاحها ، فنظروا إليها وقال ، أما الحوام فالملأت دونه ، والحل لالحل
فأستبينه ، فكيف بالأمر الذي تبغينه . ثم بعد زواجه بآمنة بنت وهب
أعرضت عنه فاطمة وقالت : قد كان ذلك مرة فاليوم لا ، وإني والله
ما أنا بصاحبة ربة ، ولكنني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون
لي ، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعت بعدي ؟ فقال لها :

(١) ١٠٢/١ (٢) ٥٨/١ (٣) نهاية الأرب ٥٨/١٦ وانظر مجمع الأمثال للبدياني

٢٤/٢ والطبري ١٧٤/٢ وابن الأثير ٤/٢ ونهاية الأرب ١٦/٦١ و ٧٧ .

زوجني أبي آمنة بنت وهب . فأنشدت :

هـ ما زهرية سلبت منك الذي استلبت وما تدبري

وقبل كذلك : أن ليلى العدوية عرضت نفسها عليه ثم أعرضت وقالت :
مررت بي وبين عينك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت عليّ ودخلت عليّ
آمنة فنهبت بها .

الخامس : أن تكون مواظبة للدعوى . وخرج المخالف لها ، كما
لما قال : آية صديقي انفلاق البحر ، فانفلق الجبل .

السادس : أن لا تكون مكذبة له ، فخرجت المكذبة ، كما إذا
قال : آية صديقي نطق هذا الجراد ، فنطق بأنه مفتر كذاب ، أما لو
قال : آية صديقي نطق هذا الإنسان الميت وإحياءه فأحيي ، ونطق بأنه
مفتر كذاب فلا يعتبر ، والفرق بينهما أن الجراد لا اختيار له فاعتبر
تكذيبه لأنه أمر إلهي ، والإنسان مختار فلا يعتبر تكذيبه إذ أنه
قد يختار الكفر على الإيمان .

السابع : أن تتعذر معارضته . فخرج السحر ، ومنه الشعبة
وهي خفة في اليد ، يرى أن لها حقيقة ولا حقيقة لها ، كما يقع للحواة .
والسحر ليس من الخوارق ، لأنه معتاد عند تعاطي أسبابه .

ثامناً : قد زاد بعضهم هذا للشرط ، وهو أن لا تكون في زمن
نقض العادة ، كزمن طلوع الشمس من مغربها . وخرج أيضاً ما يقع من
الدجال ، كأمره السماء فتمطر ، والأرض فتنبث^(١)

(١) عن النواس بن سميان رضي الله عنه قال : « ذكر رسول الله صلى الله عليه
الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فانصرفنا من
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رجنا إليه فعرف ذلك فينا ، فقال : ما شأنكم ؟
فقلنا : يا رسول الله ، ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت ، حتى ظنناه في =

== طائفة النخل. فقال : غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامروا حجيجه نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط ، عينه طافسة ، كأنني أشبه بعبد العزى بن قطن ، فن أدركه منكم فليقرأ عليه فوائح سورة الكهف . إنه خارج خلة بين الشام والعراق ، فعات يميناً وحات شمالاً ، يا عباد الله فائتوا » . . . إلى أن قال : فيأتي على القوم فيدهوم فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبث ، فترجح عليهم صارحهم أطول ما كانت ذراً ، وأسبغهم ضرراً وأمد خواصرهم . « ابن قطن جاهلي من خزاعة . والحديث بطوله رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم . خفي فيه ورغ أي حقره كقوله : إنه أمور العين ، وإنه أهون على الله من ذلك وإنه لا يقدر على قتل أحد ، إلا ذلك الرجل ثم يدع عنقه ، وإنه يضرب على أمره ، ويقتل بذلك ، ورفع فيه : أي مظهره وفنسه ، كقوله : ليس بين يدي الساعة أعظم من الدجال وما من لي إلا وقد أئذرت أمتي الأهور الكذاب . أو خفي فيه : أي خفي من صوته لكثرة ما تكلم بشأفه ، ثم رفع صوته ليبلغ كل أحد . وإنما قال : « غير الدجال أخوفني عليكم » ، حين شاهد استعظام الصحابة لأمر الدجال ، وشدة خوفهم من الافتتان به . وقد بين في حديث من هذا الذي يخاف علينا منه أكثر من الدجال ، فقال فيما رواه الإمام أحمد بسند جيد عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : غير الدجال أخوف على أمتي من الدجال : « الأئمة المصلون » ، أي الدعاة إلى الصلوات ، والأفكار الباطلة . وقد ذكر الحافظ ابن حجر موطن خروج الدجال ، فقال في فتح الباري (ج ١ ص ٧٩) . وسيكون خروجه من قبل المشرق جزماً ، ثم جاء في رواية أنه يخرج من خراسان ، وفي أخرى أنه يخرج من أصبهان ، ويخرج أولاً فيدعي الإيمان والصلاح ، ثم يدعي النبوة ثم يدعي الإلهية !! قال الحافظ في فتح الباري (ج ١ ص ٩١ - ٩٣) قال الخطابي : فإن قيل : كيف يجوز أن يجري الله الآية على يد الكافر ؟ فإن إحياء الموتى آية

== عظيمة من آيات الأنبياء ، فكيف ينالها الدجال وهو كذاب مفتر يدعي الربوبية ؟
 فالجواب : أنه على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق
 في دعواه ، وهوانه أعور مكتوب على جبهته كافر ، يقرؤه كل مسلم فدعواه داحضة مع
 وسم الكفر ونقص الذات والقدرة ، إذ لو كان إلهاً لأزال ذلك عن وجهه : وآيات الأنبياء
 سالمة من المعارضة فلا يشتبهان . ثم نال الحافظ بعد كلام الخطابي ، وفي الدجال دلالة بينة
 لمن عقل على كذبه ، لأنه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصنعة فيه ظاهر ، مع ظهور
 الآفة به من عور عينه ، فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم فأمرأ حال من يراه من ذو العقول
 أن يعلم أنه لم يكن ليسوي خلق غيره وبعدله ويحسنه ، ولا يدفع النقص عن نفسه .
 وقد قال القاضي عياض : في هذه الأحاديث حجة لأهل السنة في صحة وجود الدجال ،
 وأنه شخص معين ، يبتلي الله به العباد ويقدره على أشياء كإحياء الميت الذي يقتله ، وظهور
 الحصب والأهمل ، والجنة والنار ، وإتباع كنوز الأرض له ، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى ، ثم
 يمجزه الله فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ثم يبطل أمره ويقتله عيسى بن
 مريم عليه الصلاة والسلام . وقال الشيخ أبو بكر بن العربي : الذي يظهر على يد
 الدجال من الآيات : من إنزال المطر والحصب على من يصدقه ، والجذب على من
 يكذبه ، وإتباع كنوز الأرض له ، وما معه من جنة ونار ومياه تجري ، كل ذلك بمنة
 من الله واختبار يهلك المرتاب وينجو المتيقن ، وذلك كله أمر عظيم ، ولهذا قال صلى
 الله عليه وسلم : لا فتنة أعظم من فتنة الدجال . وقال القرطبي في تفسيره (جزء ١ ص
 ٢٩٧) : قال علماؤنا من أظهر الله على يديه - ممن لبس بنبي - كرامات وخوارق
 العادات ، فليس ذلك دالاً على ولايته ، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة . ثم استدلل على
 ما قال : بأن لا نقطع بهذا الذي جرى الحارق على يديه أن يوافي الله تعالى بالإيمان ،
 وهو لا يقطع لنفسه بذلك . وقال ابن كثير في تفسيره (ج ١ ص ٧٨) : وقد استدلل
 بعضهم على أن الحارق قد يكون على يد غير الولي ، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر
 أيضاً ، بما ثبت بالأحاديث عن الدجال بما يكون على يده من الخوارق الكثيرة ، من==

● وعصمة الباري لكل حتما : لما كان الجمهور على وجوب عصمتهم عليهم الصلاة والسلام بما ينافي مقتضى المعجزة ، إذ أنها تقتضي الصدق في دعوى النبوة ، وما يتعلق بها من التبليغ وشرعية الأحكام ، قال : حم أيها المكلف عصمة الباري لهم ، أي اعتقد أن عصمة الباري لكل واحد من الأنبياء والملائكة واجبة ، فلا تنفك ، ولا تقبل الإنتفاء بحال . وإنما تعرض للعصمة - هنا - رغم سبق بحثها لإدخال الملائكة في حكمها والإتصاف بها مع الأنبياء .

والعصمة لغة : مطلق الحفظ ، واصطلاحاً : حفظ الله تعالى للمكلف من الذنب مع استحالة وقوعه ، وبهذا المعنى لا يجوز أن نألها ، أما إن أريد معناها اللغوي فجائز . وما جاء عن هاروت وماروت فمن أكاذيب اليهود وافتراءاتهم ، ولم يصح فيه شيء من الأخبار ، وقد قيل إنها كانتا صالحين ومهما ملكين تشبيهاً .

== أنه يأمر السماء أن تمطر فتطر والأرض أن تثبت فتثبت، وتنبه كنوز الأرض مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يجيبه إلى غير ذلك من الأمور المبولة . وقال يونس بن عبد الأعلى الصدقي : قلت للشافعي : كان الليث بن سعد يقول : إذا رأيت الرجل يمشي على الماء فلا تفتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة ، فقال الشافعي قصر الليث رحمه الله ، بل إذا رأيت الرجل يمشي على الماء وبطير في الهواء فلا تفتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .

٦٩- وَخَصَّ خَيْرُ الْخَلْقِ أَنْ قَدْ تَمَّ بِهَ الْجَمِيعَ رَبُّنَا وَعَمَّا

وخص : أي وخص الله خبر الخلق محمداً ﷺ بأن ختم به جميع الأنبياء .
قال تعالى : « وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » .

ويلزم منه ختم المرسلين ، لأنه لما ختم الأعم دل على ختم الأخص . وأما
سيدنا المسيح فنزوله آخر الزمن لا بشكل ، لأنه سيحكم بشريعة نبينا ﷺ ،
ولا بشكل أنه حين نزوله سيحكم برفع الجزية عن أهل الكتاب ، ولا
يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف^(١) وخصائص النبي محمد ﷺ لا تعد ،
وقد ذكر المصنف - هنا - المهم منها فقال :

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« والذي نفسي بيده لبوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر
الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية . ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » . هداية
البارى ج ٢ ص ٢٨٠ ، والمراد من وضع الجزية رفعها لا فقريرها ، إذ لا يقبل من أحد
جزية ، فإما الإسلام أو القتل . ويكون حين ينزل مكلفاً بأحكام شريعة نبينا
محمد صلى الله عليه وسلم ، وحكماً من حكام ملته بين أهل ملته بما حله في الساء قبل نزوله
من شريعة الإسلام ، كما في الأثر .

٧٠- بِعَثْتُهُ فَشَرَعُهُ لَا يُنْسَخُ بِغَيْرِهِ حَتَّى الزَّمَانُ يُنْسَخَ

بعثته : أي وخص أيضاً بأن هم الله بعثته ^(١) ، فالتعميم للرسالة مقصور عليه ﷺ لا يتعداه إلى غيره ، فهو مرسل إلى جميع المكلفين من الثقلين إرسال تكليف اتفاقاً ، وأما الملائكة فالأصح أنه أرسل إليهم إرسال تشریف . وما كاف به الإنس تفصيلاً وإجمالاً فقد كاف به الجن كذلك ، وشمل ذلك يأجوج ومأجوج ، وهم أولاد يافث بن نوح ، وقيل غير ذلك ^(٢)

قَالَ تَعَالَى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ » ^(٣) .
وَقَالَ أَيْضاً : « وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » ^(٤) .
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً » .

(١) بعثته : مفعول لعمم في عجز البيت السابق ، أي عم بعثته لجميع الخلائق .
(٢) قال ابن كثير في تفسيره ص (١٠٣) عن يأجوج ومأجوج م من سلالة آدم كائنت في الصّحّاحين (إن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول إبعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة . فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها . فقال - أي الرسول صلى الله عليه وسلم - : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتا .
(يأجوج ومأجوج) .

(٣) سبأ ٢٨ .

(٤) نون ٥٢ .

فنفكر عموم بعثته كافر . وقد رد في ذلك على العيسوية ، وهم بفرقة يودية زعمت تخصيص رسالته ﷺ بالعرب .

● فشرعه لا ينسخ : إذا علمت أنه خاتم النبيين وأن بعثته عامة فاعلم أن شرعه لا ينسخ بغيره لا كلاً ولا بعضاً . والشرع - لغة - هو البيان . واصطلاحاً : هو الأحكام الشرعية . والنسخ - لغة - هو الإزالة والنقل . ومنه نسخت الشمس الظل : أي أزالته ، ونسخت الكتاب : أي نقلته ، واصطلاحاً : رفع حكم شرعي بدليل شرعي . والمراد بالرفع : إنقطاع تعلقه بالمكلفين لأنه خطاب الله تعالى ، ويستحيل رفعه لأنه قديم بخلاف التعلق فلا يستحيل رفعه لأنه حادث .

● حتى الزمان ينسخ : فشرعه ﷺ مستمر - رغم أنف الكافرين - إلى نسخ الزمان ، أي حتى يزال الزمان ويرفع بحضور يوم القيامة ، لقوله ﷺ : « كُنْ تَوَالِ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةٌ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ - يعني الدين الحق - لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ » . وفي رواية للترمذي أنه قال :

« لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ يَخْذُلُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ » ^(١) .

والمقصود بأمر الله : أي الساعة . فشرعه يبقى حتى قرب الساعة ، لأن المؤمنين يموتون قبلها بربيع ليلة ^(٢) .

(١) الترمذي ج ٧ رقم ٣٢٣٠ .

(٢) روى الإمام مسلم في صحيحه عن النّوّاس بن سمعان حديثاً طويلاً حول الدجال ونزول السيد المسيح وأجوج ومأجوج ، ثم قال في هجره بعدما ذكر شيوع الخبر في الأرض « فبينما هم كذلك إذ بعث الله رجلاً طيباً فتأخّذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يهاجرون فيها تهاجرج الحمر فعليم تقوم الساعة » .

٧١- وَنَسَخَهُ لِشَرْعٍ غَيْرِهِ وَقَعَ حَتْمًا أَذَلَّ اللَّهُ مَنْ لَهُ مَنَعٌ

٧٢- وَنَسَخَ بَعْضَ شَرْعِهِ بِالْبَعْضِ أَجْزُ وَمَا فِي ذَا لَهُ مِنْ غَضٍّ

● ونسخه لشرع غيره وقعه * حتماً : أي قد وقع بشكل متعمد
نسخ شرع نبينا ﷺ لشرع كل نبي غيره وبدل على ذلك قوله تعالى :
« وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ
فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ^(١) .

مع أحاديث كثيرة بلغت جملتها مبلغ التواتر . فالنسخ واقع سماعاً بإجماع
المسلمين ، خلافاً لليهود والنصارى الزاعمين أن شرعه ﷺ لم ينسخ شرع
أحد من الأنبياء توسلاً للقول بنفي نبوته ، واحتجوا بأن النسخ يلزم منه
ظهور مصلحة كانت خافية على الله تعالى . فدحضت بأن المصلحة تختلف
بحسب الأزمنة .

● أذل الله من له منع : هذا دعاء على الماتعين للنسخ ، أي ألحق الله الذل
باليهود والنصارى ومن تبعها على هذا .

● ونسخ بعض : أي مما ينبغي اعتقاده جواز نسخ بعض الشرع
ببعض الآخر جوازاً وقوعياً ، لوقوعه بالفعل . نعم : معرفة الله تعالى ،
وتحريم الكفر لا ينسخان ^(٢) . وقد منع بعضهم - كأبي موسى الأصفهاني -
أن ينسخ بعض القرآن بعضه الآخر احتجاجاً بقوله تعالى :

(١) آل عمران ٨٥ .

(٢) وكذلك كل ما يتناقض بأمر العقيدة من مسائل ، فهي لا تنسخ .

« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ »^(١).

والصحيح الجواز لأن الضمير فيه - لا يأتيه - إنما يعود لمجموع القرآن ، ومجموعه لا ينسخ اتفاقاً ، فالحاصل أن الكلام في مقامين : مقام جواز ومقام وقوع ، فمن حيث الجواز - عقلاً - يجوز نسخ الشريعة كلاً أو بعضاً ، وأما من حيث الوقوع فلا يجوز نسخ الجميع جوازاً وقوعاً .

• وما في ذالهِ من غرض : أي ليس في تجويز النسخ من نقص له يقتضي امتناعه^(٢) ، ودخل في تجويز النسخ :

أولاً - نسخ الكتاب بالكتاب ، كما في قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْخَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ »^(٣).

فإنه منسوخ بقوله تعالى :

« الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا »^(٤).

(١) فصلت ٤٢ .

(٢) ما في ذا : أي ليس غرض في هذا ، فإ : نافية لا عمل لها ، من غرض : من

حرف بحر زائد وغرض اسم مجرور لفظاً مرفوع محلاً مبتدأ ، في هذا :

متعلقان بخبر المبتدأ .

(٣) البقرة ٢٤١ .

(٤) البقرة ٢٣٥ .

لتأخوه نزولاً وإن تقدم تلاوة .

ثانياً : نسخ السنة بالسنة ، كما في حديث :

« كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ ، فَزُورُوهَا »^(١) .

فإنه نسخ النهي الذي وقع منه ﷺ أولاً بالأمر في هذا الحديث .

ثالثاً : نسخ السنة بالكتاب ، كما في استقبال بيت المقدس الثابت

بالسنة ، فإنه نسخ باستقبال الكعبة الثابت بقوله تعالى :

« قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ »^(٢) .

رابعاً : نسخ الكتاب بالسنة ، كما في قوله تعالى :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا

الْوَصِيَّةُ لِلْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ »^(٣) .

فإنه نسخ بحديث :

« لَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ »^(٤) .

خامساً : نسخ التلاوة والحكم جميعاً ، كما في نحو (عشر رضاءات

معلومات محرمن)^(٥) ، فإنه كان مما يتلى فنسخ به (خمس معلومات محرمن) .

(١) رواه الترمذي برقم ١٠٥٤ ج ٤ وقال حديث حسن صحيح .

(٢) البقرة ١٤٩ .

(٣) البقرة ١٨٠ .

(٤) رواه الترمذي في حديث طويل برقم ٢١٢١ ج ٦ .

(٥) روى الشيخان عن عائشة قالت : كان فيما أنزل عشر رضاءات .

معلومات فنسخن بخمس معلومات . وقال أبو موسى الأشعري : نزلت .

ثم رفعت . الإثنتان من ٢٢ ج ٢

ثم نسخ هذا النسخ - عندنا تلاوة لاحكاماً ، وعند المالكية تلاوة وحكاماً .

سادساً : نسخ التلاوة دون الحكم ، كما في نحو :

« الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » . (١) .

فإنه كان مما يتلى ، فنسخ تلاوة لاحكاماً .

سابعاً : نسخ الحكم دون التلاوة كما في آية :

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ » .

المر ذكرها ، والحق أن النسخ لا يكون إلا إلى بدل ، كما قاله الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه خلافاً لمن جوزوه في البديل وغيره ، كما في قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ » .

وقوله : « الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ » . (٢) .

فهذا نسخ إلى بدل ، وأما الذي إلى غير بدل فكما في قوله تعالى :

(١) آية الرجم روي عن زر بن حبیش . الإثقان ص ٢٥ ج ٢ .

(٢) الأنفال ١٦٥ - ١٦٦ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَأَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ
يَدَيْهِ تَبَجُّوا كُمْ صَدَقَةٌ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ
تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ^(١)

فإن وجوب تقديم الصدقة نسخ بلا بدل ، وقال المانعون : بل إلى بدل
بأن بدل وجوب تقديم الصدقة هو جواز التصديق أو استجابته فلم
يقع بلا بدل أصلاً .

٧٣ - وَمُعْجَزَاتُهُ كَثِيرَةٌ غُرِرَ مِنْهَا كَلَامُ اللَّهِ مُعْجِزُ الْبَشَرِ

● ومعجزاته : الغرض هنا التنبيه على كثرة معجزاته ﷺ ووضوحها ووصفها بالكثرة المطلقة إيماء للعجز عن الإحاطة بها . والمعجزة هي تأييد الله تعالى للأنبياء . ومفهومها الأمر الخارق للعادة الظاهر على يده ﷺ ، سواء كانت مقرونة بالتحدي أم لا . ومعجزاته ﷺ واضحة مشهورات . وما كان منها معلوماً بالقطع منقولاً بالتواتر - كالقرآن الكريم - فلا شك في كفر منكره ، وما لم يكن منها كذلك ، فإن اشتهر - كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ - فسق منكره ، وإن لم يشتهر وثبت بطريق صحيح أو حسن ، غُرِرَ منكره . فقد جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أنه قال :

رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَانَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ وَالتَّمَسَّ النَّاسُ الْوَضُوءَ فَلَمْ يَجِدُوهُ ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَضُوءٍ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الْإِنَاءِ فَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّؤُوا مِنْهُ ، فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ أَصَابِعِهِ وَأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ حَتَّى تَوْضَأَ الْقَوْمُ .

قال راويه قلنا لأنس : كم كنتم ؟ قال : كنا ثلاثمائة . ونبع الماء كان في غزوة تبوك ، وفي يوم الحديبية ، وفي غزوة بواط ، وفي مواطن كثيرة ، ولم يسمع بمثله هذه المعجزة لغيره ﷺ ، وهذا الماء هو

أشرف المياه . ومن معجزاته انشقاق القمر ففي الصحيحين وغيرهما ، وله طرق شتى بحيث لا يمتري في تواتره ، عن ابن مسعود أنه قال :

« بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ انْشَقَّ الْقَمَرُ فَلَقَتَيْنِ ، فَكَانَتْ فَلَقَةً وَرَاءَ الْجَبَلِ وَفَلَقَةً دُونَهُ ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِشْهَدُوا» .

وقال كفار قريش : « هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق أروا مثل هذا أم لا ؟ فأخبر أهل الآفاق بأنهم رأوه منشقاً . فقال كفار قريش : هذا سحر مستمر » . وقد انشق وهو في السماء ، وإن كان قد بسق إلى الوم أنه نزل منها إلى الجبل . ومنها تسليم الحجر والشجر عليه ﷺ فقد روى الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه قال :

« كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَكَّةَ فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ » .

ومنها تسبيح الحصى في كفه ، فقد روى البزار والطبراني في حديث أبي ذر أنه قال :

« كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصَى فَسَبَّحَنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْنَا التَّسْبِيحَ ، ثُمَّ صَبَّحَنَ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ فَسَبَّحَنَ ، ثُمَّ فِي يَدِ عُمَرَ فَسَبَّحَنَ ، ثُمَّ فِي

يَدُ هُذَمَانَ فَسَبَّحْنَ ، ثُمَّ صَبَّهْنَ فِي أَيْدِيهَا فَحَا سَبَّحْنَ ، .
وقد أخرج البخاري من حديث ابن مسعود قال :

« كُنَّا نَأْكُلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ .
وأما حين الجُدع الذي هو ساق النخلة فحديث مشهور متواتر ، فقد
أخرجه أهل الصحيح ، ورواه من الصحابة بضعة عشر رجلاً ، وقال عنه
القاضي عياض إنه مشهور منتشر ، والخبر به متواتر ، وهو أنه :

« كَانَتْ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُصَنَعَ لَهُ الْمِنْبَرُ يَخْطُبُ عِنْدَهُ ، فَلَمَّا
صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ انْتَقَلَ إِلَيْهِ ، فَسَمِعَ لَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ فِي
الْمَسْجِدِ حَيْنًا وَصَوْتًا عَظِيمًا حَتَّى كَادَ أَنْ يَنْشَقَّ أَصْفَا
عَلَى فِرَاقِهِ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ ، فَصَارَ يَشْنُ أَنْيْنَ الصَّبِيِّ
الَّذِي تَضُمُّهُ أُمُّهُ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا التَزَمَهُ سَكَتَ ، ثُمَّ قَالَ
ﷺ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْنَاهُ لَمَا زَالَ
مَكَذَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ حُزْنًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،
فَأَمَرَ بِهِ فَدُفِنَ تَحْتَ الْمِنْبَرِ ^(١) . »

وكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى وقال : يا عباد الله الحشبة
نحن إلى رسول الله ﷺ فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقاءه .

(١) انظر الحديث رقم ١٨٢٨ رياض الصالحين .

ومنها رد عين قتادة رضي الله عنه حين سألت على خده ، وذلك :
أنه كان ينقي بوجه السهام عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد ، فأصاب
عينه سهم فسالت على خده فأخذها بيده وسعى بها إلى رسول الله ﷺ ،
فلما رآها في كفه دمعت عيناه وقال :

« إِنِّ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكَ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ شِئْتَ رَدَدْتَهَا ،
وَدَعَوْتُ اللَّهَ لَكَ فَلَمْ تَقْدِرْ مِنْهَا شَيْئاً ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ
إِنَّ لِي إِمْرَأَةً أَحْبَبْتُهَا وَأَخْشَى أَنْ رَأَيْتَنِي أَنْ تَقْدُرَنِي فَأَخَذَهَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَدَّهَا إِلَى مَوْضِعِهَا وَقَالَ : « اللَّهُمَّ اكْسُهُ جَمَالاً
فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ وَاحِدٌ نَظَرًا ، وَكَانَتْ لَا تَرْمُدُ إِذَا
رَمِدَتِ الْآخَرَى » .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ : « أَنَّ سَلَمَةَ بْنَ الْحَكَمِ أُصِيبَ يَوْمَ خَيْبَرَ
فِي سَاقِهِ بِضَرْبَةٍ ، فَفَنَفَتْ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ نَفَاثٍ
فَمَا اسْتَكَاها قَطُّ » .

وَذَكَرَ الْقَاضِي عِيَّاضُ فِي الشِّفَاءِ عَنْ ابْنِ وَهْبٍ : « أَنَّ أَبَا
جَهْلٍ قَطَعَ يَوْمَ بَدْرٍ يَدَ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ فَبَجَاءَ يُحْمِلُ يَدَهُ
فَنَفَتْ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالصَّقَهَا فَلَصِقَتْ » .

وَوَدَّى الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ : « أَنَّهُ ﷺ دَعَا رَجُلًا إِلَى الْإِسْلَامِ
فَقَالَ : لَا أَوْمِنُ بِكَ حَتَّى تُنْصِيحَ لِي لِابْنَتِي ، فَقَالَ ﷺ :
أَرِنِي قَبْرَهَا ، فَأَرَاهُ إِيَّاهُ ، فَقَالَ ﷺ : يَا فُلَانَةُ ، فَقَالَتْ :
كَيْنِكَ وَسَعْدَيْكَ ، فَقَالَ ﷺ : أَتُحِبِّينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى الدُّنْيَا ؟
فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي وَجَدْتُ اللَّهَ خَيْرًا لِي مِنْ
أَبَوَيَّ ، وَوَجَدْتُ الْآخِرَةَ خَيْرًا لِي مِنَ الدُّنْيَا . »

وَوَدَّى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ : « أَنَّ جَبَلَ أَحُدٍ رَجَفَ فَرَحًا
وَالرَّسُولُ ﷺ عَلَيْهِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَوُ وَعُثْمَانُ ، فَضَرَبَهُ
بِرِجْلِهِ وَقَالَ لَهُ : أَتُبْتُ أَحَدًا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ
وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ . »

وَعَنْ أَبِي زَيْدٍ عَمْرُو بْنُ أَهْطَبِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ . قَالَ :
صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ ، وَصَعِدَ الْمَنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتْ
الظُّهْرُ ، فَتَزَلَّ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمَنْبَرَ فَخَطَبَ حَتَّى حَضَرَتْ الْعَصْرُ ، ثُمَّ تَزَلَّ
فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمَنْبَرَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرَنَا مَا كَانَ وَمَا هُوَ
كَائِنْ ، فَأَعْلَمْنَا أَحْقَظُنَا .^(١)

● مِنْهَا كَلَامُ اللَّهِ : قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى يُطْلَقُ عَلَى الصِّفَةِ
الْقَدِيمَةِ ، وَعَلَى الْفِعْلِ الْمَنْزُولِ الْمُتَعَبَّدِ بِتِلَاوَتِهِ ، الْمُتَعَدَّى بِأَقْصَرِ سُورَةٍ مِنْهُ ،

(١) رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ ، وَفِي رِيَاضِ الصَّالِحِينَ بِرَقْمِ ١٨٥٨ . ص ٤٥٦ كِتَابُ
النُّشُورَاتِ وَالْمَلَحِ .

كما يُطْلَق عليها القرآن الكريم ، لكن قد غلب كلام الله في الصفة القدسية ،
والقرآن في اللفظ المنزل ، وهو المراد هنا وقد نص عليه بخصوصه لأنه
أفضل معجزاته ﷺ وأدومها لبقائه إلى يوم القيامة .

● معجز البشر : أي مصيرهم عاجزين عن معارضته والإنسان بمثله
بل كل المخلوقات كذلك إجماعاً ، قال تعالى :

« قُلْ لِّمَنِ انْجَتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً »^(١) .

وخص الأنس والجن لأنه يتصور منها المعارضة ، بخلاف الملائكة
لعصمتهم . وخص الناظم البشر وخدم لأنهم الذين تصدوا لذلك فعلاً .
وقد وقع اختلاف فيها يقع به الإعجاز من أبعاضه ، وفي وجه الإعجاز .
والمعتمد أن أقله وهو أقصر سورة منه ، أو ثلاث آيات يقع بين الإعجاز
وكذا الآية الطويلة معجزة كالثلاثة . وأما الاختلاف في وجه الإعجاز فعلى قولين
الأول : يكون الله صرفهم عن الإنسان بمثله مع كونهم قادرين
على ذلك ويسمى القول بالصرقة ، وهو مذهب إليه المعتزلة .

والثاني : وهو مذهب إليه الجهود ، أن وجه إعجازه كونه في أعلى طبقات
البلاغة والفصاحة مع اشتغاله على الإخبار بالمغيبات ودقائق العلوم وأحوال المبدأ
والمعاد وغير ذلك بما لا يحصى ، وهذا هو الصحيح في وجه الإعجاز^(٢) .

(١) الإسراء ٨٨ .

(٢) إن بلاغة القرآن لا جدال فيها ، حتى لغير فقيه بها ، ولو كان الإعجاز
بالصرقة لكان الأنسب ترك بلاغته ، فإنه إذا كان غير بليغ ولم يقدر على معارضته
كان أظهر في خرق العادة به ، (هذا ما ذكره صاحب المسلمة) وشيخ آخر هو =

« أن فصحاء العرب إنما كانوا يتصحبون من حسن نظمهم وبلاغتهم وسلطانهم وجزالة »
ويرقصون رؤوسهم عند سماعه ، وإن أشرافهم مع كل حذاقهم في أسرار الكلام وحرطه
هداوتهم للإسلام لم يجدوا فيه للطعن مجالاً بل نهضوا إلى المعركة على ماهر دأب المجوح
المهتوت تمجداً من فصاحتهم وحسن نظمهم وبلاغتهم ، وإن ذكر الإجماع والإستظهار بين
الإنس والجن في مقام التحدي إنما يحسن حيناً لا يكون مقدوراً للبعض ، ويتوهم كونه
مقدوراً للكل فيضبه نفي ذلك ، (هذا ما ذكره السعد في شرح المقاصد) وقد قال القرطبي
إن إجماع الأمة قبل حدوث الخالف أي القائل بالعروة أن القرآن هو المعجز .

ووجوه إهجازة عديده تكشف لنا على مر الأيام :

« منها : النظم البديع الخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها » فقد
روى : أن الوليد بن المغيرة جاء حتى أتى قريشاً فقال : إن الناس يجتمعون ضلماً
في الموسم ، وقد فشى أمر هذا الرجل بالناس ، فهم سائقونكم عنه ، فإذا تودون عليهم ؟
فقالوا : مجنون يخنق ، فقال : يا قومه فيكلمونه فيجدونه صحيحاً فصيحاً عادلاً فيكذبونكم .
قالوا نقول : هو شاعر ، قال : هم العرب وقد روى الشعر ، وفيهم الشعراء ، وقوله
ليس يشبه الشعر ، فيكذبونكم . قالوا : نقول هو كاهن ، قال : إنهم لقوا العكران فإذا
سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة . ثم انصرف إلى منزله ، فقالوا : حباً الوليد ، ولكن
صبأ لا يبقى أحد إلا صبأ ، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل : أأنا أكلمكم به . قال فألقاه
عزراً فقال : مالك يا بن أخ ؟ قال : هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك
تستعين بها على كبرك وحاجتك ، قال : أولست أكثر قريش مالاً ؟ قال : بلى ، ولكنهم
يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه . قال : والله ما يشبهون من
الطعام لكيف يكون لهم فضل ؟ ثم أتى قريشاً فقال : أتزعرون أهد صبأت ولعمري ما صبأت
إنكم قلتم : محمد مجنون وقد ولد بين أظهركم ، لم يغب عنكم ليلة ولا يوماً ، فهل
رأيتوه يخنق قط ؟ فكيف يكون مجنوناً ؟ وقلتم : شاعر وأنتم شعراء ، فهل منكم أحد
يقول ما يقول ؟ وقلتم كاهن ، فهل حدثكم عهد في شيء يكون في غد إلا أن يقول إنه
شاه الله ؟ قالوا : فكيف نقول يا أبا المغيرة ؟ قال : أقول هو ساحر . فاجتمع رأيهم =

== على ذلك وأن يردوا الناس عنه به، وقد روى محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن حنبل بن ربيعة - وكان سيداً حليماً - قال يوماً : ألا أقوم إلى محمد فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل منها بعضها فتعطيها أيها شاء ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يكثرُونَ ، قالوا بلى يا أبا الوليد ، فقام إليه - وهو صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده - فقال : يا ابن أخي ، إليك مناجيت طلت من السطة في العشيبة والمكان في النسب ، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرق بين جماعتهم وسفقت أحلامهم ، وعبت ألفتهم ، وكفرت من مضى من آباءهم ، فاصبر معي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قل ، قال : إن كنت إنما تريد المال بما جئت به من هذا القول ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سوداك حتى لا تقطع أمراً جودك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كنت هذا الذي بك رثياً لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطلب وبذلنا فيه أموالنا حتى نفوتك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يدأوى منه ، حتى إذا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوم قد فرغت ؟ قال : نعم قال : فاصبر معي ، قال : قل ، قال : (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) . . ثم مضى فيها يهروها ، فلما سمع حنبل أنصت له وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها ، حتى انتهى منها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد ، ثم قال له : قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك . فقام حنبل إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس قالوا : ما وراءك ؟ قال : ورأيت أني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط ، وما هو بالشعر ، ولا السحر ، ولا الكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، واحتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت لباً ، فإن تعصب العرب ، فقد كلفتموه بغيركم . وإن يظهر على العرب به فلكم ملككم وكفتم أسعد الناس به ، قالوا ==

سحرك بلسانه ، قال : هذا رأيي ، فاصنعوا ما بدا لكم . وقد جاء في حديث أبي ذر في سبب إسلامه أنه قال : قال لي أخي أنيس : إن لي حاجة إلى مكة فانطلق فرائث ، فقلت : ما حبسك ؟ قال لقيت رجلاً يقول : إن الله تعالى أرسله . فقلت : فأي قول الناس ؟ قال : يقولون شاعر ساحر كاهن . قال أبو ذر : وكان أنيس أحد الشعراء ، قال : قاله لقد وضعت قوله على أقرء الشعراء فلم يلتئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة ، فاهو بقولهم ، والله إنه لصادق وإنهم لسكاذبون .

ويكفي في شهادة هؤلاء دلالة على سمو نظم القرآن .

* ومنها الأسلوب الفذ المخالف لجميع أساليب العرب . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتيوا بسورة من مثله فمجزوا عنه وانقطعوا دونه . وقد بقي صلى الله عليه وسلم يطالبهم به مدة عشرين سنة ، مظهرًا لهم التكبر ، زارياً على أديانهم ، مسقياً آراءهم وأحلامهم ، حتى تابذوه وناصبوه الحرب ، فهلك فيهم النفوس ، وأربقت المهج ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال . ولو كان في وسعهم وتحت إقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل من القول إلى الوعر من الفعل ، هذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذول لب . وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام ووفارة العقول والألباب . وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلتون . وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللد فقال سبحانه : « ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون » . وقال سبحانه : « لتنذر به قوماً لهم » فكيف كان يجوز أن يفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه وأن يضربوا عنه صفحاً ، ولا يجوزوا الظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والمعجز المانع منه . ومعلوم أن رجلاً عاقلاً لو عطش عطشاً شديداً خاف منه الهلاك

== على نفسه ، وبحضرته ماء معرض للشرب لم يشربه حتى هلك عطشاً لحكنا أنه حاجز عن شربه غير قادر عليه . أقول : فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ، وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبية والهمم العلية ، والألفة والحمية من يدعي النبوة ، ويتخير أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ به كل شريعة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقاً وغرباً ، وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، إلى آخر ما صدع به صلى الله عليه وسلم ثم يقول : وحجتي أن الله تعالى قد أنزل علي كتاباً عربياً مبيناً ، تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة ، ولو جهدتم جهدكم واجتمع معكم الجن والإنس ، ثم لا تدعوم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبينوا سرفه في دعواه .

١* ومنها الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال ، وحسن البيان البالغ ذروة الكمال وتأمل ذلك في سورة : « ق ، والقرآن المجيد » إلى آخرها ، وفي غيرها من السور ، نجد القرآن كله في النهاية من حسن البيان ، فن ذلك قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم » ، فهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الإختار بالإهمال وقال سبحانه : « إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » وقال : « إن المتقين في مقام أمين » ، فهذا من أحسن الوعد والوعيد . وقال : « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال : من يحيي العظام وهي رميم . قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » ، فهذا أبلغ ما يكون من الحجاج . وقال : « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين » ، فهذا أشد ما يكون من التقريع . وقال تعالى : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » ، فهذا أعظم ما يكون من التحسير ، وقال : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » ، وهذا أدل دليل على العدل من حيث لم تكن قبائحهم على طريق الجبر ، وقال تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ، وهذا أشد ما يكون من التنفير عن الخلعة إلا على التقوى . وقال تعالى : « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » ، ففي هذه الآية أشد أنواع التحذير من التفريط ، وقال تعالى : « أفن يلقى في النار خير أم ==

== من يأتي آمناً يوم القيامة ، وهذا أشد ما يكون في التبعيد . وقال عز وجل : « إعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » ، وهذا أشد ما يكون من الوعيد . وقال جل جلاله : « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل » ، وهذا أشد ما يكون من التحسير . وقال جل جلاله : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون » ، وهذا أشد ما يكون في التقريع من أجل التادي في الباطل . وقال أيضاً : « يعرف الجرمون بسياهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » ، وهذا ألم ما يكون من الأغلال . وقال أيضاً : « هذه جهنم التي يكذب بها الجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن » ، أرأيت إلى هذا التقريع ؟¹⁷ . وقال : « فيها مائشتهي الأنفس وتلك الأعين وأدم فيها خالدون » ، فا أياه من ترغيب ! . وقال : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » . وقال : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » ، وهذا أبلغ ما يكون من الحجاج ، وهو الأصل الذي عليه الإعتماد في صحة التوحيد .

* ومنها : التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي ، حتى يقع منهم الإتفاق على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه .
* ومنها : الإخبار — من أمي — عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله ، « وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه يمينه » ، فعلم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا من تأيد بالوحي .

* ومنها : الوفاء بالوعد ، المدرك بالحس في العيان ، في كل ما وعد الله سبحانه .
* ومنها : الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي . فمن ذلك ما وعد الله نبيه أنه سيظهر دينه على الأديان كلها . وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيشه عرفهم ما وعد الله في إظهار دينه لينتصروا بالنصر وليستبقنوا بالنجح وكان عمر يفعل ذلك ، فلم يزل الفتوح يتوالى شرقاً وغرباً ، برأً وبحراً . قال تعالى : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد ==

• • • • •

== الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » ، فكان الأمر كما وعد من الظفر بإحدى الطائفتين — الغير التي كان فيها أبوسفيان ، أو الجيش الذين خرجوا يحمونها من قريش — فأظفرهم الله عز وجل بقريش يوم بدر على ما تقدم به الوعد. وقال أيضاً : « ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض ، وم من بعد غلبهم سيفليون » . وقال : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » وقال : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . وقال عز وجل : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مخلفين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون » . وقال : « وعدكم الله مغام كثيرة فأخذونها فغفل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم » . وقال : « وأخرى لم تقدر واعليها قد أحاط الله بها » . وناهيك بقوله تعالى في أول البعثة في أي لب : « سيصلن نارا ذات لب » ، فدل على أنه لن يؤمن ، ولقد مات كافراً ، فبذه كلها إخبار عن الغيوب لا يقف عليها إلا رب العالمين ، أو من أوقفه عليها سلام الغيوب ، فدل على أنه تعالى قد أوقف رسوله عليها لتكون دلالة على صدقه .

* ومنها : ما تضمنته القرآن من العلوم التي هي قوام الحياة لجميع البشر ، في الحلال والحرام ، وفي سائر الأحكام الناطمة لجميع شؤون الحياة .

* ومنها : الحكم البالغة التي لم تصدر في كثيرها وشرفها من آدمي .

* ومنها التناسب في جميع ما تضمنته ظاهراً وباطناً ، ومن غير اختلاف فيه .

٧٤- واجزم بمِعْراجِ النَّبِيِّ كَمَا رَوَوْا وَبَرِّئْنِ لِعَائِشَةَ بِمَا رَمَوْا

● واجزم بمِعْراجِ النَّبِيِّ كَمَا رَوَوْا: أي اعتقد اعتقاداً جازماً بعروج النبي ﷺ وصعوده إلى السموات السبع إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء الله بعد الإسماء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حال كون العروج الذي جازمت به مثل الذي رواه أهل الحديث والتفسير والسير . وقد استغنى الناظم بذكر المعراج عن الإسماء لشهرة إطلاق أحد الإسمين على ما يعبر مدلولهما ، وهو سيره ﷺ ليلاً إلى أمكنة مخصوصة على وجه خارق للعادة . والحق أنه كان يقظة روحاً وجسداً خلافاً لمن قهره على المنام . والإسماء ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، فمن أنكره كفر ، وأما المعراج فثابت بالأحاديث المشهورة من المسجد الأقصى إلى السموات السبع ، ومنها إلى الجنة ، ثم إلى المستوى أو العرش وبخبر الواحد ، لذا لا يكفر منكره بل يفسق . والتحقيق أنه لم يصل إلى العرش .

● وبرِّئْنِ لِعَائِشَةَ بِمَا رَمَوْا : أي اعتقد وجوباً براءتها بما رماها به المنافقون من الإفك - وإن الذي تولى كبره وأشاعه منهم هو عبد الله بن أبي بن سلول - لعنه الله - وسلول اسم أمه - وقد جاءت براءتها في القروآت الكريم ، وانعقد عليها إجماع الأمة ، ووردت بها الأحاديث الصحيحة ، فمن جحدتها ، أو شك فيها ، كفر . قال السهيلي : إن من نسب عائشة رضي الله عنها إلى الفاحشة كان كافراً ، لأن ذلك تكذيب للنصوص القرآنية .

٧٥- وَصَحْبُهُ خَيْرُ الْقُرُونِ فَاسْتَمِعْ فَتَابِعِي فَتَابِعِي لِمَنْ تَبِعْ

● وصحبه خير القرون : أي فأفضل القرون المتقدمة والمتأخرة - ما خلا النبيين والرسل - أصحابه . وقد ورد في الحديث أنه قال :

« إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى الْعَالَمِينَ سِوَى لَتَيْبِينَ وَالْمُرْسَلِينَ » ،
وقال : « اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً مِنْ بَعْدِي ،
فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ
مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ » ^(١) .

وإن كان شرف الصعبة حاصلًا للجميع إلا أنه لا يخفى توجيع رتبة من
لازمه وقاتل معه وقتل تحت رايته ، على من لم يكن كذلك ومعنى
القرن : أهل زمان واحد متقارب اشتروا في أمر من الأمور المقصودة ،
كالصعابة ، فانهم اشتروا في الصعبة ، وهكذا من بعدهم وإنما سمى
قرناً لأنه يقرن أمة بأمة ، وعالمًا بعالم . واختلف في ساب الصعابي ،
فقال عياض : قال الجمهور يعزر ، وقال بعض المالكية يقتل ، وخص
بعض الشافعية ذلك بالشيخين والحسين ، وقواه السبكي ، فيمن كفر الشيخين ،
وفيمن كفر من صرح الرسول ﷺ بإيمانه ، أو بتبشيره بالجنة إذا تواتر
الخبر به .

● فتابعي : التابعي من اجتمع بالصعابي اجتماعاً متعارفاً ، ولا

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن ٣٨٦٠ ج ٩ .

يشترط طول الاجتماع كما لا يشترط في الصحابي مع النبي وإنما يشترط التمييز فيه دون الصحابي ، لكنهم اعتمدوا عدم اشتراطه أيضاً .

واختلف الناس في أفضل التابعين ، فأهل المدينة يقولون سعيد بن المسيب ، وأهل البصرة يقولون الحسن البصري ، وأهل الكوفة يقولون أويس القرني رضي الله عنهم . وقال بعض المتأخرين : الصحيح بل الصواب ما ذهب إليه أهل الكوفة ، لما روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

« سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أَوَيْسٌ » .

وأفضل التابعيات حفصة بنت سيرين .

● فتابع لمن تبع : أي تلي رتبة التابعين أتباعهم ، فتابع التابع يأتي في المرتبة بعد التابعي . وأصل هذه الرتبة قوله ﷺ :

« خَيْرُ لُحْيِي الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ ، وَيَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا »^(١) .

وقوله : « خَيْرُ كَمِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَنْذَرُونَ وَلَا يُؤْفَوْنَ ، وَيُظْهِرُ فِيهِمُ السَّمَنُ »^(٢) .

(١) رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة ، وفي شرح الجامع الصغير برقم ٥٥٣ ج ٤ ص ٣ .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن عمران بن حصين ، وفي شرح الجامع الصغير برقم

ويظهر من هذا أن ما بعد القرون الثلاثة سواء في الفضيلة . وذهب جماعة إلى أن كل قرن أفضل من الذي بعده إلى يوم القيامة ، لحديث :
 « ما من عامٍ إلا الذي بعده شرُّ منه ، حتى تلقوا ربكم »^(١).
 وعن مرداس الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ :
 « يذهب الصالحون ، الأول فالأول ، ويبقى حائلة كحالة الشعير أو التمر ، لا يُباليهم الله بآلة »^(٢).
 لكنه ورد عن أنس رضي الله عنه أنه قال :
 قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر لا يذري أوله خيرٌ أو آخره »^(٣).
 والعيان قاض بذلك .

(١) رواه الترمذي عن أنس بن مالك برقم ٢٢٠٧ ج ٦ .

(٢) رواه البخاري ، وفي رياض الصالحين برقم ١٨٢٥ .

(٣) رواه الترمذي برقم ٢٨٧٣ ج ٨ .

٧٦ - وَخَيْرُهُمْ مَنْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ وَأَمْرُهُمْ فِي الْفَضْلِ كَالْخِلَافَةِ

• وخيرهم من ولي الخلافة : أي أفضل الصحابة النفر الذي ولي الخلافة العظمى ، وهي النيابة عن النبي ﷺ في عموم مصالح المسلمين ، وقد قدر مدتها بقوله ﷺ :

« الْخِلَافَةُ بَعْدِي فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ » ^(١) .
وَبِقَوْلِهِ : « الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ ثُمَّ تَصِيرُ مُلْكًا عَضُودًا » .

أي ثلاثون سنة ثم بعدها يصبح ملكاً ذا عض وتضييق ، والنفر هم الخلفاء الأربعة ، فلقد تولاهما أبو بكر الصديق رضي الله عنه سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام . وتولاهما عمر رضي الله عنه عشرة سنين وستة أشهر وثمانية أيام . وتولاهما عثمان رضي الله عنه إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وتسعة أيام . وتولاهما علي رضي الله عنه وكرّم وجهه أربع سنين وتسعة أشهر وسبعة أيام ، فإلجموع تسعة وعشرون سنة وستة أشهر وأربعة أيام ، وبأيام الحسن بن علي رضي الله عنها تكمل المدة التي قدرها النبي ﷺ ، كذا حورده السيوطي . وإلى هذا التفضيل ذهب الجمهور .

• وأمرهم في الفضل كالخليفة : أي شأن الخلفاء الأربعة في ترتيبهم في الفضل بمعنى : كثرة الثواب على حسب ترتيبهم في الخلافة عند أهل السنة ، فأفضلهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم . ويدل على ذلك ما روي عن علي والزبير :

(١) حديث صحيح رواه الترمذي وأحمد وابن حبان ، وفي شرح الجامع الصغير برقم

قَالَ ﷺ : « خَيْرُ أُمَّتِي بَعْدِي أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ » ^(١) .
 وحديثُ ابنِ عمرَ : « كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْمَعُ :
 خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ
 ثُمَّ عَلِيٌّ ، فَلَمْ يَنْهَنَّا » ^(٢) .

وقد قال السعد : على هذا وجدنا الساف والحلف ، وقال أبو منصور
 البغدادي من أكابر أئمة الشافعية : أجمع أهل السنة والجماعة على أن أفضل
 الصحابة أبو بكر فعمر فعثمان فعلي ، فبقية العشرة المبشرة بالجنة ، فأهل
 بدر ، فباقي أهل أحد ، فباقي أهل بيعة الرضوان ، فباقي الصحابة رضي
 الله عنهم . والظاهر أنه لو لم يكن لهم دليل على ذلك لما حكموا به .

(١) في الجامع الصغير برقم ٤٠٥٢ رواه ابن عساكر .

(٢) رواه أبو داود .

٧٧- يَلِيهِمْ قَوْمٌ كِرَامٌ بَرَرَةٌ عِدَّتُهُمْ سِتُّ تَمَامُ الْعَشْرَةِ

• يَلِيهِمْ : أي يلي آخر من ذكر ست رجال كرام برره ، فيصبح العدد عشرة ، وهم المبشرون بالجنة . وإن كان المبشرون بالجنة كثيرين إلا أنه ذكر العشرة - هنا - لأنهم جمعوا في حديث مشهور فقد روي من حديث عبد الرحمن بن عوف :

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْأُبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فِي الْجَنَّةِ » (١) .
وَوَرَدَ أَيْضًا : « أَنَّ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَالْحُسَيْنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » .

(١) حديث العشرة رواه أحمد في مسنده صفحة ١٨٧ ، ورواه أصحاب السنن ومصححه الترمذي من حديث أبي سعيد .

٧٨- فَأَهْلُ بَدْرِ الْعَظِيمِ الشَّانِ فَأَهْلُ أَحَدِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ

● فأهل بدر : فرتبتهم ثلثي رتبة السنة من العشرة ، ولا فرق بين من استشهد فيها - وهم أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار - وبين من لم يستشهد فيها . ومقتضى كلام الناظم أن العشرة أفضل من الملائكة الذين حضروا بدرأ ، ويحمل هذا على غير رؤسائهم ، لأن الرؤساء أفضل من عوام البشر كما سلف ذكره . وقد روى ابن ماجة عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال :

«جاء جبريلُ أو ملكٌ إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدُّونَ منَ شهيدَ بدرأ فيكم ؟ قال : خيارُنا ، قال : كذالكَ هم عندنا خيارُ الملائكة »^(١).

● العظيم الشان : صفة لبدر ، وغزوات بدر ثلاث . الأولى : لم يقع فيها قتال بل كانت لطلب إنسان أغار على مواشي المدينة .. والوسطى : هي العظمى لحضور الملائكة فيها . والثالثة : قد تواعد لها أبو سفيان - قبل أن يسلم - مع النبي ﷺ ، وتختلف أبو سفيان خوفاً .

● فأهل أحد : فمرتبتهم تالية لمرتبة أهل غزوة بدر ، والمراد من شهدا من المسلمين سواء استشهد بها - كالسبعين - أم لا .
● بيعة الرضوان : فمرتبتهم ثلثي رتبة أهل غزوة أحد ، وسميت بالرضوان لقوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري عن رفاعه بن رافع الزرقى . وفي رياض الصالحين برقم ١٨٢٦

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ
تَحْتَ الشَّجَرَةِ » ^(١).

وروى أبو داود والترمذي وصححه أنه ﷺ قال :

« لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ يَمُنُّ بِأَبِيْعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » .

(١) سورة الفتح ١٨ ،

٧٩-وَالسَّابِقُونَ فَضْلُهُمْ نَصًّا عَرِفَ هَذَا وَفِي تَعْيِينِهِمْ قَدْ اخْتَلَفَ

● والسابقون فضلهم نصاً عرف : المعنى أن المتقدمين الأولين قد عرف فضلهم - بمعنى كثرة ثوابهم على غيرهم ممن لم يشركهم في هذه الصفة - من نص القرآن الكريم كقوله تعالى :

« لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلْ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » (١) .

● هذا وفي تعيينهم قد اختلف : أي لفهم هذا ، وقد اختلف في تعيين السابقين من هم ؟ ، فقال أبو موسى الأشعري وغيره : هم من الأكابر الذين صلوا إلى القبلتين ، وهذا هو قول الأكثر ، وهو الأصح . وقال محمد بن كعب القوزي وجماعة : أهل بدر . وقال الشعبي : أهل بيعة الرضوان . وقد علم من كلام الناظم أن التفضيل إنما يكون قارة باعتبار الأفراد وأخرى باعتبار الأصناف ، وقد يكون سابقاً خليفة بدرياً أحدياً رضوانياً ، كالمشايخ الأربعة ، لكن عثمان بدري أجراً ، لابدري حضوراً ، لأنه عليه السلام خلفه على ابنته رقية عرضها ، وقد ماتت في غيبته عليه السلام وقال : « لَكَ أَجْرُ رَجُلٍ وَسَهْمُهُ » .

ولقب بذي النورين لتزوجه ببنته عليه السلام ، رقية وأم كلثوم .

(١) الحديد ١٠ .

٨٠. وَأَوَّلُ الشَّاجِرِ الَّذِي وَرَدَ إِنْ خَضَتْ فِيهِ وَاجْتَنَبَ ذَاةَ الْحَسَنِ

● وأول الشاجر : لما ذكر أن خير القرون قرن صحابة رسول الله ﷺ تعرض - هنا - للجواب عما وقع بينهم من المنازعات المومة قدحاً في حقهم ، مع أنهم لا يصرون على عهد المعاصي ، وإن لم يكونوا معصومين . وقد وقع تشاجر بين سيدنا علي وسيدنا معاوية رضي الله عنهما ، وافترقت الصحابة فيه ثلاث فرق ، الأولى اجتهدت فظهر لها أن الحق مع علي ، فقاتلت معه ، والثانية اجتهدت فظهر لها أن الحق مع معاوية ، فقاتلت معه ، والثالثة : توقفت . وقد قال العلماء : المصيب بأجورين والخطيء بأجر ، وقد شهد الله تعالى ورسوله لهم بالعدالة ، ويصرف المكلف ما وقع بينهم إلى محل حسن ، لتحصين الظن بهم ، فإنهم كانوا مجتهدين فيما حصل . وإن الذين يتدارؤون بخلاف الصحابة بغية تمكين ضلالهم في الأرض ، إن هم إلا قوم فاسدون ، لا يشعرون أنهم واختلفهم بومته في النار ، والصحابة كلهم في الجنة ، إذ أنهم آمنوا بالحق وحده وإنما حصل اختلافهم في الكيفية التي ينصرونه بها ، وهؤلاء آمنوا بالطاغوت ، وإنما اختلفوا في الكيفية التي يدمونه بها . ولو قدر للمكلف أن يخوض فيما شجر فليأوله ولا ينقص أحداً منهم . على أنه ليس بأمور أصلاً بالخوض فيما جرى بينهم ، فإنه ليس من الاعتقاد في شيء ، وليس بما ينتفع به في الدين ، بل ربما ضر في اليقين ، فلا يباح الخوض فيه إلا للرد على المتحصين ، أو للتعليم كتدريس الكتب التي تتناول دواصة الآثار ، أما العوام فلا يجوز لهم الخوض فيه لشدة جهلهم وعدم معرفتهم بالتأويل .

● واجتنب داء الحسد : أي واترك وجوباً- فيما إذا قدر لك الخوض
فيا شجر بينهم- داء الحسد الحامل على الميل مع أحد الطرفين على وجه
غير مرضي ، وهو أن يشتمل ذلك الميل على سب وشم ، فالمراد بالحسد
هنا مطلق الإيذاء والسب ، لا يمتني زوال النعمة كما هو تعريفه .

وَقَدْ قَالَ ﷺ : « اللَّهُ أَهْلُ فِي أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا
بَعْدِي . مَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى
اللَّهُ ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ ،
ثُمَّ اتَّقُوا اللَّهَ » .

أي أنشدكم الله ثم أنشدكم الله في حق أصحابي وتعظيمهم ، فلا تتخذوهم
كالغرض الذي يرمى إليه بالسهم ، فترومهم بالكلمات التي لا تناسب مقامهم .
والإيذاء على الله تعالى محال ، ومعناه هنا تعدي الحدود ، والمخالفة للأحكام .
ووشك الأخذ من الله : قرب العذاب .

وفي رواية : « لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَمَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَقَلْبُهُ
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ
صَرْفًا وَلَا عَدْلًا » .

والصرف : الفرض ، والعدل : النفل ، واللعن إنما هو واقع
في المستعمل أو خارج مخرج المبالغة في الزجر .

٨١ - وَمَالِكٌ وَسَائِرُ الْأَئِمَّةِ كَذَّابُ الْقَاسِمِ هِدَاةُ الْأَئِمَّةِ

● ومالك : أي أعلم أنه لم يصح في الأئمة الأربعة حديث بالخصوص ، وإلما ورد :

« يُوشِكُ أَنْ تُضْرَبَ أَكْبَادُ الْإِبِلِ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ » .

فحمل على الإمام مالك ، إذ كانوا يزدهنون على بابيه لطلب العلم ، فلقد أخذ العلم عنه خلق كثير لا يحصون وهم أئمة البلاد .

وَوَرَدَ أَيْضًا : « وَعَالِمٌ قُرَيْشِي يَمْلَأُ طَبَاقَ الْأَرْضِ عِلْمًا » .

فحمل على الشافعي وقيل هو ابن عباس .

وَوَرَدَ : « لَوْ كَانَ الْعِلْمُ بِالثَّرِيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ » ^(١) .

فحمل على أبي حنيفة وأصحابه ، وكل من هذه الأحاديث ظني .

● وسائر الأئمة : هم إمام الشافعي (المتوفى ٢٠٤ هـ في مصر)

وأبو حنيفة (٨٠ - ١٥٠ هـ) ، وأحمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١ هـ) والإمام مالك (المتوفى بالمدينة ١٧٩ هـ) فقط ، أو يدخل معهم الإمام الليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، وإسحاق بن راهويه ، ومحمد بن جوير الطبري ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الرحمن بن عمر الأوزاعي ،

(١) لو كان العلم معلقا بالثريا لتناوله قوم من أبناء فارس رواه أبو نصير

في الحلية ، وفي شرح الجامع الصغير برقم ٧٤٦٤ ج ٥ . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة نحوه ، وقال فيه الهيثمي : إن رجاله رجال الصحيح ، وفيه راو ثقة . ورواه الشيخان بلفظ : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء وأشار لفارس .

وأبو الحسن الأشعري ، وأبو منصور الماتريدي . وسفيان الثوري كان يسمى أمير المؤمنين في الحديث . وابن عيينة كان يقول : إذا كانت نفس المؤمن محبوسة عن مكانها في الجنة بدينه حتى يقضى عنه ، فكيف بصاحب الغيبة ، فإن الدين يقضى والغيبة لا تقضى . والأوزاعي كان يقول : ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وتعرض على العبد يوم القيامة ، فالساعة التي لا يذكر الله فيها تنقطع نفسه عليها حسرات ، فكيف إذا مرت ساعة مع ساعة ، ويوم مع يوم ؟ .

● كذا أبو القاسم : المعنى أن «أبا القاسم محمداً الجنيد ، مثل من ذكر» في الهداية والإستقامة على طريق الحق ، وهو سيد الصوفية علماً وعملاً ، ولعل المصنف رأى شهرته بهذه الكنية فأوردتها ، ولو قال : جنيد أيضاً هداة الأمة ، لكان أوضح . ومن كلامه : «الطريق إلى الله تعالى مسدود على خلقه إلا على المفتين آثار الرسول ﷺ» . ومنها : «لو أقبل صادق على الله تعالى ألف ألف سنة ، ثم أعرض عنه لحظة ، لكان ما فاتة أكثر مما ناله» . ومنها : «إن بدت ذرة من عين الكرم والجود ألحقت المنيء بالحسن وبقيت أعمالهم فضلاً لهم» .

● هداة الأمة : أي هداة خير أمة بشهادة قوله تعالى :

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» .^(١)

فهم خيار الخيار . والحاصل : أن الإمام مالكاً ونحوه هداة في الفروع ، والإمام الأشعري ونحوه في العقائد ، والجنيد ونحوه في التصوف . فجزاهم الله عنا خيراً ونفعنا بهم .

(١) آل عمران ١١١ .

٨٢- فَوَاجِبُ تَقْلِيدِ حَبِيرٍ مِنْهُمْ كَذَا حَكَى الْقَوْمُ بِلَفْظٍ يُفْهَمُ

● فواجب تقليد : لما لم يكن كل واحد من الناس قادراً على الإجتهد المطلق ، وكان المذكورون أئمة هذه الأمة ، ذكر أنه واجب على كل من لم يكن فيه أهلية الإجتهد المطلق - ولو كان مجتهد مذهب ، أو فتوى - تقليد إمام من الأئمة الأربعة في الأحكام الفرعية . وما جزم به الناظم - هنا - هو مذهب الأصوليين وجمهور الفقهاء والمحدثين^(١) . واحتجوا بقوله تعالى :

« فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »^(٢) .

فأوجب السؤال على من لا يعلم ، ويتوكل عليه الأخذ بقول العالم وذلك تقليد له وقال بعضهم : « يأخذ فيما يقع له بهذا المذهب ثارة ، وبغيره أخرى ، فلا يجب عليه تقليد واحد بعينه ، بل يجوز أن يصلي الظهر على مذهب مالك ، والعصر على مذهب الشافعي وهكذا .. ومنهم من منع الانتقال من مذهب إلى آخر . ومنهم من قيد بعدم الجمع بين المذهبين على صفة تخالف الإجماع ، كمن تزوج بلا صداق ، ولا ولي ، ولا شهود ، فإنها صورة لا يقول بها أحد . أما من كان فيه أهلية الإجتهد المطلق فيحرم عليه التقليد فيما يقع له عند الأكثر ، واختاره الآمدي وابن الحاجب

(١) طغمة تنادي باللامذهبية ابتغاء هدم الفقه الإسلامي الذي شاده هؤلاء الأئمة الجهابذة ، فلينظر في رد خطرهما كتاب الدكتور سعيد رمضان البوطي « اللامذهبية » ومقالة الإمام الشيخ زاهد الكوثري : « اللامذهبية قنطرة اللادينية » .

(٢) الإنبياء ٧ .

والسبكي لتمكنه من الإجتهد الذي هو أصل التقليد . وأما التقليد في
في العقائد فقد تقدم بحثه .

● خبر منهم : أي تقليد عالم حاذق من الأئمة الأربعة ، ولا يجوز
تقليد غيرهم ، ولو كان من أكابر الصحابة لأن مذاهم لم تدون ولم تضبط
كمذاهب هؤلاء .

● كذا حكى القوم : أي حكى الأصوليون وجمهور الفقهاء والمحدثين
- «بلفظ يفهم» لوضوحه - هذا الحكم الذي هو وجوب تقليد أحد
الأئمة الأربعة .

٨٣- وَأُثْبِتَنُ لِلأُولِيَاءِ الْكَرَامَةَ وَمَنْ نَفَاَهَا فَأَنْبِذَنُ كَلَامَهُ

● وأثبتن للأولياء : أي اعتقد جوار وقوع الكرامة ، ووقعها لهم في الحياة وبعد الممات كما ذهب إليه جمهور أهل السنة ، وليس مذهب من المذاهب الأربعة قال بنفيا بعد الموت بل ظهورها حينئذ أولى ، لأن النفس حينئذ صافية من الأكدار ، فهي كالسيف سل من غمده ، وعلى هذا قيل : « من لم تظهر كرامته بعد موته كما كانت في حياته فليس بصادق » . واستدلوا على الوقوع بما جاء من قصة السيدة مريم رضي الله عنها في قوله تعالى : « كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا . قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (١) .

فقد كان يجد عندها فاكهة الصيف بالشتاء وبالعكس . وما جاء من قصة أصحاب الكهف حيث دخلوا غاراً فلبثوا فيه بلا طعام ولا شراب ثلاث مائة وتسع سنين نياماً بلا آفة . وما جاء من قصة آصف وزير سيدنا سليمان وقد كان يعرف إمام الله الأعظم فدعا به فأتى الله بعرش بلقيس قبل أن يرقط طرف سليمان إليه ، وما وقع من كرامات الصحابة والتابعين إلى وقتنا . فقد صغ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان له جيش بنهاوند من بلاد العجم وكانت سارية رضي الله عنه أميراً عليه ، وكان العدو كامناً في أصل جبل ، ولا يعلم به جيش المسلمين ، فنادى عمر وهو في المدينة على المنبر بخطب الناس يوم الجمعة : يا سارية الجبل الجبل ،

(١) آل عمران ٣٨ .

فسمعوا صوته بنهاوند^(١) ، وأن أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنها كاتا عند رسول الله ﷺ في حاجة حتى ذهب من الليل ساعة وهي ليلة شديدة الظلمة ، خرجا ويبد كل واحد منهما عصا ، فأضأت لهما عصا أحدهما ، ومشيا في ضوئها حتى إذا افتوت بهما الطريق أضأت الآخر عصاه فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله^(٢) . وأن خُبَيْباً كان أسيراً بمكة المكرمة عند بني الحارث فكانت تقول بنت الحارث : ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب ، لقد رأيتني يأكل من قِطف عنب وما بمكة يومئذ مرة ، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقاً رزقه الله إياه . وأن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه جهز جيشاً فاستعمل عليه العلاء بن الحضرمي ، فأتى القوم الذين يريد غزوهم فوجدهم قد نلدوا به وغرروا المياه ، وكان الحر شديداً وقد أجهدم العطش ودوابهم ، فلما مالت الشمس صلى العلاء بالجيش ركعتين ، ثم مد يده ما يرى في السماء شيء ، يقول راوي الحديث : فواجهه ماحط يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً فأفرغت حتى ملأت الخدور الشعاب فشربنا وسقينا واستقينا ، ثم أتيننا عدونا وقد جاؤوا خليجاً في البحر إلى جزيرة ، فوقف على الخليج وقال يا علي يا عظيم يا كريم ، ثم قال أجزوا بأمر الله ، قال : فأجزنا ، ما بيل الماء حوافر دوابنا إلا يسيراً^(٣) .

(١) قال ابن حجر في الإصابة : هو حديث حسن .

(٢) أخرجه الحاكم وصححه البيهقي .

(٣) أخرجه البيهقي والطبراني وأبو نعيم عن أنس .

والولي : هو العارف بالله تعالى وصفاته حسب الإمكان ، المواظب على الطاعة المجتنب للمعاصي ، المعرض عن الإنهاك في اللذات والشهوات المباحة ، أما أصل التناول فلا مانع منه ، لاسيما إذا كان بقصد التقوي على العبادة ، وهو لا يرتكب معصية بدون توبة إذ أنه ليس معصوماً حتى لا تقع منه معصية بالكلية . وإنما سمي ولياً لأن الله تعالى تولى أمره فلا يكله إلى نفسه ، ولا إلى غيره لحظة ، ولأنه يتولى عبادة الله تعالى على الدوام من غير تخلل بمعصية ، وكلا المعنيين واجب تحقيقه حتى يكون الولي - عندنا - ولياً في نفس الأمر .

● الكرامة : هي أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم باتباعه النبي ﷺ ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح .

● ومن نفاها فانبذن كلامه : أي ومن قال بعدم جوازها فانبذن كلامه ، لأنه ما أنكرها إلا لأنه نظر إليها على أنها من فعل العبد ، أما لو نظر إليها على أنها من فعل الله تعالى لما تطرق إليه الإنكار . وإنما تمكك المنكر بأنه لو ظهرت الخوارق من الأولياء لالتبس النبي بغيره ، لأن الخارق إنما هو المعجز ، ولو ظهرت لأصبحت كثيرة بكثرتهم فتخرج عن كونها خارقة للعادة ، ويرد هذا بأن الفرق بين المعجزة والكرامة قائم بوجود دعوى النبوة في المعجزة ، وبأن كثرتها لا تخرجها عن كونها خارقة للعادة لأنه يظل خرقاً وإن استمر ، وسبب كثرتها في الأزمنة المتأخرة إنما هو لضعف يقين المتأخرين .

٨٤- وَعِنْدَنَا أَنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ كَمَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَدَا يُسْمَعُ

● وعندنا أن الدعاء ينفع : الدعاء هو الطلب على سبيل التضرع ،
وقيل : رفع الحاجات إلى رافع الدرجات . وعند أهل السنة : الدعاء
نافع للأحياء والأموات ، وضار لهم إثم دعوت عليهم ، وهو ينفع في
القضاء المبرم والمعلق ، أما القضاء المعلق فلا استعالة في رفع معلق رفعه
منه على الدعاء ، ولا في نزول معلق نزوله منه على الدعاء .
فقد روي أنه عليه السلام قال :

« لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا
لَمْ يَنْزِلْ ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ وَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ ، فَيَتَعَالَجَانِ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (١) .

وأما القضاء المبرم فنفعه فيه تنزيل اللطف منه سبحانه وتعالى بالداعي ،
وإن لم يرفعه البتة وانقسام القضاء إلى المبرم والمعلق ، إنما هو بحسب
الروح المحفوظ ، أما بحسب العلم فجميع الأشياء مبرمة ، إذ العلم لا يتغير
البتة ، لكنه لا يتروك الدعاء اتكالا على ذلك ، كما لا يتروك الأكل اتكالا
على إبرام الله الأمر في الشبع . وعند المعتزلة الدعاء لا ينفع ، ولا
يكفرون في هذا لأنهم أولوا الدعاء في قوله تعالى :

« وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » (٢) .

بالعبادة ، وأولوا الإجابة بالثواب .

(١) رواه الحاكم وصححه .

(٢) المؤمن « غافر » ٦٠ .

• كما من القرآن وعداً بسمع: أي لأجل الذي يسمع دأله من الفاظ القرآن حال كونه موعوداً به .

قال تعالى : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » ^(١) .

وتخصيص القرآن إنما هو لتواتره لالْقَضَر الدلالة عليه ، وإلا فالسنة تدل على نفع الدعاء ، وكذا الإجماع وقد دعا ﷺ في مواطن كثيرة . وقد أجمع عليه السلف والخلف . واعلم أن الإجابة تتنوع : فتارة يقع المطلوب على الفور ، وأخرى يتأخر لحكمة ، وتارة تقع الإجابة بغير المطلوب حيث لا يكون في المطلوب مصلحة ناجزة ، أو يكون في غير المطلوب الذي وقع ما هو أصلح من المطلوب المدعو به ، على أن الإجابة - على كل الأحوال - مقيدة بالمشيئة

كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : « فَيَكْشِفُ مَا كَدُّعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » ^(٢) .
فهو مقيد لإطلاق الآيتين السالفتين .

(١) سورة البقرة ١٨٦ .

(٢) قال ابن عطاء الله في الحكم « لا يمكن تأخر أمد العطاء ، مع الإلحاح في الدعاء ، موجبا لبأسك ، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك ، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد » . ثم يعلن توحيد الصرف في غلات أوار البصيرة بقوله : « لا يشككتك في الوعد عدم وقوع الموهود به ، وإن تعين زمنه ، لئلا يكون ذلك قدحاً في بصرتك وإخاداً لنور سريرتك » .

٨٥- بِكُلِّ عَبْدٍ حَافِظُونَ وَكُلُّوْا وَكَاتِبُونَ خَيْرَةٌ لَّنْ يُهْمِلُوا

● بكل عبد حافظون وكلوا : وكل الله تعالى بكل عبد ملائكة حافظين سوى الملائكة الكاتبين ، فهم يحفظونه من المضار ، فيلازمونه على كل حال بخلاف الكتبة ، فإنهم يفارقونه عند ثلاث مواطن ، عند قضاء الحاجة ، وعند الجوع ، وعند القسل^(١) . ولا يمنع ذلك من كتب ما يصدر من العبد في هذه المواطن ، إذ يجعل الله تعالى أمانة على مابدر منه قولاً كان أو فعلاً أو اعتقاداً ، وبخلاف ملائكة الرحمة فإنهم لا يدخلون البيت الذي فيه كلب أو جرس أو صورة^(٢) . وللعن حافظون كما للإنس . واختلف في عدد الحافظين ومكانهم ، لكنه لما لم يرد نص قاطع في هذا كان الإمساك أولى . وحفظهم للعبد إما هو من القضاء المعلق أما المبرم فلا بد من إنفاذه ، فإنهم يتنعمون عنه حتى ينفذ أمر الله .

قال سبحانه : « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ » ، إن الله لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وإذا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ،^(٣) .

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والتعري ، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط ، وحين يفضي الرجل إلى أهله ، فاستحيوهم وأكرمهم » . أخرجه الترمذي برقم ٢٨٠١ ج ٨ وفي جامع الأصول برقم ٣٦٢٥ ج ٥ .

(٢) عن أبي طلحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة » . أخرجه الشيخان والترمذي والإمام أحمد ، وفي الجامع الصغير برقم ٩٧٥٨ ج ٦ . وفي حديث إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه جرس . (٣) الرعد ١٣ .

● وكاتبون خيرة لن يحملوا : تكلم - ثم - عن الحافظين ، وهنا يتكلم عن
 للكاتبين ، وهما ملكان كل منهما رقيب وعتيد ، لا يتغيران مادام حياً ،
 فإذا مات قاما على قبره يسبحان ويهللان ويكبران ويكتبان ثوابه إلى
 يوم القيامة ، إن كان مؤمناً ، ويلعنانه إن كان كافراً ، وقيل : هم أربعة ،
 ملكان في اليوم ، وملكان في الليلة ، يؤرخون ما يكتبون من أعمال
 العباد في الزمان والمكان ، وملك الحسنات من ناحية اليمين والسيئات من
 ناحية اليسار والكتابة حق يكفر منكروها ، ودليلها قوله تعالى :

«وإنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ»^(١).

وهي بادوات لا يعلمها إلا الله تعالى حملاً للتفويض على ظواهرها خلافاً لمن
 أوَّل بأن الكتابة كناية عن الحفظ والعلم ، والتفويض في هذا المقام
 أولى . وقد اعتمد بعضهم أن المباح لا يكتب . وهذه الكتابة لا تقع
 على حاجة دعت إليها ، وإنما فائدتها أن العبد إذا علم بها استحيا وترك
 المعصية ، والله أعلم . وقد اختلف في مكانها ، والحاصل من الخلاف
 أنها لا يلزمان محلاً واحداً .

(١) الإنفطار ١٠-١١-١٢ .

٨٦- مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا فَعَلَّ وَلَوْ ذَهْلٌ حَتَّى الْأَنْبِيَاءِ فِي الْمَرَضِ كَمَا نَقَلَ

● من أمره شيئاً فعل : أي لن يحمل الملائكة الكاتبون من أمر العبد شيئاً^(١) ، والأمر يشمل القول وغيره .

● ولو ذهل : الذهل عن الشيء نسيانه والغفلة عنه فيكتب ما فعله العبد ناسياً وإن كان لا يؤاخذ به لأنه ليس الغرض من الكتابة المعاقبة ولا الإقابة كما سلف .

● حتى الأنبياء في المرض كما نقل : أي فيكتبون حتى الأنبياء الصادر منه في حال المرض ، لذا لا ينبغي للمريض أن يقول : أخ ، لأنه إسم من أسماء الشيطان بل عليه أن يقول : « آه » ، لأنه ورد أنه من أسماء تعالى ، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« دُعُوهُ » أي المريض ، يَثْنُ ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لِأَسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى يَسْتَرْيَحُ إِلَيْهِ الْعَلِيلُ^(٢) .

وقد نقل أئمة الدين وعلماء المسلمين - ومن أعظمهم الإمام مالك - أن الملائكة تكتب كل شيء حتى الأنبياء في المرض متمكين بقوله تعالى :

« مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »^(٣) .

فلفظه « قول » جاءت نكرة في سياق النفي لذا اقتضت العموم .

(١) من أمره : جار ومجرور متعلقان بحال من « شيئاً » ، والأصل لن يحملوا شيئاً من أمره .

(٢) رواه الجلال السيوطي في الجامع الصغير عن الرافعي وحسنه .

(٣) سورة ق ١٩ .

٨٧- فَحَاسِبِ النَّفْسَ وَقِلْ الْأَمَلَا قَرُبْ مَنْ جَدَّ لِأَمْرٍ وَصَلَا

● فعاسب النفس وقل الأمل : أي إذا علمت أن عليك من يحفظ أهلك ويكتنحها فعاسب نفسك كل صباح على جميع ما عملته ليلاً ، وكل مساء على جميع ما عملته نهاراً ، فما وجدت من حسنة حمدت الله تعالى عليها ، ومن سيئة استغفرت الله منها . وأقرب من ذلك إلى السلامة أن تحاسبها على كل فعل قبل الإقدام عليه ، حتى لا تتلبس به إلا بعد معرفة حكم الله تعالى فيه ، فما وافق الشرع فعملته ، وما خالفه نبذته وراءك ظهيراً ، لأن من حاسب نفسه في الدنيا هان عليه حساب الآخرة ، قال عمر رضي الله تعالى عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنها قبل أن توزن عليكم » . وليكن أملك قليلاً ، والأمل هو رجاء ما تحبه النفس ، كطول عمر ، وزيادة غنى ، وهو مذموم إلا للعلماء العاملين الورعين ، حيث أملوا بطول مرم أن ينفعوا المسلمين فيثابون على نيابهم في ذلك . والأصل فيما ذكر قوله صلى الله عليه وسلم :

« كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ، وَعُدْ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ »^(١)

وقال بعضهم : من قصر أمله قلَّ همه وتنور قلبه وزخى بالقليل .
● قَرُبْ مَنْ جَدَّ لِأَمْرٍ وَصَلَا : أي جد في مطلوبك ، لأنه رب من اجتهد لتحصيل أمر من أمور الدنيا والآخرة وحل إليه إن قدر الله تعالى أزاله وصوله إليه .

(١) عن ابن عمر في البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » ، وزاد الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه : « وَعُدْ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ » ، وهو في الجامع الصغير برقم ٦٤٢١ ج ٥ .

٨٨- وَوَاجِبُ إِيمَانِنَا بِالْمَوْتِ وَيَقْبِضُ الرُّوحَ رَسُولُ الْمَوْتِ

- وواجب إيماننا بالموت : أي يجب تصديقنا بعموم فناء الكل ، خلافاً للدهرية في قولهم : « إن هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تلع » .
- وفذلك لقوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ^(١) .
- وقوله : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » ^(٢) .

ويجب تصديقنا بأن الموت على الوجه المعهود شرعاً من فراغ الأجل المقدرة ، خلافاً للحكماء في قولهم : « إنه بمجرد إختلال نظام الطبيعة » .

وذهب الأشعري في تعريفه للموت والحياة إلى أن تقابلها من تقابل الأضداد . وذهب الأسفراييني والزمخشري إلى أن الموت هو عدم الحياة مما من شأنه أن يكون حياً .

- ويقبض الروح رسول الموت : أي يخرجها من مقرها الملك الموكل بالموت وهو عزرائيل عليه السلام ، ومعناه عبد الجبار ، وهو ملك عظيم هائل المنظر ، مفزع جداً ، وله أعوان بعدد من يموت ، لكنه يترقى بالمؤمن ويأتيه في صورة حسنة ، ، فقد ورد في حديث ابن مسعود وابن عباس :

« أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : يَا مَلِكَ الْمَوْتِ : أَرِنِي كَيْفَ تَقْبِضُ أَنْفَاسَ الْكُفَّارِ ؟ قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، قَالَ : بَلَى ، قَالَ : أَعْرِضْ ، فَأَعْرِضَ »

(١) الزمر ٣٠

(٢) آل عمران ١٨٥ .

ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ أَسْوَدَ يَنَالُ رَأْسَهُ السَّمَاءَ ، يَخْرُجُ
مِنْ فِيهِ لَهَبُ النَّارِ ، فَغَشِيَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ أَفَاقَ وَقَدْ
تَحَوَّلَ مَلِكُ الْمَوْتِ فِي الصُّورَةِ الْأُولَى . فَقَالَ يَا مَلِكَ
الْمَوْتِ لَوْ لَمْ يَلْتَقِ الْكَافِرُ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْحُزَنِ إِلَّا صُورَتَكَ
هَذِهِ لَكَفَّاهُ ، فَأَرِنِي كَيْفَ تَقْبِضُ أَنْفَاسَ الْمُؤْمِنِينَ ؟
قَالَ : أَعْرِضْ ، فَأَعْرِضَ ، ثُمَّ التَفَتَ فَإِذَا بِرَجُلٍ شَابٍّ أَحْسَنَ
النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَطْيَبَهُمْ رِيحًا فِي ثِيَابٍ بَيْضٍ ، فَقَالَ :
يَا مَلِكَ الْمَوْتِ ، لَوْ لَمْ يَرَ الْمُؤْمِنُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ قُرَّةِ
الْعَيْنِ وَالْكَرَامَةِ إِلَّا صُورَتَكَ هَذِهِ لَكَانَ يَكْفِيهِ .

والروح جوهر ، وإلا لم تقبض . ومذهب أهل السنة من المتكلمين
والمحدثين والفقهاء والصوفية أنها جسم لطيف مشتبك بالبدن كاشتباك الماء
بالعود الأخضر ، وبهذا جزم النووي . ومذهب جماعة من الصوفية والمعتزلة
أنها ليست بجسم ولا عرض ، بل هي جوهر مجرد متعلق بالبدن للتدبير
غير داخل فيه ولا خارج عنه .

٨٩ - وَمَيِّتٌ بِعَمْرِهِ مَنْ يُقْتَلُ وَغَيْرُ هَذَا بَاطِلٌ لَا يُقْبَلُ

● وميت بعمره من يقتل : أي كل ذي روح يفعل به ما يزهق روحه ، ميت بانقضاء عمره ، وهو مذهب أهل الحق ، فالأجل عندهم واحد ، لا يقبل الزيادة ولا النقصان .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » ^(١) .

وَقَالَ تَعَالَى : « وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا » ^(٢) .

وقد دلت الأحاديث الشريفة على أن كل هالك يستوفي أجله من غير تقدم عليه ولا تأخر عنه ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجْلَهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأُجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ » ^(٣) .

وما ورد في بعض الأحاديث من أن صلة الرحم تزيد في العمر لا يرد هنا لأنه خبر آحاد ، أو الزيادة فيه بحسب الخير والبركة .

(١) النحل : ٦١

(٢) المنافقون : ١١

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه .

فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
 « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ
 فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ » (١) .

وبالجملة . فمختار أهل السنة أن كل مقتول ميت بانقضاء عمره ، وحضور
 أجله في الوقت الذي علم الله حصول موته فيه أزلاً ، بخلقه تعالى ، من غير
 مدخلة للقاتل فيه ، إلا الإكتماب ، ولهذا وجب عليه القصاص من حيث إنه
 اكتسبه فقط .

وعند أهل السنة أنه لو لم يقتل لجاز أن يموت في ذلك الوقت ،
 أو لا يموت فيه . لأنه لا اطلاع لنا على ما في علم الله ، وإنما هذا التجوز
 ذاتي على فرض عدم قتله ، كما هو ظاهر وإلا فقد بان بقتله أن الله
 تعالى علم موته في ذلك الوقت ، فلا يتخلف ، فبعد أن قتل نقول :
 لو لم يقتل لمات قطعاً ، لأنه لو لم يمت للزم للتغير في أمر العلم وهو
 محال ، وقد وافق على هذا أبو الهذيل من المعتزلة .

● وغير هذا باطل لا يقبل : أي غير ما ذكر - من مذاهب الخالفين لأهل
 السنة - باطل وغير مطابق للواقع ، ولا يقبل عند العقلاء المتسكين بالحق .
 ومنها (٢) مذهب الكعبي : وهو أن المقتول له أجلان ، أجل بالقتل ، وأجل
 بالموت . فلو لم يقتل لعاش إلى أجله بالموت ، ودليله قوله تعالى :

« وَكَانَ لَكُمْ مَتُّكُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَلِيَ اللَّهُ تَحْشُرُونَ » (٣) .

قال : والعطف يقتضي المغايرة ، وأهل السنة يقولون : المعنى لئن تم من
 غير سبب ظاهر ، أو قتلتم بأن تم بسبب .

(١) متفق عليه ، وقوله ينسأ : معناه يؤخر له في أجله وعمره ، وفي رياض الصالحين برقم ٣١٩ .

(٢) أي من مذاهب الخالفين وم المعتزلة .

(٣) آل عمران ١٥٨ .

٩٠- وَفِي فَنَاءِ النَّفْسِ لَدَى النَّفْخِ اخْتِلَافٌ
وَاسْتَظْهَرَ السُّبُكِيُّ بَقَاءَهَا الَّذِي يُعْرَفُ

● وفي فناء النفس : ذهب العلماء في حكم فناء النفس مذهبين :
فطائفة قالت : بذهاب صورة النفس التي هي الروح عند نفخ إسماعيل في
الصور النفخة الأولى لظاهر قوله تعالى :

«كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ
وَالْإِكْرَامِ» (١).

وطائفة ذهبت إلى عدم الفناء عند ذلك ، أما قبل النفخة الأولى فلا
خلاف في بقاءها ، ولو بعد فناء الجسم ، وتكون إما منعمة أو معذبة
فعن أبي سعيد رضي الله عنه :

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «الْقَبْرِ» لِمَا حُفِرَ مِنْ حُفْرٍ
النَّارِ ، أَوْ رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ» (٢).

والنفخة الأولى تسمى نفخة الفناء ، إذ لا يبقى عندها حي إلا
مات ، إن لم يكن مات قبل ذلك ، وإلا غشي عليه إن كان مات قبل
ذلك ، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إلا من شاء الله كاللائكة الأربعة
الرؤساء ، والحوار العين ، ومومي عليه الصلاة والسلام لصعقه في الدنيا
مرة فجوّزي بها .

(١) الرحمن ٢٥ - ٢٦

(٢) رواه الترمذي في حديث طويل بلفظ «إنما القبر» . برقم ٢٤٦٢ ج ٧

فجميع الأنبياء بعد الموت تعود إليهم أرواحهم ثم يغشى عليهم عند النفخة الأولى. إلا موسى عليه السلام ثم ينفخ الثانية وتسمى نفخة البعث ، فيجمع الله تعالى الأرواح في الصور عند النفخة ، وفيه تُقَبَّ بعددها ، فتخرج منه الأرواح إلى أجسادها فلا تخطيء روح جسدها . وبين النفختين أربعون عاماً على ما في بعض الطرق :

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ ، قِيلَ : أَرْبَعُونَ يَوْماً ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : أَيْتٌ ، قَالُوا : أَرْبَعُونَ شهراً ؟ قَالَ : أَيْتٌ ، قَالُوا : أَرْبَعُونَ سنة قال : أَيْتٌ ، ثُمَّ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ ، وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى ، إِلَّا عَظْمٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ ، مِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .^(١)

● واستظهر السبكي : اختار الإمام السبكي في تفسيره من هذا الاختلاف القول ببقائها الذي عهد سابقاً ، لأنه متفق على بقاءها بعد الموت لدوامها في القبر وتنعيمها أو تعذيبها فيه ، والأصل في كل باق استمراره حتى يظهر ما يصرف عنه ، فالدليل على بقاءها الاستصحاب ، فتكون من المستثنى بقوله تعالى :

« فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » .^(٢)
وهو المختار عند أهل الحق وإنما خص المصنف السبكي بالذكر لتجروه في القنون حتى أحاط بالمعقول منها والمنقول .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) الزمر : ٦٨

٩١- عَجَبُ الذَّنْبِ كَالرُّوحِ لَكِنَّ صَحْحًا الْمُزَنِّي لِلْبَلَى وَوَضَحًا

● عجب الذنب كالروح : أي العجب الشبيه بالذنب وهو عظم كالحردة في آخر سلسلة الظهر في العصص ، مختص بالإنسان كغفر الذنب للدابة ، والمشهور أنه لا يفنى إلا وقت النفخ ، لكن صحح الإمام إسماعيل بن يحيى المزني القول بأن عجب الذنب يبلى ويفنى تمسكاً بظاهر قوله تعالى :

«كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» .

وفناء الكل يستلزم فناء الجزء ، فقد وَضَحَ صحة ما ذهب إليه ، ووافقه ابن قتيبة . والأقوى أنه لا يبلى لما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

«إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ عَظْمًا لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَدًا ، مِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالُوا : أَيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : عَجَبُ الذَّنْبِ» .^(١)

وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال :

«يَأْكُلُ التُّرَابُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجَبَ ذَنْبِهِ ، قِيلَ : وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ ، مِنْهُ تُنْشَأُونَ» .^(٢)

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) رواه الإمام أحمد وابن حبان .

٩٢-وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ قَدْ خَصَّصُوا عُمُومَهُ فَاطْلُبْ لِمَا قَدْ خَصَّصُوا

● وكل شيء هالك ... : لما كان القول ببقاء الروح ، وعجب الذنب هو
الراجع أشار - هنا - إلى إيراد قد يرد بقوله تعالى :

« كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » .^(١)

فقتضاه أن كل ما سواه تعالى محكوم عليه بالهلاك ، فقال المصنف :
من العلماء من قصر العموم الوارد في الآية على غير الأمور الواردة في الأحاديث
كالروح ، وعجب الذنب ، وأجساد الأنبياء ، والشهداء ، والعروش
والكرسي ، والجنة والنار ، والخور العين ونحو ذلك ، فالآية من قبيل
العام المخصوص ، ومنهم من قال : معنى « هالك » في الآية قابل للهلاك ،
كما هو معنى « فان » أيضاً ، لذا حص العلماء الأمور الوارد فيها
ذكر الديمومة .

٩٣- وَلَا تَخْضُ فِي الرُّوحِ إِذَا مَا وَرَدَا نص من الشارع لكن وجداً

• ولا تخض في الروح... أي أيما المكلف لا تخض في بيان حقيقة الروح، فالخوض في ذلك مكروه لعدم التوقيف فيه ، وكلام الجنيد رحمه الله تعالى يدل على الحرمة حيث قال : « الروح شيء استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، فلا يجوز لعباده البحث عنها بأكثر من أنها موجودة » :

قال تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » .^(١)

وفي ذلك إظهار لعجز المرء حيث لم يعلم حقيقة نفسه التي بين جنبيه مع القطع بوجودها ، ولم يخرج النبي ﷺ من الدنيا حتى أطلعه الله تعالى على جميع ما أهمه عنه من الروح وغيرها بما يمكن علم البشر به ، وليس على جميع معلوماته تعالى وإلا لزم مساواة الحادث بالقديم . وما ذكر من عدم الخوض في الروح هو المختار ، فنمك عن بيان حقيقتها ، وبيان مقرها من الجسد ، والمشهور عدم تعدد الروح في كل جسد . وصرح العز بن عبد السلام بأن في كل جسد روحين ، إحداهما روح اليقظة التي أجرى الله تعالى العادة بأنها إذا كانت في الجسد كان الإنسان مستيقظاً فإذا خرجت منه نام ، ورأت تلك الروح المنامات ، والأخرى روح الحياة التي أجرى الله تعالى العادة بأنها إذا كانت في الجسد كان حياً ، فإذا ما فارقت مات . وهاتان الروحان في باطن الإنسان لا يعرف مقرهما إلا من أطلعه الله على ذلك ، وقد كان بعض الأرواح - يوم خاطبها الله تعالى قبل تعلقها بالأبدان بقوله :

(١) الإسراء ٨٥

« أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَىٰ، ^(١) »

— مقلداً على بعض بالوجه ، وبعضها مولياً ظهره لبعض ، وبعضها جاعلاً
جنبه لبعض ، فالإقبال بالوجه غاية في المودة ، وعكسه بالظهر والجنب ،
وقد جاء في الحديث :

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
« الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اخْتَلَفَ ، وَمَا تَنَافَرَ
مِنْهَا اخْتَلَفَ » ^(٢) .

● إذ ما وردا * نص من الشارع : إن ما تقدم من المنع في الخوض
مبني على أنه لم يرد دليل عن الله تعالى ببيانها ، وكل ما هو كذلك فالأولى
عدم الخوض فيه .

(١) الاعراف ١٧٢

(٢) رواه البخاري ، ورواه مسلم من حديث أبي هريرة .

٩٤- مَالِكٌ هِيَ صُورَةُ كَالْجَسَدِ فَحَسْبُكَ النَّصُّ بِهَذَا السَّنَدِ

● مَالِكٌ هِيَ صُورَةُ : (١) وَجَدَ لِأَهْلِ مَذْهَبِ مَالِكٍ مِنْ خَاضٍ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الرُّوحِ ، وَأَنَّهَا جِسْمٌ ذُو صُورَةٍ كَصُورَةِ الْجَسَدِ فِي الشَّكْلِ وَالْهَيَاةِ ، وَهَذَا قَوْلُ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ خَالِدٍ ، وَإِنَّمَا نَسَبَ لِمَالِكٍ لِإِسْتِنَادِهِ إِلَيْهِ فِيهِ ، وَقَالَ النَّوَوِيُّ : هُوَ أَصَحُّ مَا قِيلَ فِيهَا عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُبِيجَةِ لِلْخَوْضِ ، وَهِيَ غَيْرُ مُخْتَارَةٍ . وَمَا قَوْلُهُ لِإِمَامِ الْحَرَمِيِّ : إِنَّهَا جِسْمٌ لَطِيفٌ مُتَغَايِرٌ مُشْتَبِكٌ بِالْجِسْمِ اشْتِبَاكُ الْمَاءِ بِالْعُودِ الْأَخْضَرِ ، فَتَكُونُ سَارِبَةً فِي جَمِيعِ الْبَدَنِ ، فَإِذَا مَا انْقَطَعَ عَضْوٌ انْشَمَرَتْ عَنْهُ الرُّوحُ بِسُرْعَةٍ لِلطَّافِتِ . هَذَا فِي الْحَيَاةِ ، أَمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ فَأَرْوَاحُ السَّعْدَاءِ بِأَفْنِيَةِ الْقُبُورِ ، عَلَى الصَّحِيحِ ، وَأَرْوَاحُ الْكُفَّارِ فِي سَجَتِهِ .

● فَحَسْبُكَ النَّصُّ : إِذَا مَا عَمِلْتَ النُّقْلَ عَنْ أَهْلِ مَذْهَبِ مَالِكٍ بِالْخَوْضِ فِي حَقِيقَتِهَا فَيَكْفِيكَ النَّصُّ عَنْهُمْ ، فَلَا تَخْضُ بِأَكْثَرِ مِنْهُ . وَقَدْ قَالَ مِيسَعُ الْحَوْضِ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِأَنْبِيَاءِهِ ﷺ :

« قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » .

تَصَدِيقًا لِمَا فِي كُتُبِ الْيَهُودِ مِنْ أَنَّ الْإِمْسَاكَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ مَحَلِّاتِ نُبُوَّتِهِ ، وَأَدْلَةٌ رِسَالَتِهِ ﷺ (٢)

(١) مَالِكٌ : الْجَارُ وَالْجَرُورُ مُتَعَلِّقَانِ بِقَوْلِهِ « وَجَدَا » فِي عَجَزِ الْبَيْتِ السَّادِقِ .

(٢) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ لَمْ يَوْذَنْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي الرُّوحِ ، فِي سَوْءِ الْيَهُودِ لَهُ عَمَّا وَتَزَرُّقُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلْيَهُودِ : أَعْطَوْنَا شَيْئًا فَسَأَلْنَا عَنْهُ هَذَا الرَّجُلُ ، فَقَالُوا : مَجُوءٌ عَنِ الرُّوحِ ، =

• • • • •

==فسألوه فنزلت الآية . وذكر ابن كثير في تفسيره (ص ١٧ ، ج ٤) بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يتحنون به النبي ، فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث تأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم ، سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وسلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن الروح . وقد ذكر السبيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها ، وقرر أنها ذات لطيفة كالنفوس ، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر ، وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين إنما هي النفس بشرط اتصالها بالبدن ، واكتسابها بحسبه صفات مدح أو ذم ، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء ، كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكتسب بسبب اختلاطه معها إما خاصاً ، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مصطاراً أو خراً ولا يقال له : ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز ، كذلك لا يقال للنفس روح إلا على هذا النحو وكذلك لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه . فحاصل الأمر أن الروح هي أصل النفس ومادتها ، فالنفس مركبة منها ، ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه لا من كل وجه .

٩٥-والعقل كالروح وَلَكِنْ قَرُّوْا فِيهِ خِلَافاً فَانْظُرْنَ مَا فَسَّرُوا

● والعقل كالروح : أي العقل من حيث الخوض في حقيقته مثل الروح . وطريق الوقف هو المختار فيه لأنه من المغيبات . والعقل - لغة - المنع ، من عقل البعير إذا منعه . وسمي بذلك لمنعه صاحبه من العدول عن سواء السبيل .

● وَلَكِنْ قَرُّوْا : هذا الإستدراك لاجل له - هنا - لأن الخلاف وقع في الروح أيضاً .

● فانظرن ما فسرنا : أي فانظرن التفاسير التي ذكرها القوم في كتبهم . وقد تطابقت أقوال أهل السنة في عرضته ، فقال بعضهم : إنه العلم ببعض العلوم الضرورية كالعلم بوجوب تحييز الجرم واستعالة عروته عن الحركة والسكون ، وجواز إحراق النار وغير ذلك . وعرفه الشيرازي : بأنه صفة يميز بها بين الحسن والقيبح . وأحسن ما قيل فيه : أنه نور روحاني ، به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية . وقال بعضهم : إن ثمة اظيفة ربانية لا يعلمها إلا الله تعالى ، فمن حيث تفكرها تسمى عقلاً ، ومن حيث حياة الجسد بها تسمى روحاً ، ومن حيث شهوتها تسمى نفساً ، فالعقل والروح والنفس أسماء لمُسَمَّى واحد ، وفي كلام الغزالي : أنه جوهر مجرد . وقد اختلف في محله والصحيح أن محله القلب ، وله نور متصل بالدماغ كما ذهب إليه الإمام الشافعي والإمام مالك رضي الله عنهما وجمهور المتكلمين . وقالت الحكماء وبعض الفقهاء : بأن محله الدماغ لفساده بفساد الدماغ ، وهذا لا يبدل على ما ذكرناه ، لجواز أن تكون سلامة الدماغ شرطاً لاستمراره وإن كان محله القلب .

٤٦- سُؤَالِنَا ثُمَّ عَذَابُ الْقَبْرِ نَعِيمُهُ وَاجِبٌ كَبَعَثَ الْحَشِرَ

• سؤَالِنَا : أَي سؤَال مَكْرُونِك-يَرِإِنَا مَعَاثِرَ أَمَةِ الدَّعْوَةِ ،
مُؤْمِنِينَ وَمُنَافِقِينَ وَكَافِرِينَ . وَإِنَّمَا سَمِيَ الْمَلَكَانِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمَا يَأْتِيَانِ الْمَيِّتَ
بِصُورَةٍ مُنْكَرَةٍ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

« إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ (أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ) أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ
أَزْرَقَانِ ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا مُنْكَرٌ وَلِلْآخَرِ نَكِيرٌ ، فَيَقُولَانِ :
مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ : مَا كَانَ يَقُولُ ،
هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . فَيَقُولَانِ : قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ
تَقُولُ هَذَا ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ،
ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ أَرْجِعْ إِلَيَّ
أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ ؟ فَيَقُولَانِ : نَعَمْ كَسَوْتُمُ الْعَرَّوسَ الَّذِي
لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ
مَضْجَعِهِ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا ، قَالَ : سَمِعْتُمُ النَّاسَ
يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتُ مِثْلَهُ ، لَا أَدْرِي ، فَيَقُولَانِ : قَدْ كُنَّا
نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ . فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ : التَّسْمِي عَلَيْهِ ،

فَلَمَّا تَشَمُّ عَلَيْهِ فَتَخْتَلِفُ أَضْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذِّبًا حَتَّى
يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ^(١).

وقيل : هما المؤمن الموفق مبشر وبشير ، وأما الكافر والمؤمن العاصي
فلهما منكر ونكير . وسؤالهما بعد تمام الدفن وعند انصراف الناس ففي
الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ قال :

« إِنْ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَإِنَّهُ
لَيَسْمَعُ قَرْعَ نَعَالِهِمْ إِذَا انْصَرَفُوا ، أَنَاهُ مَلَكَانِ فَيَقْعِدَانِهِ
فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ؟ فَأَمَّا
الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، فَيُقَالُ
انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبَدَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ
الْجَنَّةِ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا - وَأَمَّا الْكَافِرُ
أَوِ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ : لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيهِ ،
فَيُقَالُ لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِطَرْقَةٍ مِنْ
حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ
إِلَّا الثَّقَلَيْنِ^(٢) ،

(١) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه .

(٢) رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم . الثقلين : الإنس والجن .

هنا ما ذهب إليه الجمهور ، وهو ظاهر الأحاديث ، وثمة أقوال بعدد الأيام التي يسأل فيها الميت ، منها أن المؤمن يسأل سبعة أيام والكافر أربعين . ويسألان كل أحد بلسانه على الصحيح . ولا بد من سؤال الميت ، ولو تمزقت أعضاؤه أو أكلته السباع في أجوافها ، إذ لا يبعد أن الله تعالى يعيد له الروح في أعضائه ولو كانت متفرقة لأن قدرته تعالى صالحة لذلك . وإن مات جماعة في وقت واحد بأقاليم مختلفة ، فقد ذهب القرطبي إلى جواز أن الملكين يعظمان فيسألان الجميع بوقت واحد أو أن ملائكة السؤال عديدون ، كما ذهب إليه الحافظ السيوطي ووافقه عليه الحلبي ، والذي يشبه أن يكون أن للسؤال ملائكة كثيرين ، فيبحث إلى كل ميت إثنان منهم والله أعلم . واختلف في كيفية السؤال ، فمنهم من يسأل عن بعض اعتقاداته ومنهم عن كلها . قال ابن عباس : يسألان عن الشهادتين ، ويقال عكرمة : يسألان عن الإيمان بحمد عليه السلام وعن التوحيد ، وورد أنها يقولان : ما تقول في هذا الرجل ؟ فالمرتاب يجيب بلا أدري ، فيشقى أبد الآبدين . وهذا السؤال هو فتنة القبر . وقيل : فتنتها ما ورد من حضور إبليس في زاوية من زوايا القبر مشيراً إلى نفسه . وذلك عند قول الملك للميت من ربك ؟ ! حتى يقول الميت هذا ربي . والأنبياء لا يسألون ، وقيل يسألون عن الوحي وجبريل ، وكذلك الصديقون والشهداء والمرابطون والملازمون لقراءة سورة الملك كل ليلة من حين بلوغ الخبر إليهم ولا يضر الترك مرة بعدد ، وذكر بعضهم سورة السجدة كذلك ، وكذلك من قرأ بمريض موته سورة الإخلاص ،

ومريض البطن ، والميت بالطاعون أو بغيره في زمنه صابراً محتسباً ،
والميت ليلة الجمعة أو يومها . والراجع أن غير الأنبياء وشهداء المعركة
يسألون سؤالاً خفيفاً . والظاهر كما جزم به الجلال السيوطي وغيره
اختصاص السؤال بالمكلفين بخلاف الأطفال وحكمة السؤال - والله
أعلم - إظهار ما كتبه العباد في الدنيا من إيمان أو كفر أو طاعة .
فالمؤمنون الطائعون يباهي الله بهم الملائكة . وغيرهم يفضحون .

● ثم عذاب القبر : مما يجب اعتقاده عذاب القبر ، وإنما أضيف
العذاب للقبر لأنه الغالب ، وإلا فكل ميت أراد الله تعذيبه عذب ، قبر
أو لم يقبر ، ولو غرق أو صلب أو التهمته الضواري أو حرق ثم ذرته
الرياح ، وتفتت الأعضاء لا يمنع من وجود العذاب ومن وقوعه على الروح
والبدن جميعاً باتفاق أهل الحق إذ جائز أن يخلق الله تعالى في ذرة ما أشد
الآلام وأرقى اللذات . فقد ورد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان
إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته ، فسئل عن ذلك ، وقيل له :
تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت
رسول الله ﷺ يقول :

« إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ ، فَإِنْ نَجَّى مِنْهُ صَاحِبُهُ
فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ . » (١)
وورد عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(١) رواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه .

«لَوْ لَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ»^(١).

وذهب محمد الطبري وعبد الله بن كرام وطائفة إلى القول بأن المعذب هو البدن فقط ، وذلك بأن يخلق الله فيه إدراكاً به يسمع ويبصر ، ويتألم ويلتذ ، وهذا خلاف الحق . والعذاب للكافر والمنافق دائم ديمومة البرزخ . وينقطع عن المؤمن العاصي إن خفت جرائمه ، كما يرفع بالدعاء أو الصدقة ، أو غير ذلك ، كما قاله ابن القيم وكل من لا يسأل في القبر لا يعذب . وضغطة القبر من عذابه ، وهي التقاء حافتيه التقاء برزخياً يتناسب مع عالم البرزخ ، وما يحكمه من قوانين ، فتضمه الأرض حتى تختلف أضلاعه ولا ينبعج من الضمة أحد حتى الصلحاء ، ما خلا الأنبياء وفاطمة بنت أسد ، ومن قرأ سورة الإخلاص في مرض موته .

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ :

«إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً ، وَلَوْ سَلِمَ أَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ»^(٢)

وهو الذي اهتز عرش الرحمن لموته ، فعن جابر رضي الله تعالى عنه :

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ »»^(٣).

-
- (١) رواه الإمام مسلم في صحيحه .
 (٢) رواه الإمام أحمد بإسناد جيد .
 (٣) رواه البخاري ، وهو في هداية الباري ج ١ صفحة ٢٥٣ . ورواه مسلم بلفظ اهتز عرش الرحمن لموت سعد . وفي ذلك يقول حسان رضي الله عنه :
 وما اهتز عرش الله من أجل هالك سمنا به إلا لسعد أبي عمرو

وأما المؤمنون الصالحون الذين قدر الله لهم ألا يعذبوا فهم في نعيم القبر .
وقد بلغت النصوص في نعيمه مبلغ التواتر . وكما أن العذاب لا يختص
بالقبر فكذلك النعيم ، فهو يشمل كل ميت قدر له ، قبر أو لم يقبر ، ولا
يختص بالمؤمنين من هذه الأمة ، ولا بالمكافئين . ومن النعيم توسيع القبر ،
وفتح طاقة فيه من الجنة ، وامتلاؤه بالريحان وجعله روضة من رياض
الجنة وتنويره حتى يغدو كالقمر ليلة البدر ، وكل هذا بما يتناسب مع
عالم البرزخ ، وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى هومي : تعلم الخير وعلمه
الناس ، فإني منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم ، حتى لا يستوحشوا لمكانهم .
وبن عمر رضي الله عنه مرفوعاً :

« مَنْ نُورَ فِي مَسَاجِدِ اللَّهِ نُورَ اللَّهِ لَهُ فِي قَبْرِهِ » .

وكل هذا محمول على حقيقته عند العلماء بما يتناسب مع البرزخ والحاصل
أن كلاً من السؤال والعذاب والنعيم واجب سمعاً ، فهو في حد ذاته
أمر ممكن عقلاً ، أخبر به الصادق فأضحى واجباً شرعاً ، وهذا ما عليه
أهل السنة وجمهور المعتزلة ولا ينكره إلا ملحد مطموس البصيرة .

● كعب الحشر : البعث عبارة عن إحياء الموتى وإخراجهم من
قبورهم بعد جمع الأجزاء الأصلية وهي التي من شأنها البقاء من أول العمر
إلى آخره ، ولو قطعت قبل موته بخلاف التي ليس من شأنها ذلك ،
كالظفر مثلاً . والحشر عبارة عن سوقهم جميعاً إلى الموقف ، وهو الموضع
الذي يقفون فيه لفصل القضاء ، ووزن الأعمال ، ومنه إما إلى جنة أو
إلى نار ، وهو أرض لم يعص الله عليها ، فعن سهل بن سعد قال :
قال رسول الله ﷺ :

وَيُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ ، كَقُرْصَةِ
التَّقِي ، لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ ،^(١) .

ولا فوق في الحشر بين من يجازى ومن لا يجازى ، كالبهايم والوحوش ،
على ما ذهب إليه المحققون ، وصححه النووي . وذهبت طائفة إلى أنه
لا يحشر إلا من يجازى ، أما السقط - إن لم ينفع فيه الروح - فكسائر
الأجسام التي لا روح فيها ، وأما - إن نفخت فيه - فيحشر ويصير عند
دخوله الجنة كآهلها في الجمال والطول . وأول من تنشق عنه الأرض
نبينا ﷺ ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ ، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ
عُمَرُ ، ثُمَّ آتَى أَهْلَ الْبَقِيعِ فَيُحْشَرُونَ مَعِيَ ، ثُمَّ أُنْتَظَرُ
أَهْلُ مَكَّةَ حَتَّى أُحْشَرَ بَيْنَ الْحَرَمَيْنِ»^(٢) .

فهو ﷺ أول مبعوث ، وأول وارد للمحشر ، وأول من يدخل الجنة
وبعده سيدنا نوح ، وورد أن بعده أبا بكر ، وحمل على أنه بعد
الأنبياء . ومراتب الناس في الحشر متفاوتة ، فمنهم الراكب وهو المتقي ،
ومنهم الماشي وهو قليل العمل ، ومنهم الماشي على وجهه ، وهو الكافر ،
فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) رواه البخاري ومسلم . والعفراء هي البياض وليس بياضها بالناصع .
والتقي هو الحب الأبيض . والعلم والعلم ما يجعل علامة للطريق والحدود ، أو هو الأثر .
(٢) رواه الترمذي برقم ٣٦٩٣ ج ٩ .

« يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ ، صِنْفًا مُشَاءً ،
وَصِنْفًا رُكْبَانًا ، وَصِنْفًا عَلَى وُجُوهِهِمْ . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ : إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى
أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمَشِّيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، أَمَّا إِنْهُمْ
يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَذَبٍ وَشَوْكٍ » ^(١)

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى : « الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ ،
أُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلَيْسَ
الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمَشِّيهُ
عَلَى وَجْهِهِ ؟ قَالَ قَتَادَةُ حِينَ بَلَغَهُ : بَلَى وَعِزَّةُ رَبِّنَا » ^(٢) .
وهذا هو أول نوع من أنواع الحشر ، وثانيها : صرف الناس من الموقف
إلى الجنة والنار ، وثالثها في الدنيا : وهو إخراج اليهود من جزيرة العرب
إلى الشام وهو المذكور في قوله تعالى :
« هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ
لِأَوَّلِ الْحَشْرِ » ^(١) .

ورابعها : سوق النار الخارجة من أرض عدن للكفار وغيرهم
قرب قيام الساعة إلى المحشر فنبئت معهم حيث بانوا وتقبل حيث قالوا ،
فتدور الدنيا كلها ، وتطير ولها دوي كدوي الرعد القاصف . فعن أنس
رضي الله عنه قال :

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

قال رسول الله ﷺ : «أما أولُ أَسْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارُ تَحْشُرُ
النَّاسَ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ»^(١) .
وحكمتها الامتحان والإختبار ، فمن علم أنها مرسلة من الله تعالى وانساق
معها سلم منها ، ومن لم يكن كذلك أحرقتة ، وبعد سوقها لهم إلى
المحشر يموتون بالنفخة الأولى بعد مدة .

(١) رواه البخاري ، وفي هداية الناري ص ١٢٩ جزء ١ والمراد بالمغرب
بلاد الشام .

٩٧- وَقُلْ يُعَادُ الْجِسْمُ بِالْحَقِّيقِ عَنْ عَدَمٍ وَقِيلَ عَنْ تَفْرِيقِ

● وقُلْ يُعَادُ الْجِسْمُ : ينبغي اعتقاد أن الله تعالى سيعيد الجسم أعادة محقة لاسك فيها بعد عدم ، وأن الجسم المعاد هو الجسم الأول بعينه ، لأمثله ، وليس هذا من قبيل الرأي إنما هو بالدليل ، فالجسم ينعدم بالكلية إلا عجب الذنب ، ثم يعيده الله تعالى كما أوجده أولاً .

قال تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »^(١)

أو يقال : إن الجسم لا تنعدم عينه بل يفرق الله أجزائه بحيث لا يبقى فيه جوهران فردان على الاتصال . فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله تعالى أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن رجلاً كان قبلكم رَغَسَهُ اللهُ مالا (أي أكثر له منه ، وبارك له فيه) فقال لبيته لما حَضَرَ^(٢) ، أي أبٍ كنتُ لكم ؟ قالوا : خيرٌ أبٍ . قال : فإني لم أعمل خيراً قط ، فإذا متُ فأحرقوني ، ثم اسحققوني ، ثم دَرَّوْني في رِيحٍ عاصِفٍ . ففعلوا . فجمعَهُ اللهُ فقال : مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا ؟ فقال : خَافْتُكَ ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ »^(٣) .

(١) أعراف ٢٩

(٢) أي لما حضره الموت .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

والصحيح أنه بنعمه الكلية لذا قدمه المصنف جازماً ، به وحكى القول
الثاني بصيغة التضعيف ^(١) .

(١) من دلائل البعث الظاهرة أنك ننظر في نفسك فتجدها مكونة من قطرة ماء ، لم يكن فيها لحم ، ولا دم ، ولا عظم ، ولا جلد ، ولا روح ، ولا شيء من الأعضاء . ثم فرق الله تعالى مجتمعك وأمات عيالك وأخفى ظاهرك ، وأصعب قوتك حين دسك في التراب . ثم كذلك يجمع متفرقك كما جمع أول مرة ، ويحيي مبتك كما أحياه أول مرة ، ويظهر خافيك كما أظهره أول مرة ، قال تعالى : « فسيقولون من بعدنا ؟ قل الذي فطركم أول مرة » ، وقال أيضاً : « قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » ، وقال : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة علقة وغير علقة ، لنبين لكم » فيبين وأوضح البيان . وقال أيضاً : « فلينظر الإنسان مما خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، إله على رجعه لقادر » وكيف لا يقدر على رجوع البليان وإعادة بعد خرابه من ابتدع بنائه ، قال تعالى « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » . ومما يبين دلائل البعث والشور أن الحبة تدفن في التراب ، وليس لها ورق ولا غصن ، ولا ثمر ، ولا ريش ولا طعم ولا حركة ، فتسكن في التراب ما شاء الله ، فيحييها فالق الحب والنوى ويخرجها من مدفنها ، فتخرج متحركة بعد إذ لم تكن لها حركة ، وتخرج من التراب ولها شعب وأوراق ... ولم يكن لها شيء من ذلك حين دسك في التراب ، فكذلك الإنسان ، يدس في التراب وليس له حركة ، ولا فيه روح ولا سمع ولا بصر كالحبة الميتة ، ثم يخرج وفيه روح وحركة وسمع وبصر ، وقد جعله الله تعالى بياناً لعباده ، ودلالة على ميعاده حيث قال : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا ، وأنزلنا من السماء ماء مباركاً ، فأنشأنا به جنات ، كذلك الخروج » ، وقال أيضاً : « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً فسقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات وكذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » . وقال : « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت ، فأحييناه الأرض بعد موتها كذلك للشور » . وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال : « فليس من بني آدم خلق ، إلا وفي الأرض منه شيء ، ثم يرسل الله ماء من تحت العرش كفي الرجال فتدبت جسامهم ولحماتهم من ذلك الماء كما تدبت الأرض من الري . ثم قرأ عبد الله بن عمرو =

• • • • •

== ابن العاص قوله تعالى : « الله الذي يرسل الرياح . . . » الى قوله : « كذلك
النشور » ، وتشبيه النازل بالماء من حيث الشكل والصورة ، لا من حيث الحقيقة ،
ويقال له : ماء الحياة ، ومطر الحياة . وقد جاء في رواية الإمام مسلم قوله
صلى الله وسلم : « . . . ثم يرسل الله مطراً كأفاه الطل ثلثت منه أجساد الناس »
ومن حديث أبي هريرة « . . . ثم ينزل الله من السماء ماء فيلبثون كما يندث البقل » .
أصف الى كل ما تقدم أنك ترى في الدنيا مظلوماً لم ينتصف من ظلمه . وظالماً
لم يعاقب بظلمه ، وعامل خير عاش في جهد وبلاء ، وشدة وأذى ، وعامل شر
عاش في لذة وخصب وراحة ، فلو لم يكن ثمة دار سواها لكان الظالم غير مهال بعقاب ،
والمظلوم غير منصف ، ولم يكن للخير منفعة ولا للشر مضرة . فإذا لم يكن في هذه
الدار فلا بد من أن يكون ذلك في دار سواها ، بذلك شهدت العقول ، والملك العدل
الفني من العالمين منزّه عن الظلم ، فلا يظلم ولا يجور .

وختاماً إن الذي قدر على أن يخلق الدنيا لغادر على أن يخلق الآخرة فليست
إحداها بأعجب من الأخرى . انتهى (ملخصاً من كتاب للإمام الترمذي رحمه الله) .

٩٨- مُحْضَيْنِ لَكِنْ ذَا الْخِلَافِ نَحْصًا بِالْأَنْبِيَا وَمَنْ عَلَيْهِمْ نَحْصًا

● محضين^(١) : أي إن الإعادة بعد عدم محض خالص عن سائبة الوجود أو بعد تفريق محض خالص عن سائبة الإتصال في أجزائه .
● لكن ذَا الْخِلَافِ : إن الخلاف الحاصل في الإعادة سواء بعد عدم أو التفريق لا يشمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإن الأرض لا تأكل أجسامهم ولا قبلها اتفاقاً ، وكذلك لا يشمل من نص الشارع الحكيم على أن الأرض لا تأكل أبدانهم كالشهداء ، والمؤذنين احتساباً^(٢) ، والعلماء العاملين ، وحمة القرآن للملازمين لتلاوته العاملين بما فيه ، المعظمين له بضبط لسانهم وطهارتهم ، وآدابهم ، إلى غير ذلك مما نقل عن الشارع ، فإن المسألة نوقية ، والشهيد كل مقتول على الحق ولو لم يكن من شهداء المعركة .

(١) محضين : « صفة لعدم وتفریق » في البيت السابق ، أي عود الجسم محقق ، سواء كان من عدم أو تفريق محضين .

(٢) أي ادخاراً للشواب عند الله لا لأجرة .

٩٩- وفي إعادة العرض قولانٍ ورُجِّحت إعادة الأعيانِ

● وفي إعادة العرض : ذهب الأكثرون إلى أن العرض يعاد حين إعادة الجسم ، ومال إليه الأشعري . ولا فرق بين العرض الذي يطول بقاؤه ، كاللوث ، وبين غيره ، كالصوت ، وبين ما هو مقدور للعبد - كالضرب - وبين غيره ، كالعلم . فما كان من الأعراض الملازمة للذات من بياض وطول ونحوه فإنه يعاد متعلقاً بها ، وما كان من غير ذلك - كالكفر والمعاصي والإيمان والطاعة - فإنه يعاد مصوراً بصور حسية ، فتكون حسنة من الحسنات وقبيحة في السيئات ، هذا هو الظاهر . وهذه الإعادة ليست دفعة واحدة بل هي على التدرّج حسبما كانت في الدنيا ، لكنها تمّ كجمع البصر ، وربك على كل شيء قدير

قال تعالى : «اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» ، لا ظلمَ اليَوْمَ ، إنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ^(١) ،

والتفويض في مثل هذه المواطن أفضل . وذهب بعض أصحابنا إلى امتناع إعادة العرض مطلقاً ، فقالوا يوجد الجسم بعرض آخر ، إذ لا ينفك جسم عن عرض ما ، لكن الراجح إعادة الأعراض بأعيانها وهي التي كانت في الدنيا .

(١) خافر ١٧ .

١٠٠- وفي الزمن قولان . والحسابُ

حَقٌّ ، وَمَا فِي حَقِّهِ ارْتِيَابٌ*

● وفي الزمن قولان : الأرجح أن جميع أزمنة الأجسام - التي مورت عليها في الدنيا - تعاد لتشهد للإنسان وعليه ، بما أوقع فيها من الطاعات والآثام ، لكنها إعادة على التدريب حسب ما مورت في الدنيا وإن كانت في الآخرة أمرع . ومال بعضهم إلى امتناع إعادة الأزمان لبطان اجتماع المتنافيات كلامي والحال والاستقبال . وهذا مدفوع بأن إعادة تدريجية .

● والحساب حق : أي ثابت بالكتاب والسنة والإجماع . وهو توقيف الله الناس على أعمالهم خيراً كانت أو شراً ، قولاً كان أو فعلاً ، بعد أخذهم كتبها ، ويشمل الحساب المؤمنين والكافرين من الإنس والجن ، إلا من استثنى الله تعالى منهم ، ففي الحديث أنه ﷺ قال :

« وَوَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا ، لَا يُحْسَبُ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابٌ ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا ، وَثَلَاثَ حَشَيَاتٍ مِنْ حَشَيَاتِهِ »^(١) .

فمن كان أدنى إلى الرحمة أدخل الجنة بلا حساب ، ومن كان من الكافرين - أدخل إلى الغضب - أدخل النار بلا حساب ، ثم طائفة قائمة نوقف للمحاسبة ، فقد ورد عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت :

« سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مِنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ .

(١) رواه الترمذي برقم ٢٤٣٩ ج ٧ .

فَقُلْتُ : أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ : فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ
فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ؟
قال : إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكٌ ^(١) .

وقد اختلف في المراد من توقيف الله الناس على أعمالهم ، فقيل : هو أن
يخلق الله تعالى في قلوبهم علوماً ضرورية بمقادير أعمالهم في الثواب والعقاب ،
وهذا قول الفخر . وقيل : إن المراد أن يوقفهم بين يديه سبحانه ،
ويؤتيهم كتب أعمالهم ، وفيها سيئاتهم وحسناتهم ، وهذا القول منقول عن
ابن عباس ، وفيه قصور ، لأن الحساب غير قاصر على هذا المقدار ،
إذ ورد أن الكافر ينكر فتشهد عليه بجوارحه .

قال تعالى : « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ
حَتَّىٰ إِذَا مَاجَأُوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟
قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٢) .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال :

« كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَضَحِكَ ، فَقَالَ : هَلْ تَذَرُونَ مِمَّ

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي ٢٤٢٨ .

(٢) فصلت ١٩ - ٢١ .

أضحك؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من مخاطبة العبد ربه ،
 فيقول : يارب ، ألم تُجِرني من الظلم ؟ يقول : بلى ، فيقول :
 إني لا أجزى اليوم على نفسي شاهداً إلا مني ، فيقول : كفى
 بنفسك اليوم عليك حسيباً ، والكرام الكاتبين شهوداً . قال :
 فيُختم على فيه ، ويقول لأركانِهِ : انطقي ، فتُنتطق بأعمالِهِ ، ثم
 يُخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لكن وسُحقاً ، فنعكن
 كنت أناضل^(١) .

وورد أن الأرض تشهد كذلك ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
 قرأ رسول الله ﷺ : يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ، قال :
 أَتَذَرُونَ مَا أَخْبَارُهَا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :
 فَإِنْ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى
 ظَهْرِهَا ، تَقُولُ : عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، قال :
 فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا^(٢) .

وقيل : المراد به أن يكلمهم في شأن أعمالهم وكيفية ما لها من الثواب
 وما عليها من العقاب فيسمعهم كلامه القديم ، وهذا ما تشهد له الأحاديث
 الصحيحة . فعن علي بن حاتم قال :

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الترمذي برقم ٤٣١ - ج ٧ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا شَيْئًا قَدَّمَ ، ثُمَّ يَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى شَيْئًا ، إِلَّا شَيْئًا قَدَّمَ ، ثُمَّ يَنْظُرُ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ فَمَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ . قَالَ ﷺ : مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَقِيَّ وَجْهَهُ حَرَّ النَّارِ — وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ — فَلْيَفْعَلْ »^(١) .

ولا يشغله سبحانه محاسبة أحد عن أحد بل يحاسب الناس جميعاً معاً ، حتى أن كل أحد يرى أنه المحاسب وحده وكيفية الحساب مختلفة ، فمنه اليسير والعسير ، والسر والجهر ، والتوبيخ والفضل والعدل ، وحكمته إظهار تفاوت المراتب في الكمال ، وفضائح أهل النقص ، فيه ترغيب في الحسنات وزجر عن السيئات . ولا ينبغي الشك فيه لأنه حق ، وما في حق ارتياب ، ورد عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى (يريد مناجاة الله تعالى للعباد يوم القيامة) ؟ قال : سمعته يقول :

« يُدْنِي الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُ ؟ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ . قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ . وَأَمَّا الْكَفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ »^(٢) .

(١) رواه البخاري ومسلم برقم ٢٤١٧ ج ٧ .

(٢) رواه الإمام مسلم ، وفي تفسير القرطبي (١٦٥/٧) .

١٠١- فالسِّبْثَاتُ عِنْدَهُ بِالْمِثْلِ وَالْحَسَنَاتُ مُضَوِّعَتٌ بِالْفَضْلِ

● فالسِّبْثَاتُ عِنْدَهُ بِالْمِثْلِ : أي يجازي الله على السِّبْثَاتِ بِمِثْلِهَا ، إن جازى عليها ، وإن يعفو عنها إن لم تكن كفراً ، وإلا خلد صاحبه في النار ، والسِّبْثَةُ ما يذم فاعلها عليها شرعاً ، صغيرة كانت أو كبيرة . وسميت سبْثَةً لأن فاعلها يساء عند المقابلة عليها يوم القيامة . والمواد بها التي عملها العبد حقيقة ، أو حكماً بأن طرحت عليه اظلامه اجترحها بعد نفاذ حسناته ، فإنه يؤخذ من حسنات الظالم ويعطى للمظلوم ، فإذا نفدت حسنات الظالم طرح عليه من سبْثَاتِ المظلوم ، ثم قذف بالظالم في النار . قال أبو هريرة رضي الله عنه :

قال رسول الله ﷺ : « هَلْ تَذَرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ ؟ » قُلْنَا الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا دِينَارَ ، وَلَا مَتَاعَ . قال : الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَفْضِيَ مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ ^(١) .
أما الحسنات فيضاعفها الله تعالى بفضله ، إذ لا يجب عليه ذلك . والحسنة

(١) رواه مسلم .

ما يمدح فاعلها عليها شرعاً ، وسميت حسنة لحسن وجه صاحبها عند رؤيتها يوم القيامة ، والمراد الحسنات المقبولة المعمولة للعبد أو ما في حكمها بأن عملها عنه غيره كما إذا تصدق غيره عنه بصدقة . أما الحسنات المأخوذة نظير ظلامة فلا تضاعف . والحسنات المردودة ما خالطها الرياء ، فهذه لا ثواب فيها أصلاً . والحسنة التي يهيم الإنسان بفعلها ولكنه لا يفعلها تكتب حسنة واحدة من غير تضعيف . والتضعيف من خصائص هذه الأمة ، أما غيرها من الأهم فحسنتهم بحسنة واحدة . وأقل مراتب التضعيف عشر مراتب ، وقد تضاعف إلى سبعين ، إلى سبعمائة ، أو أكثر من غير انتهاء إلى حد تقف عنده . وتفاوت هذه المراتب إنما هو تبع لما يقتون بالحسنة من إخلاص ، وحسن نية .

١٠٢- وباجتناب الكبائر تُغفر صغائرُ وجا الوُضوءُ يُكَفَّرُ

● وباجتناب الكبائر : الكبائر هي الذنوب العظيمة من حيث المؤاخذه بها ، والمراد أن باجتناب الكبائر تكفر الذنوب الصغائر ، سواء اجتنبها فلم يقرنها أصلاً ، أو قاب منها بعد فعلها ، قال تعالى : «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»^(١) . والسيئات هي الصغائر . وقال ﷺ :

« مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَاةَ الْخَمْسَ ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ ، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ السَّبْعَ ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ : ادْخُلْ بِسَلَامٍ » .

قال أبو هريرة : خطبنا رسول الله ﷺ فقال :

« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، نِمَ أَكْبٌ ، فَأَكْبٌ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّْا يَبْكِي لَا تَذَرِي مَاذَا حَلَفَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فِي وَجْهِهِ الْبُشْرَى ، وَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ ، فَقَالَ : الْحَدِيثُ السَّالِفُ »^(٢) .

والسبع ليست بقيد بل غيرها من الكبائر مثلها . والمراد بها الموبقات

(١) النساء ٣١ .

(٢) رواه النسائي والحاكم في مستدركه وابن حبان .

السبع . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
 « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ »
 قَالَ : الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسُّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
 إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ
 الزُّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ^(١) .
 وفي حديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
 « الصَّلَاةُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ
 مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ ، إِذَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرُ ^(٢) .
 ولكن ذهب أئمة الكلام إلى أن ترتب التفكير على الاجتناب غير قطعي ،
 وهو الحق ، بخلاف من قال بأنه قطعي ، كالمعتزلة وجماعة من الفقهاء
 والمحدثين . وغفوان الذنب هو عدم المؤاخذه به (ما يستره عن أعين
 الملائكة مع بقاءه في الصحيفة ، وإما بحجوه . وحكى بعضهم : أن
 الستور هو الصحيح عند المحققين .

● وجا الوضوء يكفر ^(٣) : وقد جاء في السنة أن الوضوء يكفر الذنوب .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
 « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ »
 قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ لِاسْبَاغِ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَسْكَاةِ ،

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ، وَفِي هِدَايَةِ الْبَارِي مِنْ ١٩ جُزْءٍ ١ .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَفِي رِيَاضِ الصَّالِحِينَ بِرَقْمٍ ١٣٠٠ .

(٣) حُذِفَتِ الْهَمْزَةُ مِنْ لَفْظَةِ « جَاء » وَلَفْظَةِ « الْوُضُوءِ » لِمُتَعَدِّ الْوُضُوءِ لِمُتَعَدِّ الْوُضُوءِ .

وكثرة الخطأ إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ،
فذلكم الرباط»^(١) .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجْتُ
خَطَايَاهُ ، حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ »^(٢) .

وفي الحديث أيضاً ، عن عثمان أنه ﷺ قال :

« مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ
فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »^(٣) .

يعني لا يحدث نفسه بسوء ، والتكفير غير متوقف على الصلاة لأن ذكرها
- هنا - إنما هو للتغيب في سنة الوضوء ليزيد ثوابه ، فعن عثمان
رضي الله عنه قال :

« رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ مِثْلَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ قَالَ :
مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَكَانَتْ صَلَاتُهُ
وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً »^(٤) .

(١) رواه الإمام مسلم وفي رياض الصالحين برقم ١٣١

(٢) رواه الإمام مسلم ، وفي رياض الصالحين برقم ١٠٢٤ .

(٣) رواه الإمام مسلم . والبخاري وفي هداية الباري ص ٧١٢ ج ٢ قال
الشارح : إنما أراد تحديث النفس بشيء من متعلقات الدنيا .

(٤) رواه الإمام مسلم .

والحاصل أن التكفير غير مقصور على اجتناب الكبائر بل يحصل بالوضوء والصلوات والصوم والحج المبرور . والذنوب كالأفراط ، والطاعات كالأدوية ، فلكل ذنب طاعة تكفره ، كما أن لكل داء دواء ينجع فيه ، كما يدل له حديث

« إِنَّ مِنْ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لَا يَكْفُرُهَا صَوْمٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا جِهَادٌ وَإِنَّمَا يُكْفَرُهَا السَّعْيُ عَلَى الْعِيَالِ » .

فلا يرد أنه إذا كفر الوضوء الصغائر فلا يبقى للصيام وغيره ما يكفر . هذا في الذنوب المتعلقة بحق الله تعالى . أما ما يتعلق بحق الآخرين فلا بد فيها من المقاصة بأن يؤخذ من حسنات الظالم فتعطى للمظلوم . لكن ورد عن أنس بن مالك مرفوعاً :

« مِنْ تَلَا « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » مِائَةَ أَلْفٍ مَرَّةً ، فَقَدْ اشْتَرَى نَفْسَهُ مِنْ اللَّهِ ، وَنَادَى مُنَادٍ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سَمَوَاتِهِ ، فِي أَرْضِهِ : أَلَا إِنَّ فُلَانًا عَتِيقُ اللَّهِ ، فَمَنْ لَهُ قَبْلَهُ تَبِيعَةٌ فَلْيَأْخُذْهَا مِنْ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ » ^(١)

فهذه هي العتاقة الكبرى إذ تشمل الكبائر أيضاً . ومن جملة المكفرات الغزو ، فقد ورد « أن الغزو في البر يكفرها إلا التبعات ، وفي البحر يكفرها حتى التبعات » . فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ :

« يَغْفِرُ اللَّهُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ » ^(٢) ، وعن أبي قتادة

(١) أخرجه البزار .

(٢) رواه مسلم ، وفي الرياض الصالحين ١٣٠٩ .

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ . فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُكَفِّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ : نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ
مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٌ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : كَيْفَ قُلْتَ ؟ قَالَ :
أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُفَكِّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ
ﷺ : نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٌ ، إِلَّا الدِّينَ ،
فَإِنْ جَبْرَيْلَ قَالَ لِي ذَلِكَ ،^(١)

وعن عمران بن حصين قال :

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ غَزْوَةً فِي
الْبَحْرِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يَغْزُو فِي سَبِيلِهِ - فَقَدْ أَدَّى إِلَى اللَّهِ
طَاعَتَهُ كُلَّهَا ، وَطَلَبَ الْجَنَّةَ كُلَّ مَطْلَبٍ ، وَهَرَبَ مِنَ النَّارِ
كُلَّ مَهْرَبٍ ،^(٢)

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) رواه الطبراني في معاجزه الثلاث .

١٠٣- واليوم الآخر ثم هول لموقف حق فخفف يارحيم واسعف

● واليوم الآخر : إن أول اليوم الآخر من وقت الحشر إلى ما لا يتناهى على الصحيح . وقيل حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . وإنما سمي آخراً لأنه متصل بآخر أيام الدنيا لا أنه آخرها . وسمي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم بين يدي خالقهم ، وقيام الحجة لهم أو عليهم . وله أسماء نحو الثلاثاء . واليوم الآخر حق مثل الهول الحاصل فيه وإن الناس ينالهم من الشدائد في الموقف الشيء الكثير . فطوله ألف سنة ، وقيل : خمسون ألفاً^(١) ، ولا تنافي لأن العدد لا مفهوم له ، فيطوله على الكفار ، قال الحسن : مقداره خمسين ألف سنة ، لا ياكون فيها أكلة ولا بشريون فيما شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً واحتترقت أجوافهم جوعاً ، انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية ، قد آن حرها ، واشتد افجها ، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم ، فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم . ويتوسط على الفساق . ويخفف على الطائعين حتى يكون كصلاة ركعتين ، فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال :
« يَهْوَنُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَتَدَلِّي الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ »^(٢) .

(١) قال عبد الله بن عمرو : لا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « يوم يقوم الناس لرب العالمين » ثم قال : « كيف يسكن إذا جمعكم الله كما تجمع النبل في في الكتانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم . رواه الطبراني في الكبير .
(٢) أخرجه أبو يعلى .

وروي أيضاً بلفظ :

« إِنَّ اللَّهَ لَيُخَفِّفُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ طَوْلَهُ كَوَقْتِ صَلَاةٍ مَفْرُوضَةٍ »^(١)

وفيه يلجم الناس بالعرق الذي هو أنق من الجيفة فيبلغ آذانهم ويذهب في الأرض سبعين ذراعاً . ففي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعاً ، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانُهُمْ »^(٢) .
والناس في العرق على قدر أعمالهم ، ففي الحديث :

« تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كِمِقْدَارِ مِيلٍ فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِنْجَاماً ، وَأُشَارَ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ »^(٣) .

وفيه سؤال الملائكة لهم عن أعمالهم وتفريطهم فيها :

قال تعالى : « وَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ »^(٤) .

(١) أخرجه البيهقي .

(٢) متفق عليه وفي رياض الصالحين برقم ٤٠٢ :

(٣) رواه مسلم عن المقداد وفي رياض الصالحين برقم ٤٠١ .

(٤) الصافات ٢٤ .

وفيه شهادة الألسنة والأيدي والأرجل والسمع والجلد والأرض والليل والنهار والحفظة . أما الأنبياء والأولياء وسائر الصلحاء فهم عن كل هذا مبعدون .

قال تعالى فيهم : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ »^(١) .

فهم آمنون من عذاب الله تعالى ، لكنهم يخافون خوف إجلال وإعظام .
 • ويجب الإيمان بعلامات اليوم الآخر المتواترة ، فهي حق ثابت كشبوت اليوم الآخر ، وعلاماته الصغرى ، منها ما قد وقع ، ومنها ما لم يقع . وأما الكبرى فهي عشر علامات : قال حذيفة بن أسيد الغفاري : « أَطْلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ » ، فقال : « مَا تَذَكَّرُونَ ؟ » قالوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ ، قال : « إِنَّهَا لَنْ تَقْدُمَ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ » ، فذَكَرَ الدُّخَانَ^(٢) .

(١) أنبياء ١٠٣ .

(٢) قال الصحابي الجليل عبد الله بن عمر : « يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كمياً الزكام ، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيز . أي كالرأس المشوي على هي الجمر . رواه ابن جرير في تفسيره . وقد جاء تفسير (الدخان) بهذا المعنى من عدد من أجلاء الصحابة . رفعه بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأي سعيد الحذري ، وأبي مالك الأشعري ، ووقفه بعضهم ولم يرفعه كعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس . وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد أن ذكر تفسيره مستنداً إلى ابن عباس : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما خبر الأمة : ترجان القرآن ، وهذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : « فارقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » أي بين واضح يراه كل أحد (يغشى الناس) أي يتفشاهم ويمصمهم .

والدَّجَالُ^(١) .

(١) - الدجال : فعال من الدجل . وهو التغطية . وسي دجالاً لأنه يغطي الحق بباطله . ويسمى : المسيح الدجال؛ ومسيح الضلالة ، لأنه ممسوح العين ، أو لأنه مسح الأرض ، أي يقطعها في المدة القليلة . والدجال المنحدر عنه - هنا - قد تواترت الأحاديث الصحيحة بخروجه ، حتى أصبح خروجه من اليقينيات المقطوع بها وقد جاء في تنبيهات العلامة السماريني مايلي : التنبيه الثالث : ومما ينبغي لكل عالم أن يثبت أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال . وقد قال الإمام ابن ماجه : سمعت الطائفي يقول : سمعت البخاري يقول : ينبغي أن يدفع هذا الحديث - أي حديث الدجال - إلى المؤدب حتى يعلمه الصبيان في الكتاب ، وقد ورد أن عمات خروجه لسيان ذكره على المنابر . وقد أخرج الإمام أحمد وابن خزيمة وأبو يعلى والحاكم عن جابر بن عبد الله مرفوعاً : « يخرج الدجال في خفة من الدين ، وإدبار من العلم » وعن ابن عباس موقوفاً قال : أول من يتبعه - أي الدجال - سبعون ألفاً من اليهود عليهم السبعان (جمع ساج وهو الطيلسان الضخم الغليظ) ومعه سحرة اليهود يعملون العجائب ويرونها الناس فيضلونهم بها ، وهو أعور ، ممسوح العين اليمنى يسلمه الله على رجل من هذه الأمة فيقتله ثم يضربه فيحياه ، ثم لا يصل إلى قتله ، ولا يسلم على غيره وتكون آية خروجه ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتهاوناً بالدماء . وإذا ضيعوا الحكم ، وأكلوا الربا ، وشيدوا البنين (أي للتباهي) وشربوا الخمر واتخذوا القبان ، ولبسوا الحرير وأظهروا نزة آل فرعون (أي تكون عليهم هيئة المتكبرين) ونفضوا العبد ، وتفقهوا لفير الدين ، وزينوا المساجد ، وخربوا القلوب ، وقطعوا الأرحام ، وكثرت القراء (أي العلماء الزائفون) وقلت الفقهاء ، وعطلت الحدود ، وثبته الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، وتكافى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء (أي استغنى كل جنس منهم بجنسه فاحشته) بعث الله عليهم الدجال ، فتسلط عليهم حتى ينتقم منهم ، وينحاز المؤمنون إلى بيت المقدس . والدجال هذا آخر ثلاثين دجالاً يخرجون قبله . عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرسول قال : « ... وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي » رواه أبو داود والترمذي . وعن سرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً آخرهم =

• • • • •

«الأعور الدجال» رواه الإمام أحمد والطبراني . وقد بين سيدة رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصاف هذا الدجال وأحواله وأفعاله ونهايته بأوفى بيان . فقد روى الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنه - أي الدجال - يهودي، وإنه لا يولد له ولد، ولا يدخل المدينة ولا مكة» رواه الإمام مسلم. «وإن عينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى، كأنها نخاعة في حائط مجصص وعينه اليسرى: كأنها كوكب دري، معه من كل لسان، ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء، وصورة النار سوداء» رواه الإمام أحمد. «وبين يديه رجلان يندران أهل القرى، كلما خرجا من قرية دخل أوائله فيها» رواه أبو نعيم والبزار. «وسبكون خروجه من قبل المشرق جزماً، وجاء في رواية أنه يخرج من خراسان» أخرج ذلك الإمام أحمد والحاكم. وأخرج الإمام مسلم في روايته أنه يخرج من أصفهان. ويخرج أولاً فيدعي الإيمان والصلاح ثم يدع الفتنة، ثم بدعي الألوهية، مكنوب بين عينيه كافر، يدور في جميع أنحاء العالم إلا مكة والمدينة يحرس الملائكة أبوابها، ولا يستطيع الدجال أن يدخلها، فيقيم حيث تذهب السبخة من الظرب الأحمر بعدما تدفعه الملائكة من الحرمين.

ويأخذ أرض المدينة زلازل تخرج المنافقين منها، ويلتحقون رجالاً ونساء به، يكون معه نهران يقول لأحدهما: إنه جنة، ولثانيهما إنه نار، فن أدخل الذي يسميه الجنة فهو النار. ومن أدخل الذي يسميه النار فهو الجنة. ويكون في زمنه يوم كالسنة ويوم كالشهر وآخر كالأسبوع، ثم سائر أيامه كالأيام العادية. ويكون معه شياطين تكلم الناس. ومن أحواله أنه يأمر السحاب فيمطر، والأرض فتجذب، ويبصر الأكم والأبرص، ويأمر كنوز الأرض فتخرج فتتبعه، ويقتل شاباً ويقطعه بالسيف نصفين ثم يدعوه فيأتي حياً ضاحكاً، يكون معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف على وساج، وبتترق الناس ثلاث فرق: فرقة فتتبعه، وفرقة تلحق بأرض أبيها، وفرقة تقاومه على شاطئ الفرات، ويجتمع المسلمون بقرى الشام فيبعثون إليه طليعة يكون فيها فارس على فرس أشقر أو أبلق فيقتلون ولا يرجع منهم أحد، وحينما ينظر الدجال إلى المسيح عليه السلام يذوب كما يذوب الملح في الماء وحينئذ ينهزم جميع اليهود.

والدَّابَّةُ^(١).

وُطِّلِعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا^(٢). وَنُزِلَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ.

(١) الدابة هي المعنية بقوله تعالى في سورة النمل: « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ». قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، فيخرج الله لهم دابة من الأرض فتكلم الناس على ذلك. قال الألوسي في « روح المعاني »: « أي تكلمهم بأنهم لا يتيقنون بآيات الله تعالى الناطقة بحجج الساعة. مباديها، أو بجميع آياته التي من جللتها تلك الآيات. وقصارى ما أقول في هذه الدابة أنها دابة عظيمة ذات قوائم ليست من نوع الإنسان أصلاً، يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض، وتخرج وفي الناس مؤمن وكافر. عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تخرج الدابة ومعهما خاتم سليمان بن داود، وعصى موسى بن عمران عليها السلام، فتجئو وجه المؤمن — أي تنوره — بالعصا، وتخطم أنف الكافر — أي تجعل عليه علامة — بالخاتم، حتى أن أهل الحوائص أي أهل الحلي الذين يجتمعهم ماء يستقون منه — ليجتمعون فيقول هذا: يأمؤمن، ويقول هذا بالكفر. رواه أحمد والترمذي وابن ماجه. ثم قال الألوسي: وهذا الخبر أقرب الأخبار المذكورة في الدابة للقول، واختلف في وقت خروجها هل على قولين أولهما: أنه قبل طلوع الشمس من مغربها، ذكره الإمام القرطبي في مذكرة، والثاني أنه بعد طلوع الشمس من مغربها. قال الحافظ ابن حجر: والحكمة في ذلك — أي في خروجها بعد طلوع الشمس من مغربها — أن عند طلوع الشمس من المغرب يعلق باب التوبة فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلاً للقصود من إغلاق باب التوبة.

(٢) روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون فذاك » حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبها بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحت — أي فافتت — فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وهو يلبط حوضه — أي يطينه — فلا سقي فيه، ولتقوم الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها. »

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: « وإن من أهل الكتاب =

==إلا ليؤمنن به قبل موته « قال : خروج عيسى بن مريم . أخرجه الحاكم وصححه وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : يعني أنه سيدرك أناس من أهل الكتاب حين يبعث عيسى فيؤمنون به . وقال قتادة فيها : إذا نزل آمنت به الأديان كلها ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً أنه قد بلغ رسالة ربه وأمر على نفسه بالعبودية وقال ابن زبد : إذا نزل عيسى عليه السلام فقتل الدجال ، لم يبق يهودي في الأرض إلا آمن به . وقال الحسن البصري في الآية : قبل موت عيسى ، والله إنه الآن لمحي عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون ، وسأله رجل مرة عن هذه الآية يقال : قبل موت عيسى ، إن الله رفع إليه عيسى وهو ناهض قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر . وقال ابن عباس في قوله تعالى « وإنه لعلم للساعة » : خروج عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة ، وقال الحسن البصري : نزل عيسى ، وقال قتادة : نزل عيسى عليه السلام علم الساعة ، وأناس يقولون : إن القرآن علم للساعة . ورد ابن كثير كون الضمير في « إنه » عائداً على القرآن ، إذ لا ذكر للقرآن في الآية ، وقال : بل الصحيح أن الضمير في « وإنه » عائداً على عيسى عليه الصلاة والسلام فإن السباق في ذكره . وينزل عيسى عليه الصلاة والسلام واضعاً يده على أجنحة ملكين وفي يده حربته يقتل بها الدجال ، فلا يجد كافر ربيع نفسه إلا ويموت ، ويبلغ نفسه إلى ما يبلغ طرفه ، وينزل في الشام ، في الجانب الشرقي من دمشق ، عند المنارة البيضاء ، عند صلاة الحجر وتكون جماعة من المسلمين يقومون المهدي مجتمعة لقتال الدجال ، وعددهم حينئذ يبلغ إلى ثمانمائة رجل وأربعائة امرأة ، كلهم بسوي الصفوف عندما ينزل عيسى عليه السلام ويؤمنهم الإمام المهدي إلا أنه يدعو عيسى عليه السلام لإمامة الصلاة بالناس فيأبى ، وحينئذ يريد الإمام المهدي أن يتخلف بضع عيسى عليه السلام يده على ظهره ولا يرضى إلا أن يكون المهدي إماماً ، ثم يصلي المهدي بهم ويمكث عيسى عليه الصلاة والسلام في الدنيا بعد نزوله أربعين سنة ويتزوج بأمرأة من قوم شعيب ، فيولد له بعد نزوله أولاد . ويكسر الصلب ويستأصل عبادته ولا يبقى في الدنيا من النصرانية شيء . ويقتل الخنازير ، ويفتح باب المسجد بعد الفراغ من الصلاة فيرى وراءه دجال وقوماً من اليهود فيقتلهم ويقتل الدجال في أرض فلسطين عند باب له ، ثم ==

== يكون بعد نزوله جميع الناس مسلمين ، ويقتل ما بقي من اليهود حتى لا يجد يهودي ملجأ فتشهد الحجارة والأشجار على أن وراها يودياً ، وتدرس حيثئذ جميع المذاهب سوى الإسلام ، ولا يبقى حكم الجهاد ، إذ لا يبقى أحد من الكفار ؛ من أجل ذلك لا يبقى حكم الجزية ، وبعم عليه السلام الناس بالمال حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقبل الصدقات . ويحج أو بعتمر ، أو يؤدي كلا للسككين ويسافر إلى روضة سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، ويرد على سلامه سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم . ومذهبه الذي يدعو إليه الناس : عمله بالقرآن والسنة ، وحثه الناس عليها . ويخرج الحقد والصفينة من أمثلة الناس ، وقتل بركات دنية ودنيوية حتى يكون الرمان في زمانه الواحدة منه تكفي جماعة من الناس ، وبكفي لبن الناقة الواحدة جماعة من الناس ، وقنزح الحمة من كل ذي حمة حتى يدخل الوليد يده في فم الحية فلا تضره ، ويكون الذئب مع الغنم كأنه كلبها . وقبيل وفاته عليه السلام يأمر بأن يستخلفوا بعده رجلاً من بني نعيم « اسمه المقعد » . ثم يتوفاه الله تعالى ويدفن في روضة التي صلى الله عليه وسلم بجانب أبي بكر وعمر . وقد قال الشيخ الإمام محمد الزاهد الكوثري رحمه الله في كتابه « نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة » (ص ٣٦) : بعد أن استوفى تفسير الآيات الدالة على نزول عيسى عليه السلام (فظهر مما سبق أن نصوص القرآن الكريم وحدها تحتم القول برفع عيسى حياً ، ونزوله في آخر الزمان ، حيث لا اعتداد باحتالات خيالية لم تنشأ من دليل ، كيف والأحاديث قد تواترت في ذلك ، واستمرت الأمة خلفاً عن سلف على الأخذ بها ، وتدوين موجبها في كتب الاعتقاد من أقدم العصور إلى اليوم فإذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وقال في صفحة (٤٩) : وأما تواتر أحاديث المهدي والرجال والمسيح فليس بموضع ريبة عند أهل العلم بالحديث . وتشكك بعض المتكلمين في تواتر بعضها - مع اعترافهم بوجوب اعتقاد أن أشراف الساعة كلها حق - فن قل خبرتهم بالحديث . وقد نقل العلامة أبو عبد الله الأني في شرحه على صحيح مسلم (١/٢٦٥) قول الإمام الفقيه أبي الوليد بن رشد : « ... ولا بد من نزول عيسى عليه السلام لتواتر الأحاديث بذلك . وفي العتبية » . كان أبو هريرة يلقي الغي الشاب فيقول : يا ابن أخي إنك صبي أن ==

ويأجوج ومأجوج^(١).

== تلقى عيسى بن مريم فأقره في الإسلام . ونقل الإمام أبو حيان في تفسيره « البحر المحيط » في سورة آل عمران قول الإمام المفسر بن عطية الغرطاطي : وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى في السماء حي ، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويقتل الدجال ، ويفيض العدل ، وتظهر به ملك محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحج البيت ويعتمر ، (٨) .

(١) كل واحد من هذين اللفظين : « يأجوج ومأجوج » اسم لقبيلة من الناس ، وما يقال في خلقهم وصفاتهم مما يخجل إلى سامعه أنهم ليسوا من طبيعة البشر ، ولا على خلقه الناس ، كذب لا أصل له . قال الحافظ بن كثير في تفسيره : هم من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين . وما يذكر في الأثر عن وهب بن منبه في أشكلهم وصفاتهم وأذانيهم وطولهم وقصر بعضهم ففيه غرابة ونكارة . وقد انفقت كلمة القرآن الكريم والحديث الشريف على كثرتهم وشدة إفسادهم كما هو صريح الحديث من أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ... ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائهم على بحيرة طبريا فيشربون ما فيها ، وير آخرهم » يقولون : لقد كان بهذه مرة ماء . ويحصرني الله عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدم خيراً من ماء . ديار لأحدم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله تعالى ، فيرسل الله عليهم النصف في رقايم ، فيصبجون فرسى كوت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون فيه موضع شبر إلا ملاء زهمهم ونفثهم . فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيراً كأعتاق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيفصل الأرض حتى يتركها كالزلفة » رواد الإمام مسلم من حديث طويل . والنصف : دود يكون في أنوف الإبل والغنم . وفرسى : أي موق . وفي الكلمتين : النصف وفرسى إشارة إلى أن الله سبحانه يهلكهم في أدنى ساعه بأهون شيء ، وهو النصف ، فيفرسهم فرس السبع فربسته بعد أن طارت نمرة - أي كبرياءه - البغي في رؤوسهم . والزلفة : المرأة في صفاتها ونظافتها . وروى الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفتح يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل (وهم من كل حدب ينسلون) فيضنون الناس وينحاز المسلمون ==

وثلاثة خسوف : خسفٌ بالْمَشْرِقِ ، وخسفٌ بالمَغْرِبِ ،
وخسفٌ بجزيرة العرب . وآخِرُ ذلكَ نَارُ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ ،
تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى تَحْشَرِهِمْ^(١) .

منهم إلى مدائنهم وحصونهم ، وبضمون إليهم مولى شيم . ويشربون مياه الأرض
حتى أن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه ييبساً حتى أن من
بعدم ليمر بذلك النهر فيقول : « قد كان هنا مرة ماء ... » ، وقد أفصح
القرآن الكريم عن هذا أيضاً فقال تعالى : « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من
دونها قوماً لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا ياذا القرنين إن بأجوج ومأجوج
مفسدون في الأرض » . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : وقال السدي في قوله
تعالى « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض » ذاك حين يخرجون على الناس .
وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال ، كما سيأتي بيانه عند قوله تعالى :
« حتى إذا فتحت بأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب
الوهد الخ » وعند هذه الآية قال : وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع
مشاهد لذلك ولا ينبئك مثل خبير . رأى ابن عباس صبياناً ينزوا - يشب -
بعضهم على بعض يلعبون ، فقال : هكذا يخرج بأجوج ومأجوج .

(١) الحديث بطوله رواه الإمام مسلم والترمذي وأبو داود . وأما قوله
صلى الله عليه وسلم : نَارُ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ فهي النار التي تسوقُ الناسَ إلى مكان
حشرهم ، وهو أرض الشام . وروى الترمذي والإمام أحمد عن عند الله بن عمر
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ستخرج نار من حضرموت قبل يوم
القيامة تحشر الناس قلنا : يا رسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال عليكم بالشام . وروى
البخاري عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أول أشرار الساعة
نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وقال الحافظ ابن حجر في الجمع بين
أخبار هذه النار . إن ابتداء خروجها من قصر عدن ، فإذا ما خرجت

● ومنها رفع القرآن من المصاحف والصدور وخراب الكعبة بعد موت عيسى على يد الحبشة ، ورجوع أهل الأرض كلهم كفاراً . والحاصل أن العلامات الكبرى متتابعة ، فما أن تظهر واحدة حتى تتبعها بقية العلامات الآخر ، وقد ورد عن عبد الله بن عمرو رفعه :

« الآيات — أي العلامات الكبرى لقيام الساعة — خرزات منظومات في سلك ، إذا انقطع السلك تبّع بعضها بعضاً »^(١).

= انتشرت في الأرض كلها . والمقصود بقوله : تخشى الناس من المشرق إلى المغرب إنما هو إرادة تعميم الخسر لا خصوص المشرق والمغرب . وروى البخاري في صحيحه والإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يخشى الناس — أي إلى الشام قبل قيام الساعة — وم أحياء — على ثلاث طرائق — أي على ثلاث أحوال — راغبين وراغبين ، واثان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وخمسة على بعير — أي أنهم يتعاقبون على ركوب البعير الواحد ، فيركب بعضهم ويمشي بعضهم — وتخشى بقيتهم النار ، فليل معهم حيث قالوا وثبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا ، ونمى معهم حيث أمسوا — أي تلازمهم كل الملازمة إلى أن يصلوا إلى مكان الخسر . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال ، ويمكث أربعين عاماً يعمل فيهم بكتاب الله وسنني ، يموت فيستخلفون بأمر عيسى رجلاً من نعيم يقال له « المقعد » فإذا مات المقعد لم يأت على الناس ثلاث سنين حتى يرفع القرآن من صدور الرجال ومصاحفهم » . أخرجه الشيخ ابن حبان في كتاب الفتن والسيوطي في الخواص .

(١) أخرجه الإمام أحمد وشمس بن حماد . وقال الطبري ، ونقله عنه الحافظ بن حجر في فتح الباري : وقد جاءت العلامات العشر هنا معطوفاً بينها بالوار لمطلق الجمع ولا تفيد أنها ستقع بالترتيب المذكور هنا .

١٠٤- وَوَجِبَ أَخْذُ الْعِبَادِ الصُّحُفَا كَمَا مِنَ الْقُرْآنِ نَصًّا عَرِفَا

● وواجب أخذ العباد الصُّحُفَا : إن أخذ الصحف واجب لوروده بالكتاب والسنة ولانعقاد الإجماع عليه ، فمن أنكره كفر ، والصحف هي الكتب التي كتبت فيها الملائكة ما فعله العباد في الدنيا ، ولكل مكلف صحيفة واحدة يوم القيامة ، وإن كانت متعددة في الدنيا كما يدل عليه حديث :-

« مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ كُلُّ يَوْمٍ صَحِيفَةٌ ، فَإِذَا طُوِيَتْ وَلَيْسَ فِيهَا اسْتِغْفَارٌ ، طُوِيَتْ وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ ، وَإِذَا طُوِيَتْ وَفِيهَا اسْتِغْفَارٌ ، طُوِيَتْ وَلَهَا نُورٌ يَتَلَأَلُ » .

فقبل : تنسخ كلها في صحيفة واحدة . وظواهر الآيات والأحاديث شاهدة بعمومه لجميع الأمم ما خلا الأنبياء والملائكة والداخلين إلى الجنة بغير حساب ، ورئيسهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، كما أنه لا ميزان لهم كذلك ، لأن الميزان فرع من الحساب . وورد أن كل أحد يدعى فيعطى كتابه ، وورد أن الربيع تطير الصحف من خزانة تحت العرش فلا تخطئ صحيفة عنق صاحبها ، فحمل هذا على تعلق الصحف بالأعناق بالربيع ، والخبر الثاني على أن الملائكة تنادي كل واحد وصحيفته في عنقه ، فتنزح الصحيفة منه ثم تعطيه إياها في يده . فالؤمن المطيع يأخذها بيمينه ، والكافر بشماله من وراء ظهره ، والمؤمن من الفاسق - جزم الماوردي - بأنه يأخذ صحيفته بيمينه ، وقال : هو المشهور ، ثم قال بالوقف ، وأنه لا طائل . بأنه يأخذه بشماله . وأول من يعطى كتابه بيمينه ، مطلقاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبعده أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد . وأول آخذ له بشماله أخوه الأسود بن عبد الأسد

لأنه أول المبادرين للنبي ﷺ للحرب يوم بدر . وروى أنه يمد يده ليأخذه
بيمينه فيجذبه الملك فيخلع يده ، فيأخذه بشماله من وراء ظهره .

وقد جاء أخذ الصحف منصوفاً عليه في قوله تعالى :

« فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يُمَيِّنُ بِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ ،
إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّهِ ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ،
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا
أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ، وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِimَالِهِ فَيَقُولُ ؛
يَالَيْسَتِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَهُ ، وَلَمْ أَذْرَ مَا حِسَابِيَّهِ » (١) .

فالأول جازم باللقاء ، فرح بالإعطاء والثاني مبلس متحسر . وظاهر كلامهم
أن القراءة حقيقية ، وهو الراجع . وقيل : مجاز عن علم كل أحد بما
له وما عليه ، لكن من الآخذين من لم يقرأ كتابه ذهولاً ودهشة لما فيه
من قبائح ، والمؤمن يأتيه كتابه أبيض بكتابة بيضاء ، فيأخذه بيمينه
فيقرأه فيبيض وجهه ، والكافر يأتيه أسود فيسود وجهه بعد قراءته .

(١) الخافه : ١٩ وما بعدها .

١٠٥- وَمِثْلُ هَذَا الْوِزْنِ وَالْمِيزَانِ فَتُوزَنُ الْكُتُبُ أَوِ الْأَعْيَانُ

● ومثل هذا الوزن : أي وزن أفعال العباد والميزان مما يجب اعتقاده ، كأخذ العباد الصحف . قال حذيفة رضي الله تعالى عنه : صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام يقول الله تعالى :

« يَا جَبْرِيلُ زِنْ بَيْنَهُمْ ، قَدْ مَنَ مِنْ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ »^(١) .

والميزان : هو ميزان واحد على الراجح له قصة ومورد وكفتان ، كل منها أوسع من أطباق السموات والأرض ، وجبريل آخذ بعموده ناظر إلى لسانه وميكائيل أمين عليه ، ومحلله بعد الحساب . وقيل لكل عامل موازين يوزن بكل منها صنف من عمله . ودليل الوزن والميزان سمعي : قال تعالى :

« وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ »^(٢) ، وقوله تعالى : « وَفَضَّلْتُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(٣) وقوله تعالى : « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ »^(٤) .

والجَمْع في قوله الموازين إنما هو للتعظيم على المشهور من أنه ميزان واحد لجميع الأمم ، وجميع الأعمال . واختلف بالمراد من الثقل والخفة ، فقليل : على صورته في الدنيا ، وقيل : على عكس صورته في الدنيا

(١) انظر تفسير القرطبي ١٦٧/٧ .

(٢) الأعراف : ٨ .

(٣) الأنبياء : ٤٧ .

(٤) الأعراف : ٨ .

فالثقل يصعد والحفيف ينزل . وقد بلغت أحاديثه مبلغ التواتر ، فيجب الإيمان به ، ونسك عن تعيين حقيقته ، وقد ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

« ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا يُبْكِيكِ ؟ قُلْتُ : ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ . فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ : أَمَا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا ، عِنْدَ الْمِيزَانِ ، حَتَّى يَعْلَمَ أَيَّخِفُ مِيزَانُهُ أَمْ يَشْقُلُ ، وَعِنْدَ تَطَايُرِ الصُّخْرِ ، حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ ، فِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ ، أَمْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَعِنْدَ الصَّرَاطِ ، إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْنِي جَهَنَّمَ ، حَافَتَاهُ كَلَالِيبُ كَثِيرَةٌ وَحَسَاكُ كَثِيرٌ ، يَحْبِسُ اللَّهُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ ، حَتَّى يَعْلَمَ أَيَنْجُو أَمْ لَا »^(١) .

ولا مانع من وزن سيئات الكفار ليجازوا عليها بالعقاب . قال ابن عباس رضي الله عنهما : توزن الحسنات والسيئات في ميزان ، له لسان وكفتان . فأما المؤمن فيؤتى بهمله في أحسن صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فتثقل حسناته على سيئاته ، فذلك قوله تعالى :

« مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »^(٢)

(١) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخاري ومسلم لولا إرسال

فيه بين الحسن وعائشة .

(٢) الأعراف : ٨

ويؤتى بعمل الكافر في أقبح صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فيخف وزنه حتى يقع في النار ^(١) .

وأما قوله تعالى : « فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا » ^(٢)

فمعناه : فلا نقيم لهم وزناً نافعاً . قال عبيد بن عمير : يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكل والشروب ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة ، وعقب القرطبي على هذا بقوله إن هذا لا يقال من جهة الرأي وقد ثبت معناه مرفوعاً في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، إَقْرَؤُوا إِنَّ شِئْتُمْ : فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا » ^(٣) .

وقد يرد أن وزن أعمال المؤمنين ظاهر لتقابل الحسنات والسيئات ، أما وزن سيئات الكفار فغير ظاهر ، لانعدام الحسنات المقابلة للسيئات . فيجاب : بأنه قد يكون منهم صلة رحم ومواصلة ، ونحوها من الأعمال التي لا تتوقف صحتها على نية فتجعل هذه الأمور - إن صدرت منهم - في مقابلة سيئاتهم ، ما خلا الكفر . أما الكفر فلا فائدة في وزنه ، لأن عذابه دائم ، وقد ورد في كلام القرطبي ما يدل على أنه يوزن حيث قال : فتجمع له هذه الأمور وتوضع في ميزان الكافر فيرجع الكفر بها .

(١) انظر تفسير القرطبي ١٦٦/٧ .

(٢) الكهف : ١٠٥ .

(٣) تفسير القرطبي ٦٦/١١ .

● فتوزن الكتب : اختلف العلماء في الموزون فذهب جمهور المفسرين ، الى أن الموزون هي الكتب المشتملة على أعمال العباد بناء على أن الحسنات مبهمة بكتاب ، والسيئات بآخر ، وقد قال ابن عمر : توزن صحائف أعمال العباد ، وبشهاد له حديث البطاقة وهو ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سَجِلًا كُلُّ سَجِلَةٍ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتَنِي الْحَافِظُونَ ؟ فيقول : لا يارب فيقول : أَفَلَاكُ عُذْرٌ ؟ قال : لا يارب . فيقول الله تعالى : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حِسَّةً ، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ » ، فيقول : إِحْضِرْ وَزَنِّكَ . فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذا السجلات ؟ ! فقال : فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثِقَلَتِ الْبِطَاقَةُ ، فَلَا يُثْقَلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ » ^(١) .

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

وهذا ليس لكل عبد بل لعبد أراد الله به خيراً . وذهب بعضهم إلى أن الموزون أعيان الأعمال ، فتصور الأعمال الصالحة بصورة حسنة نورانية ، ثم تطرح في كفة النور ، وهي اليمنى ، فتثقل بفضل الله سبحانه . وتصور الأعمال السيئة بصورة قبيحة ظلمانية ، ثم تطرح في كفة الظلمة ، وهي الشمال ، فتخف . وهذا في المؤمن . أما الكافر فتخف حسنة وتثقل سيئاته بعدل الله سبحانه وتعالى . وقيل : قد يوزن الشخص نفسه ، لأنه ورد أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه كان يصعد نخلة فضحك الصحابة من حمش ساقه (أي دقتها) فقال لهم ﷺ :

« تَضْحَكُونَ مِنْ سَاقٍ تَوْزَنُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْأَرْضِ »^(١)

فدل هذا على أن الأشخاص توزن . وفائدة الوزن جعله علامة لأهل السعادة والشقاوة ، وتعريف العباد بما لهم وعليهم من الخير والشر وإقامة الحجة عليهم .

(١) ذكره الغزنوي ، وفي تفسير القرطبي ٦٧/١١ .

١.٦- كذا الصراطُ، فالعبادُ مختلفٌ مرورُهم، فسالمٌ ومُنتلفٌ

● كذا الصراط : الصراط في وجوب الإيمان به ، لورود الدليل السمعي ، مثل أخذ العباد الصحف ومثل الوزن والميزان . ومعناه - لغة - الطريق الواضح ، لأنه بصرط المارة أي يبتلعهم ، وشرعاً : هو جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون حتى الكفار . إلا أن الحلبي ذهب إلى أنهم لا يمرون ، ويجوز أنه قصد بالكفار الذين لا يمرون من تلقى بهم الملائكة في النار من الموقف . وكل من ير ساكت إلا الأنبياء يقولون :

«اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»

كما في الصحيح فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ :
 «يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ وَعَلَيْهِ حَسَكٌ وَكَلَالِبٌ وَخَطَاطِيفٌ ، تَخْتَطِفُ النَّاسَ يَمِينًا وَشِمَالًا ، وَعَلَى جَنْبَيْهِ مَلَائِكَةٌ يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ ، اللَّهُمَّ سَلِّمْ ، فَيَنْتَهِى النَّاسُ مِنْ يَمْرِ مِثْلِ الْبَرْقِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْمَجْرَى ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْعَى سَعْيًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْبُو حَبْوًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا . فَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَأَمَّا

ناسٌ فيؤْخَذونَ بذُنُوبٍ وَخَطَايَا فيَحْتَرِقونَ ، فيَكُونونَ
فَحْمًا ، ثُمَّ يُؤْذَنُ في الشَّفَاعَةِ ..» (١) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ
بِأَمْتِهِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ ، ودَعْوَى
الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ ، اللَّهُمَّ سَلِّمْ ، وفي جَهَنَّمَ كَلَالِبٌ مِثْلُ
شَوْكِ السَّعْدَانِ . هل رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ ؟ قالوا : نَعَمْ
يارسولَ الله . قال : فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ
لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، يُخْتَطَفُ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ ،
فَنَهْمٌ مَنْ يُوَبِّقُ بِعَمَلِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرَدَلُ ثُمَّ يَنْجُو ..» (٢) .

وفي بعض الروايات « أَنَّهُ أَذَقُ مِنَ الشَّعْرَةِ وَاحِدٌ مِنَ السِّيفِ » (٣)
وهو المشهور . ونازع في ذلك العز بن عبد السلام والشيخ القرافي ،
وغيرهما كالبدري الزركشي . قالوا : على فرض صفة ذلك فهو محمول على
غير ظاهره ، بأن يؤول : بأنه كناية عن شدة المشقة ، وحينئذ فلا
ينافي ما ورد في الأحاديث الدالة على قيام الملائكة على جنبه ، وكون
الكلاليب فيه . وزاد القرافي : والصحيح أنه عريض ، وفيه طريقان
بني وبسرى ، فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين ، وأهل الشقاوة يسلك

(١) متفق عليه مع اختلاف ببعض الألفاظ .

(٢) (٣٠٢) متفق عليه وهو حديث طويل .

جهم ذات الشمال ، وفيه طافات ، كل طاقة تنفذ إلى طبقة من طبقات جهم . وقال بعضهم : إنه يدق ويتسع بحسب ضيق النور وانتشاره . فعرض صراط كل أحد بقدر انتشار نوره فإن نور كل إنسان لا يتعداه إلى غيره . ومن هنا كان دقيقاً في حق قوم ، عريضاً في حق آخرين . وطوله ثلاثة آلاف سنة ، ألف صعود ، وألف هبوط ، وألف استواء .

وفي كلام الشيخ محي الدين بن عربي ما يفيد عدم التعويل على ظاهر هذه الآلاف ، مع أن مآله الامتداد للعلو حتى يوصل للجنة ، فإنها عالية جداً . وأفاد الشعراfi : أنه لا يوصل لها حقيقة بل يوصل لمرجها الذي فيه الدرج الموصل لها ، قال : ويوضع لهم - ثمة - مائدة ، ويقوم أحدهم فيتناول مما تدلى هناك من ثمار الجنة . وقد ورد به الكتاب والسنة :

قال تعالى : « فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ »^(١) . قال ﷺ : « يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ... إلى أن قال : فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ، فَيَقُومُ وَيُؤْذَنُ لَهُ ، وَتُرْسَلُ مَعَهُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَيَقُومَانِ عَلَى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ ، يَمِينًا وَشِمَالًا . فَيَمُرُّ أَوْلَكُمُ كَالْبَرْقِ ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ ، وَأَشَدُّ الرَّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ ، وَنَيْيُكُمْ ﷺ قائمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ : رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَفْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَاحِفًا ، قَالَ : وَفِي حَافَتَي الصِّرَاطِ كَلَالِبُ مَعْلَقَةٌ مَأْمُورَةٌ تَأْخُذُ

(١) يس : ٦٦ .

مَنْ أَمَرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ ، وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ ، . قَالَ
راوي الحديث : « وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ يَدِهِ ، إِنْ قَعَرَ
جَهَنَّمَ لَسَعُونَ خَرِيفاً »^(١) .

وجبريل في أول الصراط ، وميكائيل في وسطه يسألان الناس عن
عمرهم ، فم أفنوه ؟ وعن شبابهم فم أبلوه ؟ وعن علمهم ماذا عملوا به .
وقد كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت
امراته ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت رأيتك تبكي فبكي ، قال :
لإني ذكرت قول الله تعالى :

« وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ،

ولا أدري أنجو منها أم لا ؟ »^(٢) . وعن أنس رضي الله عنه قال :
سألتُ رسولَ الله ﷺ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ :
أَنَا فَاعِلٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . قُلْتُ : فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ ؟ قَالَ :
أَوَّلُ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصَّرَاطِ ، قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصَّرَاطِ ؟
قَالَ : فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ . قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ
الْمِيزَانِ ؟ قَالَ : فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْجَوْضِ ، فَإِنِّي لَا أَضِلُّ هَذِهِ
الثَّلَاثَةَ مَوَاطِنَ ،^(٣) .

(١) رواه مسلم عن حذيفة وأبي هريرة .

(٢) رواه الحاكم عن قيس وقال : صحيح على شرطها .

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب ، والبيهقي .

وتفاوتهم في المرور إنما هو بحسب تفاوتهم في الإعراض عن حرمان الله تعالى ، فمن كان منهم أصرع إعراضاً عما حرم الله كان أصرع مروراً في ذلك اليوم . وإنما الحكمة من المرور على الصراط ، ظهور النجاة من النار ونحسر الكفار ، بفوز المؤمنين بعد اشتراكهم في المرور .

١٠٧- والعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ ثُمَّ الْقَلَمُ وَالْكَاتِبُونَ اللَّوْحُ كُلُّ حَكَمٍ

● والعَرْشُ : هو جسم عظيم نوراني علوي . والأولى الإمساك عن القطع بتعيين حقيقته ، لعدم العلم بها ^(١) . فهو مما يجب الإيمان بوجوده لوروده بالدليل السمعي قال تعالى : « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »
● والكرسي : وهو جسم عظيم نوراني تحت العرش ملتصق به فوق السماء السابعة ، بينه وبينها مسيرة خمسمائة عام كما نقل عن ابن عباس ، والأولى أن نمسك عن الجزم بتعيين حقيقته لعدم العلم بها . وهو غير العرش ، خلافاً للحسن البصري .

قال تعالى : « وَبَسَّطَ كُرْسِيَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »

● ثم القلم : هو جسم عظيم نوراني خلقه الله ، وأمره بكتب ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . والأولى أن نمسك عن الجزم بتعيين حقيقته .
● والكتابون : أقسام ثلاثة ، كاتبون على العباد أعمالهم في الدنيا . وكاتبون من اللوح المحفوظ ما في صُحف الملائكة الموكلين بالتصرف في العالم كل عام . وكاتبون من صُحف الملائكة كتاباً يوضع تحت العرش .
● اللوح : ليس اللوح معمولاً الملائكة الكاتبين ، كما قد يتوهم . بل القلم يكتب فيه بمجرد القدرة ، وهو جسم نوراني ، كتب فيه القلم

(١) قال الراغب الأصفهاني في مفرداته ص ٣٢٩ ، العرش ما لا يعلوه البشر على الحقيقة إلا بالاسم ، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة . فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له ، تعالى الله عن ذلك ، لا محولاً ، والله تعالى يقول : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده » .

يلذن الله تعالى ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . وهو يكتب فيه
الآن ، على التحقيق من أنه يقبل المحو والتغير . ونسك عن الجزم بحقيقته .
● كل حكم : لكل واحد من المذكورين حكم يعلمها الله تعالى ،
وإن قصرت عقولنا عن الوقوف عليها ، والحكمة هي الأمر الصائب ،
وهو سر العقل ، وفائدته المترتب عليه .

١٠٨ - لا لاحتياج وبها الإيمان يجب عليك أيها الإنسان

● لا لاحتياج : أي لم يخلق الله تعالى الأمور المسرودة حاجة ، كيف وهو الغني عن العالمين غني مطلقاً ، لا يحدسه شيء . فلم يخلق العرش للارتقاء ، ولا الكرمي للجلوس ، ولا القلم لاستحضار ما غاب عن علمه ، إذ لا يغيب عن علمه سبحانه وتعالى شيء ، وقد كان سبحانه ولم يكن عرش ولا كرمي ، فقد ورد :

« كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ »^(١)

ولم يخلق السكاكين ولا اللوح لضبط ما يخاف نسيانه .

● وبها الإيمان يجب : فهذه المذكورات يجب على المكلف أن يؤمن بها كغيرها من كل مائت بصحيح الأحاديث ، كالجب ، والأنوار . فالإيمان بها واجب شرعي . غير أن الجواب هو ما يعتري الإنسان من كدورات نتيجة إقباله على الدنيا عن غير طريق الشرع^(٢) .

(١) رواه ابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة عن بريدة ، وفي رواية « ولا شيء غيره » وفي رواية « ولم يكن شيء قبله » . ورواه أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن عمران بن حصين قال : يا رسول الله أخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ، قال : « كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض .. »

(٢) قال سيدي ابن عطاء الله : الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إذ لو حجب شيء لستره ما حجب ، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر (وهو القاهر فوق عباده) .

١٠٩. والنارُ حقٌّ أوجدتْ كالجَنَّةُ فلا تَمِلْ لجاحِدٍ ذي جَنَّةٍ

● والنار حق أوجدت : النار التي هي دار العذاب ثابتة بالكتاب والسنة ، واتفاق علماء الأمة . أوجدها الله تعالى فيما مضى كالجنة التي هي دار الثواب . فالنار حق كالجنة ، وهما موجودتان الآن ، لا كما زعمه أبو هاشم وعبد الجبار من المعتزلة من أنها توجدان يوم القيامة . والدليل قصة آدم وحواء على ما جاء به القرآن الكريم والسنة الشريفة وانعقد عليه الإجماع قبل ظهور المخالف . ولا حاجة تدفع إلى تأويل الجنة الواردة في القرآن الكريم ببستان على ربوة ، والإخراج منها هو إنزال إلى بطن الوادي . فهذا التأويل إلحاد في الدين . ولم يرد نص صريح في تعيين مكانها ، كما في شرح المقاصد . إلا أن الكثيرين على أن الجنة فوق السموات السبع وتحت العرش ، وأن النار تحت الأرضين السبع . والحق تفويض علم ذلك إلى اللطيف الخبير .

وروي أن طَباقَ النارِ سَبْعٌ ، أَغْلَاهَا جَهَنَّمُ — وَهِيَ لِمَنْ يُعَذَّبُ عَلَى قَدَرِ ذَنْبِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَصِيرُ خَرَابًا بِخُرُوجِهِمْ مِنْهَا — وَتَحْتَهَا لَظَى لِلْيَهُودِ ثُمَّ الْحَطَمَةُ لِلنَّصَارَى ، ثُمَّ أَلْسَعِيرُ لِلصَّابِئِينَ ، ثُمَّ سَقَرُ لِلْمَجُوسِ ، ثُمَّ الْجَحِيمُ لِعَبْدَةِ الْأَصْنَامِ ، ثُمَّ الْهَآوِيَةُ لِلْمُنَافِقِينَ ، . والنارُ أوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفُ سَنَةٍ حَتَّى أَيْبَضَتْ ، ثُمَّ أَلْفُ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ، ثُمَّ أَلْفُ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ^(١) .

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة برقم ٢٥٩٤ ج ٧ وقال الحديث موقوف عليه .

وحرقها هواء محرق ، ولا جمر لها سوى بني آدم والأحجار المؤلمة من
دون الله ، قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ »^(١)

واختلف في الجنة هل هي سبع جنات متجاورات ، أو أربع ، أو جنة
واحدة ؟ فذهب ابن عباس إلى أنها سبع ، أفضلها وأوسطها الفردوس
وهي أعلاها ، والمجاورة لاتتافي العلو ، وفوقها عرش الرحمن ، ومنها تتفجر
أنهار الجنة ، ويلبها في الأفضلية « عدن » ثم « الخلد » ثم « النعيم » ثم « المأوى »
ثم « دار السلام » ثم « دار الجلال » . وكلها متصلة بمقام الوسيلة لتنعيم أهل
الجنة بمشاهدته ﷺ لظهوره لهم منها ، لأنها تشرف على أهل الجنة ، كما
أن الشمس تشرق على أهل الدنيا . ورجع جماعة أنها أربع لقوله تعالى :

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ^(٢) ، ثُمَّ قَالَ « وَمِنْ دُونِهَا جَنَّاتٌ^(٣) »

فالأوليان جنة النعيم وجنة المأوى ، والأخريان جنة عدن وجنة الفردوس .
وذهب الجمهور إلى أنها واحدة ، وهذه الأسماء كلها جارية عليها لتحقق
معانيها فيها ، إذ يصدق على الجميع جنة عدن ، فالعدن الإقامة . وجنة
المأوى ، لأنها مأوى المؤمنين . وجنة الخلد ، ودار السلام لأن جميعها
للخلود والسلامة من كل خوف وحزن . وجنة النعيم ، لأنها كلها مشحونة
بأصنافه . قال رسول الله ﷺ :

(١) التحريم : ٦٠ .

(٢) الرحمن : ٤٦ .

(٣) الرحمن : ٦٢ .

« إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرُفَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرَاهُمْ
الْكُوكَبَ فِي السَّمَاءِ »^(١)

« إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرُفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَرَاهُمْ
الْكُوكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَائِبَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، أَوْ الْمَغْرِبِ
لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ » . قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ
لَا يَلْفُهَا غَيْرُهُمْ ؟ قال : « بَلَى » ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، رِجَالٌ
آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ »^(٢) ،

● فلا تمل جاحد : أي لا تصنع لقول منكروهما لكفره - كالفلاسفة -
أو منكرو لوجودهما فيما مضى لبدعته - كأبي هاشم وعبد الجبار من المعتزلة -
لأن إنكارهما لا يكاد يصدر عن ذي عقل ، إذ يؤدي إلى إحداة ما علم
من الدين بالضرورة .

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد . وفي رياض الصالحين برقم ١٨٨٧

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري . وفي رياض الصالحين برقم ١٨٨٤

الباب الثاني والسبعون بعد الثلاثمائة في بيان ما أعد الله تعالى للمؤمنين في الجنة .

١١. دَارَا خُلُودٍ لِلسَّعِيدِ وَالشَّقِيّ . مُعَذِّبٍ مُنْعَمٍ مَهْمَا بَقِيَ

• دارا خلود : أي إن الجنة والنار دارا بقاء مؤبد . وقد كفر الجهمية القائلين بفنائها وفناء أهلها ، لخالفهم الكتاب والسنة . فالجنة دار خلود للسعيد منعم فيها ، وهو من مات على الإسلام . والنار دار خلود للشقي معذب فيها ، وهو من مات على الكفر . أما عصاة المؤمنين فدار خلودهم الجنة ، إذ أنهم لا يلبثون في النار - إن دخلوها - إلا مدة ، لا يدوم فيها عذابهم ، إذ أنه يلقى عليهم الموت بعد الدخول بمدة ما يعلم إلا الله مقدارها ، فلا يحسون حتى يخرجوا منها . والمراد بموتهم فقدان الإحساس بألم العذاب فحسب . وإث اختار بعضهم الموت الحقيقي .
عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :

«لَمَّا أَهَلَ النَّارَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا ، وَلَا يَحْيَوْنَ . وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ (أَوْ قَالَ : بِخَطَايَاهُمْ) فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَانَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا قَحْماً أَذِنَ بِالشَّفَاعَةِ . فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ ، فَبُشُوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ قِيلَ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ . فَيَنْبِتُونَ نَبَاتَ الْجَنَّةِ تَكُونُ فِي حِمِلِ السَّيْلِ » .

فقال رجل من القوم : كان رسول الله ﷺ قد كان بالبادية (١) وينبغي ألا يغتر بهذا ، إذ يكفي أنهم لا يدخلون الجنة مع الداخلين ، بله عذاب القبر . ويدخل في الشقي الكافر الجاهل والمعاند ، ومن بالغ في النظر فلم يصل إلى الحق وترك التقليد الواجب عليه . وأولاد المشركين في

(١) أخرجه الإمام مسلم في باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (ص ٩٥) .

الجنة على الصحيح ، ولا فرق في السعادة والشقاوة بين إنسي وجني .
كما أن الخلود لازم للسعيد والشقي . وأما قوله تعالى :

«وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ، يَوْمَ لَا تَكَلَّمُ
نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفَوْنَ
النَّارَ ، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ . إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ»^(١)

فالمراد هنا بالسموات والأرض سقف النار وأرضها ، وسقف الجنة وأرضها ،
لا السماء والأرض في الدنيا ، لتبدلها . ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال :
«إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ ،

(١) هود الآية ١٠٤ وما بعدها . قال الدكتور سعيد رمضان في كتابه
«كبرى اليقينيات الكونية عند هذه الآية» إن الاستثناء إنما هو من قوله :
«شَقُوا» و «مَعْدُودًا» أي : جميع الأشقياء خالدون في النار إلا من شاء الله
منهم ألا يخلد فيها ، وم العصاة من أهل الإيمان والتوحيد ، كما دلت على ذلك
الأدلة الكثيرة الأخرى . وجميع أهل السعادة خالدون في الجنة إلا ما شاء الله
منهم أن يعذب في النار إلى أمد قبل ذلك ، وم أولئك الذين غمرت حياتهم
بالمعاصي والأوزار من المؤمنين ، ولم تكتب لهم الشفاعة أولاً . وإنما لم يأت
الاستثناء بصيغة إلا من شاء الله ، لأن المراد من المستثنى منه العدد الجرد ،
وذلك كقوله تعالى «فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» فقد عبر عن النساء
«بما» للاحاطة العدد .

جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . ثُمَّ يُذْبَحُ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ ، يَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ . فَيَزِدُّ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ . وَيَزِدُّ أَهْلَ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ ، رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ^(١) .

وللعذب أنواع هائلة ، منها الزمهرير والحيات والعقارب ، وأشدها الحجاب عن الله سبحانه . روى عن ابن عباس أنه قال : « قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ قَطْرَةَ مِنْ الزَّقْوِمِ قُطِرَتْ فِي بَحَارِ الدُّنْيَا لَأُفْسِدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشُهُمْ ، فَكَيْفَ مَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ ذَلِكَ » ^(٢) .
وعن النعمان بن بشير أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْتَعِلُ بِسَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي دِمَاغَهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ » ^(٣) .

(١) رَوَاهُ الشَّيْخَانُ . وَالْحَدِيثُ بَنُطُوِي عَلَى أَبْلَغِ الْأَسَالِيبِ الْمُؤَكَّدَةِ لِمَعْنَى الْخُلُودِ فِي كُلِّ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ أَبُو حَنِيفَةَ فِي كِتَابِ الرُّسُومِ : وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَقٌّ وَهُمَا مَخْلُوقَتَانِ ، وَلَا فَنَاءُ لَهَا ، وَلَا لَأُهْلِهَا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي حَقِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ : « أَعَدْتُ لِلتَّقِيِّينَ » وَفِي حَقِّ أَهْلِ النَّارِ : « أَعَدْتُ لِلْكَافِرِينَ » . خَلَقَهَا اللَّهُ لِلثَّوَابِ وَالْعُقُوبِ .

(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَابْنُ مَاجَةَ .

(٣) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وفي النعم أنوار أعلاها رؤية وجه الله تعالى الكريم^(١) . وما نقل من أن أهل النار يلتذون بالعذاب حتى لو ألغوا في الجنة لتألموا ، مدسوس على القوم ، كيف ؟ وقد قال تعالى :

« قَلْنِ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » .

(١) قال الإمام الغزالي في الإحياء : حول النعم برؤية الله تعالى : فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما ، لذلك قال تعالى : « وإن منكم إلا واردها » وإنما يكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقبلها لحظة ، وأقصاها في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة . لأنه من النفوس ما تراكم عليها الحب والصدأ فصارت كالمرآة التي فسد جوهرها فلا تقبل التصفيل ، وهؤلاء هم المحجوبون أبدي الآباد ، ومنها ما لم ينته إلى حد الران والطبع ، ولم تخرج عن قبول التزكية والتصفيل فهذه تعرض على النار عرضاً بقمع منها الحب الذي قدنس به . فإذا أكل الله تطهيرها وتزكيتها ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرح من الحساب والعرض ، وغيره ، ووافى استحقاق الجنة ، فعند ذلك يتجلى الحق سبحانه . والمعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كال الكشف والوضوح ، وتقلب مشاهدة ، ولا يكون بين الماشاهدة في الآخرة ، والمعرفة في الدنيا ، اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح . لذلك لم تكن المشاهدة في الآخرة بإثبات صورة وجهه لله سبحانه ، لأن معرفته في الدنيا ليست بإثبات صورة وجهه ، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا ، إذ المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة ، ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل . ولما كانت المعرفة في الدنيا على درجات كان التجلي في الآخرة على درجات متفاوتة أيضاً . ولا يوصل إلى المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا عن القلب إلا بالفكر الصافي ، والذكر الدائم ، والجهد البالغ في الطلب ، والنظر المستمر في الله تعالى وصفاته وفي الملكوت وسائر المخلوقات . « باختصار » .

● فائدة : الناس في الموقف على حالتهم التي مانوا عليها . ثم يدخل المؤمنون الجنة جيوداً مجرداً أبناء ثلاث وثلاثين سنة ، طول كل واحد منهم ستون ذراعاً ، وعرضه سبعة أذرع ، ثم لا يزيدون ولا ينقصون . قال رسول الله ﷺ :

« إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يُنَادِي مُنَادٍ : إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَهَيَّؤُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصُحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعْمُرُوا فَلَا تَبْأُسُوا أَبَدًا »^(١) .

وقال ﷺ : « أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي الْإِضَاءَةِ ، لَا يَبُولُونَ ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ ، وَلَا يَتَقَلَّبُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، وَجَاجِرُهُمُ الْأُؤَةُ » عود الطيب ، أزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدَمُ ، ستون ذراعاً في السماء »^(٢) .

أما أجسام الكفوة فمختلفة المقادير . حتى ورد أن خرس الكافر في النار

(١) رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة .

(٢) عن أبي هريرة متفق عليه .

مثل أحد وفخذه مثل ورقان . - وما جيلان في المدينة - ليتجملوا العذاب
الآليم . قال ﷺ :

« حُرِّسُ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أَحَدٍ ، وَغِلْظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ
ثَلَاثٍ » (١) وقال أيضاً : ... وَعَرَضُ جِلْدِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً ، وَعَصْدُهُ
مِثْلُ الْبَيْضَاءِ ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ وَرْقَانٍ ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ مَا بَيْنِي
وَبَيْنَ الرَّبْذَةِ (٢) وَقَالَ : مَا يَبِينُ مِنْكَ الْكَافِرُ مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ

(١) رواه الإمام مسلم وفي « الترمذي والترهيب » ٤/٨٣ برقم ٧٠ .
قال الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء : إياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم
القيامة ، لخالفته قياس ما في الدنيا . فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب
الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة ، لكنت أشد إنكاراً لها . وفي طبع الآدمي
إنكار كل ما لم يأنس به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية ، وهي تفتي على بطنها
كالبرق الحافظ لأنكر تصور المشي على غير رجل . والمشي بالرجل أيضاً مستبعد
هند من لم يشاهد ذلك . ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوان ، وقيل له إن له
صانعاً يصنع من التطفة القدرة مثل هذا الآدمي المصور ، العاقل ، المتكلم ،
المتصرف ... لاشتد نفور باطنه عن التصديق به . ففي خلق الآدمي من كثرة
عجائبه ، واختلاف تركيب أعضائه أحاجيب تزيد على الأعاجيب في بعث وإعادته ،
فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته
وقدرته ؟ فإن كان في إياك ضعف ففوه بالنظر في النشأة الأولى ، قال تعالى :
« أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى ، أَلَمْ يَكْ نَظْفُفْهُ مِنْ مَنِي يَمِينٍ ، ثُمَّ كُنْ حَلَقَةً
فَخَلَقْنَا فُسُوساً ، فَجَعَلْنَا مِنْهُ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ
يُحْيِيَ الْمَوْتَى . » بلى إن الله على كل شيء قدير . ١٠١ .
(٢) رواه أحمد بإسناد جيد .

لِلرَّكِبِ الْمُسْرِعِ^(١)، وَقَالَ : .. وَفَخِذُهُ مِثْلُ الْيَنْضَاءِ، وَمَقْعَدُهُ مِنْ
النَّارِ كَمَا يَبِينُ قَدِيدٌ وَمَكَّةَ، وَكَثَافَةُ جَسَدِهِ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ ذِرَاعاً
بِذِرَاعِ الْجَبَّارِ^(٢) .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .
(٢) رواه الإمام مسلم وأحمد .

١١١- إِيْمَانُنَا بِحَوْضِ خَيْرِ الرُّسُلِ حَتْمٌ كَمَا قَدْ جَاءَنَا فِي النُّقْلِ

● إِيْمَانُنَا بِحَوْضٍ : أَيِ يَجِبُ إِيْمَانُنَا بِالْحَوْضِ الَّذِي يُعْطَاهُ أَفْضَلُ الْمُرْسَلِينَ فِي الْآخِرَةِ لَكِنْ لَا يَكْفُرُ مَنْ أَنْكَرَهُ . بَلْ يَفْسُقُ . وَقَدْ نَفَتْ الْمُعْتَزَلَةُ . وَهُوَ جِسْمٌ مَخْصُوصٌ كَبِيرٌ مُتَمَعٌ الْجَوَانِبُ ، يَكُونُ عَلَى الْأَرْضِ الْمُبْدَلَةِ وَهِيَ الْأَرْضُ الْبَيْضَاءُ كَالْفَضَّةِ . مِنْ شَرَبِ مِنْهُ لَا يَظْمَأُ أَبَدًا تَرَدُّهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ ، مَاؤُهُ أَيْضٌ مِنَ اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، وَكَيْزَانُهُ كُنُجُومِ السَّمَاءِ مِنْ شَرَبِ مِنْهُ لَا يَظْمَأُ أَبَدًا »^(١) .

وَوُرِدَ أَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا تَرَدُّهُ أُمَّتُهُ . وَتُخَصِّصُ حَوْضُ نَبِيِّنا ﷺ إِنَّمَا لَوُرُودِهِ بِالْأَحَادِيثِ الْبَالِغَةِ مَبْلَغِ التَّنَوُّتِ ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ لَوُرُودِهِ بِالْأَحَادِدِ . فَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ قَالَ :

« قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا آيَةُ الْحَوْضِ؟ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْتَهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا فِي اللَّيْلِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ ، عَرَضُهُ مِثْلُ طُولِهِ ، مَا بَيْنَ عُثْمَانَ وَأَيْلَةَ ،

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل^(١) .

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إِنِّي لِبِعْقَرٍ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرَقُضَ عَلَيْهِمْ ، فَسُئِلَ عَنْ عَرَضِهِ ؟ فَقَالَ : مِنْ مَقَامِي إِلَى عُمَّاتَ ، وَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ ، فَقَالَ : أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ يَغْتُ فِيهِ مِيزَابَانِ يُمِدُّانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ وَالْآخَرُ مِنْ وَرَقٍ »^(٢) .

وما جاء من روايات تعين غير هذا فلما تعود إلى أنه سبحانه تفضل على الرسول ﷺ باتساعه شيئاً فشيئاً ، فأخبر أولاً بالمسافة القصيرة ثم بالطويلة . وقد ورد أن حوضه ﷺ أعرض الأحواض ، فعن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا ، وَإِنَّهُمْ يَلْبَاهُونَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدًا . وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدًا »^(٣) .

والحوض لون كل شراب الجنة ، وطعم كل يثمرها . وقد بين ﷺ

(١) قال ملا علي القاري : حديث الحوض رواه من الصحابة بضع وثلاثون وكاد أن يكون متواتراً وقال الدكتور البوطي : الأحاديث الواردة في شأن الحوض ووصفه كثيرة جداً زادت عن حد التواتر .

(٢) رواه مسلم ، وعقر الحوض : مؤخره . وأذود الناس : أدفعهم ليرد أهل اليمن . يرقض : يسبل . يفت : يجري جرياناً له صوت ، ويقال : فث الشارب الماء جرعاً بعد جرع .

(٣) رواه الترمذي وحسنه .

في أول الوارد إليه وفيمن يطرد عنه . ففتح ابن عمر رضي الله عنها
أن رسول الله ﷺ قال :

« حَوْضِي كَمَا بَيْنَ عَدَنَ وَعُمَانَ . أَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ وَأَحْلَى مِنَ
الْعَسَلِ وَأَطْيَبُ رِيحاً مِنَ الْمِسْكِ ... إِلَى أَنْ قَالَ : أَوَّلُ النَّاسِ
عَلَيْهِ ذُرُوداً صَعَالِكُ الْمُهَاجِرِينَ . قَالَ قَائِلٌ : مَنْ هُمْ ؟
يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : الشَّعْثَةُ رُؤُوسُهُمْ ، الشَّجْبَةُ وُجُوهُهُمْ
الدَّيْسَةُ ثِيَابُهُمْ ، لَا تُفْتَحُ لَهُمُ السُّدُودُ ، وَلَا يَنْكِحُونَ
الْمُنْعِمَاتِ ، الَّذِينَ يُعْطُونَ كُلَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ وَلَا يَأْخُذُونَ كُلَّ
الَّذِي لَهُمْ » ^(١) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ عَلَى الْحَوْضِ ، إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ
مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ : هَلُمَّ ، فَقُلْتُ : إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ : إِلَى النَّارِ
وَاللَّهِ ، فَقُلْتُ : مَا شَأْنُهُمْ ؟ فَقَالَ : إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ
الْقَهْقَرَى ، ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ أُخْرَى حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ
مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ ، فَقَالَ لَهُمْ هَلُمَّ ، قُلْتُ : إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ :
إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ . قُلْتُ : مَا شَأْنُهُمْ ؟ قَالَ : إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَى

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن . والعدد هي الأبواب .

أَذْبَارِهِمْ ، فَلَا أَرَاهُ يُخْلَصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ .^(١)
 وَقَالَ أَيْضاً : تَرِدُ عَلَيَّ أُمَّتِي الْحَوْضَ ، وَأَنَا أَذُودُ النَّاسَ عَنْهُ
 كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِهِ . قَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ،
 تَعْرِفُنَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، لَكُمْ سِمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ ،
 تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ ، وَلْيَصَدَّنَّ عَنِّي
 طَائِفَةٌ مِنْكُمْ فَلَا يَصِلُون . فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِي ،
 فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ فَيَقُولُ : وَهَلْ تَذَرِي مَا أَأَحَدَثُوا بَعْدَكَ ؟^(٢)
 وَذَهَبَ الْجُودُ إِلَى أَنَّهُ قَبْلَ الصَّرَاطِ ، وَصَحَّحَهُ بَعْضُهُمْ ، لِأَنَّهُ
 النَّاسُ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ عَطَاشاً فَيَرِدُونَ الْحَوْضَ لِلشَّرْبِ مِنْهُ ، وَعَلَى كُلِّ
 فَإِنَّ الْجَهْلَ بِكَوْنِهِ قَبْلَ الصَّرَاطِ أَوْ بَعْدَهُ لَا يَضُر .

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ . وَهَمَلِ النَّعَمِ : ضَوَّاهَا ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ النَّاجِيَّ
 فَلَيْلَ كَضَائِلِ النَّعَمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَهْلِهَا .
 (٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

١١٣- يَنَالُ شَرْبًا مِنْهُ أَقْوَامٌ وَفَوَّا بَعْدَهُمْ وَقُلْ يُذَادُ مَنْ طَفَوَّا

● ينال شرباً : المراد بالأقوام الذين يتعاطون الشرب من الحوض الذكور والإناث . ويختلف الحال في الشرب ، فشارب دفعاً للظما وشارب للتلذذ ، ومنهم يشرب لتعجيل المسره . وأطفال المسلمين حول الحوض وعليهم أقبية الديباج ، ومناديل من نور وبأيديهم أباريق الفضة وأقداح الذهب يسقون آباءهم وأمهاتهم إلا من سخط في تقديم فلا يؤذن لهم بسقيه . ● وفوا بعدهم : والوفاء بالعهد هو القيام بحق الميثاق المأخوذ حين أخرج الله تعالى من ظهر آدم ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم . « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَىٰ »^(١) .

وأول من قال : « بلى هو الرسول صلى الله عليه وسلم » وكل أمة ترد حوض نبيا إن وفيت بالعهد ، غير أن الظالمين لأنفسهم ، بأن غيروا وبدلوا العهد ، يطردون عن الحوض فيشمل الطرد كل مرتد ، ومحدث في الدين ، ومخالف للجماعة - كالخوارج ، والروافض ، والمعتزلة على اختلاف فرقهم - وكل ظالم جائر ، وكل معان للكبائر مستغف بالمعاصي ، وكل مبتدع . بيد أن المبدل لدينه بالردة خالد في نار جهنم أبد الآبدين ودهر الدهرين . والمبدل لدينه بالمعاصي ففي مشيئة الله ، إما أن يعذبه وإما أن يغفر له . والذي عليه المحققون أن الكفار إنما يطردون طرد حرمان ، فلا يذوقونه أبداً ، والعصاة إنما يطردون طرد عقوبة ثم يشربون منه قبل دخولهم النار على الصحيح .

(١) الأعراف : ١٧٢ .

١١٣-وَوَاجِبُ شَفَاعَةِ الْمُشَفَّعِ مُحَمَّدٍ مُقَدِّمًا لَا تَمْنَعُ

وواجب شفاعته : أي وواجب محمداً عند أهل الحق شفاعته الذي قبل شفاعته . والشفاعة .. لغة : الوسيلة والطلب ، وغرفاً : سؤال الخير من الغير للغير . وشفاعة الله سبحانه وتعالى عبارة عن عفوه ، فإنه تعالى يشفع فيمن قال : لا إله إلا الله ، مبتدئاً رسالة الرسول الذي أرسل إليه ولم يعمل خيراً قط ، فيفضل الله تعالى عليه بعدم دخول النار بلا شفاعته أحد ، والمقصود بالمشفع محمد بن عبد الله ﷺ ، فهو المقدم على غيره من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، فهو الذي يفتح باب الشفاعته لغيره ، فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال :

حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنِّي لَقَائِمٌ أَنْتَظِرُ أُمَّتِي تَعْبُرُ ، إِذَا جَاءَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . قَالَ : فَقَالَ : هَذِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَدْ جَاءَ نَكَ يَا مُحَمَّدُ يَسْأَلُونَ ، أَوْ قَالَ : يَجْتَمِعُونَ إِلَيْكَ يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ جَمْعِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ لِعِظَمِ مَا هُمْ فِيهِ ، فَالْخَلْقُ مُلْجَمُونَ فِي الْعَرَقِ ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ عَلَيْهِ كَالزُّكْمَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَتَغَشَّاهُ الْمَوْتُ ، قَالَ يَاعِيسَى : أَنْتَظِرُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ . قَالَ : وَذَهَبَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَلَقِبَنِي مَا لَمْ يَلْقَ مَلِكٌ مِصْطَفًى وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، فَأَوْحَى إِلَيَّ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ أَذْهَبَ

إلى محمد فقل له ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ،
 قال فشفعت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين
 إنساناً واحداً ، قال فما زلت أتردد على ربي فلا أقوم فيه
 مقاماً إلا شفعت حتى أعطيني الله من ذلك أن قال : أدخل
 من أمتك من خلق الله من شهد أن لا إله إلا الله يوماً
 واحداً مخلصاً ، ومات على ذلك ^(١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :

« كل نبي سأل سؤالاً . أو قال : إكل نبي دعوة قد
 دعاها لأمتيه ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي » ^(٢) .

وهذه هي الشفاعة العظمى المختصة به قطعاً ، وهي أول المقام المحمود
 المذكور في قوله تعالى :

« عسى ربك أن يبعثك مقاماً محموداً » ^(٣) .

أي بحمدك فيه الأولون والآخرون . وآخره استقرار أهل الجنة وأهل
 النار في النار . روى أبو سعيد رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
 « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء »

(١) رواه الإمام أحمد ورواه عنه في الصحيح .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) الإسراء ٧٩ .

الْحَمْدُ ، وَلَا فَخْرَ ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ آدَمَ يَوْمَئِذٍ فَمَنْ سِوَاهُ
إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنَشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا
فَخْرَ . قَالَ : فَيَفْزَعُ النَّاسُ ثَلَاثَ فَرَاعَاتٍ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ .
فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ : فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ مَعَهُمْ ، قَالَ
ابْنُ جَدْعَانَ : قَالَ أَنَسٌ : فَكَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،
قَالَ : فَأَخْذُ بِحُلَّةِ بَابِ الْجَنَّةِ فَأَقْعَقِعُهَا ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟
فَيُقَالُ : مُحَمَّدٌ ، فَيَفْتَحُونَ لِي وَيُرَحِّبُونَ فَيَقُولُونَ : مَرْحَبًا ،
فَأَخْرَجُ سَاجِدًا ، فَيُلْهِمُنِي اللَّهُ مِنَ الشَّعَاءِ وَالْحَمْدِ ، فَيُقَالُ لِي :
ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلِّ تَعْطُهُ وَاشْفَعْ تُشَفَّعُ ، وَقُلْ يُسْمَعُ
لِقَوْلِكَ ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى . الْآيَةُ (١) .

وله ﷺ شفاعات أخرى منها شفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب
ففي حديث طويل ، قال ﷺ :

« أُمِّي يَارَبِّ ، أُمِّي يَارَبِّ ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ
مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ
وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فَيَأْسُو ذَٰلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ ، ثُمَّ قَالَ :
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيِعِ الْجَنَّةِ

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

كَمَا يَبِينُ مَكَّةَ وَهَجَرَ ، أَوْ كَمَا يَبِينُ مَكَّةَ وَبُصْرَى ،^(١) .

ومنها شفاعته في عدم دخول قوم النار بعد أن استحقوها ، وفي إخراج الموحدين من النار ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ :

« يَدْخُلُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ النَّارَ مَنْ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ بِمَا عَصَوْا اللَّهَ وَاجْتَرَوْا عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَخَالَفُوا طَاعَتَهُ فَيُؤْذَنُ لِي فِي الشَّفَاعَةِ ، فَأُثْنِي عَلَى اللَّهِ سَاجِدًا ، كَمَا أُثْنِي عَلَيْهِ قَائِمًا ، فَيُقَالُ لِي : ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ »^(٢) !

ومنها شفاعته في زيادة الدرجات لأهل الجنة وغيرها كما ذكره السيوطي . والمعتزلة ذهبوا إلى إنكار الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها ، وفيمن دخلها أن يخرج منها . وإنما يشبون الشفاعة العظمى وزيادة الدرجات . وحجتهم حديث : « لَا تَنَالُ شَفَاعَتِي أَهْلُ الْكِبَايَرِ مِنْ أُمَّتِي » . وهو موضوع باتفاق ، وبتقدير صحته يحمل على من ارتد منهم ، وقد ورد عن أنس أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَايَرِ مِنْ أُمَّتِي »^(٣) .

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٢) رواه الطبراني بإسناد حسن في الكبير والصغير .

(٣) رواه أبو داود والبخاري والطبراني وابن حبان في صحيحه . والبيهقي

من حديث جابر .

١١٤- وَغَيْرُهُ مِنْ مُرْتَضَى الْأَخْيَارِ

يَشْفَعُ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ

• وغيره من مرتضى : أي غير النبي صلى الله عليه وسلم ممن ارتضاه الله من الأخيار - كالأنبياء والمرسلين ، والملائكة والصحابة والشهداء ، والعلماء العاملين ، والأولياء - يشفع في أرباب الكبائر على قدر مقامه عند الله تعالى قال أبو أمامة رضي الله تعالى عنه :

« سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : لَيَدْخُلُنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيٍّ مِثْلُ الْحُسَيْنِ ، رَبِيعَةً وَمُضَرٍ . فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْ مَا رَبِيعَةً وَمُضَرٍ ؟ قَالَ : إِنَّمَا أَقُولُ مَا أَقُولُ^(١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيَشْفَعُ لِلرَّجُلَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ » .

وشفاعة الملائكة على الترتيب : وأولهم سيدنا جبريل وآخرهم التسعة عشر التي على النار وشفاعة غيره صلى الله عليه عليه ثابتة بالنص . مجمع عليها من أهل السنة ، ولا يشفع أحد ممن ذكر إلا بعد انتهاء مدة المؤاخاة ، فتكون الشفاعة على هذا إظهاراً لمزية الشافع على غيره ، على أنه لولا الشفاعة لجوزنا البقاء وعدمه بحسب الظاهر لنا .

(١) رواه أحمد بإسناد جيد عن أنس رواه البزار ورواه رواية الصحيح

١١٥- إِذْ جَاءَ غُفْرَانُ غَيْرِ الْكُفْرِ فَلَا نُكْفِرُ مُؤْمِنًا بِالْوِزْرِ

● إِذْ جَاءَ غُفْرَانُ غَيْرِ الْكُفْرِ : هذا تعليل الشفاعة . فيجوز - عقلاً وسمعاً - غفران غير الكفر من الذنوب بلا شفاعة ، فبالشفاعة من باب أولى . وأما غفران الكفر ، فهو - وإن جاز عقلاً - ممتنع شرعاً . والحكمة في غفران الذنوب - دون الكفر - أنها لا تنفك عن خوف عقاب ، ورجاء عفو ورحمة ، بخلاف الكفر . فمرتكب الذنوب مسلم يعتقد نقص نفسه ، فيخاف ويرجو ، ومعتقد الكفر لا يعتقد نقص نفسه ، فلا يخاف عقاباً ، ولا يرجو عفواً ورحمة وثواباً .

ولا يخفى أن هذا التعليل قاصر على الشفاعة في الذنوب . وإنما الشفاعة تشمل الشفاعة في فصل القضاء ، وفي غفران الذنوب .

● فلا نكفر مؤمناً بالوزر : فلا نكفر نحن معاصر أهل السنة أهدأ من المؤمنين بارتكاب الذنب صغيراً كان أو كبيراً ؛ عالمًا كان ، ورتكبه أو جاهلاً . إلا أن يكون الذنب من المكفورات ، كإنكار علمه تعالى بالجزئيات ، وإلا أن يكون مرتكبه مستحلًا له ، وهو معلوم من الدين بالضرورة ، كالزنا . وذهب الحوارج إلى تكفير مرتكب الذنوب ، وجعلوها جميعها كبائر ولا يكفون بذهابهم هذا ، مع أن تكفير المؤمن كفر ، لأنه كان بتأويل واجتهاد . وذهب المعتزلة إلى أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين . فمرتكبها - عند الحوارج - مخلد في النار ، ويعذب عذاب الكفار . وعند المعتزلة مخلد في النار ويعذب عذاب الكفار .

١١٦- وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ
فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ

● ومن يموت ولم يتب ... : أي من يموت بعد أن ارتكب ذنباً من الكبائر غير المكفورة ، بلا استئصال ، والحال أنه لم يتب من ذنبه ، فأمره مفوض وموكل إلى ربه تعالى . فلا تقطع بالعفو عنه لئلا تكون الذنوب في حكم المباحة ، ولا بالعقوبة ، لأنه تعالى يجوز عليه أن يقرر ماعدا الكفر . وعلى تقدير العذاب فإنما تقطع له بعدم الخلود فيه ، هذا هو مذهب أهل الحق . وقد استدلوا له بالآيات والأحاديث الدالة على أن المؤمنين يدخلون الجنة البتة ، كقوله تعالى :

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» .

وقوله ﷺ :

«مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ»^(١) .

ومن دخل الجنة لا يخرج منها قال تعالى :

«لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ»^(٢) .

(١) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة .

(٢) الطبر ٤٨ .

١١٧- وَوَجِبَ تَعْذِيبُ بَعْضِ ارْتِكَابِ كَبِيرَةٍ ثُمَّ الْخُلُودُ مُجْتَنَبٌ

● وواجب تعذيب بعض : إن تعذيب بعض غير معين - من عصاة هذه الأمة ، ارتكبوا الكبيرة ، من غير تأويل ويعذبون به ، وماتوا بلا توبة - ثابت وواقع شرعاً ، بخلاف من ارتكب صغيرة أو كبيرة بتأويل ، كما يقع من البغاة المتأولين ، أو ارتكبها من غير تأويل لكنه مات بعد التوبة . والمقصود هنا أمة الإجابة . والمراد ببعض طائفة ، ولو واحداً من كل صنف من أصناف العصاة ، كالزناة ، وقتلة الأنفس ، وشاربي الخمر . فلا بد من نفوذ الوعيد في طائفة من كل صنف ، أقلها واحد . وهذه المسألة على طريقة الماتريدية ، من أنه لا يجوز تخلف الوعيد . وذهب الأنساعرة إلى جواز تخلفه ، لأنه على تقدير المشيئة ، فإن شاء عذب ، وإن شاء غفر . نعم ، قد ورد تعذيب بعض الموحدين ، والشفاعة فيهم ، لكن لا يعم الأنواع كلها . والحاصل : أن الناس قسمان مؤمن وكافر . فالكافر مخلد - إجماعاً - في النار . والمؤمن قسمان ، طائع وعاص ، فالطائع - إجماعاً - في الجنة ، والعاصي على قسمين ، قاتب وغير قاتب ، فالثائب - إجماعاً - في الجنة ، وغير الثائب مستروك للمشبهة ، وعلى تقدير عذابه لا يخلد في النار .

١١٨- وَصِفْ شَهِيدَ الْحَرْبِ بِالْحَيَاةِ وَرِزْقِهِ مِنْ مُشْتَهَى الْجَنَّاتِ

● وصف شهيد الحرب ... : أي اعتقد وجوباً اتصاف شهيد الحرب بالحياة الكاملة ، وإن كانت كقيمتها غير معلومة لنا ، وقد ورد أنه ﷺ قال :

« مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ »^(١).

والأنبياء - وإن كانوا جميعهم أحياء حياة برزخية - أكمل حياة من الشهداء ، والشهداء أكمل حياة من بقية الأموات ، وهي حياة حقيقية ثابتة للروح والذات جميعاً . فالروح متصلة بالأجسام اتصالاً قوياً وإن كانت مقرها حواصل الطيور الحضر الرائعة في رياض الجنة ، قال رسول الله ﷺ :

« إِنَّ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ فِي طَيْرٍ خَضِرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ ، أَوْ شَجَرِ الْجَنَّةِ »^(١).

وعلى كل فني أمور خارقة للعادة فلا يقاس عليها غيرها ، ويجب اعتقاد أن الله تعالى يرزق شهيد الحرب من محبوب نعيم الجنات ، إلا أنه يتناولون الأكل والشرب للتلذذ ، لا للإحتياج ، قال الله تعالى :

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال حسن صحيح ، وابن حبان في صحيحه .

(١) رواه الترمذي عن كعب بن مالك وقال حسن صحيح .

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ » (١) .

وليس هناك ضرر من كون أرواحهم في حواصل الطيور ، لأن أجوافها شفافة لانحجبها أو أن الطيور كناية عن مرعة قطع المسافة البعيدة (٢) والشهداء ثلاثة : شهيد الدنيا والآخرة ، وهو من قاتل لإعلاء كلمة الله تعالى وهو المقصود هنا ، وشهيد الدنيا فقط ، وهو الذي قاتل لأجل غنيمة ، فليس له الثواب الكامل وإن جرت عليه أحكام الشهداء في الدنيا ، وشهيد الآخرة فقط كالمطعون والمبطون ونحوهما ، فهو كالأول في الثواب ، لكنه دونه في الحياة والرزق ولا تجوز عليه أحكام الشهداء في الدنيا ، فيفصل . ويصلى عليه ، قال رسول الله ﷺ :

« أَلْقَتْنِي ثَلَاثَةٌ ، رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَاهِدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ وَقَاتَلَهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ ، فَذَلِكَ

(١) آل عمران ٦٩ .

(٢) عن عبد الله بن جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هنيئاً لك يا عبد الله أبوك بطير مع الملائكة في السماء » رواه الطبراني بإسناد حسن . وعن سالم بن أبي المعبد قال : أريم (أي أمراء غزوة مؤتة) النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فرأى جعفرأ ملكاً ذا جناحين مضرجين بالدماء وزيداً مقابله ، رواه الطبراني وهو مرسل جيد الإسناد . قال الخافظ : كان جعفر قد ذهب يداه في سبيل الله يوم مؤتة فأبدله الله بهما جناحين ، فن أجل ذلك سمي جعفرأ الطيار . وقال السبكي : إن الجناحين عبارة عن صفة ملكية ، وقوة روحانية أعطيا جعفر ، يقتدر بها على الطيران ، لا أنها جناحان كجناحي الطائر ، كما قد يسبق للوم . لأن الصورة الآدمية أشرف الصور . ٥١ ، السيرة الدحلانية الجزء ٢ ص ٢٧٨ .

الشَّهِيدُ الْمُتَحَنُّ ، فِي جَنَّةِ اللَّهِ ، تَحْتَ عَرْشِهِ ، لَا يَفْضُلُهُ
النَّبِيُّونَ إِلَّا بِفَضْلِ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ . وَرَجُلٌ فَرَّقَ عَلَى نَفْسِهِ
مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا جَاهِدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ ، فَمِثْلُكَ بِمِصْمَصَةٍ تَحْتَ
ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ ، إِنَّ السَّيْفَ نَحَاءٌ لِلْخَطَايَا وَأَدْخَلَ مِنْ
أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ فَإِنَّ لَهَا ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ ، وَلِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ
أَبْوَابٍ ، وَبَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ ، وَرَجُلٌ مُنَافِقٌ جَاهِدَ
بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ وَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ حَتَّى يُقْتَلَ فَذَلِكَ فِي النَّارِ ، إِنَّ السَّيْفَ لَا يَمْحُو النِّفَاقَ ،^(١)
ووردت أحاديث في أصناف الشهداء منها ما رواه أبو هريرة قال :

قال رسول الله ﷺ :

« مَا تَعُدُّونَ الشُّهَدَاءَ فِيكُمْ ؟ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ قُتِلَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ . قَالَ : إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَا لَقِلِيلٌ .
قَالُوا : فَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ
شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي

(١) رواه أحمد بإسناد جيد عن عتبة بن عبد السلمي ، وابن حبان في صحيحه ، واللفظ
له . وإنما قاتل المنافق في سبيل الله على ما يبدو للناس ، وباطنه نفاق . المصمصة :
المحصنة . والمتحن : المشروح صدره .

الطَّاعُونَ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ مِنَ الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ ،
وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ^(١) .

وقال أيضاً :

« الشَّهَدَاءُ خَمْسَةٌ ، الْمَطْعُونُ ، وَالْمَبْطُونُ ، وَالْغَرِيقُ ، وَصَاحِبُ
الْهَدْمِ ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »^(٢) .

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال :

« خَمْسٌ مَنْ قُبِضَ فِي شَيْءٍ مِنْهُمْ فَهُوَ شَهِيدٌ : الْمَقْتُولُ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ ، وَالْغَرِيقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ ، وَالْمَبْطُونُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ ، وَالْمَطْعُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ ، وَالنَّفْسَاءُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ »^(٣) .

وعن أبي هريرة قال :

جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فقالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ
إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْخِذَ مَالِي ؟ قَالَ : فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ .
قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي ؟ قَالَ : قَاتِلْهُ . قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ

(١) المقصود بمن مات في سبيل الله من يكون مع الجيش في الميدان لكنه يموت بلا
نزال . رواه مسلم .

(٢) رواه مالك والبخاري ومسلم

(٣) رواه الترمذي

قَتَلَنِي؟ قَالَ : فَأَنْتَ شَهِيدٌ . قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ :
هُوَ فِي النَّارِ^(١) .

وإنما سمي الشهيد شهيداً لشهادة الله وملائكته له بالجنة والرضا عنه ، روى البخاري عن أنس قال : أنزل في الذين قتلوا بيثر معونة قرآن قرأه ، ثم نسخ بعد ، بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا ، فرضي عنا ، ورضينا عنه . ولأن روحه شهدت دار السلام بخلاف غيره ، فإنه لا يشهدا إلا يوم القيامة . وقد قال النسفي : بأن أرواح المسلمين - إن دخلت الجنة الآن ، كما دلت عليه الأحاديث - لا تكون كالشهيد في الحياة والرزق بل لا تأكل فيها ولا تتمتع .

(١) رواه مسلم والنسائي

١١٩- وَالرِّزْقُ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا بِهِ انْتَفِعَ
وَقِيلَ : لَا ، بَلْ مَا مَلَكَ ، وَمَا اتَّبَعَ

● والرِّزْقُ عند القوم ما به انتفع : أي الشيء المرزوق - عند أهل السنة -
هو ما ساقه الله إلى المخلوقات فانتفع به بالفعل .
وقوله تعالى : « وَبِمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ »^(١) .

يدل على أن غير المنتفع به بالفعل رزق ، إلا إذا كان الرزق فيه بمعنى
الإعطاء ، أي : وما أعطيناهم ينفقون فالمراد ما هيء لكونه رزقاً .
ودخل في الرزق على هذا التعريف رزق الإنسان والدواب وغيرها ،
وشمل المأكول وغيره مما انتفع به . وخرج ما لم ينتفع به بالفعل ،
فمن ملك شيئاً ولم ينتفع به بالفعل فليس ذلك الشيء رزقاً . وهذا يظهر
قول أكبر أهل السنة : إن كل أحد يستوفي رزقه ، وإنه لا يأكل أحد
رزق غيره ، ولا يأكل غيره رزقه . وفي الخبر :

« إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي : لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى
تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَلَا يَحْمِلَنَّ
أَحَدُكُمْ اسْتِطَاءَ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى
لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ »^(٢) .

(١) البقرة ٣

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعاً .

والرزق رزقان ، ظاهر أي مادي ، كالأقوات للأبدان ، وباطن أي معنوي ، كالعلوم والمعارف للقلوب ^(١) .

● وقيل لا ... : ذهب جماعة من المعتزلة إلى أن الرزق هو ما ملك ، لا ما انتفع به ، فلا يعتبر الإلتفاع ، وإنما تعتبر المملوكية . ويلزم على هذا أنه لا يستوفي أحد رزقه ، وأنه قد يأكل رزق غيره ، ويأكل غيره رزقه . لهذا لم يتبع أئمتنا هذا القول لفساده . لأن الله تعالى مالك لجميع الأشياء ، ولا يسمى ملكه رزقاً اتفاقاً ، وإلا لكان مرزوقاً ، ولأنه يخرج رزق الدواب والعبيد والإماء عند بعض الأئمة - كالشافعي - فإنه يقول : لا ملك للعبيد والإماء أصلاً .

(١) إن الرزق المادي يستجلب بمباشرة الأسباب ، ولا تحقق بركته أو يسكه الله تعالى إلا ابتلاء ، ليظهر به الصابرون أو عقاباً بما يقترب من المعاصي والسيئات ، قال تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » . وظهور الفساد في البر إنما هو القحط بما اجتريته أيدي الناس من الذنوب ، كما قاله بعض المفسرين . وقد قال المناوي في فيض القدير عند قوله صلى الله عليه وسلم : « طوبى لعيش بعد المسيح ، يؤذن للسبأ في القطر ، ويؤذن للأرض في الثبات ، حتى لو بذرت خبثك على الصفا لتنت ، وحتى ير الرجل على الأسد فلا يضره ، ويطلق على الحية فلا تضره ، ولا تناسح ولا تنحاسد ، ولا تباغض » . قال : ومقصود الحديث أن النقص في الأموال والثمرات ووقوع التماسد والتباغض إنما هو من شؤم الذنوب والمعاصي . فإذا طهرت الأرض من ذلك أخرجت برزخها وعادتها كما كانت ، حتى أن العصابة تبتأ تكون الزمان ويستظلون بقبحها ، ويكون الينقود من العنب وقر يعير ، فالأرض إذا طهرت ظهرت فيها آثار البركة التي محبتها الذنوب . ذكره ابن القيم . ١٠١ . وأما الرزق المعنوي فيكون هبة من الله تعالى وله جانب كسبي ، وهو التمرض لرحمت الله سبحانه « إن ربكم في أيام همركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها » . وبتفريغ القلب عما سوى الله باغراقه في الحضور مع الله تعالى ، وبمداومة التوبة ، والافلاج من الشهوات ، وبتصليته من الأخلاق المذمومة فإذا ماتم هذا توالت عليه سحائب الرحمة . قال ابن عطاء الله : كيف بشرق قلب صور الأكوام منطبعة في مرآته ؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشوائه ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ » .

١٢٠- فَيَرْزُقُ اللَّهُ الْحَلَالَ فَأَعْلَمَآ وَيَرْزُقُ الْمَكْرُوهَ وَالْمَحْرَمَآ

● فيرزق الله الحلال : الحلال هو ما كان مباحاً بنص ، أو إجماع أو قياس جلي . ولا ينبغي اليوم أن يسأل عن أصل الشيء ، لأن الحلال ما جهل أصله ، والأصول قد فسدت واستحك فسادها فأخذ الشيء على ظاهر الشرع أولى من السؤال عن شيء يتبين تحريمه . قال القزويني : ومن قال إن الحلال ليس بوجود فقد طعن في الشريعة وهو أحمق حصل له ذلك من جهله ، فإن الله تعالى لم يكلف الخلق عين الحلال في علمه تعالى بل كلفهم أن يصيبوا الحلال في اعتقادهم وظنهم . والمكروه مانع عنه نهياً غير أكيد . والمحرّم مانع عنه نهياً أكيداً . وتفصيل هذا في كتب الفقه . وقد ذهبت المعتزلة إلى أن الله تعالى لا يوزق الخوام ، قال الشيخ كمال الدين : إن أراد المعتزلة بهذا ، الأدب اللفظي فلا بأس به ، وإن أرادوا غير ذلك فهم مخطئون بإجماع . والمراد بالأدب اللفظي : أنه لا ينسب لله سبحانه إلا الخير وإن كان الكل منه .

١٢١- في الاكتساب والتوكل اختلاف

والراجح التفصيل حسبما عُرف

• اختلف العلماء في أفضلية الاكتساب والتوكل . فرجع قوم الاكتساب ، وهو مباشرة الأسباب بالاختيار - كالبيع والشراء - لأجل الربح ، ومثله تعاطي الدواء لأجل الصحة ونحو ذلك ، ورجعوه لما فيه من كف النفس عن التطلع لما في أيدي الناس ، ومنعها عن الخضوع لهم والتذلل بين أيديهم ، مع حيازة منصب التوسعة على عباد الله وواساة المحتاجين وصلة الأرحام بتوفيق الله تعالى . ورجع قوم التوكل ، وهو الاعتماد على الله تعالى ، وقطع النظر عن الأسباب مع التمكن منها وإنما رجعوه لما فيه من ترك ما يشغل عن الله تعالى والاتصاف بالرغبة إليه سبحانه ، والوثوق بما عنده ، مع حيازة مقام السلامة من فتنه المال والمحابسة عليه . فعن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« يَقُولُ رَبُّكُمْ : يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا قَلْبِكَ غَنِيٌّ ، وَأَمَلًا يَدَكَ رِزْقًا ، يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَبْأَعِدْ مِنِّي أَمَلًا قَلْبِكَ فَقْرًا ، وَأَمَلًا يَدَكَ شُغْلًا » (١) .

وقد أخرج القضاعي : من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكفه الله إلهها . وقال سليمان

(١) رواه الحاكم وقال : صحيح . وانظره في الترهيب والترهيب ٤/ ٩١٧ .

الخواص : لو أن رجلاً توكل على الله بصدق النية لاحتاج إليه الأمراء ومن دونهم ، وكيف يحتاج هو إلى أحد ومولاه هو الغني الحميد . وقد سبق ترجيح تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر .

• والراجع التفصيل : أي إن الراجع من المذهبين التفصيل في القول ، مما عرف من الإحياء للغزالي ، والرسالة القشيرية للقشيري ، وحاصله : أنها يختلفان باختلاف أحوال الناس ؛ فمن صبر على ضيق معيشته ، بحيث لا يتسخط ، ولا يتطلع لسؤال أحد فالتوكل في حقه أرجع ، لما فيه من مجاهدة النفس على ترك شهواتها ولذاتها ، والصبر على شدتها . ومن لم يكن كذلك فالأرجع في حقه الاكتساب حذراً من التسخط وعدم الصبر بل رجا وجب في حقه الاكتساب . وهذا كله يتشعب على أن التوكل ينافي الكسب كما هو طريقة أبي جعفر الطبري ومن وافقه . وإنما الجمهور على أنه لا تنافي بين الكسب والتوكل ، فقد يكون متوكلاً وهو مكتسب . إذ التوكل هو الثقة بالله سبحانه وتعالى والإعتماد عليه ، والاعتقاد بأن الأمر كله منه وإليه وهذا يحل القلب . أما مباشرة الأسباب فعملها الجوارح ، لذا لا تنافي بين عمل القلب والجوارح واجتماعها ممكن ، وقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه :

« أن رجلاً قال : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَعْقِلْهَا وَأَتَوَكَّلْ ، أَوْ أَطْلِقْهَا وَأَتَوَكَّلْ ؟ (يُشِيرُ إِلَى نَاقَتِهِ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » (١) .

وفيه جمع بين الأخذ بالأسباب ونفي التأثير عنها بالتوكل على الله تعالى .

(١) رواه الترمذي وتفرد به (٢٥١٩/٧) .

١٢٢-وَعِنْدَنَا الشَّيْءُ هُوَ الْمَوْجُودُ - وَتَأْيِيدٌ فِي الْخَارِجِ الْمَوْجُودُ

وعندنا الشيء هو الموجود : أي عندنا معاشر أهل الحق ، أشاعة وغيرهم الشيء هو الموجود . فباعتبار تميزه في الخارج عما عداه يسمى شيئاً ، وباعتبار تحققه - في الخارج - يسمى موجوداً . فكل شيء موجود . والشئيه هي تميزه في الخارج عما عداه ، والوجود هو تقررده - في الخارج - بحيث تصح رؤيته ، أما المعدم فليس بشيء سواء كان ممكناً أو ممتنعاً ، خلافاً للمعتزلة . فالمعدم عندهم شيء ، لأن الأشياء - قبل وجودها - ثابتة في نفسها ، إلا أنها مستترة كاستتار الثوب في الصندوق . لذلك يقولون : إن الحقائق ليست يجعل جاعل ، فالقدرة ما تعلقت بها إلا لإخراجها من الاستتار إلى الظهور . وأهل السنة يقولون إنها يجعل جاعل ، تعلقت القدرة بوجودها لعدم ثبوتها قبل ذلك .

وقابت في الخارج : أي إن الحقائق التي نتعلقلها ، ونطلق عليها الأسماء - كسمى الإنسان والأرض والسماء - ثابتة في الواقع . وهذا رد على السوفسطائية الزاعمين أن حقائق الأشياء إنما هي خيالات لا ثبوت لها في الواقع . وقد أتى أحدهم على بغلة له إلى الإمام أبي حنيفة يناظره . فأمر الإمام رحمه الله بعض تلامذته أن يذهب بالبغلة ويستوها . فلما خرج السوفسطائي ولم يجدوها طلبها ، فقال له الإمام : أنت تزعم أنه لم يكن لبغلتك حقيقة فلم تطلبها ؟ فتأب على يديه ورد إليه بغلته .

١٢٣- وُجُودُ شَيْءٍ عَيْنُهُ وَالْجَوْهَرُ الْفَرْدُ حَادِثٌ عِنْدَنَا لَا يُنْكَرُ

● وجود شيء عينه . : ذهب الإمام الفخر الرازي إلى أن وجود الشيء ليس عين حقيقته وفسره بأنه الحال الثابتة لذات مادامت الذات، وهذه الحال غير معطلة بعلة، كما في «العلم» - مثلاً - فإنها معطلة بقيام العلم بالذات . وذهب الأشعري ، ومن تبعه ، إلى أن وجود شيء من الموجودات هو عين حقيقته . وأبقى بعضهم عبارة الأشعري على ظاهرها وجعل في عدم الوجود صفة تسامحاً . وأول العبارة بعض المحققين - كالسعد - بأن المراد : أن وجود الشيء ليس زائداً في الخارج بحيث يرى كالقدرة والإرادة ، فلا ينافي أنه أمر اعتباري ، وهو ثبت الشيء ، وهذا هو التحقيق ، وإن كان ظاهر عبارة المصنف يفيد أن الوجود عين الموجود حقيقة ، كما هو ظاهر عبارة الأشعري .

والمقصود بالجواهر ما لا يتجزأ ، لا قطعاً ، ولا كسراً ، ولا وهماً ، ولا فرضاً مطابقاً للواقع ، وإلا فقد يفرض العقل الحال . فكل جوهر حادث ، لأنه مسبوق بالعدم وجميع الأجسام متراكبة من الجواهر ، فهي حادثة أيضاً ، والعالم بجميع أجزائه حادث ، هذا هو مذهب المسلمين . وقالت الفلاسفة : جميع الأجسام متراكبة من الهبولى ، أي المادة الأولية ، ومن الصورة . وهم منكرون للجواهر الفرد ، وإنما المقصود هنا الحكم عليه بالوجود والحدوث .

١٢٤- ثُمَّ الذُّنُوبُ عِنْدَنَا قِسْمَانِ صَغِيرَةٌ كَبِيرَةٌ فَالثَّانِي

● ثم الذنوب : عند جمهور أهل السنة قسمان ، صفائو وكبائر . خلافاً للمرجئة حيث جعلوها كلها صفائو ولا تضر مرتكبها مادام على الإسلام ، وخلافاً للغواص حيث ذهبوا إلى أنها كلها كبائر وكل كبيرة كفر . وخلافاً لمن ذهب إلى أنها كلها كبائر نظراً لعظمة من عصي بها ، ولكن لا يكفر مرتكبها إلا بما هو كفر منها ، كسجود لصنم ، أو رمي بصصف في قاذورة أو قول عن الجور بأنه عدل . وليست الكبائر منحصرة في عدد وهي كل ذنب كبير كبيراً يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبيرة . ولها أمارات ، منها إيجاب الحد ، والإبعاد عليها بالعقاب ، ووصف فاعلها بالفسق ، واللعن ، وأكبرها الشرك بالله تعالى . ثم قتل النفس المحرم قتلها . وأما الزنا واللواط وعقوق الوالدين والسحر والقذف والفرار من الزحف وأكل الربا فمن الكبائر ، إلا أنه يختلف أمرها باختلاف الأحوال والمقاسد المترتبة عليه ، فيقال لكل منها هي من أكبر الكبائر . وكذلك الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بل قال الشيخ الجويني : إن من تعدد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم يكفر كفراً يخرج منه من الملة ، وتبعد على ذلك طائفة .

وكل ما خرج عن حد الكبيرة وضابطها فهو صغيرة . والإصرار هو معاودة الذنب مع نية العودة إليه عند الفعل ، فإن عاوده من غير نية العود لم يكن إصراراً على الأصح ، والتهاون هو الاستخفاف وعدم المبالاة والفرح والافتخار بها ، وصدورها من عالم يقتدى به فيها .

٥٢١- مِنْهُ الْمَتَابُ وَاجِبٌ فِي الْحَالِ وَلَا اتِّقَاضُ إِنْ يَعْدُ لِلْحَالِ

● مِنْهُ الْمَتَابُ وَاجِبٌ : (١) ، أَيِ الْكِبَائِرِ وَاجِبٌ عَلَى مَوْتِكُمْ أَنْ يَتُوبَ مِنْهَا فَوْراً حَالِ تَلْبَسَ بِهَا فَتَأْخِيرُهَا ذَنْبٌ وَاحِدٌ وَلَوْ تَرَاخَى . نَعَمْ يَتَفَاوَتْ بِاعْتِبَارِ طُولِ الزَّمَانِ وَقَصْرِهِ خِلَافاً لِلْمَعْتَزَلَةِ الْقَائِلِينَ بِتَعَدُّدِ الذَّنْبِ بِتَعَدُّدِ الزَّمَانِ ، حَتَّى لَوْ أَخْرَجْنَا لَحْظَةً بَعْدَ لَحْظَةٍ ، فَالذَّنْبُ بِأَرْبَعَةِ ذُنُوبٍ . الذَّنْبُ الْأَوَّلُ ، وَتَأْخِيرُ تَوْبَتِهِ فِي اللَّحْظَةِ الْأُولَى ، وَتَأْخِيرُ التَّوْبَةِ مِنْ هَذَيْنِ فِي الثَّانِيَةِ . وَعِبَارَةُ النَّوَوِيِّ : وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ مِنْ جَمِيعِ الْمَعَاصِي وَاجِبَةٌ عَلَى الْفَوْرِ وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهَا ، سِوَاهُ كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ صَغِيرَةً أَوْ كَبِيرَةً . وَالتَّوْبَةُ - لَفْظٌ - مُطْلَقٌ الرَّجُوعُ ، وَشُرْعاً مَا اسْتَجْمَعَ أَرْكَاناً ثَلَاثَةً : الْإِقْلَاعُ مِنَ الذَّنْبِ ، وَالنَّدَمُ عَلَى فِعْلِهَا خَوْفاً مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْعَزْمُ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى مِثْلِهَا أَبَداً ، فَلَا تَصِحُّ تَوْبَةٌ مِنْ لَمْ يَعْزَمْ . هَذَا إِنْ لَمْ تَتَّعَلَقِ الْمَعْصِيَةُ بِالْآدَمِيِّ ، فَإِنْ تَعَلَّقَتْ بِهِ فَلَهَا شَرْطٌ رَابِعٌ ، وَهُوَ : رَدُّ الظَّلَامَةِ إِلَى صَاحِبِهَا ، أَوْ تَحْصِيلُ الْبَرَاءَةِ مِنْهُ ، تَفْصِيلاً - عِنْدَنَا مَعَاشِرُ الشَّافِعِيَّةِ - أَوْ إِجْمَالاً - عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ - وَفِيهِ فَسْحَةٌ . فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ - بِأَنْ كَانَ مُسْتَعْرِقُ الذَّمِّ - فَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ الْإِخْلَاصُ وَكَثْرَةُ التَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . لَعَلَّهُ يَرْضَى عَنْهُ خُصْمَاءَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَفِي شُرُوطِ لُصْحَةِ التَّوْبَةِ تَتَّعَلَقُ بِالْوَقْتِ ، مِنْهَا صَدُورُهَا قَبْلَ الْغُرُورَةِ ، وَقَبْلَ

(١) الْمَتَابُ : مُبْتَدَأٌ . وَوَاجِبٌ : خَبَرٌ . وَالْمُبْتَدَأُ وَالْخَبَرُ يَقَعَانِ خَبِراً لِمُبْتَدَأٍ فِي آخِرِ الْبَيْتِ الصَّالِفِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ « فَالثَّانِي » . أَيِ : فَالثَّانِي الْمَتَابُ مِنْهُ وَاجِبٌ .

طلوع الشمس من مغربها . ولا فرق عند الأشاعرة بين الكافر والمؤمن العاصي وعند الماتريدية تصح من المؤمن العاصي فحسب . ووجوب التوبة عيني (أي يجب على كل مكلف) ، ودليله سمعي فقد وردت آيات كريمة كثيرة وأحاديث شريفة تحض على التوبة وتأمرها .

● ولا انتقاض : أي لا تنقض التوبة الشرعية إن عاد التائب للفعال التي كان عليها من التلبس بالذنوب ، فلا يعود ذنبه الذي قاب منه بعوده إلى مثله ، خلافاً للمعتزلة حيث قالوا : بانتفاض التوبة بعوده للذنوب ، لأن من شروطها - عندهم - ألا يعاود الذنب بعد التوبة .

وعند الصوفية : معاودة الذنب بعد التوبة أقبح من سبعين ذنباً بلا توبة .

١٢٦- لَكِنْ يُجَدِّدُ تَوْبَةً لِّمَا اقْتَرَفَ

وَفِي الْقَبُولِ رَأْيُهُمْ قَدْ اخْتَلَفَ

● لكن يجدد توبة : أي لكن يجب على المعاصي تجديد التوبة للذنوب المرتكب ثانية ، فلا يضره إلا الإصرار على المعاصي ، بخلاف ما إذا كان كلما وقع في معصية تاب منها . قال تعالى :
« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ »^(١) .

وهم الذين كلما أذنوا تابوا . واختلف العلماء في قبول توبة غير الكافر ، فقال أبو الحسن الأشعري : إنها تقبل قطعاً ، بدليل قطعي ، كما في قوله تعالى :

« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ »^(٢) .

وما الدعاء بقبولها إلا لعدم الوثوق بشروطها . وقال إمام الحرمين والقاضي : إنها تقبل ظناً ، بدليل ظني ، لكنه قريب من القطعي إذ يحتمل قوله تعالى :

« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ »

أنه يقبلها إن شاء . وأما توبة الكافر فمقبولة قطعاً بدليل قطعي . اتفاقاً لقوله تعالى :

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا ، يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ »^(٣)

(١) البقرة ٢٢٢

(٢) الشورى ٢٥

(٣) الأنفال ٣٨

وذهب إمام الحرمين إلى وجوب ندم الكافر على ما مضى مع إعلانه إسلامه ، وذهب غيره إلى كفاية إعلان الإسلام لأنه بالإيمان يحصى الكفر . ثم شرع فيما يسمى بالكليات الست ، إن جعل العِرَضُ مستقلاً عن النسب . ومميت بالكليات لما يتفرع عليها من أحكام ، ولوجوبها في كل ملة . ولا عبرة بكون الحُرِّ مثلاً كان جائزاً في صدر الإسلام ثم حرم ، لأن الأمور حنوط بما استقر عليه الأمر ، لا بما ابتدئ به .

١٢٧- وَحَفِظُ دِينَ نَفْسٍ مَالٍ نَسَبٍ وَمِثْلُهَا عَقْلٌ وَعَرَضٌ قَدْ وَجِبَ

● وحفظ دين : إن أكد هذه الأمور هو حفظ الدين ، لأن حفظ غيره وسيلة لحفظه . ثم النفس ، لأن قتل النفس يلي الكفر . ثم النسب ، وهو الإرتباط بين الوالد وولده . ثم العقل ، وقدم النسب عليه لأن الزنا أشد تحريماً من شرب الخمر . ثم المال ، وفي مرتبة العرض ، إن لم يؤد الطعن فيه إلى قطع النسب فإن أدى إلى ذلك - كان قذف زوجته في الزنا ، ونفى ولدها عنه - فهو في مرتبة النسب ، والعرض هو موضع المدح والذم من الإنسان وهو وصف اعتباري ، تقويه الأفعال الحميدة ، وتزري به الأفعال القبيحة ، وإنما قدم المال لأن العقوبة على أخذ المال مرققة أو قطعاً للطريق - أعظم من العقوبة المترتبة على الخوض في الأعراض كما في القذف .

والدين : هو ما شرعه الله تعالى لعباده من الأحكام . وحفظه صيانته عن الكفر ، وانتهاك حرمة المحرمات ووجوب الواجبات ، بأن يفعل المحرمات غير مبال بمحرماتها ويترك الواجبات غير مبال بوجوبها . وحفظه شرع قتال الكفار الحربيين وغيرهم ، كالمتردين . وحفظ النفس العاقلة شرع القصاص . وحفظ المال شرع حد السرقة ، وحد قطع الطريق . وحفظ النسب شرع حد الزنى . وحفظ العقل شرع حد شرب الخمر والدابة من أذبه جنابة . وحفظ العرض شرع حد القذف لمن قذف عفيفاً ، والتعزير لمن قذف غير عفيف . وقد وجب حفظ جميع ما ذكر مع ملاحظة الآكد منها .

١٢٨- وَمَنْ لِمَعْلُومٍ ضَرْوَةٌ جَعَدَ مِنْ دِينِنَا يُقْتَلُ كُفْرًا لَيْسَ سَعْدُ

● ومن لمعلوم: (١) ومن جعد أمراً معلوماً من أدلة ديننا يشبه الضرورة (٢) بحيث يعرفه خواص المسلمين وعوامهم ، وهو ما ثبت بالقرآن الكريم ، وكان قطعي الدلالة ، أو بالسنة المشهورة المتواترة كذلك ، وليس فيه شبهة ، أو بإجماع جميع الصعابة المتواتر إجماعاً قطعياً ، قولياً غير سكوتي .
- كوجوب الصلاة والصوم ، وحرممة الزنا ، وشرب الخمر ، يقتل لأجل كفره -
لأن جعده مستلزم لتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس قتله حداً و ~~كفارة~~ لذنبه كما في سائر الحدود فإنها كفارات للذنوب .

(١) من ، اسم موصول بمعنى الذي في محل رفع مبتدأ . وصلته جملة جعد وخبره جملة يقتل . والجار والمجرور في قوله لمعلوم متعلقان بالفعل جعد . والتقدير : ومن جعد لمعلوم ضرورة يقتل .
(٢) الضرورة : معناها البداهة .

١٢٩ - ومِثْلُ هَذَا مَنْ نَفَى الْجَمْعَ

أَوْ اسْتَبَاحَ كَالزُّنَا فَلْتَسْمَعْ

● ومثل هذا من نفى : أي وأما من نفى حكماً بجمعاً عليه إجماعاً قطعياً
فحكمه مثل حكم من جحد أمراً معلوماً من الدين بالضرورة ، والإجماع -
- هنا - هو ما اتفق المعتبرون على كونه إجماعاً ، بخلاف الإجماع السكوتي ، فإنه
ظني . لا قطعي . فظاهر النظم أن من نفى بجمعاً عليه يكفر ، وإن لم
يكن معلوماً من الدين بالضرورة ، كاستحقاق بنت الإبن السدس مع بنت
الصلب ، وهو ضعيف وإن جزم به الناظم . والراجع أنه لا يكفر من
نفى المجمع عليه إلا إذا كان معلوماً من الدين بالضرورة ، وإلا إذا اعتقد
إباحة محرم بجمع عليه ، معلوم من الدين بالضرورة ولو صغيرة ، سواء
كان تحريمه لعينه - كالزنا وشرب الخمر ، أو لعارض . وقد ذهب بعض
الماتريدية إلى أن من اعتقد حل محرم لعارض لا يكفر ، ولا يخفى أنه
يلزم من استباحة المحرم المجمع عليه المعلوم من الدين بالضرورة نفى مجمع
عليه ، فهو داخل فيما قبله ، وإنما ذكره زيادة في الإيضاح

١٣٠ - وَوَاجِبُ نَصْبِ إِمَامٍ عَدْلٍ بِالشَّرْعِ فَاعْلَمْ لَا بِحُكْمِ الْعَقْلِ

● وواجب . . . : إن نصب إمام عادل واجب على الأمة عند عدم النص من الله تعالى أو رسوله على معين ، أو عند عدم الاستخلاف من الإمام السابق . والنص من الله تعالى كقوله :

«يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ»^(١) .

والاستخلاف كما وقع من أبي بكر في استخلاف عمر رضي الله عنها . ولا فرق - عند أهل السنة وأكثر المعتزلة - في وجوب نصب الإمام بين زمن الفتنة وغيره . والمراد بالعادل عدل الشهادة ، ولا يتحقق إلا بشروط خمسة : الإسلام ، والبلوغ والعقل والحوية ، وعدم الفسق^(٢) فالكافر

(١) ص ٢٦

(٢) قال القرطبي في تفسيره (ج ١ ص ١٧٠) : شرائط الإمام أحد عشر شرطاً : أولاً : أن يكون من صميم قريش (وقد اختلف في هذا الشرط) . ثانياً : وأن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً مجتهداً ، لا يحتاج إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث (وهذا متفق عليه) .

ثالثاً : وأن يكون ذا خبرة ورأي حصيف بأمر الحرب وقدبير الجيوش وحماية البيضة وردع الأمة ، والانتقام من الظالم . رابعاً : وأن يكون لا تلحقه رفة في إقامة الحدود ، ولا فزع من ضرب الرقاب (والدليل على هذا كله إجماع الصحابة) .

خامساً : وأن يكون حراً .

سادساً : مسلماً .

سابعاً : ذكراً (وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماماً) .

ثامناً : وأن يكون سليم الأعضاء .

تاسعاً : بالغاً .

عاشر : حافلاً (ولا خلاف في ذلك) .

أحد عشر : وأن يكون عدلاً (ولا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن نعتقد الإمامة

لفاسق . ويجب أن يكون من أفضلهم علماً) (١٠١) . باختصار .

لا يراعي مصلحة المسلمين ، والصبي والمجنون لا يلبان أمر نفسيهما فكيف يلبان أمر غيرهما . والرفيق مشغول بخدمة سيده ، ومستحق في عين الناس ، فلا يهاب ولا يمتثل أمره . والفاسق لا يؤثق به في أمر أو نهي . ويكفي العدل الظاهر لأنه ما كلفنا به . أما العدالة الباطنية فلا تشتط . ووجوب نصب الإمام إنما تحقق بالشرع عند أهل السنة ^(١) ، لا بالعقل ، كما ذهب إليه بعض المعتزلة كالجاحظ وغيره . ومن الوجوه الدالة على وجوبه شرعاً أن الشارع أمر بإقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش ،

(١) في تعريف الإمامة قال الشيخ عبد السلام: متى أطلقت الإمامة انصرفت للخلافة وهي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا ، نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعرفها صاحب كتاب المواقف : بأنها خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين وحفظ حوزة الملة ، بحيث يجب إتباعه . وعرفها صاحب كتاب المقاصد : بأنها رئاسة عامة في الدين والدنيا خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال الشيخ عبد السلام : إنما يخاطب بوجوب نصب الإمام جميع الأمة من ابتداء موته صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة . فإذا قام به أهل الحل والعقد سقط عن غيرهم ، لا فرق في ذلك بين زمن الفتنة وغيره . هذا مذهب أهل السنة وأكثر المعتزلة . وقال صاحب كتاب المسامرة : ونصب الإمام بعد انقراض زمن النبوة واجب على الأمة - عندنا - مطلقاً ، سيما لا عقلاً . وقال الشيخ زين الدين قاسم في تعليقه على كتاب المسامرة : هذا قول جمهور أهل السنة وأكثر المعتزلة . وقال القرطبي : عند تفسيره قوله تعالى : وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة « ولا خلاف في وجوب نصب الإمام بين الأمة ولا بين الأئمة ، إلا ما روي عن الأصم (من كبار المعتزلة وأمه أبو بكر) حيث كان عن الشريعة أصم . وقال الإمام فخر الدين الرازي في كتابه « المحصل » وأما الذين أوجبوها سمياً فقط فهم جمهور أصحابنا وأكثر المعتزلة ، وأما الذين لم يقولوا بوجوبها فهم الحوارج والأصم . وقد ذكر العلامة ملا علي القاري إجماع الأمة على الوجوب بقوله : فقد أجمعوا على وجوب نصب الإمام .

وذلك لا يتم إلا بإمام يرجعون إليه في أمورهم^(١) ، وقد اجتمعت الصحابة عليه بعد انتقال الرسول ﷺ حتى جعلوه أهم الواجبات ، واشتغلوا به عن دفنه ﷺ لأنه توفي يوم الإثنين عند الزوال ، ودفن ﷺ في آخر ليلة الأربعاء . وقد قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه ولا بد لهذا الأمر من يقوم به فانظروا وهاتوا آراءكم ، رحمهم الله تعالى فقالوا من كل جانب من المسجد : صدقت صدقت ، ولم يقل أحد منهم لا حاجة بنا إلى الإمام . واجتمع المهاجرون في شأن الخلافة ، فقال لأبي بكر : انطلق بنا إلى إخواننا الأنصار ندخلهم معنا في أمر الخلافة . فقال الأنصار :

(١) قال العلامة نصير الدين الطوسي في كتابه « تلخيص المصل » والأولى أن يعتمد على قوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » وقوله صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » وذهب شارح كتاب العقائد في استدلاله على الوجوب بقوله صلى الله عليه وسلم « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه أحمد والطبراني من حديث معاوية رضي الله عنه ، وقوله صلى الله عليه وسلم « من خلع يداً من طاعة الله لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه الإمام مسلم عن معاوية رضي الله عنه . ولأن الأمة قد جعلوها أم المهات بعد وفاته صلى الله عليه وسلم على ما في الصحيحين من حديث سقبة بن ساعدة ، وكذا بعد موت كل إمام . ولأن كثيراً من الواجبات الشرعية ينوقف عليه . فإن قيل : فعلم ما ذكرتم من أن مدة الخلافة ثلاثون سنة يكون الزمان بعد خلفاء الراشدين خالياً من الإمام ، فتعصي الأمة كلها ، وتكون ميتة جاهلية . قلنا : لو سلم ، فلعل دور الخلافة ينقضي دون دور الإمامة ، عني أن المقصود اندثار دور الخلافة الكاملة . وقال العلامة ملا علي القاري في شرحه على الفقه الأكبر : ومذهب أهل السنة وعامة المعتزلة أنه يجب على الخلق سماعاً لقوله صلى الله عليه وسلم « من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية » رواه مسلم عن ابن عمر . ولأن الصحابة جعلوه أم المهات حتى قدموه =

حنّا أمير ومنكم أمير فقال عمر : من ثبت له مثل هذه الفضائل التي لأي
بكر؟ وقال الله تعالى :

« إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ،
إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » ٣٣ .
فأثبت بذلك صحبته ومعية كمعية نبيه ﷺ بقوله :
« إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »

على دفنه صلى الله عليه وسلم ، ولأن المسلمين لا بد لهم من إمام يقوم بتنفيذ
أحكامهم ، وإقامة حدودهم ، وسد ثغورهم ، ولتجهيز جيوشهم ، وأخذ صدقاتهم
 وإقامة الجمع والأعياد ... ونحو ذلك من الواجبات الشرعية التي لا يتولاها آحاد
 الأمة . وقال القرطبي في تفسيره (ج ١ ص ٢٦٤) عند قوله تعالى « وإذ قال
 ربك للملائكة » هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة ، بسمع له وبطاع ،
 لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ الأحكام ... ثم قال : ودليلنا هذه الآية وقوله تعالى
 « يادأود إنا جعلناك خليفة في الأرض » وقوله « وعد الله الذين آمنوا منكم
 وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض » أي يجعل منهم خلفاء ، إلى غير ذلك
 من الآي ، وأجمعت الأمة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين
 والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين ، فلو كان فرض الإمامة غير واجب
 لا في قريش ولا في غيرهم ، لما ساحت المناظرة والمناورة عليها إذ قال الأنصار :
 حنّا أمير ومنكم أمير . فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك بقولهم :
 إن العرب لا تدين إلا لهذا الحبي من قريش . ثم إن الصديق لما حضرته الوفاة
 عهد إلى عمر في الإمامة ، ولم يقل له أحد : هذا أمر غير واجب علينا ، ولا
 عليك ، فدل على وجوبها ، وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين .

(٦) ملائكة ٤٠ .

ثم مد يده فبايع أبا بكر وبايعه الناس^(١) . ثم أمروهم بجهاز رسول الله ﷺ فاختلفوا : هل يجرد من ثيابه أم يغسل فيها ؟ فألقى الله تعالى عليهم النوم ، ثم سمعوا من ناحية البيت قائلاً يقول لا تغسلوه فإنه طاهر . فقال العباس : لا نترك سنة لصوت لا ندري ما هو ، فغشيهم النعاس ،

(١) قال ملا علي القاري : ثم الإمامة تثبت عند أهل السنة والجماعة ، إما باختيار أهل الحل والعقد من العلماء وأصحاب العدل والرأي كما تثبت إمامة أبي بكر ، وإما بتنصيب الامام وتعيينه ، كما ثبتت إمامة عمر ، باختلاف أبي بكر وإياه . وعزى إلى الحسن البصري أنه قال : نص على إمامة أبي بكر نصاً خفياً ، وهو تقديمه صلى الله عليه وسلم إياه في إمامة الصلاة . وقد ورد في صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت للرسول صلى الله عليه وسلم حين قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، إن أبا بكر رجل أسيء - كثير الأسف وهو الحزن - وإنه إن يعم مقامك لا يسمع الناس . فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . وفي رواية أخرى : أنها قالت لحفصة : قولي له يأمر عمر . فأبى حتى غضب وقال : أئتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس ، والحدث في مسلم بنحوه . وروى الترمذي عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره . وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عائشة ترفعه قال صلى الله عليه وسلم : إئتوني بدواة وقرطاس أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه اثنان ، ثم قال : بأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر . وهو في البخاري من حديثه بمعناه ، وفي البخاري ومسلم عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أريت كائي أنزع بدلو بكوة على قلب . فجاء أبو بكر فأنزع ذنوباً أو ذنوبين - الذنوب هو الدلو إذا كانت مملوءة - نزعاً ضعيفاً . والله يغفر له ثم جاء عمر فاستقى ، فاستحالت غروباً - أي دلواً عظيماً - فلم أر عبقرياً - العبقرى هو الرجل القوي الشديد - من الناس يغري فويه « أي بعمل عمله » حتى رور الناس ، وضربوا بطنى » والعطن الموضع الذي تماخ فيه الإبل إذا ربيب . بل إن هناك ظواهر تدل بآضح من هذا على أنه صلى الله عليه وسلم علم بإعلام الله تعالى -

• • • • •

== أن الخلافة من بعده إنما هي لأبي بكر رضي الله عنه فقد أخرج البخاري عن جبير بن مطعم أن امرأة أخته صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه ، قالت أرايت إن جئت ولم أجدك - كأنها تقول : الموت - قال صلى الله عليه وسلم : إن لم تجدني فأتني أبا بكر . » وقد قال أبو الحسن الأشعري « يكفي الواحد من الصفاء المشهورين ، من أهل الرأي ، فإذا بايع انعقدت أي الإمامة ، فـ قال عمر لأبي عبيدة : أبسط يدك أبيابك . فقال : أفتقول لي هذا وأبو بكر حاضر فبايع أبا بكر ، ولم يتوقف أبو بكر إلى انتشار الأخبار في الأنظار ولم ينكر عليه . وبايع عبد الرحمن بن عوف وأهل الشورى . قال أبو الحسن : وإنما يكفي بالواحد بشرط كونه عقد البيعة منه بمشهد شهود ، لدفع الإنكار إن وقع ، بأن ينكر العاقد وقوعه ، أو ينكر إنسان آخر انعقاده . وعلى هذا قالوا : لا يجوز نصب إمامين في عصر واحد لأنه يؤدي إلى منازعات ومخاصمات مفضية إلى اختلاف أمر الدين والدنيا ، كما يشاهد في زماننا هذا . قال صلى الله عليه وسلم « إذا بويع خليفين فاقتلوا الآخر منها » رآه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري ، وقال الإمام الفزالي : فإن اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق ، والتخالف باغ يجب رده إلى الإنقياد إلى الحق . وقال ابن المهام : وكلام غير الفزالي من أهل السنة ، اعتبار السبق ، والثاني يجب رده إليه . ١٥ . قال ابن حزم « اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة ، وإن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل ، يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أنزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا التجددات من الخوارج ، فإنهم قالوا : لا يلزم الناس فرض الإمام ، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم . قال ابن حزم : وهذه فرقة ما ترى بقي منهم أحد . وفولها ساقط .. وقال أيضاً : ثم اتفق من ذكرنا من يرى فرض الإمامة : على أنه لا يجوز كون إمامين في وقت واحد في العالم ، ولا يجوز إلا إمام واحد ، إلا عمداً السجستاني وأبا القصباح السمرقندي وأصحابها .. واحتج هؤلاء بقول الأنصار ، أو من قال منهم يوم التقيفة للهاجرين « منا أمير ومنكم أمير .. ولا حجة لهم فيه .. لأنهم أرادوا أن يلي =

وسمعوا قائلاً يقول غسلوه ، وعليه ثيابه ، فإن ذلك إبليس ، وأنا
الحضر (١) ، فغسله علي رضي الله عنه وعليه قميصه ، والعباس وابنه الفضل

==وال منهم فاذا مات ولي من المهاجرين آخر وهكذا أبداً ، ولم يريدوا أن يكون إمامان
في وقت . وقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص على وجوب الإمامة ، وأنه
لا يحل بقاء ليلة دون بيعة .. ثم بين ابن حزم أنه متى استجمع الإمام للشروط ، وبويع
أضحى واجب الطاعة ، فقال فيه : فهو الإمام الواجب طاعته ما قادته بكتاب الله
تعالى وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمر الكتاب بالتباعد ، فإن زاغ عن
شيء منها منع من ذلك وأقيم عليه الحد . فإن لم يؤمن أذاه إلا بتخلعه خلع ، وولي غيره
منهم أ . وعن عبد الله بن عمر قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر
فنزلنا منزلاً ، فنا من يصلح خبائه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشرة إذ نادى
منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة جامعة . فاجتمعنا إلى الرسول صلى الله
وسلم فقال « إنه لم يكن في قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ،
وينذرهم شر ما يعلمه لهم . وإن امتكن هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء
وامور تنكرونها ، وستجيء فتن يرفق بعضها بعضاً ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن :
« هذه مهلكتي ثم تنكشف . وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه . فن أحب أن يرحل
عن النار ، ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولتأت إلى الناس
الذي يحب أن يؤتى إليه . ومن يسمع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن
استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » رواه الإمام مسلم . ينتضل
« يسابق بالزمن بالنبل . الجسر الدواب ترعى وتبيت مكانها . يرفق بعضها ، أي يصير
بعضها بعضاً رقيقاً أي خفيفاً لعظم ما بعده ، أو يسوق بعضها إلى بعض بتحسينها
وتسويلها ، أو يشبه بعضها بعضاً .

(١) جاء في سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، ومناقب الأبرار لابن خيس ،
والكامل لابن الأثير ، وكتاب سيرة عمر ابن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس
وأصحابه تأليف عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٩١هـ (ص ٣٢) تحت عنوان بشارة الحضر
لعمر بالخلافة قال « وخرج ذات ليلة - أي عمر - على مركب له يسير وحده ، وقبده مزاحم .
فتقدم عمر وأخبره مزاحم ، فنظر مزاحم فإذا هو برجل يسير عمر (وعهده به وحده) وقد
وضع ذلك الرجل يده على عاتق عمر . قال مزاحم « فقلت في نفسي « من هذا ؟ إن هذا =

يعينانه ، وقثم وأسامة وشقران مولى المصطفى يصبون الماء ، وأعينهم معصوبة وكفن في ثلاثة أثواب بيض قطن ، ولم يكن في ككفنه قميص ولا عمامة ، وصلوا عليه فرادى ، يدخل جماعة ويخرج جماعة . واختلفوا في الموضع الذي يدفن فيه صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« لَا يُدْفَنُ نَبِيٌّ إِلَّا حَيْثُ قُبِضَ » .
فدفن في بيت عائشة رضي الله عنها .

==لدوالةعليه، فحررت للحرق به فأدركته فإذا هو وحده، لا أرى معه أحداً غيره. فقلت له « رأيت معك رجلاً آنفاً ، قد وضع يده على عاتقك، وهو يسألك ، فقلت في نفسي، » من هذا ؟ إن هذا لدوالة عليك ، فلحقته فلم أر أحداً غيرك . قال عمر « أوفد رأيته يأمزحهم ؟ قال نعم . قال إني لأحسبك رجلاً صالحاً ، ذلك يأمزحهم الخضر ، أعلمني أني سألي هذا الأمر وأهان عليه .

١٣١- فَلَيْسَ رُكْنًا يُعْتَقَدُ فِي الدِّينِ وَلَا تَرْغُ عَنْ أَمْرِهِ الْمُبِينِ

● فَلَيْسَ رُكْنًا : لِثَن كَانَ نَصَبُ الْإِمَامِ وَاجِبًا فَإِنْ طَرِيقَ اخْتِيَارِهِ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ ، وَمَا هِيَ رُكْنٌ مِنَ الْأَرْكَانِ الَّتِي يَجِبُ اعْتِقَادُهَا . إِذْ أَنْ هَذِهِ طَرِيقًا ثَلَاثَةً سَلَكَتْ فِي اخْتِيَارِهِ أُولَاهَا : النَّصُّ ، وَقَالَ بِهِ الْخُنَابِزَةُ وَجَمَاعَةٌ مِنَ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَالْحَمَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الْحَوَارِجِ . وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَّ عَلَى أَبِي بَكْرٍ لِإِشَارَةٍ ، وَأَبَا بَكْرٍ نَصَّ عَلَى مُمَرٍّ ، فَإِذَا أَنْ يَنْصُ الْمُسْتَخْلَفُ عَلَى وَاحِدٍ مَعِينٍ كَمَا فَعَلَ الصَّدِيقُ - وَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الثَّانِي - وَلَئِنْ أَنْ يَنْصُ عَلَى جَمَاعَةٍ ، كَمَا فَعَلَ مُمَرٌّ . وَيَكُونُ التَّخْيِيرُ إِلَيْهِمْ فِي تَعْيِينِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَمَا فَعَلَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي تَعْيِينِ عُمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَالثَّلَاثُ : هُوَ إِجْمَاعُ أَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ ، وَذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً فِي مِصْرَ مَا إِذَا مَا مَاتَ لَهُمْ إِمَامٌ وَلَمْ يَسْتَغْلَفْ ، فَأَقَامَ أَهْلُ ذَلِكَ الْمِصْرَ الَّذِي هُوَ حَضْرَةُ الْإِمَامِ وَمَوْضِعُهُ إِمَامًا لِأَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَرَضَوْهُ ، فَإِنْ كُلٌّ مِنْ خُلَفَائِهِمْ وَأَمَامِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْآفَاقِ يُلْزَمُهُمُ الدُّخُولُ فِي طَاعَةِ ذَلِكَ الْإِمَامِ ، إِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِمَامُ مُعْلَنًا بِالْفُسْقِ وَالْفَسَادِ . وَلَا يَسَعُ أَحَدُ التَّخْلُفِ وَعَلَى كُلِّ لَا تَرْغُ فِي أَنْ مَبَاحِثِ الْإِمَامَةِ أَلَيْقَ بِعِلْمِ الْقُرُوعِ لَوْجُوعًا إِلَى الْقِيَامِ بِالْإِمَامَةِ ، وَنَصَبِ الْإِمَامِ الْمَوْصُوفِ الْمُخْصُوصِ مِنْ فُرُوضِ الْكَفَايَةِ ، وَلَا خُفَاءَ فِي أَنْ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَةِ دُونَ الْإِعْتِقَادِيَةِ . وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هُنَا لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهَا مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ عَنِ الْمُعْتَزَلَةِ وَالشَّيْعَةِ وَسَائِرِ الْمُبْتَدِعَةِ .

● وَلَا تَرْغُ عَنْ أَمْرِهِ : أَيُّ لَا تَخْرُجُ عَنْ امْتِنَالِ أَمْرِهِ وَنَبِيهِ الْوَاضِحِ

الجاري على قوانين الشرع ولا عن أمر خلفائه ونوابه ، لأن طاعته
واجبة على جميع الرعايا بالظاهر والباطن لقوله تعالى :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ »^(١) .

ولقوله ﷺ :

« مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ،
وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي »^(٢) .
لكن لا بطاع في الحرام والمكروه ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال :
« عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فَيَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ
بِمَعْصِيَةٍ . فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ »^(٣) .

أما المباح فإن كان فيه مصلحة عامة للمسلمين وجبت طاعته فيه ، وإلا
فلا بطاع . فلو نادى بعدم شرب الدخان - مثلاً - وجبت عليهم طاعته
لأن في إبطاله مصلحة عامة إذ في تعاطيه خسة لذوي الهبات ووجوه الناس ،
خصوصاً إذا كان في الأماكن العامة .

(١) النساء ٥٩

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر .

١٣٢- إِلَّا بِكُفْرٍ فَاُنْبِذَنَّا عَنْهُدُ ۖ فَاللَّهُ يَكْفِينَا اِذَاهُ وَحْدَهُ

● إِلَّا بِكُفْرٍ فَاُنْبِذَنَّا عَنْهُدُ : أي إذا أمر الامام بكفر فعندها أطرحن بيعته جهراً ، فإن لم تقدر فسرّاً ، فعن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ أنه قال :

« إِنَّهُ يُسْتَفْعَلُ عَلَيْكُمْ أَمْرَاءُ ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ . فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِيَ ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَا نُقَاتِلُهُمْ ؟ قَالَ : لَا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ »^(١) .

واعلم أنك إذا طرحت بيعته ، فافقه تعالى وحده يكفيننا أذى ذلك الامام الأمر بالكفر ، إذ هو الذي فاضيته بقدرته .

(١) رواه الإمام مسلم . فن كره فقد برى . « أي من كره بقلبه ، ولم يستطع إنكاراً بيد ولا لسان فقد برى من الإثم وأدى وظيفته . ومن أنكر فقد سلم » أي من أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية . ومن رضي وتابع أي رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي . قال القرطبي في تفسيره (ج ١ ص ٢٧١) « إذا نصب الامام ثم فسق بعد انبرام العقد قال الجمهور « انه تفسخ إمامته ، ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم . لأنه قد ثبت أن الامام إنما يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق ، وحفظ الأموال .. إلى غير ذلك ، وما فيه من فسق يقعه عن هذا . على أنه لا يجوز ابتداء أن يعقد لفاسق ، لأجل أنه يؤدي إلى إبطال ما أقيم له . وقال آخرون « لا يخلع إلا بالكفر ، أو بترك الصلاة أو ترك شيء من الشريعة ، لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث عباد بن الصامت قال « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى أن لا ننزع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً =

• • • • •

==بواحاً عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم « متفق عليه والكفر البواح هو الكفر الظاهر الذي لا يَحتمل التأويل . والأثره في الأفراد بالشئ عمن له فيه حق . والمنشط والمكره « السهل والصعب » وقال الإمام الشافعي « إن الإمام يتعزل بالفسق والجور ، وكذا كل قاض وأمير . وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني : وفي كتب أصحاب إمامنا الشافعي يشترط أن يكون الإمام بالغاً ، عاقلاً ، مسلماً ، عدلاً ، حراً ، ذكراً ، مجتهداً ، شجاعاً ، ذا رأي وكفاية ، قرشياً ، سمياً بصيراً ، فاطماً ، سليم الأعضاء من نقص يمنع استيفاء الحركة ومرعة النهوض . وقال الشيخ محي الدين « وعندني إن الحاكم إذا جار أو فسق انعزل فيما فسق فيه خاصة لأنه لم يحكم بما أمره الله أن يحكم به . وقال شاه ولي الله الدهلوي : « وبالجملة فإذا كفر الخليفة بإنكار ضروري من ضروريات الدين حل قتاله ، بل وجب . وإلا ، لا ، وذلك لأنه حينئذ « أي عند كفره » فأنت مصلحة نصبه ، بل يخاف مفسده علي القوم ، فصار قتاله من الجهاد في سبيل الله . (ص ٧٣٩ كتاب حجة الله البالغة) .

١٣٣- بغير هذا لا يُباحُ صرفُهُ وَلَيْسَ يُعزَلُ إِنْ أُزِيلَ وَصْفُهُ

● بغير هذا لا يباح : أي بغير هذا الكفر لا يجوز خلعهُ ، لا جهرأ ولا صراً . وإذا ارتكب المعاصي من غير استعمال لها لا يخلع . كذلك إن ابتداءً مستكملاً لشروط الامامة ثم أزيل وصفه السابق - وهو العدالة - بطور الفسق فإنه لا يعزل عند الله تعالى ، وإن استحق العزل خلافاً لطائفة ذهبوا إلى أنه يعزل .

١٣٤- وأمر بعرف واجتنب تميمه وغيبه وخصله ذميمة

● وأمر بعرف : لما فرغ من الامامة أعقبها بما يتوقف القيام به عليها غالباً ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقال : وأمر بعرف وانه عن منكر وجوباً كفاً . وإنما ترك ذكر النهي عن المنكر لاستلزام الأمر بالمعروف له . والعرف لغة : المعروف ، وهو إسم جامع لكل ماعرف من طاعة الله تعالى ، والتقرب إليه ، والإحسان إلى الناس وكل مائندب إليه الشرع . أو هو ماعوف الشرع ، وهو الواجب والمندوب . والمنكر ضده ، وهو ما أنكره الشرع ، وهو الحرام والمكروه . فيندب الأمر بالمندوب ، والنهي عن المكروه . ويجب الأمر بالواجب والنهي عن الحرام . فإن قيام به بعض الأمة سقط عن الباقي . وهو فوري إجماعاً . ولا يختص وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمن لا يرتكب مثله بل من رأى منكراً وهو يرتكب مثله فعليه أن ينهي عنه . والدليل على الوجوب الكتاب والسنة والإجماع . قال الله تعالى : **« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »** (١) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ**

(١) آل عمران ١٠٤ .

يَسْتَطِيعُ فَبَلِّسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِيعْ فَيَقْلِبْهِ ، وَذَلِكَ
أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ،^(٢) .

والمراد بالإيمان - هنا - الأعمال كما قال تعالى :

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ »^(٣)

أي صلاتكم . ومعنى ضعف الإنكار بالقلب دلالة على غوابة الإسلام
وعدم انتظامه . فمراتب الإنكار ثلاث ، أقواها التغيير باليد ، وأضعفها
الإنكار بالقلب بأن يكرهه بقلبه ولا يرضى به . وقد أجمع المسلمون
الصدر الأول وما بعده على وجوب الأمر بالمعروف ، وكانوا يتواصون
بذلك ويوبخون تاركه مع الاقتدار عليه . وأما قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ
إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ »^(٤) .

فالمعنى إذا فعلتم ما كلفتم به ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
لا يضركم فعل غيركم للمعصية . فالآية دالة على وجوب الأمر بالمعروف
لا كما يفهمه بعض القاصرين . وقد قال ابن مسعود : إن من أكبر
الذنوب عند الله أن يقال للعبد اتق الله فيقول عليك بنفسك .

(٢) رواه الإمام مسلم

(٣) البقرة : ١٤٣

(٤) المائدة : ١٠٥

وفي الحديث : « مَنْ قِيلَ لَهُ : اتَّقِ اللَّهَ ، فَغَضِبَ ، وَقَفَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَمْ يَبْقَ مَلَكٌ إِلَّا مَرٌّ ، بِهِ وَقَالَ : أَنْتَ الَّذِي
قِيلَ لَكَ اتَّقِ اللَّهَ فَغَضِبْتَ ، عَلَى جَهَةِ التَّوْبِيعِ وَالتَّقْرِيعِ .

واعلم أن لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً : أحدها أن
يكون المتولي لذلك عالماً بما يأمر به وينهى عنه ، فالجاهل بالحكم لا يعمل
له الأمر ولا النهي . فليس للعوام أمر ولا نهى فيما يجهلون . وأما
الذي استوى في معرفته العام والخاص ففيه للعالم وغيره الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر . وثانيها : أن يأمن أن يؤدي إنكاره إلى منكر
أكبر منه ، كأن ينهى عن شرب الخمر فيؤدي نهيّه عنه إلى قتل النفس ،
أو نحوه فعدم هذين الشرطين يوجب التحريم . وثالثها : أن يغلب على
ظنه أن أمره بالمعروف مؤثر في تحصيله ، وأن نهيه عن المنكر مزيل
له . وعدم هذا الشرط يسقط الوجوب ، ويبقى الجواز إذا قطع بعدم
الإفادة ، والندب إذا شك فيها وقال أكثر العلماء كالتشافية لا يشترط
هذا الشرط لأن الذي عليه هو الأمر والنهي وليس عليه قبولهما ، قال تعالى :
« مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ »^(١)

وقال أيضاً : « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »^(٢)
قال الإمام النووي : قال العلماء : ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه . بل يجب عليه فعله .

(١) المائة : ٩٩

(٢) الذاريات : ٥٥

● واجتنب نعمة : أي انفر منها وتباعد عنها ، واجتنابها واجب عيني وحقيقتها : نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على وجه الإفساد بينهم . قال الإمام الغزالي : وليست النعمة محتصة بذلك . بل حدها : كشف ما يكره كشفه ، سواء كان الكشف بالقول ، أو الكتابة أو الرمز ، أو نحوه ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأحوال ، وسواء كان عيباً أو غيره . قال النووي : فحقيقتها إفشاء السر وهتك الستور مما يكره كشفه قال : وكل من حُلت إليه نعمة لزمه ستة أمور : أن لا يصدقها ، لأن التعمام فاسق ، والفاسق مردود . وأن ينهأ عن ذلك وينصحه . وأن يبغضه ، لأنه بغض عند الله تعالى ، ويجب بغض من أبغضه الله . وأن لا يظن بالمنقول عنه السوء ، لأن الله تعالى قال : «اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ . إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ»^(١) .

وأن لا يحمله ما حكي له على التجسس لأن الله تعالى قال : «وَلَا تَجَسَّسُوا»^(٢)

وأن لا يحكي نعمة عنه ، فيقول : فلان حكى لي كذا . وقد قال ﷺ : «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ»^(٣) .

والمراد بعدم الدخول عدمه مع السابقين ، لاعدمه مطلقاً ، إلا إن عُفِر له . وكل ذلك ما لم تدع الحاجة إليها وإلا جازت ، لأنها حينئذ ليست بنعمة ، بل نصيحة . كما إذا أخبرك شخص بأن فلاناً يريد البطش بـالك

(١ و ٢) الحجرات : ١٢

(٣) متفق عليه من حديث حذيفة .

أو بأهلك مثلاً لتكون على حذر فليس ذلك بجوام ، لما فيه من دفع
المفاسد . وقد يكون بعضه واجباً ، كما إذا تيقن وقوع ذلك لو لم يجبرك
بهذا الخبر . وقد يكون بعضه مستحباً ، كما إذا شك في ذلك ، ذكره النووي .
● غيبة : أي واجتنب غيبة . والأمر فيه للوجوب العيني .
والغيبة : هي ذكرك أخاك بما يكره ولو بما فيه . فلو ذكرته بحضوره
سمي بهتاناً ، وإن ذكرته بما ليس فيه فقد زاد إثم الكذب . عن أبي
هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ ؟ » قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : ذَكَرُكَ
أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ . قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟
قَالَ : إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اخْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ
مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ » (١) .

ومن الضلال قول بعض العامة : ليس هذا غيبة وإنما هو إخبار بالواقع .
وربما جر ذلك إلى كفر الاستحلال ، والعياذ بالله . وليست الغيبة مختصة
بالذكر فقط . بل ضابطها : كل ما أنهت به غيرك نقهان مسلم . عن
عائشة رضي الله عنها قالت :

« قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا » (قَالَ بَعْضُ
الرُّوَاةِ : تَعْنِي قَصِيرَةً) قَالَ : « لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَا
الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ » (٢) .

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ومزجته وشالطته غالبة
تغير بها طعمه أو ريحه لشدة لثنها ولهبها .

وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عن الغيبة . ومن الغيبة قول المصنفين قال فلان كذا ، وهو غلط أو خطأ ، إلا إن أريد بذلك بيان الغلط ، أو الخطأ لئلا يقلد . فذلك نصيحة لا غيبه . والغيبة محرومة بالقلب كحرمتها باللسان بالنسبة لمن لم يشاهد ، أما من شاهد فيعذر في الاعتقاد ، إلا أنه ينبغي عليه أن يذهب إلى أنه قلب . عن ابن مسعود رضي الله عنه : أنه أتني برجل فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال إنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به . وقال جمع : لا غيبة في الكافر الحربي . وحكم الغيبة التحريم بالإجماع . وفي كتاب الله تعالى : « أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ »^(١)

وفي هذه الآية تنفير شديد لاشتغالها على خمسة أمور هي : كونه لحماً ، وميتاً ، ونبتاً ، ومن آدمي ، وأخ . وكما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة يحرم على السامع سماعها وإقرارها فيجب على كل من سمع إنساناً يذكر غيبة محرومة أن ينهأ إن لم يخف ضرراً ظاهراً . عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« مَنْ رَدَّ عَنْ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٢).

فإن لم يستطع النهي باليد ، ولا باللسان ، فارق المجلس . فإن قال المنكرو بلسانة المغتاب : اسكت ، وهو يشتهي بقلبه استمراره ، فذلك نفاق ، كما قاله الغزالي . فلا بد من كراهته بقلبه . ومن غيبة المتفقين

(١) الحجرات : ١٢

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

والمتعبدین أنه یقال لأحدهم : کیف حال فلان ؟ فیقول : الله یصلحنا ،
أو نسأل الله العافیة ، وما أشبه ذلك بما یفهم منه تنقیصه . وكل ذلك
غیبة محرمة . واعلم أن العلماء ذكروا أن الغیبة تباح فی أحوال خاصة
للمصلحة ، بل ربما وجبت . وهذه الاحوال هی أولاً : التظلم : كأن
یقول المظلوم لمن له ولاية أو قدرة على إنصافه على ظالمه : فلان ظلمني
بكذا . ثانياً : الاستعانة على تغییر المنكر ، كأن یقول لمن یرجو
قدرته على إزالة المنكر : فلان یعمل كذا فأعني على منعه . بشرط أن
یکون قصده التوصل إلى إزالة المنكر . فإن لم یقصد ذلك كان حراماً .
ثالثاً : الاستفتاء ، كأن یقول للمفتی ظلمني أخی أو فلان من الناس ،
فهل له ذلك ؟ وما طریقي إلى الخلاص منه ؟ والأحوط والأفضل : أن
یقول ما تقول فی رجل كان من أمره كذا ؟ . رابعاً : التعذیر وذلك
من وجوه ، منها جرح المجروحین من الرواة والشهود ، وذلك جائز
بإجماع المسلمین بل واجب للحاجة . ومنها المشاورة فی مصاهرة أو مشاركة
أو معاملة ، أو إبداع أو مجاورة ، وتذكر المساویء بنية النصیحة ،
ومنها إذا رأى متفقها یتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم ، فعليه
نصیحته ، ببيان حاله ، بشرط قصد النصیحة . خامساً : أن یمكن
مجاهراً بفسقه ، أو بدعته ، كالمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وأخذ
المكس ، وجباية الأموال ظلماً ، وتولي الأمور الباطلة . فیجوز ذكره
بما یجهر به ، ویحرم بغيره من العیوب . سادساً : التعریف ، كأن
یقول فلان الأعشى ، أو الأصم ، أو الأحمى ، فیمكن أن یعرفوا
بذلك . بشرط أن یمكن بنية التعریف ، وإلا کانت بنية حرم .

والتوبة تنفع في الغيبة من حيث الإقدام عليها ، وأما من حيث الوقوع في حرمة مَنْ هي له فلا بد فيما مع التوبة من الاستعفاء ، إذا بلغت صاحبها . وإن لم تبلغه فيكفي الاستغفار له ، وإن بلغته بعد ذلك بلغته بمحوه . وما يساعد على ترك الغيبة شهود أن ضررها عائد على النفس ، فقد ورد : أنه تؤخذ حسنات المغتاب لمن اغتابه وتطرح عليه سيئاته . وعن ابن المبارك : لو كنت مغتاباً لاغتابت والذي لأنه أحق بحسناتي . فالعاقل من اشتغل بعيوب نفسه . فإن قال لا أعلم لي عيباً فهذا أعظم عيب .

● وخصة ذميمة : أي واجتنب كل خصلة ذميمة شرعاً . وسيذكر المصنف — فيما يأتي — أنواعاً من الحصل الذميمة كالعجب والحسد اهتماماً بعيوب النفس . لأن بقاء عيوبها مع إصلاح الظاهر إنما هو بمثابة لبس ثياب حسنة على جسد ملطخ بالقاذورات . ومن الحصل الذميمة : الظلم والبغي والغش ، كأن يخلط الرديء بالجميل ، والكذب لغير مصلحة شرعية . (ويجب الكذب لانتقاد مسلم أو لإصلاح ذات بين) . ومنها عقوق الوالدين، وترك الصلاة ، ومنع الزكاة ، والمداينة إن كانت فيما إفساد الدين ، كأن يشكر ظالماً على ظلمه ، أو مبطلًا على باطله . أما إذا توقف عليها دفع محرم فتجب ، وتكره إن كانت وسيلة لمكروه ، وإن خلت عن كل ذلك أبيحت اه . وقد قيل : المداينة هي بذل الدين لأجل الدنيا ، وأما بذل الدنيا لأجل الدين فتسمى مداراة ، وهي محمودة .

١٣٥- كالعجب والكبر وداء الحسد وكالمراء والجذل فاعتمد

● كالعجب : يبين هنا بعض الحاصل الذميمة التي نوة برجوب اجتنابها . والعجب : هو رؤية العبادة واستعظامها ، كما يحبب العباد بعبادته ، والعالم بعلمه ، فهذا حرام غير مفسد للطاعة . والرياء حرام غير مفسد للطاعة ، خلافاً لمن قال بأنه يفسدها . فإن الذي صرح به بعض المحققين أنه محبط للثواب فقط مع وقوع للعمل صحيحاً . وإنما حرم العجب لأنه سوء أدب مع الله تعالى إذ لا ينبغي للعبد أن يستعظم ما يتقرب به لسيده ، بل يستصغره بالنسبة لعظمة سيده ، لا سيما عظمته سبحانه وتعالى.

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ »^(١)

أي ما عظموه حق عظمتهم . وما يعين على دفع العجب أن الصادق المصدوق أخبر بأنه مهلك ، فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ ، شَحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ »^(٢).

فإذا أرادت نفسك العجب فقل : عوضك الله في العمل خيراً ، ولا معنى للعجب بما لم يعلم أقبل أم لم يقبل ؟ . على أنه حيث يشهد أن كل شيء من الله تعالى لا يبقى له شيء يعجب به .

(١) الأئمة : ٩١

(٢) رواه البزار والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف .

● والكبر : هو بطر الحق ونمص الخلق أو غمط الخلق ، قال عليه السلام :
 « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ
 كِبَرٍ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ
 مِنْ إِيْمَانٍ »^(١) .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ :

« يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعِظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي
 وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ وَلَا أُبَالِي »^(٢) .

والمراد بعدم دخول الجنة عدمه مع السابقين ، أو عدمه نهائياً إن
 استعمل . وقيل لأول متكبر :

(فَأَيَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ، فَأُخْرِجَ فَإِنَّكَ مِنْ
 الصَّاغِرِينَ)^(٣) .

ولا يدخل في الكبر التبعيل بالملابس وغيرها ، إذ أنه مندوب في الصلوات
 والجماعات ونحوها ، وفي حق المرأة لزوجها ، وفي حق العلماء لتعظيم العلم
 في نفوس الناس ، ويكون واجباً في حق ولاية الأمور وغيرهم إذا توقف
 عليه تنفيذ الواجب ، فإن الهيئة المزرية لا تصلح معها مصالح العامة في
 العصور المتأخرة ، لما طبعت عليه النفوس الآث من التعظيم بالصور
 ويكون حراماً إذا كان وسيلة لمحرّم ، ومكروهاً إذا كان وسيلة لمكروه ،

(١) رواه مسلم من حديث ابن مسعود

(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه

(٣) الأعراف : ١٣

ومباحاً إذا خلا عن هذه الأسباب . قال العلماء بطر الحق : رده على قائله ، أي عدم قبوله منه . وغص الناس ، احتقارهم والنهاون بهم . وله دواء عقلي وشرعي وعادي . أما العقلي فبأن يعلم أن التأثير لله ، وأنه لا يملك لنفسه ، ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً فلا ينبغي لعاقل أن يتكبر ، فإنه قد استوى القوي والضعيف والرفيع والوضيع في الذل الذاتي . وقد قيل لسيد الكائنات :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ »^(١) .

وأما الشرعي فهو الوعيد الوارد فيه . وأما العادي فبأن ينظر لأصله ومآله وتقلباته ، فإن أصله نطفة فذرة أصلها من دم ، وأقام مدة وسط القاذورات ، ثم هو الآن محشو بها ، ومآله جيفة منتنة ، فمن تأمل صفات نفسه عرف مقداره . والمتواضع من عرف الحق ورأى جميع ما معه من فضل الله تعالى ، ولا يحقر شيئاً في مملكة سيده . ومحل كون التكبر حراماً إذا كان على عباد الله الصالحين وأئمة المسلمين ، وهو حينئذ من الكبائر ، ومن أعظم الذنوب القلبية . وأما إذا كان على أعداء الله تعالى فهو مطلوب شرعاً ، والمواد به احتقارهم لأجل كفرهم ومعصيتهم .

● وداء الحسد : وهو تمنّي زوال نعمة غيره سواء تمتلأها لنفسه ، أو لا . بخلاف ما إذا تمنّي مثل نعمة غيره فإنه غبطة محمودة في الخير ، وقال صلى الله عليه وسلم :

« لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً ، فَهُوَ يُنْفِقُ »

(١) آل عمران ١٢٨ .

مِنْهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ^(١) .

ودليل تحريمه الكتاب والسنة والإجماع

قال تعالى : « وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » .

وقال صلى الله عليه وسلم

« إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » ، أو قال العشب^(٢) .

ودواء الجسد النظر للوعيد مع أنه إساءة أدب مع الله تعالى ~~كانه~~ لا يسلم له حكمه .

● وكلاءه : هو لغة الاستخراج . يقال : ماري فلان فلاناً ، إذا استخرج ما عنده ، وعرفاً : منازعة غيره فيما يدعي صوابه . وعمل كونه مذموماً إذا كان لتحقير غيرك ، وإظهار مزيك عليه . وقد ورد في الحديث : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ - ثَلَاثًا - . أَيْ الْمُتَعَمِّقُونَ فِي الْبَحْثِ . وَوَرَدَ أَيْضًا : « سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يُغْلِقُونَ قُبَاهَهُمْ بِعُضْلِ الْمَسَائِلِ أَوْلَيْكَ شِرَارُ أُمَّتِي »^(٣) .

وأما إذا كان المراء لإحقاق حق ، وإبطال باطل فمدوح شرهاً ، ولو من ولد لوالده ، فيكون عقوقاً محموداً .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) أخرجه الطبراني عن ثوبان .

● والجدل : وهو دفع الشخص خصمه عن إفساد قوله بحجة ،
 قاصداً به تصحيح كلامه . وعليه فالفرق بينه وبين المراء : أن الجدل يكون من
 قبل صاحب القول ، يدفع عن قوله الإفساد ، والمراء يكون من قبل الخصم .
 وإذا حققت النظر وجدتها بمعنى واحد ، وحينئذ تقول في تعريفها : مقابلة
 الحجة بالحجة . وبحل حرمة إذا كان لإفساد قول غيره ، بخلاف ما إذا
 كان لإحقاق حق أو إبطال باطل . قال الإمام الشافعي : ما ذكرت
 أحداً وقصدت إفعاله ، وإنما أذاكره لإظهار الحق من حيث هو حق .
 ● فاعتمد : يشير المصنف - هنا - إلى انقضاء فن العقائد . فيقول :
 فاعتمد على ما ذكرته قبل ، لأنه مذهب أهل السنة والجماعة .

١٣٦- وَكُنْ كَمَا كَانَ خِيَارُ الْخَلْقِ حَلِيفَ حِلْمٍ تَابِعاً لِلْحَقِّ

● وكن كما كان... : هذا من باب التخلص من التخلية المنوه عنها باجتناب ، إلى التخلية بالفضائل المشار إليها بقوله : وكن . وقد ذكر المصنف شيئاً من فن التصوف ومنه مباحث النسيمة وما بها من المهلكات ، فهي تصوف . وقد عرفوه : بأنه علم بأصول يعرف بها إصلاح القلب وسائر الخواص . وفائدته : صلاح أحوال الإنسان لما فيه من الخلق على تصفية الاعتقاد ، وكال الأعمال بالسداد . قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : هو تجريد القلب لله تعالى ، واحتقار ما سواه ، بمعنى تخلص القلب لله تعالى ، واعتقاد أن ما سواه لا ينفع ولا يضر ، فلا يعول إلا على الله ، وليس المراد به الإزدراء والتنقيص . والحق أن التصوف ثروة جميع علوم الشريعة ، وليس قواعد مخصوصة مدونة . قال سهل بن عبد الله : الصوفي من صفى من الكدر وامتأ من العبر وانقطع إلى الله عن البشر وتسوى عنده الذهب والمدر .

● خيار الخلق : أي كن متصفاً بأخلاق مثل الأخلاق التي كانت عليها خيار الخلق . وخيار الخلق هو الرسول صلى الله عليه وسلم . لأنه جمع ما تفرق في غيره من الحاصل الحميدة ، فهو الخيار المطلق . والأولى أن يراد بالخيار كل من ثبتت له الخيرية ، ولو بالنسبة لمن دونه ، فيشمل الرسول صلى الله عليه وسلم والأنبياء والعلماء والشهداء والأولياء ، والزهاد ، والعباد ، وإذا كانت المجاهدة على يد شيخ من العارفين - وهو من بدت عليه علائم الورع والزهد والتواضع والتمسك بالشرع والحض عليه ، والحرص

على خدمة المؤمنين - كانت أنفع . وقد قيل : حال رجل في ألف رجل
أنفع من وعظ ألف رجل في رجل . فينبغي لزوم شيخ عارف مستقيم على
الكتاب والسنة بأن يزنه قبل الأخذ عنه ، فإن وجدته على الكتاب والسنة لازمه
وتأدب معه ، فعساه يكتسب من حاله ما يكون به صفاء باطنه ، والله
يتولى الهداية .

● حليف حلم : الحليف بمعنى المحالف والملازم . والحلم بمعنى تحمل
مشاق عباد الله بحيث لا يستفزك الشيطان ، ولا الهوى ، ولا بحركك
الغضب إلا في إنكار المنكرات ، فليس الشجاع بالصرعة ، إنما الشجاع
من يملك نفسه عند الغضب ، فكن حليف حلم ، وخص الحلم مع دخوله
في عموم ما كان عليه خيار الخلق اهتماماً به ، ولأنه وصف جامع لأوصاف
الخير ، لكن الحلم فيما يغضب الله تعالى مذموم .

● تابعاً للحق : المراد بالحق - هنا - الله تعالى ، لأن الحق من
أسمائه . ويحتمل أن يكون المراد بالحق الأحكام الخلقية . ولا يخفى عليك
- أيها الموفق - أنك لا تكون تابعاً للحق إلا إذا كنت متمسكاً به ،
بمثلاً لأوامره ، مجتنباً لنواهيه ، عارضاً جميع أقوالك وأفعالك واعتقاداتك
على الشريعة الغراء .

١٣٧ - فَكُلْ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفَ

وَكُلْ شَرًّا فِي ابْتِدَاعِ مَنْ خَلَفَ

● فكل خير في اتباع من سلف : لما أمر في قوله : وكن كما كان ... علل هنا بأن كل خير إنما هو في اتباع من تقدم من الصالحين الأبرار ، خصوصاً الأئمة الأربعة المجتهدين الذين انعقد الإجماع على امتناع الخروج عن مذاهبهم في الإفتاء والحكم . فكن كما كان خيار الخلق ولا تكن كما كان شرارهم ، لأن كل شر في ابتداع من خلف . وهم من تأخر من الخلف السيء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات . واعلم أن البدعة إنما تعترى الأحكام الخمسة . فتارة تكون واجبة ، كضبط المصاحف وتدوين الشريعة ، وتارة تكون محرمة كالمكوس وسائر المحدثات المنافية للقواعد الشرعية والعقائد الفاسدة الزائفة التي ابتدعها أناس ملثوا حقداً وضغناً على الإسلام وأهله وتارة تكون مندوبة ، كصلاة التراويح جماعة ، لذا قال سيدنا عمر رضي الله عنه في التراويح عندما جمع الناس عليها : نعمة البدعة هذه ، رواء البخاري .

وتارة تكون مكروهة ، كزخرفة المساجد وتزيين المصاحف . وتارة تكون مباحة ، كالتخاذ المناخل للدقيق ، وإنما كانت مباحة لأن ابن العيش وإصلاحه من المباحات فوسائله مباحة .

١٣٨- وَكُلُّ هَدْيٍ لِلنَّبِيِّ قَدْ رَجَحَ فَمَا أُبَيِّحَ أَفْعَلُ وَدَعَّ مَا لَمْ يَبْسُحْ
١٣٩- فَتَابِعِ الصَّالِحَ يَمُنْ سَلَفًا وَجَانِبِ الْبِدْعَةَ يَمُنْ خَلْفًا

● وكل هدي : أي وكل هدي منسوب للنبي ﷺ قد رجع على ما لم ينسب له ﷺ من الأقوال والأفعال والاعتقاد ، فأفضل الأحوال أحواله ﷺ التي لم تنسخ ، بخلاف ما نسخ كقيام الليل كله ، وليس المقصود بها مجرد بيان الجواز ، كوضوئه ﷺ مرة مرة ، ولا ما قام الدليل على اختصاصه به ﷺ .

● فما أبيع أفعَل : أي فما لم ينه عنه - ولو تنزيهاً - أفعله . فالمواد بما أبيع الواجب والمندوب والمباح . والمباح هو ما استرى طرفاه ، أي فعله وتوكله . أما ما لم يبيع فعله - وهو المنهي عنه - بأن كان محرماً ، أو مكروهاً ، أو خلاف الأولى ، فدعه ولا تلتفت إليه .
● فتابع الصالح : أي فتابع في عقائدك وأقوالك وأفعالك ، الفريق الصالح من سلف . قال عليه الصلاة والسلام :

« أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ فَإِنَّهُ مِنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِزِ ، وَإِيَّاكُمْ وَتُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » (١) .
والصالح هو من قام بحقوق الله تعالى وحقوق العباد ، وبطلق على النبي كما يطلق على الولي إلا أن الصلاح في الأنبياء أكمل ، ومهما بلغ الولي في رتبة الصلاح فإنه لن يبلغ أولى مراتب النبوة .

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح .

● وجانب البدعة : أي واترك البدعة المذمومة ممن جاء بعد خواص الصحابة وعلمائهم . وقد علمت أن البدعة تعتبرها الأحكام الخمسة . والحاصل أن كل ما وافق الكتاب والسنة أو الإجماع والقياس فهو سنة ، وما خرج عن ذلك فهو بدعة مذمومة .

١٤٠- هَذَا وَأَرْجُو اللَّهَ فِي الْإِخْلَاصِ مِنَ الرِّيَاءِ ثُمَّ فِي الْخُلَاصِ

١٤١- مِنَ الرَّجِيمِ ثُمَّ نَفْسِي وَالْهَوَىٰ فَنَ يَمِلُ لِهُؤُلَاءِ قَدْ غَوَىٰ

● هذا وأرجو الله^(١): أي أفهم هذا ، أو هذا المذكور لك في المنظومة إنما هو مذهب أهل السنة . وقد أتى بهذا للانتقال من الأمر بتابعة السلف ومجانبة البدعة من خلف إلى غرض آخر ، وهو - هنا - رجاء الإخلاص . والرجاء هو تعلق القلب بمغوب فيه مع الأخذ في الأسباب . قال ابن الجوزي : مثل الراجي مع الإصرار على المعصية كمثل من رجا حصداً ، وما زرع ، أو ولدأ وما تزوج ، قال الشاعر :
ما بال دينك ترضى أن تدنسه وثوبك - الدهر - مغسول من الدنس
ترجو النجاة ، ولم تسلك طريقها إن السفينة لا تجري على اليبس
وقد رجا الناظم الله تعالى بأن يهبه الإخلاص في عمله ، والإخلاص : هو قصد الله وحده بالعبادة ، وهو سبب للخلاص من أهوال يوم القيامة ، وواجب عيني على كل مكلف في جميع الطاعات ، قال تعالى :

« وَمَا أَمُرُّوهُ إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »^(٢) . وقال تعالى :

« أَنْ يَنْتَهِىَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ، وَلَكِنْ يَنْتَهِىَ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ »^(٣) .

ومما يعين على الإخلاص استحضار أن ماسوى الله تعالى لاشيء بيده ، وأن كل شيء إنما هو بيد الله عز وجل . والصادق في إخلاصه لا يجب

(١) هذا « إما مفعول لفعل محذوف تقديره « أفهم » . أو مبتدأ وخبره محذوف ، وتقديره هذا المذكور لك مذهب أهل السنة .

(٢) البينة : هـ

(٣) الحج : ٢٧

اطلاع الناس على حسن عمله ، ولا يكره أن يطلع النبال على سيئه ، ولا يبالي بخروج قدره من قلوب الخلق .

● من الرياء : أي يدل الرياء ، والمعنى : وارجو الله في الإخلاص بدل الرياء^(١) . والرياء هو أن يعمل العبد للقربة ليراه الناس . وأما التسميع فهو أن يعمل العمل وحده ثم يخبر به الناس لأجل تعظيمهم له أو جلب خير منهم . وكل من الرياء والتسميع محبط للثواب مع صحة العمل ، خلافاً لما نص عليه السادة المالكية من أنه مبطل للعبادة . وقول الحسن : ومن أعطى غيره شيئاً حياء منه ، له فيه أجر . وقول ابن سيرين من تبع جنازة حياء من أهلها فله أجر . وكل من هذين القولين يحول على ما إذا قصد جبر خاطر من أعطاه ، وخاطر أهل الجنازة ، لله تعالى ، وإلا فهو رياء . قال تعالى :

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاقُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ »^(٢).

والرياء قسمان : جلي وخفي ، فالأول : أن يفعل الطاعة بحضرة الناس ليس غير ، فإن خلا بنفسه لا يفعل شيئاً . والثاني : أن يفعلها مطلقاً حضر الناس ، أو لا ، لكنه يفرح عند حضورهم . قال الفضيل بن عياض : العمل لأجل الناس شرك ، وترك العمل لأجل الناس رياء ، والإخلاص أن يعافيك الله منها . فمن عزم على عبادة فتركها خوفاً للناس فهو مرء ، إلا أن يتركها ليفعلها في الخلوة فهو مستحب .

(١) من : ليست للتعبية ، وإنما هي بمعنى بدل .

(٢) الماعون من ٣ الى ٧ .

● ثم في الخلاص ... : أي وأرجو الله في الخلاص من الوقوع في كيد الشيطان الرجيم وحبائله . ومن مكابد نفسي التي هي أشد ، وفي الهوى .
قال الله تعالى :

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا » (١) .

أي فأعلنوا عداوته ونخالفته في عقائدكم وأقوالكم وأفعالكم ، وكونوا منه على حذر في جميع الأحوال . والمراد بالنفس - هنا النفس الأمارة - وهي التي تأمر بالسوء ولا تأمر بالخير إلا نادراً ، بخلاف اللوامة ، وهي التي تغلب صاحبها ثم ترجع عليه باللوم على ما وقع منه ، لكونها أذعن للحق بسبب الجهادة ، وبخلاف الملممة ، وهي التي ألهمت فجورها وتقورها بسبب الجهادة ، والمطمئنة ، وهي التي اطمأنت إلى مكارم الأخلاق ، والراضية ، وهي التي وضيت بالله تعالى رباً من غير منازعة باطنية بسبب الجهادة ، والمرضية ، وهي التي تجلّى الله تعالى عليها بالرضى والعفو عما مضى ، والسامة ، وهي التي صارت الكمال لها طبعاً وسجية ، ومع ذلك تتوفى في الكمال . ثم بعد كمال النفس لا يجوز للشخص أن يتصدى للإرشاد إلا بإذن صريح .
والهوى : هو ميل النفس إلى مرغوبها ولو كان فيه هلاكها وإذا ما أطلق انصرف الميل إلى خلاف الحق ، وقد يستعمل في الميل للحق ، وذلك إذا قيد وإنما ممي هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار .

● فمن يمل ... : أي فمن يمل للشيطان أو للنفس أو للهوى فقد غوى ، فهذه الثلاثة التي هي منشأ كل فتنة ، من ملكة ، وغلت عليه ، فقد فارق الرشد ، وخرج عن الاستقامة

(١) فاطر ٦ .

١٤٢- هَذَا وَأَرْجُو اللَّهَ أَنْ يَمْنَحَنَا عِنْدَ السُّؤَالِ مُطْلَقًا نُحِجَّتُنَا

● هذا وأرجو الله ... : أي هذا مطلوبني ، أو أسأل هذا ، وإنما أتى بلفظ : هذا للتخلص من بحث إلى غيره . فهو يرجو الله تعالى رجاء متجدداً بتجدد الأحوال والأزمنة والأمكنة أن يمنحنا - نحن معاشر المسلمين ، أو أهل العلم ، أو الناظم ويكون تعبيره بضمير العظمة لإظهار سبب العظمة ، وهو تأهيل الله تعالى إياه لطلب الدعاء ، أو لطلب العلم ، تحديقاً بالنعمة ، وهذا لا ينافي أنه متدلل متخاضع لولاه - الحجة - عند ورود السؤال علينا ، سواء كان السؤال في الدنيا أو في عالم القبر أو في عالم يوم القيامة ، كما يفهم من قوله .

● عند السؤال مطلقاً : والحجة إن كانت لسؤال في الدنيا فمعناها : امنعنا ما نحتاج به على جواب ذلك السؤال احتجاجاً صحيحاً شرعياً بحيث لا مطعن فيه ، ولا امتناع من قبوله . وإن كانت لسؤال في الآخرة ، فمعناها : امنعنا نفس الجواب النافع لنا ، لأنه لم يرد أن الملائكة يطلبون من الميت بعد جوابه على سؤالهم إياه دليلاً يثبت به الجواب ، بل متى وفقه الله تعالى وأجابهم انصرفوا عنه ، وقالوا له : نمن نومة العروس . وقال بعض العارفين : من أطف منحه الله تعالى الحجة للإنسان عند السؤال قوله عز وجل :

« يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ »^(١) .

فإنه ألهمه الحجة بأن يقول : غرني كرمك يارب .

(١) الانعطاف : ٦

١٤٣- ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الدَّائِمُ عَلَى نَبِيِّ دَابَّةِ الْمَرَا حِمٍ ،
١٤٤- مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَعِثْرَتِهِ وَتَابِعِ لِنَهْجِهِ مِنْ أُمَّتِهِ

● ثم الصلاة والسلام : تقدمت مباحث الصلاة والسلام . وإنما قدم المؤلف الصلاة والسلام وختم بها رجاء لقبول ما بينها ، لأن الصلاة مقبولة لا مردودة ، والله تعالى أكرم من أن يقبل صلاتين ويرد ما بينها ، ولا ينبغي لمن أوردتها في آخر عمله أن يقصد بها الإعلام بالتنام ، فإن فعل وقع في الكراهة ، مثل قول بعضهم : الله أعلم ، عند التنام ، إن قصد به الإعلام ، وإنما ينبغي به التفويض إلى علم الله عز وجل .

● الدائم ، على نبي : يحتمل السلام الدائم ، أو الصلاة الدائمة مع السلام الدائم على نبي عادته المستمرة الرحمة للعالمين ، ففيه تلميح لقوله تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ »^(١) .

● محمد : ترك الناظم وصفه صلى الله عليه وسلم بالسيادة لضرورة النظم ، إذ يستحب وصفه بها أدباً ، كما قال الجلال المحلي .

● وآله وعترته : تقدم الكلام على الآل ، والعتره هم أهل البيت .
● وتابع نهجه : أي كل متبع لطريقته ولو في الإيمان فقط ، فيدخل العصاة . والقصد بها التعميم في الدعاء لأنه أفضل .

● من أمته : المقصود - هنا - أمة الإجابة ، والسيد المسيح عليه الصلاة والسلام يعتبر بعد نزوله من أمته ، لأنه يتبع شرعه صلى الله عليه وسلم . ثم شرح الجوهرة ، والحمد لله رب العالمين .

(١) الأنبياء : ١٠٧

● ترجمة اللقاني توفي ١٠٤١ هـ ١٦٣١ م

هو إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني ، أبو الامداد ، برهان الدين : فاضل متصوف مصري مالكي . نسبته إلى « لقانة » من البحيرة بمصر توفي بقرب العقبة عائداً من الحج . له كتب منها « جوهرة التوحيد » منظومة في العقائد ، وهي هذه التي عكفنا على شرحها ، و « بهجة المحافل » في التعريف برواة الشمايل ، و « حاشية على مختصر خليل » فقه ، و « نشر المآثر فيمن أدركتهم من علماء القرن العاشر » تراجم لم يتمه ، و « قضاء الوطر » حاشية على العسقلاني في مصطلح الحديث

● ترجمة الباجوري ولد ١١٩٨ هـ وتوفي ١٢٧٧ هـ (١) اي ١٧٨٤ - ١٨٦٠ م

هو إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري : شيخ الجامع الأزهر . من فقهاء الشافعية . نسبة إلى « الباجور » (من قرى المنوفية ، بمصر) ولد ونشأ فيها ، وتعلم في الأزهر ، وكتب حواشي كثيرة ، منها « حاشية على مختصر السنوسي » في المنطق ، و « التحفة الخيرية » حاشية على الشنشورية في الفرائض ، و « تحفة المريد على جوهرة التوحيد » وهذه التي اعتمداها في شرحنا للجوهرة . و « تحقيق المقام » حاشية على كفاية العوام للعفنان في علم الكلام ، و « حاشية على أم البراهين والعقائد للسنوسي » توحيد ، و « المواهب اللدنية » حاشية على شمائل الترمذي ، وله « فتح الخير اللطيف » في الصرف ، و « الدرر الحسان » فيما يحصل به الإسلام والإيمان ، و « تحفة البشر على ابن حجر » وغير ذلك . تقلد - رحمه الله - مشيخة الأزهر سنة ١٢٦٣ هـ ، واستمر إلى أن توفي بالقاهرة .

(١) ورد في كتاب « هدية العارفين » وفي « إيضاح المكنون » أيضاً أن وفاته كانت عام ١٢٧٦ هـ .

من الجوهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

صفحة

- | | |
|---------------------------------|-----------------------------|
| ١ - الحمد لله على صلاته | ثم سلام الله مع صلاته ١٣ |
| ٢ - على نبي جاء بالتوحيد | وقد خلا الدين عن التوحيد ١٧ |
| ٣ - فأرشد الخلق لدين الحق | بسيفه وهديه للحق ٢٣ |
| ٤ - محمد العاقب لرسول ربه | وآله وصحبه وحزبه ٢٦ |
| ٥ - وبعد فالعلم بأصل الدين | محمم يحتاج للتيين ٣١ |
| ٦ - لكن من التطويل كت الهمم | فصار فيه الاختصار ملتزم ٣٩ |
| ٧ - وهذه أرجوزة لقبته | جوهرة التوحيد قد هذبته ٤٠ |
| ٨ - والله أرجو في القبول نافعاً | بها مريداً للثواب طامعاً ٤٠ |
| ٩ - فكل من كلف شراً وجباً | عليه أن يعرف ما قد وجباً ٤٣ |
| ١٠ - لله والجائز والممتنع | ومثل ذا لرسوله فاستمعاً ٤٣ |
| ١١ - إذ كل من قلد في التوحيد | إيمانه لم يخل من ترديد ٥٤ |
| ١٢ - ففيه بعض القوم يحكي الخلفا | وبعضهم حقق فيه الكشفا ٥٥ |

صفحة

- ١٣ — فقال إن يجزم بقول الغير
كفى وإلا لم يزل في الضير ٥٧
- ١٤ — واجزم بأن أولاً يجب
معرفة وفيه خلف منتصب ٥٨
- ١٥ — فانظر إلى نفسك ثم انتقل
للعالم العلوي ثم السفلي ٦٠
- ١٦ — تجد به صنعا بديع الحكم
لكن به قام دليل العدم ٦٥
- ١٧ — وكل ما جاز عليه اعدم
عليه قطعاً يستحيل القدم ٦٦
- ١٨ — وفسر الإيمان بالتصديق
والنطق فيه الخلف بالتحقيق ٦٧
- ١٩ — فقل شرط كالعمل وقيل بل
شروط الاسلام اشرح بالعمل ٧٠
- ٢٠ — مثال هذا الحج والصلاة
كذا الصيام فادر والزكاة ٧٧
- ٢١ — ورجحت زيادة الإيمان
بما تزيد طاعة الإنسان ٨٠
- ٢٢ — ونقصه بنقصه وقيل لا
وقيل لا خلف كذا قد نقلا ٨٣
- ٢٣ — فوجب له الوجود والقدم
كذا بقاء لا يشاب بالعدم ٨٥
- ٢٤ — وأنه لما ينال العدم
مخالف برهان هذا القدم ٩١
- ٢٥ — قيامه بالنفس وحدانيته
منزهاً أوصافه سنية ٩٦
- ٢٦ — عن ضد أو شبه شريك مطلقاً
ووالد كذا الولد والأصديق ١٠٢
- ٢٧ — وقدرة إرادة وغايرت
أمراً وعلماً والرضا كما ثبت ١٠٥

صفحة

- ٢٨ — وعلمه ولا يقال مكتسب — فاتبع سبيل الحق وأطرح الريب ١١١
- ٢٩ — حياته كذا الكلام السمع — ثم البصر بذى أنا السمع ١١٣
- ٣٠ — فهل له إدراك أو لا خلف — وعند قوم صح فيه الوقف ١٢٠
- ٣١ — حي عليم قادر مريد — سمع بصير ما يشاء يريد ١٢٣
- ٣٢ — متكلم ثم صفات الذات — ليست بغير أو بعين الذات ١٣١
- ٣٣ — ففقدرة بممكن تعلقت — بلا تناهي ما به تعلقت ١٣٣
- ٣٤ — ووحدته أرجب لها ومثل ذي — إرادة والعلم لكن عم ذي ١٣٧
- ٣٥ — وعم أيضاً واجباً والممتنع — ومثل ذا كلامه فلنبتغ ١٣٧
- ٣٦ — وكل موجود أنظر للسمع به — كذا البصر إدراكه إن قيل به ١٤٠
- ٣٧ — وغير علم هذه كما ثبت — ثم الحياة ما بشي تعلقت ١٤١
- ٣٨ — وعندنا أسماؤه العظيمه — كذا صفات ذاته قديمه ١٤٢
- ٣٩ — واختير أن اسماء توقيفيه — كذا الصفات فاحفظ السمعيه ١٤٦
- ٤٠ — وكل نص أوهم التشبيه — أوله أو فوض ورؤم تنزيها ١٤٩
- ٤١ — ونزه القرآن أي كلامه — عن الحدوث واحذر انتقامه ١٧٣
- ٤٢ — فكل نص للحدوث دلاً — أحمل على اللفظ الذي قد دلاً ١٧٥
- ٤٣ — ويستحيل ضد ذي الصفات — في حقه كالكدن في الجهات ١٨٠

صفحة

- ٤٤ - وجائزٌ في حقِّه ما أمكنا
٤٥ - فخالقٌ لعبده وما عملُ
٤٦ - وخاذلٌ لمن أرادُ بعدهُ
٤٧ - فوزُ السعيدِ عندهُ في الأزلِ
٤٨ - وعندنا للعبدِ كسبُ كلِّ فاعلِ
٤٩ - فليسَ مجبوراً ولا اختياراً
٥٠ - فإنَّ يُثبنا فبمحضِ الفضلِ
٥١ - وقولهم إنَّ الصَّلاحَ واجبٌ
٥٢ - ألم يروا إيلامه الأطفالا
٥٣ - وجائزٌ عليه خلقُ الشرِّ
٥٤ - وواجبٌ إيماننا بالقدرِ
٥٥ - ومنه أن يُنظرَ بالأبصارِ
٥٦ - للمؤمنينَ إذ بجائزُ علقتُ
٥٧ - ومنه إرسالُ جميعِ الرسلِ
٥٨ - لكنْ بذإا إيماننا قد وجبا
٥٩ - وواجبٌ في حقهم الأمانةُ
- إيجاداً أعداماً كرزقه الغنى (ملحق) ١٩٦
موفقٌ لمن أرادَ أن يصلَ ١٩٧
ومنجزٌ لمن أرادَ وعدهُ ٢١٣
كذا الشقيُّ ثم لم ينتقلِ ٢١٥
ولم يكنْ مؤثراً فلتعرفا ٢١٨
وليسَ كلاً يفعلُ اختياراً ٢٢٤
وإنَّ يعذبُ فبمحضِ العدلِ ٢٢٦
عليه زورٌ ، ما عليه واجبٌ ٢٣٠
وشبهها فحاذرِ المحالا ٢٣٤
والخيرُ كالإسلامِ وجهلِ الكفرِ ٢٣٥
وبالقضا كما أتى في الخبرِ ٢٣٧
لكنْ بلا كيفٍ ولا انحصارِ ٣٤٦
هذا والمختارِ دنيا ثبتتْ ٢٦٢
فلا وجوبَ بلْ بمحضِ الفضلِ ٢٦٩
فدعْ هوى قومٍ بهم قد لعبا ٢٧٣
وصدقهم وضمَّ له الفطانةُ ٢٧٤

صفحة

- ٦٠ - ومثلُ ذا تبليغهم لما أتوا
٦١ - وجائزُ في حقهم كالأكلِ
٦٢ - وجامعُ معنى الذي تقررَ
٦٣ - ولم تكن نبوةٌ مكتسبةٌ
٦٤ - بل ذاك فضلُ الله يؤتيه من
٦٥ - وأفضلُ الخلقِ على الإطلاقِ
٦٦ - والأنبيا يلونه في الفضلِ
٦٧ - هذا وقومٌ فضلوا إذ فضلوا
٦٨ - بالمعجزاتِ أيّدوا تَكْرَمًا
٦٩ - وخصَّ خيرُ الخلقِ أنْ قد تمَّ
٧٠ - بعثته فشرعَه لا يُنسخُ
٧١ - ونسخه لشرعٍ غيره وقعَ
٧٢ - ونسخ بعض شرعه ببعضِ
٧٣ - ومعجزاته كثيرةٌ غررُ
٧٤ - واجزِمَ بمِعْراجِ النبيِّ كَمَارَوا
٧٥ - وصحبه خيرُ القرونِ فاستمعَ
- ويستحيلُ ضدُّها كما رَووا ٢٨٠
وكالجماع للنساء في الحل ٢٨٢
شهادتنا الإسلام فاطرح المراء ٢٨٤
ولو رقى في الخيرِ أعلى عقبة ٢٨٧
يشاء جلَّ الله واهبُ المنن ٢٨٩
نبينا فيلُ عن الشقاق ٢٩٠
وبعدهم ملائكة ذى الفضل ٢٩٣
وبعض كلَّ بعضه قد يفضل ٢٩٥
وعصمة الباري لكلِّ حتمًا ٢٩٧
به الجميع ربنا وعمما ٣٠٤
بغيره حتى الزمانُ يُنسخ ٣٠٥
حتمًا أذلَّ الله من له منع ٣٠٧
أجز وما في ذا له من غض ٣٠٧
منها كلامُ الله معجزُ البشر ٣١٢
وبرَّئنا لعائشة بما رموا ٣٢٤
فتابعي فتابع لمن تبع ٣٢٥

صفحة

- ٧٦ - وخيرهم من ولي الخلافة وأمرهم في الفضل كالحلقة ٣٢٨
- ٧٧ - يليهم قوم كرام برره عدتهم ست تمام العشرة ٣٣٠
- ٧٨ - فأهل بدر العظيم الشأن فأهل أحد بيعة الرضوان ٣٣١
- ٧٩ - والسابقون فضلهم نصاً عرف هذا وفي تعيينهم قد اختلف ٣٣٣
- ٨٠ - وأول التشاجر الذي ورد إن خضت فيه واجتنب ذاء الحسد ٣٣٤
- ٨١ - ومالك وسائر الأئمة كذا أبو القاسم هداة الأمة ٣٣٦
- ٨٢ - فواجب تقليد خبر منهم كذا حكى القوم بلفظ يفهم ٣٣٨
- ٨٣ - وأثبتن للأوليا الكرامة ومن نفاها فأنبدن كلامه ٣٤٠
- ٨٤ - وعندنا أن الدعاء ينفع كما من القرآن وعداً يُسمع ٣٤٣
- ٨٥ - بكل عبد حافظون وكلوا وكاتبون خيرة لن يهملوا ٣٤٥
- ٨٦ - من أمره شيئاً فعل ولو ذهل حتى الأنين في المرض كما نقل ٣٤٧
- ٨٧ - فحاسب النفس وقل الأملأ قرب من جد لأمر وصلا ٣٤٨
- ٨٨ - وواجب إيماننا بالموت ويقبض الروح رسول الموت ٣٤٩
- ٨٩ - وميت بعمره من يقتل وغير هذا باطل لا يقبل ٣٥١

- ٩٠ - وَفِي فَنَّا النَّفْسِ لَدَى النَّفْعِ اخْتِلَفٌ
وَأَسْتَظْهَرَ السُّبُكِي بَقَاَهَا الذُّ 'عُرِفَ ٣٥٣
- ٩١ - عَجَبُ الذَّنْبِ كَالرُّوحِ لَكِنْ صَحَا
الْمَزْنِي لِلْبَلَا وَوَضَحَا ٣٥٥
- ٩٢ - وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ قَدْ خَصَّصُوا عُمُومَهُ فَاطْلُبْ لِمَا قَدْ لُحِصُوا ٣٥٦
- ٩٣ - وَلَا تَخْضُ فِي الرُّوحِ إِذَا مَا وَرَدَا
نَهْءٌ مِنَ الشَّارِعِ لَكِنْ وَجِدَا ٣٥٧
- ٩٤ - لِمَالِكٍ هِيَ صُورَةُ كَالْجَسَدِ فَحَسِبُكَ النَّصُّ بِهَذَا السَّنَدِ ٣٥٩
- ٩٥ - وَالْعَقْلُ كَالرُّوحِ وَلَكِنْ قَرَّرُوا فِيهِ خِلَافًا فَانْظُرْ مَا فَسَّرُوا ٣٦١
- ٩٦ - سَوَّالُنَا ثُمَّ عَذَابُ الْقَبْرِ نَعِيمُهُ وَاجِبُ كِبْعَتِ الْحَشْرِ ٣٦٢
- ٩٧ - وَقُلْ يَعَادُ الْجِسْمُ بِالتَّحْقِيقِ عَنْ عَدَمٍ وَقِيلَ عَنْ تَفْرِيقِ ٣٧١
- ٩٨ - مُحْضِينَ لَكِنْ ذَا الْخِلَافِ خَصًّا بِالْأَنْبِيَا وَمَنْ عَلَيْهِمْ نُصَا ٣٧٤
- ٩٩ - وَفِي إِعَادَةِ الْعَرَضِ قَوْلَانِ وَرُجِحَتْ إِعَادَةُ الْأَعْيَانِ ٣٧٥
- ١٠٠ - وَفِي الزَّمَنِ قَوْلَانِ وَالْحِسَابُ حَقٌّ، وَمَا فِي حَقِّهِ أَرِثَابُ ٣٧٦
- ١٠١ - فَالسَّيِّئَاتُ عِنْدَهُ بِالمَثَلِ وَالْحَسَنَاتُ ضَوْعَتْ بِالْفَضْلِ ٣٨٠
- ١٠٢ - وَبِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ تَغْفَرُ صَغَائِرُ وَجَا الْوُضُو' يَكْفُرُ ٣٨٢

صفحة

- ١٠٣- واليوم الآخر ثم هول الموقف
١٠٤- وواجب أخذ العباد الصحف
١٠٥- ومثل هذا الوزن والميزان
١٠٦- كذا الصراط، فالعباد مختلف
١٠٧- والعرش والكُرسي ثم القلم
١٠٨- لا لا احتياج وبها الإيمان
١٠٩- والنار حق أو جدت كالجنة
١١٠- ذاراً خلود السعيد والشقي
١١١- إيماننا بحوض خير الرسل
١١٢- ينال شرباً منه أقوام وفوا
١١٣- وواجب شفاعته المشفع
١١٤- وغيره من مرتضى الأختيار
١١٥- إذ جائز غفران غير الكفر
١١٦- ومن يمت ولم يتب من ذنبه
١١٧- وواجب تعذيب بعض ارتكب
كبيرة ثم الخلود مجتنب ٤٣٥
- حق فحفف يارحيم واسعف ٣٨٣
كما من القرآن نصاً عرفاً ١٩٨
فتوزن الكتب أو الأعيان ٤٠٠
مروهم، فسالم ومختلف ٤٠٥
والكاتبون اللوح كل حكم ٤١٠
يجب عليك أيها الإنسان ٤١٢
فلا تميل لجاحد ذي جنة ٤١٣
مغذب منعم منها بقي ٣١٦
حتم كما قد جاءنا في النقل ٤٢٣
بعدهم وقل يذاذ من طغوا ٤٢٧
محمد مقدماً لا تمنع ٤٢٨
يشفع كما قد جاء في الأخبار ٤٣٢
فلا تكفر مؤمناً بالوزر ٤٣٣
فأمره مفوض لربه ٤٣٤

صفحة

- ١١٨- وَصِفْ شَهِيدَ الْحَرْبِ بِالْحَيَاةِ وَرِزْقِهِ مِنْ مُشْتَهَى الْجَنَّاتِ ٤٣٦
- ١١٩- وَالرِّزْقُ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا بِهِ انْتَفَعُ
- وَقِيلَ : لَا ، بَلْ مَا مَلَكَ ، وَمَا اتَّبَعَ ٤٤١
- ١٢٠- فَيَرْزُقُ اللَّهُ الْحَلَالَ فاعْلَمَا وَيرزق المَكْرُوهَ والمَحْرَمَ ٤٤٣
- ١٢١- فِي الْاِكْتِسَابِ وَالتَّوَكُّلِ اخْتَلَفُ
- وَالرَّاجِحُ التَّفْصِيلُ حَسَبًا عُرِفَ ٤٤٤
- ١٢٢- وَعِنْدَنَا الشَّيْءُ هُوَ الْمَوْجُودُ وَثَابِتٌ فِي الْخَارِجِ الْمَوْجُودُ ٤٤٦
- ١٢٣- وَجُودُ شَيْءٍ عَيْنُهُ وَالْجَوْهَرُ الْفَرْدُ حَدِثٌ عِنْدَنَا لَا يُنْكَرُ ٤٤٧
- ١٢٤- ثُمَّ الذُّنُوبُ عِنْدَنَا قِسْمَانِ صَغِيرَةٌ كَبِيرَةٌ فَالثَّانِي ٤٤٨
- ١٢٥- مِنْهُ الْمُنَابِ وَاجِبٌ فِي الْحَالِ وَلَا انْتِقَاضُ إِنْ يَغْدُ لِلْحَالِ ٤٤٩
- ١٢٦- لَكِنْ يُجَدِّدُ تَوْبَةً لَمَّا اقْتَرَفَ وَفِي الْقَبُولِ رَأْيُهُمْ قَدْ اخْتَلَفَ ٤٥١
- ١٢٧- وَحِفْظُ دِينٍ ثُمَّ نَفْسٍ مَالٍ نَسَبُ وَمِثْلُهَا عَقْلٌ وَعِرْضٌ قَدْ وَجِبَ ٣٥٣
- ١٢٨- وَمَنْ لِمَعْلُومٍ ضَرُورَةٌ جَحَدُ مَنْ دِينُنَا يُقْتَلُ كُفْرًا لَيْسَ حَدُّهُ ٤٥٤
- ١٢٩- وَمِثْلُ هَذَا مَنْ نَفَى لِمَجْمَعٍ أَوْ اسْتَبَاحَ كَالزَّانِ لِلتَّسْمَعِ ٤٥٥

صفحة

- ١٣٠- وواجبُ نصبُ إمامٍ عدلٍ بالشرعِ فاعلمْ لا بحكمِ العقلِ ٤٥٦
- ١٣١- فلنيسَ رُكناً يُعْتَقَدُ في الدينِ فلا تزغْ عن أمرِهِ الميِّينِ ٤٦٤
- ١٣٢- إلّا بِكُفْرٍ فانبِذْ عَهْدَهُ فاللهُ يَكْفِينَا أَذَاهُ وَحَدَهُ ٤٦٦
- ١٣٣- بِغَيْرِ هَذَا لَا يُبَاحُ صَرْفُهُ وَلنيسَ يُغْزَلُ إِنْ أَزِيلَ وَصْفُهُ ٤٦٨
- ١٣٤- وَأمرٌ بعرفٍ واجتنبْ نَمِيمَةً وَغِيَّةً وَخَصْلَةً ذَمِيمَةً ٤٦٩
- ١٣٥- كالعُجْبِ والكِبَرِ وداءِ الحَسَدِ وكالمِرَاءِ والجَدَلِ فاعْتَمِدِ ٤٧٧
- ١٣٦- وَكنْ كما كَانَ خِيارُ الخَلْقِ حليفَ حِلْمٍ تابِعاً للحَقِّ ٤٨٢
- ١٣٧- فَكلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفَ وَكلُّ شَرٍّ فِي ابتِدَاعِ مَنْ خَلَفَ ٤٨٤
- ١٣٨- وَكلُّ هَدْيٍ لِلنَّبِيِّ قَدْ رَجَحَ فَمَا أُبِيحَ أَفْعَلُ وَدَعُ مَا لَمْ يُبَيِّحْ ٤٨٥
- ١٣٩- فَتَابِعِ الصَّالِحَ مِنْ سَلَفِ وَجَانِبِ البدْعَةِ مِنْ خَلْفِ ٤٨٥
- ١٤٠- هَذَا وَأَرْجُو اللَّهَ فِي الإِخْلَاصِ مِنْ الرِّيَاءِ ثُمَّ فِي الإِخْلَاصِ ٤٨٧
- ١٤١- مِنْ الرِّجِيمِ ثُمَّ نَفْسِي وَالْهَوَى فَمَنْ يَمِلْ لِهَوَايَ قَدْ غَوَى ٤٨٧
- ١٤٢- هَذَا وَأَرْجُو اللَّهَ أَنْ يَمْنَحُنَا عِنْدَ السُّؤَالِ مَطْلَقاً حُجَّتَنَا ٤٩٠
- ١٤٣- ثُمَّ الْحِلَاةُ وَالسَّلَامُ الدَّائِمُ عَلَى نَبِيِّ دَأْبِهِ الْمَرَّاحِمُ ٤٩١
- ١٤٤- مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَعَتَرَتِهِ وَتَابِعِ لِنَهْجِهِ مِنْ أُمَّتِهِ ٤٩١

فهرس مباحث الكتاب

الموضوع	رقم البيت	الموضوع	رقم البيت
حرف الألف			
ابن عيينه	٨١	ذكر الاسم الأعظم	٣٨
الأجل مقدر	٨٩	اشرط الساعة	١٠٣
الاجماع وحكمنا فيه	١٢٩	الاسلام	١٩
الإمام أحمد بن حنبل	٨١	إعادة الأعيان في القيامة	٩٩
الأحكام الفقهية من الدين	٢	إعجاز القرآن الكريم	٧٣ و ٤٢
الأخلاق الذميمة	١٣٤	الاكتساب	١٢١
الإخلاص	١٤٠	آله صلى الله عليه وسلم	٤
صفة الادراك	٣٠	الأممل	٨٧
تعلق صفة الادراك	٣٦	وجوب نصب الإمام	١٣٠
صفة الارادة	٢٧	طريقة نصب الإمام	١٣٠ و ١٣١
معنى الارشاد	٣	شروط الإمام	١٣٠
الفرق بين القديم والأزلي	٢٣	متى يخلع الامام	١٣١ و ١٣٢
معنى الاستدراج	٦٨	و	١٣٣
الإسراء والمعراج	٧٤	الأمر بالمعروف	١٣٤
نبوة السيدة آسية	٢	أول الواجبات على المكلف	١٤
أسماء الله تعالى	٣٨ و ٣٨	الإمام الأزاعي	٨١
الاسم الأعظم		في البسمة الايمان والمعصية	١١٥

الموضوع	رقم البيت	الموضوع	رقم البيت
الايمان	٢١ و ١٩ و ٨	التوكل	١٢١
	٢٢ و	مكانة علم التوحيد	١٢٥
الايجاد والاعدام	٢٧	حقيقة التوحيد	٥
الاهانة في خرق العادة	٦٨	بطلان التسلسل	٢٣
حكم أهل الفترة	٩	التقليد في الايمان	١١ حتى ٦٣
الأنبياء	٢١	التكليف	٩
اختيار العبد	٤٩	حكم تسمية الكتب	٧
		تعريف التوحيد	٢
		حرف الباء	
أنواع البدع	١٣٩	حرف التاء	
صفة البصر ودليلها	٢٩	تعريف التاء	١
كونه تعالى بصيرا	٣١	الشواب	٥٠
تعلق صفة البصر	٢٣	حرف الجيم	
صفة البقاء ودليلها	٢٣	الجبرية	٤٩
البعث والنشور	٩٧	الجهاد	٣
		حرف التاء	
التحسين والتفسيح العقليين	٩	الجائز في حقه تعالى	٥٧ و ٥٣ و ٤٤
تبليغ الرسل لأممهم	٦٠	الجائز في حق الرسل	٦١
وجوب تقليد الأئمة	٨٢	بطلان الجبر	٤٩
معنى التعلق	٢٧	دوام نعيم الجنة	٣٣
أحكام التوبة	١١٦	الجنة	١١٠ و ١٠٩
التوبة من الكبائر	١٢٥	الإمام الجنيده	٨١
تجديد التوبة	١٢٦	تعريف الجوهر	١٢٣
قبول التوبة	١٢٦	آفة الجدل	١٣٥

الموضوع	رقم البيت	الموضوع	رقم البيت
حرف الحاء		الخلف وبدعهم	١٣٥ و ١٣٧
معنى الحمد	١	تأويل خلاف الصحابة	٨٠
حزبه صلى الله عليه وسلم	٤	حرف الدال	
تعريف الحكم الشرعي	١٠	تعريف الدين	٢
تعريف الحكم العقلي	١٠	الدليل التفصيلي	٥
تعريف الحكم العادي	١٠	بطلان الدور	٢٣
تعريف الحدوث ودلالته	١٦ و ٥	الدجال	١٠٣ و ٦٨
الحج ووقت فرضه	٢٠	الدابة قبيل القيامة	١٠٣
صفة الحياة	٢٩	الدخان قبيل القيامة	١٠٣
تعلق صفة الحياة	٣٧	الدعاء	٨٤
كوته تعالى حيا	٣١	حفظ الدين	١٢٧
الحساب في القيامة	١٠٠	حرف الذال	
مضاعفة الحسنات	١٠١	الذكر بالاسم الاعظم	بسملة
الحسد	١٣٥	الذكر بالاسم الأعظم	٣٨
الحشر في القيامة	٩٦	الذنوب تمحق البركة	١١٩
الحوض في القيامة	١١١ و ١١٢	أنواع الذنوب	١٢٤
حرف الخاء		حرف الراء	
خاتم النبيين	٦٣ و ٦٩ و ٤	عموم رسالته	٢
نبوة الخضر	١٨	تعريف الرسول	٤ و ٢
الخلود في جهنم	١١٠	حكمة ارسال الرسل	٥٨ و ٥٧
الخسوف قبيل القيامة	١٠٣	تعريف الرجاء	٨
خاتمة العبد	٤٧	تعريف الرضا	٢٧
نسبة الخير لله تعالى	٤٥		

الموضوع	رقم البيت	الموضوع	رقم البيت
ففة الرياء	١٤٠	حرف الشين	
حد الرزق	١١٩	معنى الشهادتين	١٨ و ١٩ و ٦١
رزقه تعالى للحلال وغيره	١٢٠	تعريف الشكر	١
رؤيته تعالى	١١٠ و ٥٥	الشك في الايمان	١٣
رؤيته تعالى في الدنيا	٥٦	الشفاعة	١١٤
رؤيته صلى الله عليه وسلم		شفاعته صلى الله عليه وسلم	١١٣
مناماً	٥٦	شمول رسالته (ص)	٧٠
قبض الروح	٨٨	تعريف المشيء	١٢٢ و ١٢٣
حقيقة الروح	٩٤ و ٩٣	الشيخ المربي	١٣٦
حرف الزاي		الشیطان وإغوائه	١٤١
الزكاة ووقت فرضها	٢٠	أنواء الشهداء	١١٨
اعادة الزمن يوم القيامة	١٠٠	الشهداء وسؤل القبر	٩٦
حرف السين		حرف الصاد	
حد السلام من الله	١	تطایر الصحف	١٠٤
الاسلام	١٩	الصحابة وذم الخوض فيهم	٨٠
صفة السمع	٢٩	تعريف الصباح	٤
تعلق صفة السمع	٣٦	صدق الرسل	٥٩
كونه تعالى سمياً	٣١	الصراط	١٠٤
السيئات	١٠١	صفات الثبوت	٢٣
السنة مقياس العمل	١٣٠	صفات السلوب	٢٣
سن النبي حال الارسال	٢	الصفات المعنوية	٣١
السلف الصالح	١٣٧ و ١٣٩	منكر صفات المعنوية	٣١

الموضوع	رقم البيت	الموضوع	رقم البيت
الصفات وتعليقاتها	٣٤ و ٣٣	اعادة العرض	٩٩
الصفات توقيفية	٥٤ و ٣٩	حفظ العرض	١٢٧
ثمرة الاعتقاد بالصفات	٣٢	العرش	١٧٠
صفات الافعال	٣٨	عصمة الأنبياء	٦٨ و ٥٩
صفات الذات	٥٤ و ٣٢	عصمة الملائكة	٦٨
صفة التكوين	٣٨	العقل وتعريفه	٩٥
معنى الصلاة من الله	١	العقل وحفظه	١٢٧
الصلاة على غير نبي	٤	العلم وتعريفه	٥
الصلاة ووقت فرضها	٢٠	صفة العلم	٢٧
الصالح والاصح	٥١	كونه تعالى عليماً	٣١
الصغائر	١٢٤ و ١٠٢	حرف الفين	
الصيام ووقت فرضه	٢٠	غفران الصغائر	١١٥
حرف الصاد		الغيبة	١٣٤
حرف الطاء		حرف الفاء	
تعريف الطمع	٨	فضله صلى الله عليه وسلم	٦٥
الطاعة وزيادة الايمان	٢١	فضل الأنبياء	٦٦
طلوع الشمس من المغرب	١٠٣	فضل الملائكة	٦٦
حرف العين		فضل الصحابة	٧٥
العارف بالله وصفاته	١١	فضل الخلفاء الراشدين	٧٦
عجب الذنب	٩١	فضل العشرة المبشرين	٧٧
آفة العجب	١٣٥	فضل أهل بدر	٧٨
العذاب	٥٠	فضل أهل أحد	٧٨

الموضوع	رقم البيت	الموضوع	رقم البيت
فضل بيعة الرضوان	٧٨	حرف الكاف	
فضل السابقين	٧٩	الكاتبون	١٠٧
فطانة الرسل	٥٩	الكبائر	١٩ و ١٠٢ و
فناء الأنفس	٥٩		١٢٤
الفناء وشموله	٩٢	الكبر	١٣٥
حرف القاف		الكرسي	١٠٧
القبول وتعريفه	٨	الكرامة والولي	٦٨
القبر وسؤاله	٩٦	الكرامات	٦٨ و ٩٣
القبر وعذابه	٩٦	كسب العبد	٤٥ و ٤٨
القبر ونعيمه	٩٦	الكفر وأسبابه	٥٣
القبر وسؤال الأنبياء فيه	٩٦	كنه ذاته تعالى	٢٤
القيامة وأول من يبعث	٦٥	صفة الكلام	٢٩
القيامة ودليها	١١٠	كونه متكلماً	٣٢
القيام بالنفس	٢٥	حرف اللام	
القدم	٢٣	اللوح المحفوظ	١٠٧
القدرة	٢٧	حرف الميم	
القدرة وعموم تعلقها	٣٣	المال وحفظه	١٢٧
كونه تعالى قديراً	٣١	مالك ابن أنس	٨١
قدرة العبد	٤٥ و ٤٩	المتشابه والمحكم	٤٠
القبر وحال الأنبياء فيه	٩٨	محمد الشافعي	٨١
القضاء والقدر	٥٤	محاسبة النفس	٨٧
القبيل	١٠٧	المحرمات ومستحلها	١٢٩
قدم القرآن الكريم	٤١ و ٤٢	المخالفة للحوادث	٢٤ و ٢٦
القرآن ودلالته	٢٩		

الموضوع	رقم البيت	الموضوع	رقم البيت
المدح وتعريفه	١	حرف النون	
المدح وجوازه	٧	النار وأبديتها	١٠٩ و ١٠٩
السيدة مريم	٢		١١٠
المراء	١٣٥	النبوة	١٨ و ٦٣
المستحيل في حقه تعالى	٦٥ و ٤٣	نسخ الاسلام لما قبله	٧١
المستحيل في حق رسله	٦٠	النسخ وجوازه	٧٢
السيد المسيح ونزوله	٩٦ و ٦٨ و ٩٤	النظر ووجوبه	١٥
	١٠٣ و ٧٠	النفس ومراتبها	١٤١
منكر المعلوم من الدين	١٢٨	النفس وحفظها	١٢٧
المعراج	٧٤	النميمة	١٣٤
معجزاته صلى الله عليه وسلم	٧٣	النعمان بن ثابت	٨١
المعجزة وضابطها	٦٨	النهي عن المنكر	١٣٤
معجزة القرآن	٤٢	حرف الهاء	
المعرفة وحدها	١٤ و ١٠	الهدى وتعريفه	١٣٨
الملائكة الحفظة	٨٥	الهمة وتعريفها	٦
الملائكة الكاتبون	٨٦ و ٨٥	الهوى وتعريفه	١٤١
الملائكة	١٨ و ٢١ و ٦٧	حرف الواو	
ملك الموت	٨٨	الواجب في حق الرسل	٥٩
موت المؤمنين آخر الزمن	٧٠	وحدة الصفات	٣٤
الموقف وأهواله	١٠٣	وحدة الافعال	٣٢ و ٤٥
والميزان	١٠٥	الوحدانية	٢٥

٦٨	الولاية والكرامة	٢٣ و ١٧	الوجود
	حرف الياء	١٠٥	الوزن في الاخرة
		٦٤ و ٤٦	الولي وعلامته
٦٠٣ و ٧٠	يا جوج وأصلهم	٤٦	الوعد من الله وتحققه
٣٠	اليوم الآخر	٥٠	الوعيد وتحققه



